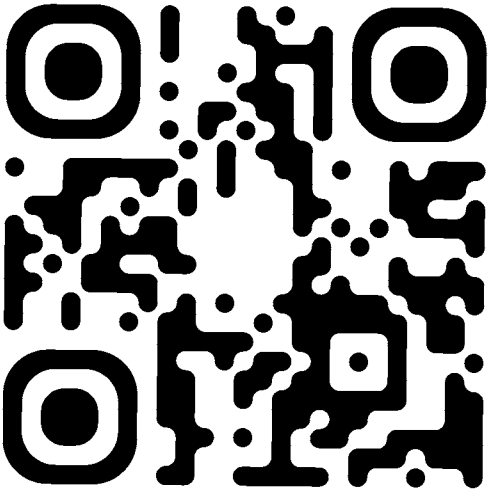

THE WANDERING EARTH
ليو تسي شين
LIU CIXIN
مكتبة
الأرض التائهة
ترجمة: وائل ياسين – مي مصطفى
تقديم ومراجعة عن الأصل الصيني: د.أحمد السعيد
مصنفة ضمن أفضل عشر روايات في تاريخ الأدب الصيني



سجل في مكتبة
اضغط الصفحة
SCAN QR

الأرض التائهة

اسم الكتاب: الأرض التائهة
اسم المؤلف: ليو تسي شين
ترجمة: وائل ياسين – مي مصطفى
تقديم ومراجعة عن الأصل الصيني: د. أحمد السعيد
الناشر: مجموعة بيت الحكمة للصناعات الثقافية
الطبعة الأولى: 2025

ليو تسي شين، 1963
الأرض التائهة/ تأليف: ليو تسي شين، ترجمة: وائل ياسين – مي مصطفى، تقديم ومراجعة عن الأصل الصيني: أحمد السعيد - القاهرة: مجموعة بيت الحكمة للصناعات الثقافية، 2025.
592ص، 20سم.
تدمك: ISBN: 9786338316273
رقم الإيداع: 2025/22076
أ - ياسين، وائل (مترجم)
ب - مصطفى، مي (مترجم مشارك)
جـ - السعيد، أحمد (مراجع ومقدم)
د- العنوان: 550

مجموعة بيت الحكمة للثقافة
شارع التحرير- ميدان التحرير- القاهرة
ت:20223936038+ 201030328888+
info@baytelhekma.com
www.baytelhekma.com

تم نقل حقوق الترجمة والنشر بموجب العقد الموقع مع المؤلف

جميع الآراء الواردة بالكتاب تعبر عن رأي المؤلف ولا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر

جميع إصداراتنا متوفرة على منصات البيع الكبرى والمكتبات بالدول العربية والعالم.

للطلبيات والحجز:
Tel./ Whatsapp: +201030965555

مكتبة
t.me/soramnqraa

الإشراف العام
د. أحمد السعيد

مدير التحرير
عمرو مغيث

متابعة وتنفيذ
محمد ماهر بسيوني
علي قطب
محمد كرم

تدقيق لغوي
أيمن عامر

تصميم الغلاف
أحمد مسعد

الإخراج الفني
حسام عنتر

حقوق الطبع والتوزيع محفوظة
©baytalhekma

الأرض التائهة

مكتبة
t.me/soramnqraa

تأليف: ليو تسي شين
ترجمة: وائل ياسين - مي مصطفى

تقديم ومراجعة عن الأصل الصيني
د.أحمد السعيد

Arabic Translation Edition Copyright © 2025 Bayt Alhekma Cultural Industry Group

Title：流浪地球

"الأرض التائهة"

Author：刘慈欣

Copyright©2013 by 刘慈欣 (Liu Cixin)
Arabic translation right authorized by China Educational Publications Import & Export Corporation Ltd.
تمت الترجمة بشركة بيت الحكمة للترجمة
All Rights Reserved

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفهرس

ليو تسي شين: الكاتب الذي أعاد تعريف الخيال العلمي 9

الأرض التائهة 17

الفصل الأول: عصر الكبح 17

الفصل الثاني: عصر الرحيل 34

الفصل الثالث: الثـورة 66

الفصل الرابع: عصر التيه 78

الـجـبـل 81

الفصل الأول: حيث ثمة جبل 81

الفصل الثاني: كلمات على قمة الجبل 107

الفصل الثالث: عالم الفقاعات 110

الفصل الرابع: الانزياح الأحمر 116

الفصل الخامس: الجاذبية 120

الفصل السادس: نواة العالم 124

الفصل السابع: حرب الطبقات 125

الفصل الثامن: تحت المحيط 131

الفصل التاسع: إلى النجوم 138

الفصل العاشر: عن كونية الجبال 143

شمس الصين 151
مقدمة 151
هدف الحياة #1 154
هدف الحياة #2 157
هدف الحياة #3 165
هدف الحياة #4 169
هدف الحياة#5 182
مزارعو المرايا 190
هدف الحياة #6 215

لمصلحة البشرية 221

اللعنة 5.0 293

العصر المجهري 327
الفصل الأول: العودة 327
الفصل الثاني: النُصب التذكاري 332
الفصل الثالث: العاصمة 340
الفصل الرابع: البشرية المجهرية 346
الفصل الخامس: الوليمة 354
الفصل السادس: ميلاد جديد 370

المُلتهِم 373
الفصل الأول: البلورة من إريدانوس 373
الفصل الثاني: المبعوث «ناب» 381

الفصل الثالث: نـمل 387
الفصل الرابع: التـسـارع 393
الفصل الخامس: ملجأ على القمر 397
الفصل السادس: زرع القنابـل 400
الفصل السابع: الحرب الفضائية الأولى والأخيرة للبشرية ...405
الفصل الثامن: خـاتمة: العـودة 418

العناية بالإله 435
الفـصـل الأول 435
الفـصل الثاني 440
الفصل الثالث 447
الفصل الرابع 453
الفصل الخامس 463
الفصل السادس 476
الفصل السابع 482
الفصل الثامن 492

مع عينيها 495
مقدمة 495
الفصل الأول: الـمـرج 499
الفصل الثاني: صـن ست 6 511
خاتمة: عـالم شـفـاف 520

قـــذيـفـة 521
مقدمة 521
الفـصل الأول: الحالة صـــلبة جـــديدة..... 522
الفصل الثـاني: الـــصحـــو 534
الفصل الثالث: عتبـة أنتاركتيكا 547
الفصل الرابع: بوابـة الجحـيم..... 551
الفصل الخامس: النفق..... 558
الفصل السادس: الكارثـة 567
الفـصل السابع: موت شِـن يوان..... 575
الفصل الثامن: أنتـاركتيكا..... 579
خاتمة..... 582

مكتبة
t.me/soramnqraa

ليو تسي شين

الكاتب الذي أعاد تعريف الخيال العلمي

ماذا لو تحولت الأرض، بكل ما عليها من بشر وتاريخ وحضارة، إلى مركبة فضائية عملاقة تخرج من مدارها بحثًا عن النجاة في عالم يتغير بسرعة وسط خطر كوني يهدد وجودنا؟ يقدم لنا الكاتب ليو تسي شين، عبر روايته «الأرض التائهة»، تجربة كاملة في إعادة تصوُّر مصير الإنسانية.

رواية «الأرض التائهة» ليست نصًّا يُقرأ على أنه مجرد حكاية مستقبلية، بل هي تجربة كاملة في إعادة تصوُّر مصير الإنسان والعالم في لحظة استثنائية. حين كتب ليو تسي شين هذا العمل، في مطلع الألفية الجديدة، ربما لم يكن يدرك أنه يضع لبنة أساسية في مسار جديد للأدب الصيني، وأنه يسهم في رسم صورة جديدة للخيال العلمي العالمي تأتي من الصين هذه المرة، لا من المراكز التقليدية في الغرب.

يجد قارئ الرواية نفسه في قلب ملحمة كونية، حيث تتحوَّل الأرض، بكل ما تحمله من بشر وتاريخ وحضارة، إلى مركبة فضائية عملاقة تخرج من مدارها بحثًا عن النجاة. هذه الفرضية، التي تبدو

للوهلة الأولى أقرب إلى المستحيل أو الخيال المفرط، سرعان ما تتحوَّل على يد ليو تسي شين إلى بناء منطقي قائم على أسس علمية دقيقة، لكنه في الوقت نفسه مفعم بالبُعد الرمزي والإنساني.

يتميَّز ليو تسي شين -الذي من حُسن الحظ تجمعني به صداقة شخصية قديمة- بقدرة نادرة على المزج بين العلم والفلسفة، بين الصرامة الفيزيائية والخيال الإبداعي. فهو، بخلفيته كمهندس كهرباء عمل سنوات طويلة في محطات الطاقة النووية والمائية في الصين، لا يكتب من فراغ، ولا يستسلم للخيال الساذج، بل يحرص دائمًا على أن تكون فرضياته قابلة للنقاش في ضوء المعارف العلمية. في «الأرض التائهة» لا يكتفي بتقديم صورة درامية عن شمس تحتضر، بل يشرح بدقة كيف ولماذا يحدث ذلك، وما النتائج الفيزيائية الممكنة لموت نجم، وكيف يمكن للبشرية – عبر بناء محركات هائلة بحجم القارات – أن تدفع الكوكب نفسه خارج مداره. هذه الدقة تمنح الرواية ثقلًا يجعل القارئ يتورط في تصديقها، فيعيش تفاصيلها لا بوصفها خيالًا بل على أنها احتمال بعيد لكنه قائم.

لا تكمن القيمة الكبرى للرواية في معطياتها العلمية فقط ، بل في الأسئلة التي تطرحها عن معنى الوجود الإنساني.

إن قرار البشرية أن تترك مدارها الطبيعي، أن تفك ارتباطها بالشمس التي كانت منذ الأزل مصدر الحياة والدفء والضوء، يمثل رمزًا عميقًا للقطيعة مع المسلَّمات، واستعداد الإنسان لمواجهة المجهول حفاظًا على بقائه. في هذا السياق، يبرز البعد الفلسفي للنص: ما الذي يجعل الإنسان مستعدًّا للتضحية؟ هل البقاء البيولوجي أهم من الروابط الثقافية والتاريخية التي نشأنا في ظلها؟ هل يمكن للعالم أن يتَّحد فعلًا في لحظة خطر، أم أن

الانقسامات السياسية والاجتماعية ستظل تعيق مصيرًا مشتركًا؟ أسئلة تطرحها الرواية بحدَّة، وتجعلها ذات صلة بكل قارئ، سواء في الصين أو في أي مكان آخر.

لقد مثّلت «الأرض التائهة» نقطة انعطاف في مسار الأدب الصيني، فقبلها كان الخيال العلمي في الصين أدبًا محدود الانتشار، يُنظر إليه بوصفه نوعًا ثانويًا، بينما كانت الروايات الواقعية أو التاريخية تحتل موقع الصدارة. غير أن صدور هذا العمل فتح الباب أمام جيل جديد من القراء الذين وجدوا فيه صوتًا جديدًا يعبِّر عن قلقهم وأسئلتهم في عالم يتغير بسرعة. لم تعد الصين بالنسبة لهم مجرد بلد ينهض اقتصاديًا ويحقق معدلات نمو مذهلة، بل صارت أيضًا فضاءً يحلم بالمستقبل، ويتساءل عن مصير الأرض كلها. بهذا المعنى، فإن الرواية لعبت دورًا في توسيع أفق الأدب الصيني نفسه، وأدخلته في حوار مباشر مع الأدب العالمي.

من الناحية الرمزية، ثمة قراءة أخرى للرواية تتعلق بموقع الصين في العالم المعاصر، فكما أن الأرض (الكوكب) في النص تتخذ قرارًا بمغادرة مدارها التقليدي والبحث عن مستقبل جديد في فضاء مجهول، فإن الصين – كدولة وحضارة – كانت في مطلع القرن الحادي والعشرين تدخل مدارًا جديدًا على الساحة الدولية، وتبحث عن موقع مغاير لما كان لها في القرون السابقة، وكأن ليو تسي شين، بوعي أو من غير وعي، يقدم استعارة كبرى عن الرحلة الصينية نحو المستقبل، رحلة محفوفة بالمخاطر، لكنها تحمل وعدًا بالنجاة والتجدد.

حين تُرجمت الرواية إلى الإنجليزية وغيرها من اللغات، وخصوصًا بعد النجاح العالمي الهائل لفيلم «الأرض التائهة»

عام 2019، اكتشف العالم أن الصين لا تكتفي بتصدير السلع والتقنية، بل تُصدِّر أيضًا الخيال والأدب. الفيلم الذي أخرجه غو فان بميزانية ضخمة فاقت الخمسين مليون دولار، وحطم الأرقام القياسية في شباك التذاكر، لم يكن ليلقى كل ذلك النجاح لولا النص الأصلي الذي استند إليه. لقد أظهر الفيلم أن الرواية ليست مجرد حكاية مطبوعة على الورق، بل مادة خصبة يمكن أن تتحول إلى لغة بصرية تبهر الملايين.

وهكذا التقت السينما مع الأدب، وأكدت أن ليو تسي شين بات علامة عالمية، وأن الخيال العلمي الصيني أصبح قوة لا يُستهان بها.

المثير في «الأرض التائهة» أنها، على الرغم من طابعها الكوني، تظل رواية عميقة الجذور في الثقافة الصينية، فهي تحمل في طيَّاتها ذلك الحس الجمعي الذي يميز الفكر الصيني، حيث يتقدم البقاء الجماعي على الرغبات الفردية.

قرار تحريك الأرض ليس قرار قارة أو أمة، بل قرار البشرية كلها، لكن النص يعبِّر عنه بلغة صينية الطابع، تُظهر قيمة الانضباط والقدرة على العمل المشترك في مواجهة الخطر.

هذا البُعد يجعلها رواية ذات خصوصية، فهي لا تذوب في النموذج الغربي للخيال العلمي، بل تقدم بديلاً مختلفًا، فيه من الفلسفة الشرقية بقدر ما فيه من العلم الحديث.

لقد أثارت الرواية نقاشًا واسعًا بين النقاد، سواء في الصين أو خارجها. بعضهم ركز على بُعدها العلمي الصارم، وآخرون على

رمزيتها الفلسفية. لكن ما اتفق عليه الجميع هو أنها نص يضع الخيال العلمي الصيني في صدارة الأدب العالمي. ومن الجدير بالذكر أن أعمال ليو تسي شين الأخرى، مثل ثلاثية «معضلة الأجسام الثلاثة»، أكدت هذا الموقع، لكن «الأرض التائهة» تبقى أكثر نصوصه شعبية، لأنها أقصر وأيسر في القراءة، ولأنها تحولت إلى أيقونة بصرية في السينما. إنها بوابة يدخل منها القارئ العادي إلى عالم ليو تسي شين، قبل أن يغوص في نصوصه الأطول والأكثر تعقيدًا.

بالنسبة للقارئ العربي، تمثل هذه الترجمة حدثًا ثقافيًا بالغ الأهمية، فالخيال العلمي في الأدب العربي ما زال في طور النمو، وعلى الرغم من وجود محاولات لافتة، فإنه لم يحقق بعد جماهيرية واسعة. لذلك، فإن الاطلاع على نصوص عالمية مثل «الأرض التائهة» يفتح الأفق أمام القارئ العربي، ويضعه في مواجهة أسئلة لم نعتد أن نطرحها في أدبنا كثيرًا: ماذا لو واجهت البشرية خطرًا كونيًا يهدد وجودها؟ كيف ستتصرَّف، نحن شعوب الجنوب العالمي، إذا كان القرار مصيريًا ويخص الأرض كلها؟ هل سنظل متفرجين على مصير يُصنع في مكان آخر، أم سنشارك في صناعته؟ إن مثل هذه الأسئلة تجعل الرواية ذات صلة مباشرة بمجتمعاتنا، حتى لو بدت في ظاهرها بعيدة.

إن قوة «الأرض التائهة» تكمن أيضًا في لغتها السردية. فليو تسي شين لا يكتب بلغة باردة جافة، بل يصوغ نصًّا مشحونًا بالصور والاستعارات. مشهد المحركات الضخمة التي تدفع الأرض، على سبيل المثال، لا يظل مجرد وصف تقني، بل يتحوَّل إلى صورة شعرية عن إرادة الإنسان وقدرته على تحويل الكوكب نفسه إلى

مركبة. هذا التوتر بين الدقة العلمية والخيال الشعري يمنح الرواية سحرًا خاصًّا، يجعلها ممتعة للقارئ حتى لو لم يكن مهتمًّا بالعلوم.

إنها رواية يمكن أن يقرأها الفيزيائي بقدر ما يقرأها الطالب أو العامل أو المثقف العادي.

ولا يمكن الحديث عن «الأرض التائهة» دون التوقف عند بعدها الأخلاقي، فهي لا تعرض فقط مشروعًا تقنيًا للنجاة، بل تحذر من ثمن هذا المشروع. ملايين يموتون في الطريق، وصراعات تظهر، وضحايا كثر يسقطون. هذه ليست رواية خلاص ساذج، بل رواية عن ثمن النجاة.

وبهذا المعنى فهي شديدة الواقعية، لأنها تُذكِّرنا بأن كل قرار مصيري يحمل في طياته مآسي وآلامًا. لكنها مع ذلك تظل رواية أمل، لأنها تؤكد أن البشرية قادرة على الاستمرار حتى في أحلك الظروف.

من هنا يمكن القول إن «الأرض التائهة» نص متعدد المستويات: علمي، فلسفي، إنساني، رمزي. إنه نص يقرأه كل قارئ بحسب خلفيته، فيجد فيه معنى مختلفًا. الطالب الشغوف بالفيزياء يجد فيه فرضية مشوقّة، والناقد الأدبي يجد فيه استعارة عن الحضارة الصينية، والقارئ البسيط يجد فيه حكاية ملحمية عن كوكب يهرب من الموت. وهذه التعددية هي ما يجعل النص حيًّا، قادرًا على أن يعيش في لغات وثقافات مختلفة.

وحين نتأمل مسيرة ليو تسي شين ندرك أن «الأرض التائهة» لم تكن مجرد رواية من بين أعماله، بل كانت جواز سفره إلى العالمية.

صحيح أن جائزة هوغو العالمية المرموقة في مجال الخيال العلمي

التي حصل عليها عن «معضلة الأجسام الثلاثة» هي التي ثبّتت اسمه في الأدب الغربي، لكن الشعبية الهائلة التي حققها الفيلم المقتبس عن «الأرض التائهة» هي التي جعلت اسمه يتردد بين الجماهير.

وهكذا اجتمع النقد والجمهور معًا ليمنحا هذا الكاتب مكانته الفريدة.

وقد يسأل القارئ العربي: لماذا نهتم نحن العرب برواية كهذه؟

والجواب أن الاهتمام بها لا يعني فقط قراءة نص من أدب آخر، بل يعني المشاركة في حوار كوني عن المستقبل، فالمستقبل الذي تتحدث عنه الرواية ليس مستقبل الصين وحدها، بل مستقبل الأرض كلها. وفي عالم يزداد ترابطًا، تصبح مثل هذه النصوص ضرورية لفهم كيف يفكر الآخرون في مصيرنا المشترك.

إن ترجمة هذه الرواية هي جسر بين ثقافتين، جسر يتيح لنا أن نرى أنفسنا أيضًا في مرآة الآخر.

وبهذا المعنى فإن هذه المقدمة ليست فقط تمهيدًا للرواية، بل هي دعوة لقراءتها بوصفها نصًّا عن الإنسان في زمن الأزمة، وعن الأمل في زمن الانطفاء.

إن الأرض التي تهيم في الفضاء في صفحات ليو تسي شين ليست مجرد كوكب خيالي، بل هي صورتنا جميعًا، نحن البشر، في مواجهة أسئلة البقاء والنجاة.

وكلما ازداد القارئ تورطًا في تفاصيل النص اكتشف أنه لا يقرأ عن أرض أخرى، بل عن أرضه هو، عن مصيره هو، عن ذاته في النهاية.

في النهاية، ما الذي ينتظر القارئ العربي حين يفتح صفحات «الأرض التائهة»؟ ليس مجرد رواية خيال علمي محكمة، بل تجربة كاملة تخاطب حواس القارئ وتستفز خياله، تأخذه من دفء الأرض المألوفة إلى برودة الفضاء الشاسع، وتضعه وجهًا لوجه أمام أسئلة لا مفر من التفكير فيها: هل نحن، كبشر، قادرون حقًّا على إنقاذ كوكبنا؟ ما الذي يعنيه أن تتحول الأرض نفسها إلى مركبة تائهة في الكون؟ وما الذي يبقى من مشاعرنا وذكرياتنا وأحلامنا حين يصبح البقاء هو الهدف الأسمى؟

ليو تسي شين لا يقدّم لنا أحداثًا للتسلية فقط، بل يدعونا إلى مغامرة فكرية وعاطفية تعيد تشكيل وعينا بمصيرنا المشترك. إن هذه الرواية ليست وعدًا بحلول سهلة، بل هي اختبار للخيال الإنساني في أقصى درجاته، ومرآة تكشف كيف يمكن للأمل أن يظل مشتعلاً حتى في أقسى العصور.

للقارئ العربي الذي يتوق إلى أدب مختلف، أدب يجمع بين الصرامة العلمية والعمق الفلسفي والإبهار السردي، فإن «الأرض التائهة» هي الدعوة المفتوحة لاكتشاف الصين الأدبية الجديدة، والدخول في مغامرة لا تُنسى مع نصٍّ سيبقى محفورًا في الذاكرة طويلاً بعد أن تُطوى آخر صفحة.

د. أحمد السعيد

بكين - سبتمبر 2025

مكتبة
t.me/soramnqraa

الأرض التائهة

الفصل الأول

عصر الكبح

لم أرَ الليل قط، ولا النجوم. لم أرَ الربيع، ولا الخريف، ولا الشتاء. وُلدت مع نهاية عصر الكبح، ساعة توقفت الأرض عن الدوران.

استغرق إيقاف دوران الأرض اثنين وأربعين عامًا، أي أكثر بثلاث سنوات مما خطَّط له التحالف. حكت لي أمي عن اللحظة التي شاهدت فيها عائلتنا آخر غروب للشمس. غابت الشمس ببطء شديد كأنها علقت في الأفق. ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ كاملة حتى اختفت. بالطبع بعدها لم يعد هناك «نهار» ولا «ليل». غسق أبدي غمر نصف الكرة الشرقي لمدة طويلة، ربما عَقدًا أو أكثر. الشمس مستلقية أسفل الأفق بقليل، يضيء وهجها نصف السماء. وخلال ذلك الغروب السرمدي وُلدت أنا.

الغسق لا يعني الظلام. أضاءت محركات الأرض نصف الكرة الأرضية الشمالي بالكامل. رُكِّبت عبر آسيا وأمريكا الشمالية، حيث

الصفيحة التكتونية الصلبة لهاتين القارتين فقط قادرة على تحمُّل الدفع الهائل الذي تُولِّده هذه المحركات. في المجمل كان هناك اثنا عشر ألف محرك منتشرة عبر سهول أوراسيا وأمريكا الشمالية.

من حيث أعيش أرى أشعة البلازما الساطعة لمئات المحركات. تخيَّل قصرًا ضخمًا بحجم البارثينون على أكروبوليس[1]. داخل القصر تنهض أعمدة ضخمة لا حصر لها بأسقف ذات قباب، يشع كل واحد منها بضوء أزرق-أبيض مثل أنبوب فلورسنت. وأنت لست سوى ميكروب على أرضية ذلك القصر. هذا هو العالم الذي عشت فيه.

في الحقيقة هذا الوصف ليس دقيقًا تمامًا. نتج توقف دوران الأرض عن الدفع المماسي[2] المتولِّد من المحركات. لذا كان لا بد من توجيه الفوُّهات بزاوية فائقة الدقة، مما جعل الحزم العملاقة مائلة عبر السماء. بدا الأمر كأنَّ القصر العظيم الذي نعيش فيه على وشك الانهيار! تصيب العديد من الزوار القادمين من النصف الجنوبي للأرض نوبات هلع لمشاهدته.

لكن الأشد رعبًا من مظهر المحركات هو الحرارة الحارقة المنبعثة منها. وصلت إلى سبعين أو ثمانين درجة مئوية. مما

(1) معبد الإلهة أثينا بارثينوس (أثينا العذراء) يقع على قمة تلة الأكروبوليس في مدينة أثينا.

(2) الدفع المماسي (Tangential Thrust) يشير إلى القوة الدافعة أو قوة الدفع التي تعمل بشكل مماسّي لسطح أو مسار حركة جسم ما. القوة تكون في اتجاه يمس نقطة على السطح أو المسار، ولا تكون عمودية عليه أو موازية بشكل مباشر لاتجاه الحركة العام.

اضطرنا إلى ارتداء بذلات تبريد قبل الخروج. تتفجَّر عواصف ممطرة عنيفة بفعل تلك الحرارة، وثمة أشعة بلازما تخترق السحب الداكنة. ما أشبه المشهد بالكابوس، تُشتت السحب ضوء الحزم الأزرق-الأبيض، وتطلق هالات قوس قزح محمومة ومتدفقة. تتوهج السماء بأكملها كأنها مغطاة بحمم بيضاء حارقة.

أصيب جدِّي بخرف في شيخوخته. ذات مرَّة، وقد أنهكته الحرارة التي لا ترحم، رأى المطر يتساقط فغمرته الفرحة وركض عاري الصدر حتى الخصر إلى الخارج. لم نتمكن من إيقافه في الوقت المناسب. قطرات المطر الساخنة لدرجة الغليان بفعل أشعة البلازما شديدة الحرارة حرقت جلده وتسلخ عن جسده في رقع كبيرة.

بالنسبة لجيلنا، نحن المولودون في نصف الكرة الشمالي، كل هذا طبيعي تمامًا مثل الشمس والقمر والنجوم لمن عاشوا قبل عصر الكبح. أطلقنا على تلك الفترة من التاريخ البشري اسم «عصر ما قبل الشمس»، ويا له من عصر ذهبي ساحر!

عندما بدأتُ دراستي الابتدائية، وكجزء من المقرر الدراسي، قادنا معلمو الصف المكوَّن من ثلاثين طفلًا في رحلة حول العالم. بحلول ذلك الوقت كانت الأرض قد توقفت تمامًا عن الدوران. باستثناء الحفاظ على هذا الوضع الثابت، تُستخدم محركات الأرض لإجراء تعديلات طفيفة على اتجاه الكوكب فحسب.

لذا، وخلال سنوات عمري الثلاث، من الثالثة حتى بلغت السادسة، قلَّ سطوع أشعة البلازما مقارنة بالمدة التي عملت فيها المحركات بكامل طاقتها. أتاح لنا ذاك الخمول النسبي فرصة التجوال للتعرُّف على كوكبنا بصورة أفضل.

أولًا، زُرنا أحد محركات الأرض عن كثب. يقع بالقرب من شيجياتشوانج عند مدخل نفق سكك حديدية يمر عبر جبال تاي هانج. جبل معدني عظيم يلوح فوقنا، يبتلع نصف السماء. إلى الغرب بدت سلسلة جبال تاي هانج كأنها مجرد تلال ناعمة. صاح بعض الأطفال أنه لا بد بارتفاع جبل إيفرست. ضحكت معلمتنا الآنسة ستيلا، الشابة الجميلة، قائلة إن المحرك يبلغ ارتفاعه أحد عشر ألف متر، أي يفوقه بألفي متر. قالت: يسمِّيه الناس «شعلة الإله». وقفنا في ظله الهائل نشعر باهتزازاته تُرجف الأرض.

ثمَّة نوعان رئيسيان من محركات الأرض. تُسمَّى المحركات الكبرى «جبال» والصغرى «قمم». صعدنا جبل شمال الصين رقم 794. تسلُّق الجبال يستغرق وقتًا أطول بكثير من الصعود إلى القمم. ركوب مصعد عملاق يصل بك مباشرة إلى أعلى القمم، لكن الوصول إلى أعلى الجبال يتطلَّب قيادة طويلة على طريق متعرج.

انضمَّت حافلتنا إلى موكب لا نهائي من المركبات الزاحفة على طريق فولاذي أملس. ليس عن يسارنا سوى وجه معدني أزرق أملس. وعن يميننا هاوية بلا قاع. تألفت حركة المرور في الغالب من شاحنات تفريغ ضخمة، تزن خمسين طنًا، محمَّلة بالأنقاض من جبال تاي هانج. وصلت حافلتنا بسرعة إلى ارتفاع خمسة آلاف متر. من ذلك العلوّ، بدا سطح الأرض خاويًا وعديم الملامح ، يغمره الوهج الأزرق الصادر من محرك الأرض.

طلبت منا الآنسة ستيلا ارتداء أقنعة الأكسجين. كلما اقتربنا من فوهة شعاع البلازما ازدادت شدة الضوء والحرارة بسرعة. تعتَّمت

أقنعتنا بالتدريج، وبدأت الضواغط الصغيرة في بدلات التبريد بالطنين. وعند ارتفاع ستة آلاف متر رأينا فتحة مدخل الوقود.

حمولة تلو الأخرى من الصخور تسقط في الوهج الأحمر الباهت للحفرة المتسعة فتلتهمها دون صوت. سألتُ الآنسة ستيلا: كيف تحوّل محركات الأرض الصخور إلى وقود؟ فأجابت:

«اندماج العناصر الثقيلة مجال دراسة صعب ومعقَّد، وعصي جدًا تبسيطه لكم في هذا العمر. كل ما تحتاجون إلى معرفته هو أن محركات الأرض هي أكبر الآلات التي بناها البشر على الإطلاق. على سبيل المثال، جبل شمال الصين رقم 794 -حيث نحن الآن- يولِّد قوة دفع تصل إلى خمسة عشر مليار طن على الأرض عندما يعمل بكامل طاقته».

وأخيرًا وصلت حافلتنا إلى القمة. فوَّهة شعاع البلازما فوقنا مباشرة. قطره هائل درجة أننا عندما رفعنا رؤوسنا كان كل ما استطعنا رؤيته هو جدار متوهج من البلازما الزرقاء يمتد بلا نهاية في السماء. في تلك اللحظة تذكَّرت لغزًا طرحه علينا أستاذ الفلسفة.

قال أستاذنا المتعَب: «تسير في سهل وفجأة تصادف جدارًا، جدارًا مرتفعًا إلى ما لا نهاية، ويمتد عميقًا في الأرض إلى ما لا نهاية، وإلى اليسار بلا نهاية، وإلى اليمين بلا نهاية. ما هو؟».

سرت قشعريرة باردة في جسدي. كرَّرت اللغز على الآنسة ستيلا الجالسة إلى جواري. تأملتْ اللغز قليلًا ثم هزَّت رأسها في حيرة. اقتربتُ منها وهمستُ بالإجابة المرعبة في أذنها: «الموت».

حدَّقت فيَّ بصمت لعدة ثوانٍ ثم عانقتني بقوة. وضعتُ رأسي على كتفها ونظرت بعيدًا نحو الأفق.

قمم معدنية عملاقة رصَّعت الأرض الضبابية أسفلنا، ممتدَّة على طول الطريق إلى الأفق بلا نهاية. وكل قمة تطلق شعاعًا ساطعًا من البلازما مثل غابة كونية مائلة، تشق السماء المتأرجحة.

بعد ذلك بوقت قصير وصلنا إلى شاطئ البحر. نرى ناطحات السحاب الغارقة وهي تبرز فوق الأمواج. ومع انحسار المد تندفع مياه البحر المزبدة من نوافذها التي لا تُحصى مُشكِّلةً شلالات متدفقة. حتى قبل انتهاء عصر الكبح، وضحت آثاره على الأرض بشكل مرعب. ابتلع المد والجزر الناتجان عن تسارُع محركات الأرض ثلثَي المدن الكبرى في نصف الكرة الشمالي. ثم أدَّى ارتفاع درجات الحرارة العالمية إلى ذوبان الأغطية الجليدية القطبية، مما حوَّل الفيضانات إلى كارثة اجتاحت نصف الكرة الجنوبي أيضًا.

منذ ثلاثين عامًا شهد جدي أمواجًا عملاقة بارتفاع مائة متر تجتاح مدينة شنغهاي. وحتى الآن عندما يصف المشهد يُحدِّق في الفراغ بصمت. في الواقع تغيَّر كوكبنا حقًا إلى درجة لا يمكن التعرُّف عليها حتى قبل أن يبدأ رحلته عبر الفضاء. من يدري ما التجارب والمحن التي كانت تنتظرنا في رحلتنا اللا متناهية عبر الكون؟

ركبنا شيئًا يُدعى «سفينة المحيط» -وسيلة نقل قديمة- مغادرين الشاطئ. خلفنا بدأت أشعة البلازما المنبعثة من محركات الأرض في الابتعاد شيئًا فشيئًا، وبعد يوم من السفر اختفت تمامًا

عن الأنظار. غُمر البحر بضوء ناتج عن مصدرين مختلفين. من جهة الغرب أشعة البلازما لا تزال تغمر السماء بوهج أزرق مخيف، ومن جهة الشرق تزحف أشعة الشمس الوردية ببطء فوق الأفق. شطرت الأشعة المتنافسة البحر إلى نصفين، وأبحرت سفينتنا بطول الحافة المتلألئة، حيث التقى المصدران بسطح البحر.

مشهد رائع حقًا. لكن مع تراجُع الوهج الأزرق وتعاظُم ضوء الشمس الوردي بدأ شعور بالقلق يسري في أرجاء السفينة. لم نعد نحن التلاميذ نُرى على سطح السفينة. اختبأنا في غرفتنا والستائر مشدودة بإحكام على النوافذ المستديرة. وبعد يوم وصلت أخيرًا أكثر اللحظات التي كنا نخشاها. اجتمعنا في المقصورة الكبيرة المستخدمة كقاعة دراسية لنستمع إلى إعلان الآنسة ستيلا.

قالت بصوت مهيب: «أطفالي، سنذهب الآن لمشاهدة شروق الشمس».

لم يتحرَّك أحد. حدَّق كل زوجين من العيون بنظرة جامدة لامعة وكأنها تجمَّدت في مكانها. حاولت الآنسة ستيلا حثَّنا على مغادرة الغرفة، لكن الجميع ظلَّ جالسًا في مكانه دون حراك.

علَّق أحد المعلمين: «قلت هذا من قبل، لكن توجَّب علينا إجراء رحلة التجربة العالمية قبل تدريس التاريخ الحديث لهم، ليتأقلم الطلاب بسهولة أكبر».

قالت الآنسة ستيلا: «الأمر ليس بهذه البساطة، يلتقطون هذه المشاعر من محيطهم قبل وقت طويل من تعلمهم التاريخ الحديث». ثم التفتتْ إلى قادة الصف وقالت: «أنتم يا أولاد تذهبون أولًا. لا تخافوا. عندما كنت صغيرة توترت أيضًا أول مرة شاهدت فيها شروق الشمس، لكن بعدها صار الأمر طبيعيًا».

وأخيرًا وقفنا جميعًا، ثم خرجنا متثاقلين من باب المقصورة واحدًا تلو الآخر. فجأة شعرت بيدٍ نديّة صغيرة تقبض على يدي. نظرتُ إلى الوراء فرأيت لينجر.

قالت بصوت مرتجف: «أنا خائفة».

فقلت مطمئنًا:

- رأينا الشمس من قبل في التلفاز. إنها الشيء نفسه.

- كيف يمكن أن تكون نفس الشيء؟ هل رؤية أفعى على التلفاز تشبه رؤيتها حيَّة أمامك.

لم أعرف كيف أجيب.

- حسنًا، علينا الذهاب والمشاهدة على أية حال، وإلا سوف تُخصم درجاتنا.

تشابكت أيدينا بإحكام، ومضينا بحذر مع باقي الأطفال نحو سطح السفينة مستعدين لمواجهة أول شروق شمس في حياتنا.

قالت الآنسة ستيلا وهي تقف عند مقدمة السفينة وشعرها الطويل يتماوج مع نسيم البحر: «في الواقع بدأنا نخاف من الشمس قبل ثلاثة أو أربعة قرون فحسب. قبل ذلك لم يكن البشر يخافون الشمس، بل على العكس تمامًا، مثَّلت لهم النبل والجلالة. في ذلك الزمن كانت الأرض لا تزال تدور حول محورها، والناس يشاهدون شروق الشمس وغروبها كل يوم. يبتهجون عند الشروق، ويمتدحون جمال الغروب».

خلف الآنسة ستيلا بدأت أوائل أشعة الشمس تخترق الأفق كأنها زفير انبعث من فتحة تنفس مخلوق بحري عملاق لا يمكن تخيله.

وأخيرًا لمحنا اللهب الذي يبعث القشعريرة في الأرواح. في البداية لم يكن سوى نقطة ضوء في الأفق، لكن سرعان ما تحوَّل إلى قوس مشتعل. شعرت بانغلاق حلقي من شدة الرعب. بدا كأنَّ سطح السفينة تحت قدمي اختفى فجأة. أسقط في سواد البحر، أسقط... لينجر سقطت معي. يرتجف جسدها النحيل وهي ملتصقة بي.

زملاؤنا في الصف وكل الآخرين -بل العالم بأسره- سقطوا في الهاوية. ثم تذكَّرت اللغز. كنت قد سألت أستاذ الفلسفة عن لون الجدار. قال لي إنه أسود. ظننت أنه مخطئ. لطالما تخيَّلت جدار الموت أبيض ساطعًا كبياض الثلج النقي. ولهذا السبب تذكَّرته عندما رأيت جدار البلازما. في هذا العصر لم يعد الموت أسود، بل أصبح وهج وميض البرق، وعندما تضرب تلك الصاعقة الأخيرة سيتبخر العالم في لحظة واحدة.

منذ أكثر من ثلاثة قرون، اكتشف علماء الفلك تسارُع معدل تحوُّل الهيدروجين إلى هيليوم في باطن الشمس. أطلقوا آلاف المجسمات مباشرة نحو الشمس للتحرِّي، وطوَّروا في النهاية نموذجًا رياضيًا دقيقًا للنجم. باستخدام هذا النموذج، حسبت أجهزة الحواسيب الفائقة أنَّ الشمس خرجت من التسلسل الأساسي على مخطط هرتزشبرونج وراسل[1]. وسرعان ما يتخلل

(1) مخطط هرتزشبرونج- راسل (Hertzsprung-Russell diagram)، ويُختصر غالبًا إلى مخطط H-R أو رسم هرتزشبرونج- راسل، هو أداة أساسية في علم الفلك لرسم النجوم بناءً على ضوئها (إجمالي كمية الطاقة التي تشعها في وحدة الزمن) مقابل درجة حرارتها (أو نوعها الطيفي أو لونها). طوره بشكل مستقل في أوائل القرن العشرين إينار هرتزشبرونج وهنري نوريس راسل.

الهيليوم نواة الشمس، ما يؤدي إلى انفجار عنيف يُعرف باسم «وميض الهيليوم»[1]، وبعد ذلك ستتحوَّل الشمس إلى عملاق أحمر ضخم وبارد وتتضخَّم حتى يبلغ قطرها مدار الأرض، لكن كوكبنا سيكون قد تبخَّر بفعل وميض الهيليوم السابق قبل حدوث ذلك بفترة طويلة.

من المتوقع حدوث كل هذا خلال الأربعمائة عام القادمة. ومنذ ذلك الحين، مرت ثلاثمائة وثمانون عامًا. لن تؤدِّي هذه الكارثة الشمسية إلى تدمير واستهلاك جميع الكواكب الأرضية القابلة للسكن في النظام الشمسي فحسب، بل ستغير أيضًا تركيبة ومدارات الكواكب الجوفيانية[2] بشكل كامل.

بعد ومضة الهيليوم الأولى، أثناء تراكم العناصر الثقيلة مجددًا في نواة الشمس، ستحدث انفجارات نووية متسارعة بشكل متكرِّر على مدار فترة زمنية. تمثل تلك الفترة الزمنية وقتًا قصيرًا للغاية في التطور النجمي، لكنها قد تدوم أطول آلاف المرات من التاريخ البشري كله.

ليست للبشرية أية فرصة للنجاة من مثل هذه الكارثة إذا بقينا داخل النظام الشمسي. الهجرة بين النجوم طريقنا الوحيد للنجاة.

---

(1) ومضة الهيليوم: حدث نووي حراري عنيف وقصير يحدث في نوى النجوم منخفضة الكتلة عند نهاية مرحلة العملاق الأحمر، تنتج عن الاشتعال المفاجئ لاندماج الهيليوم في مادة منحلة. على الرغم من قوتها النووية الهائلة، فإن تأثيرها المباشر على سطح النجم يكون ضئيلًا.

(2) الكواكب الجيوفانية (المشتريّة) تسمية تُطلق على الكواكب الأربعة الخارجية الأكبر في نظامنا الشمسي: المشترى، زحل، أورانوس، نيتون.

وبالنظر إلى مستوى التكنولوجيا المتاحة للبشرية آنذاك، مثَّل «بروكسيما سنتوري»[1] الهدف الوحيد الممكن لهذه الهجرة. أقرب نجم إلى شمسنا على بُعد 4.3 سنة ضوئية تقريبًا. كان الاتفاق على الوجهة كافيًا، لكن دار الجدل الحقيقي حول كيفية الوصول إليها.

لترسيخ الدرس أعادت سفينتنا الالتفاف مرتين في المحيط الهادي لتمنحنا شروقَي شمس. بحلول ذلك الوقت اعتدنا المشهد، ولم نعد بحاجة إلى من يقنعنا بأن الأطفال المولودين في نصف الكرة الجنوبي يمكنهم حقًا النجاة من التعرُّض اليومي لأشعة الشمس. أبحرنا نحو الفجر.

مع ارتفاع الشمس في السماء تلاشت نسمات المحيط الباردة التي رافقتنا خلال الأيام الماضية، وبدأت درجات الحرارة في الارتفاع. كنت أغفو في مقصورتي وسمعت جلبة في الخارج. فُتح بابي وأطلَّت لينجر برأسها قائلة: «بدأ الشجار بين المرتحلين والمستحوذين مرة أخرى». لم أهتم كثيرًا، لطالما تشاجروا طوال الأربعة قرون الماضية، ومع ذلك نهضت لإلقاء نظرة سريعة.

يتشاجر مجموعة من الفتيان في الخارج، ومن أول نظرة عرفت أن تونج عاد إلى ألاعيبه القديمة. والده من المرتحلين العنيدين وما زال يقضي عقوبة سجن بسبب مشاركته في تمرُّد ضد التحالف، تونج نسخة طبق الأصل من أبيه. بمساعدة بعض البحارة الأقوياء،

(1) بروكسيما سنتوري: جارنا النجمي الأقرب، يبعد عن الشمس حوالي 4.2 سنة ضوئية، يقع في كوكبة قنطورس، نجم قزم أحمر خافت ولكنه نشط، ويستضيف نظامًا كوكبيًا مثيرًا للاهتمام يشمل كوكبًا يُحتمل أن يكون صالحًا للحياة.

فضَّت الآنسة ستيلا الشجار. وعلى الرغم من أنفه النازف، فإن تونج رفع قبضته وصاح: «ألقوا بالمستحوذين في البحر!».

ردَّت الآنسة ستيلا:

- أنا من المستحوذين. هل تريد إلقائي في البحر أيضًا؟

أجاب تونج بعناد:

- سأُلقي كل مستحوذ في البحر.

رفض تونج التراجع. ازداد الدعم العالمي لجماعته مؤخرًا وجعلهم أكثر تمردًا من قبل. سألت الآنسة ستيلا:

- لماذا تكرهوننا إلى هذا الحد؟

فصاح على الفور عدد من الأطفال المرتحلين معترضين: «لن ننتظر الموت على الأرض معكم أيها المستحوذون الحمقى، سنبني سفنًا فضائية ونرحل! تحيا السفن الفضائية!».

ضغطت الآنسة ستيلا على جهاز العرض الهولوجرافي في معصمها. وعلى الفور ظهرت صورة أمامنا لفتت انتباهنا بشدَّة. ساد الصمت للحظة. كرة زجاجية شفافة ونقية. بلغ قطرها نحو عشرة سنتيمترات يملأ الماء ثلثيها. وداخلها روبيان صغير وغصن مرجان[1] وقليل من الطحالب الخضراء. يسبح الروبيان ببطء حول المرجان.

قالت الآنسة ستيلا: «هذا مشروع صمَّمه تونج لصف العلوم الطبيعية. بالإضافة إلى الأشياء التي ترونها جميعًا، تحتوي الكرة أيضًا على بكتيريا مجهرية. كل ما بداخل الكرة مترابط بطريقة تبادلية. يتغذَّى الروبيان على الطحالب ويأخذ الأكسجين من الماء

(1) مرجان: حيوان بحري لا فقاري ينتمي إلى شعبة اللاسعات. شعاب مرجانية.

ثم يطرح فضلات عضوية في برازه وبزفر ثاني أكسيد الكربون. تحلل البكتيريا فضلات الروبيان إلى مواد غير عضوية. بعد ذلك تستخدم الطحالب هذه المواد غير العضوية وثاني أكسيد الكربون في عملية التمثيل الضوئي تحت مصدر ضوء صناعي. تُنتج الطحالب العناصر الغذائية وتنمو وتتكاثر وتطلق الأكسجين ليتنفسه الروبيان. ما استمر تدفق ضوء الشمس، ينبغي أن يكون هذا النظام البيئي داخل الكرة الزجاجية قادرًا على دعم نفسه إلى ما لا نهاية. هذا هو أفضل تصميم رأيته من طالب على الإطلاق. أعلم أن هذه الكرة تُجسِّد حلم تونج وأحلام جميع الأطفال المرتحلين. إنها السفينة الفضائية التي تتوقون إليها ولكن بشكل مصغر! أخبرني تونج أنه صمَّمها وفقًا لمخرجات نماذج رياضية دقيقة. عدَّل جينات كل كائن حي لضمان أن تكون عمليات الأيض لديها متوازنة تمامًا. كان يؤمن إيمانًا راسخًا بأن العالم الصغير داخل الكرة سيبقى على قيد الحياة حتى يصل الجمبري إلى نهاية عمره الطبيعي. أحب جميع المعلمين هذا المشروع. وضعناه تحت مصدر ضوء صناعي بالشدة المطلوبة وقد أقنعتنا تنبؤات تونج وتمنينا بصمت نجاح العالم الصغير الذي أنشأه، ولكن الآن، بعد أقل من أسبوعين».

أخرجت الآنسة ستيلا بعناية الكرة الزجاجية الحقيقية من صندوق صغير. يطفو الروبيان بلا حياة على سطح الماء العكر، وفقدت الطحالب المتحللة أي أثر للون الأخضر وتحولت إلى غشاء ميت أشبه بالصوف يغلف المرجان. قالت وهي ترفع الكرة

الميتة ليراها الجميع: «مات العالم الصغير. من منكم يستطيع أن يخبرني لماذا؟!».

«كان صغيرًا جدًا».

«بالفعل كان صغيرًا للغاية. النظم البيئية الصغيرة كهذا، مهما بلغت دقة تصميمه، لن يحتمل مرور الزمن، وسفن المستحوذين الفضائية ليست استثناء».

ردَّ تونج بصوت أهدأ مما سبق: «سنبني سفنًا فضائية بحجم شنغهاي أو نيويورك».

- نعم، لكن أي شيء أكبر يتجاوز حدود التكنولوجيا البشرية، وحتى إن بنينا سفنًا بذلك الحجم، فإنها تظل ضئيلة مقارنة بكوكب الأرض.
- إذن، سنجد كوكبًا جديدًا!

أجابت الآنسة ستيلا:

- حتى أنتم أيها المرتحلون لا تصدقون ذلك حقًا. لا توجد كواكب مناسبة في مدار بروكسيما سنتوري. أقرب نجم ثابت به كواكب قابلة للحياة يبعد ثمانمائة وخمسين سنة ضوئية. في الوقت الحالي، أسرع مركبة فضائية يمكننا بناؤها لا تستطيع السفر إلا بسرعة 5.% من سرعة الضوء. ما يعني أن الرحلة ستستغرق مائة وسبعين ألف سنة. ولن يصمد نظام بيئي بحجم مركبة فضائية حتى عُشر هذه الرحلة. أيها الأطفال، فقط نظام بيئي بحجم الأرض بدورته البيئية المتواصلة التي لا يمكن إيقافها يمكنه أن يدعمنا إلى الأبد! إذا تخلَّت البشرية عن الأرض فستكون ضعيفة كطفل رضيع انفصل عن أمه وسط الصحراء.

- لكن...

توقّف تونج، ثم أكمل:

- الآنسة ستيلا، لقد فات أواننا وأوان الأرض. ستنفجر الشمس قبل أن نتمكن من التسارع والابتعاد بما فيه الكفاية.

ردَّت بحزم:

- لا يزال هناك وقت، عليكم أن تؤمنوا بالتحالف! كم مرة قلت لكم ذلك؟ حتى إن لم تؤمنوا، يمكننا على الأقل أن نقول إن البشرية تموت بشرف لأننا فعلنا كل ما بوسعنا.

خطة هروب البشرية من النظام الشمسي في خمس مراحل.

أولًا، تولِّد محركات الأرض قوة دفع في الاتجاه المعاكس لحركة الأرض، مما يؤدي إلى إيقاف دورانها.

ثانيًا، عند التشغيل بكامل طاقتها، تُسرِّع المحركات الأرض حتى تصل إلى سرعة الهروب، مما يدفعها للخروج من النظام الشمسي.

ثالثًا، ستستمر الأرض في التسارع أثناء تحليقها في الفضاء الخارجي باتجاه بروكسيما سنتوري.

رابعًا، ستعكس المحركات اتجاهها، مما يعيد دوران الأرض، ويبدأ بالتباطؤ التدريجي.

خامسًا، ستدخل الأرض في مدار حول بروكسيما سنتوري لتصبح أحد أقماره.

أطلق الناس على هذه المراحل الخمس أسماء: «عصر الكبح» و«عصر الرحيل» و«عصر التيه الأول» (خلال التسارع)، و«عصر التيه الثاني» (خلال التباطؤ) و«العصر الشمسي الجديد».

من المتوقع استغراق عملية الهجرة الكاملة 2500 سنة، أي أكثر من مائة جيل.

واصلت سفينة المحيط إبحارها نحو الجزء المظلم من الأرض، حيث لا شمس تلوح في الأفق، ولا بريق لمحركات البلازما. وعندما كان نسيم الأطلس البارد يلسع وجوهنا، شاهدنا لأول مرة في حياتنا الصغيرة نجوم السماء ليلًا. يا إلهي، كم كان المنظر جميلًا لدرجة مؤلمة!

وقفت الآنسة ستيلا تحتضنني أنا ولينجر بذراع واحدة، وأشارت إلى السماء باليد الأخرى قائلة: «انظروا يا أطفالي، هناك كوكبة القنطور، وتلك هي بروكسيما سنتوري، موطننا الجديد».

بدأت تبكي وبكينا معها. مَن حولنا، حتى القبطان وأفراد الطاقم -وكلهم بحارة قساة القلوب- اغرورقت أعينهم بالدموع. وبعيون لامعة. نظر الجميع في الاتجاه الذي أشارت إليه الآنسة ستيلا، حيث تتلألأ النجوم وتتمايل. ثمة نجم واحد ثابت، ليس شمسًا، إنما شعاع من منارة بعيدة فوق بحار مظلمة وعاصفة، وميض من النار يلوح لمسافر وحيد يتجمَّد في التندرا[1]. حلَّ هذا النجم محل الشمس في قلوبنا. عمود الأمل الوحيد ليهتدي به مائة جيل قادم يبحرون عبر محيط من الأحزان.

في رحلتنا عائدين إلى الوطن، رأيت أول إشارة على مغادرة الأرض. ظهر مُذنَّب عملاق في سماء الليل- القمر. ولأننا لم نكن قادرين على أخذ القمر معنا، رُكبت محركات على سطحه لدفعه خارج مدار الأرض لضمان عدم حدوث تصادم خلال فترة

(1) الصحراء القطبية.

التسارع. ذيل محركات القمر الشاسع يملأ البحر بضوء أزرق ويُخفي النجوم. ومع مروره، تسبَّبت قوة جاذبيته في موجات عاتية شاهقة. اضطرتنا إلى الانتقال بالطائرة عائدين إلى الوطن في نصف الكرة الشمالي. لقد حلَّ يوم الرحيل أخيرًا!

ما إن نزلنا أصيبت عيوننا بالعمى من وهج محركات الأرض. تتوهج بأضعاف بريقها السابق. لم تعد مائلة، بل أصبحت موجَّهة مباشرة نحو السماء. تعمل بأقصى طاقتها. وقد تسبَّبت عملية تسارع الكوكب في خلق أمواج هائلة بارتفاع مائة متر تضرب كل القارات. تعوي الأعاصير الحارقة بين أعمدة البلازما الشاهقة، تثير زَبَدًا يغلي، وتقتلع الغابات من جذورها. تحوَّل كوكبنا إلى مُذنَّب عملاق يخترق ذيله الأزرق ظلمة الفضاء.

بدأت الأرض رحلتها، وبدأت البشرية رحلتها. تُوفي جدي قبيل الرحيل بعد أن نُهش جسده المحترق بفعل العدوى. وفي لحظاته الأخيرة كان يردد جملة واحدة مرارًا وتكرارًا: «آه أيتها الأرض، يا أرضي التائهة».

الفصل الثاني
عصر الرحيل

من المخطط انتقال مدرستنا إلى مدينة جوفية تحت الأرض. وكنا من أوائل سكانها. دخلتْ حافلتنا المدرسية نفقًا ضخمًا ينزلق برفق نحو أعماق الأرض. قيل لنا إننا دخلنا المدينة بعد نصف ساعة من القيادة، لكن لا شيء خارج نوافذ الحافلة يشبه أي مدينة رأيتها من قبل. مررنا بسرعة على متاهة من أنفاق جانبية أصغر، وأبواب لا تُحصى مغلقة ومثبتة داخل تجاويف في الجدران. تحت صفٍّ من الأضواء الكاشفة المثبتة في سقف النفق، بان كل شيء بظلال زرقاء رصاصية. لم نشعر بشيء سوى الكآبة عندما أدركنا أن هذا سيكون عالمنا طوال معظم ما تبقَّى من حياتنا.

قالت لينجر بهدوء: «عاش الإنسان البدائي في كهوف والآن سنعيش فيها نحن أيضًا».

لكن الآنسة ستيلا التقطت كلماتها وتنهَّدت قائلة:

- لا خيار لنا يا أطفال، سيصبح السطح قريبًا مكانًا فظيعًا، فظيعًا جدًا. عندما يكون الجو باردًا ستتجمَّد بصقتكم قبل وصولها إلى الأرض. وعندما يكون الجو حارًا سوف تتبخر قبل خروجها من أفواهكم.

سألت فتاة صغيرة من الصفوف الدنيا:

- أعلم أنه سيكون باردًا لأن الأرض تبتعد عن الشمس، لكن لماذا سيصبح الجو حارًا؟

صرختُ فيها:

- غبية، ألم تدرسي مدارات النقل[1]؟

بدأت لينجر في الشرح بصبر كأنما لتبدِّد أفكارها الحزينة:

- الأمر كالتالي: محركات الأرض ليست قوية كما تعتقدين. نستطيع تسريع الأرض قليلًا، لكننا لا نستطيع دفعها مباشرة للخروج من مدارها حول الشمس. قبل هروب الأرض من الشمس، علينا أن ندور حولها خمس عشرة مرة! خلال هذه المدارات الخمس عشرة، ستتسارع الأرض تدريجيًا. مدار الأرض الآن حول الشمس دائري تقريبًا. لكن كلما ازدادت سرعتها، سيصبح المدار أكثر استطالة. كلما تحركنا أسرع، يصبح المدار الإهليليجي أكثر تسطحًا وتتحرك الشمس نحو أحد طرفي المدار. لذا؛ عندما تكون الأرض في أبعد نقطة عن الشمس سيكون الجو باردًا جدًا بطبيعة الحال.

- لكن... هذا، لا يزال غير منطقي! سيكون الجو باردًا عندما تكون الأرض بعيدة عن الشمس. لكن في الطرف الآخر من المدار،

---

(1) مدارات وسيطة تُستخدم لنقل مركبة فضائية من مدار ابتدائي إلى مدار نهائي مختلف. بدلًا من إطلاق قمر صناعي مباشرة إلى المدار الثابت (الذي يتطلب الكثير من الوقود)، يوضع أولًا في مدار نقل بيضاوي. ثم، في نقاط محددة على طول هذا المدار البيضاوي، تُشغل محركات القمر الصناعي لفترة وجيزة لتغيير مداره تدريجيًا حتى يصل إلى المدار الثابت المطلوب.

ستكون المسافة بين الأرض والشمس... ها... دعيني أفكر...

تقضم الفتاة شفتيها وتُكمل:

- ديناميكية المدارات[1] تقول إن الأرض لن تقترب من الشمس أكثر مما هي عليه الآن، فلماذا سيصبح الجو أكثر حرارة؟

كانت بالفعل عبقرية صغيرة. جعلت الهندسة الجينية هذا النوع من الذاكرة الاستثنائية هو المعيار الجديد.. وكان حظًا سعيدًا للبشرية، فلولاه ما أمكن تحقيق معجزات لا يمكن تصورها مثل محركات الأرض في غضون أربعة قرون.

قلت مقاطعًا:

- لا تنسي محركات الأرض يا غبية. أكثر من عشرة آلاف من تلك المشاعل العملاقة تعمل بكامل طاقتها. أصبحت الأرض مجرد حلقة لحمل فوهات الصواريخ. الآن اصمتي، لقد بدأت أنزعج.

بدأنا حياتنا الجديدة تحت الأرض. تقع مدينتنا على عمق خمسمائة متر تحت السطح وتتسع لأكثر من مليون ساكن. انتشرت مدن مماثلة في جميع القارات. هنا أنهيت المرحلة الابتدائية ودخلت المدرسة الثانوية. انصبَّ منهجي الدراسي على العلوم والهندسة، بينما قُلِّصت أو أزيلت الفنون والفلسفة وغيرها من المواد التي اعتُبرت غير ضرورية من المنهج. لم يكن لدى البشرية

(1) ديناميكية المدارات (Orbital Dynamics) هي فرع من علم الفلك والفيزياء يدرس حركة الأجسام تحت تأثير قوى الجاذبية، خاصة حركة الأجسام الاصطناعية مثل الأقمار الصناعية والمركبات الفضائية، بالإضافة إلى حركة الأجرام الطبيعية مثل الكواكب والكويكبات والمذنبات.

وقت للتشتيت في أكثر حقبها ازدحامًا. لدى الجميع عمل لا ينتهي أبدًا. من المثير للاهتمام أن كل الأديان اختفت بدون أثر بين عشية وضحاها. أدرك الناس أخيرًا أنه إذا كان الإله موجودًا حقًا فهو قاسٍ لا ريب. لا نزال ندرس التاريخ، عصر ما قبل الشمس في تاريخ البشرية كما كنا نطلق عليه، بدا أسطوريًا مثل جنة عدن.

خدم والدي في القوات الجوية رائد فضاء. نفَّذ كثيرًا من المهام في مدار الأرض المنخفض، ونادرًا ما يكون في البيت. أتذكَّر في السنة الخامسة من تسريع المدار، حين وصلت الأرض إلى نقطة الأوج[1]، ذهبنا في رحلة عائلية إلى الشاطئ. يوم الأوج عطلة رسمية مثل ليلة رأس السنة أو عيد الميلاد. ومع أن الأرض دخلت الجزء الأبعد في مدارها عن الشمس، شعر الجميع بأمان زائف. لا يزال علينا ارتداء بدلات حرارية خاصة للخروج إلى السطح بديلًا عن بدلات التبريد. ارتدينا بدلات تدفئة محكمة الإغلاق تعمل ببطاريات نووية.

في الخارج كادت أشعة البلازما المنبعثة من محركات الأرض الشاهقة تعمينا. الضوء القاسي يطغى على رؤيتنا للعالم السطحي، ومن الصعب التمييز إن كان المشهد قد تغيَّر أم لا. اضطررنا للتحليق بسيارتنا لفترة طويلة قبل الخروج من وهج الضوء، واستطعنا أخيرًا رؤية الشاطئ. تقلَّصت الشمس حتى أصبحت بحجم كرة بيسبول مُعلَّقة في السماء دون حراك، محاطة بهالة باهتة تشبه ضوء الفجر.

(1) الأوج الشمسي (Aphelion) هو أبعد نقطة في مدار أي جرم سماوي (مثل كوكب أو مذنب أو كويكب) حول الشمس.

لون السماء أزرق قاتم لم نره من قبل، والنجوم مرئية بوضوح.

تساءلت للحظة وأنا أنظر حولي: أين ذهبت المحيطات؟ لم يكن هناك سوى سهل أبيض وجليدي شاسع يمتد حتى الأفق. تجمَّع حشد كبير من المحتفلين فوق البحر المتجمد. تصفر الألعاب النارية في الظلام والجميع يحتفل بجنون غير معتاد. يتدحرج بعض السكارى فوق الجليد، ويصرخ آخرون بكلمات أغانٍ مختلفة. يحاول كل واحد أن يطغى بصوته على الآخرين.

قال أبي بنبرة إعجاب: «رغم كل شيء يعيش الجميع كلٌّ بطريقته، لا بأس في ذلك». ثم توقف فجأة كأنه تذكَّر أمرًا مهمًا: «أوه، نسيت إخبارك.. وقعت في حب ستيلا لي.. أريد الانتقال للعيش معها».

سألتْ أمي بهدوء:

- من هي؟

أجبت بدلًا عنه:

- معلمة المدرسة الابتدائية.

كنت قد بدأت المرحلة الثانوية منذ عامين ولم يكن لديَّ أدنى فكرة عن كيفية تعرُّف والدي على الآنسة ستيلا. ربما التقيا في حفلة تخرجي؟

قالت أمي:

- اذهب إذن.

قال والدي:

- واثق أنني سأمل منها قريبًا وساعتها سوف أعود، هل يناسبك هذا؟

- إن رغبت في ذلك فبالتأكيد يناسبني.

صوتها هادئ وجامد كالبحر المتجمّد. لكن بعد لحظة غمرت الحماسة نبرتها فجأة، وأشارت إلى الألعاب النارية المتفتحة في سماء الليل متأثرة حقًا بجمالها، وقالت:

- آه، إنها جميلة حقًا! لا بد أن بداخلها محيدا هولوجرافيا[1]!

تُربك الأفلام والروايات المُنتَجة منذ أربعة قرون الجماهير الحديثة. لم نفهم لماذا استثمر الناس في عصر ما قبل الشمس كل ذلك الكم من المشاعر في أمور لا علاقة لها بالبقاء. من الغريب إلى حدٍّ لا يوصف مشاهدة البطلة أو البطل يعاني أو يبكي من أجل الحب. في زمننا هذا طغى تهديد الموت والرغبة في النجاة على كل شيء آخر. لم يكن هناك ما يمكنه التأثير فينا أو جذب انتباهنا سوى آخر التحديثات عن حالة الشمس وموقع الأرض. هذا التركيز الفائق غيَّر تدريجيًا جوهر النفس البشرية وروحها. أصبح البشر نادرًا ما يلتفتون إلى شؤون القلب مثل مقامر يشرب دون إزاحة عينيه عن عجلة الروليت.

بعد شهرين عاد والدي من مغامرته مع الآنسة ستيلا. لم تكن أمي سعيدة ولا حزينة لرؤيته.

---

(1) المُحَيِّد الهُولوجرَافِي: عنصر بصري يعتمد على مبادئ الحيود والتسجيل الهولوجرافي لإنشاء محزز حيود. (الحيود: ظاهرة فيزيائية تحدث عندما تواجه الموجات «مثل موجات الضوء» عائقًا أو فتحة، مما يؤدي إلى انحنائها وانتشارها حول الحواف. في محزز الحيود، تتفاعل الموجات مع البنية الدورية للعنصر، مما ينتج عنه تداخل بناء وهدام يؤدي إلى انحراف الضوء في اتجاهات محددة تعتمد على الطول الموجي للضوء وتباعد العناصر الدورية).

قال والدي:

- لدى ستيلا انطباع جيد عنك.. قالت إنك كنت طالبًا مبدعًا للغاية.

سألت أمي بوجه متحيِّر:

- ومن قال هذا؟

أجبتها بنفاد صبر:

- معلمة المدرسة الابتدائية، الآنسة ستيلا التي كان أبي يعيش معها طوال الشهرين الماضيين!

ضحكت وهزَّت رأسها قائلة:

- آه، تذكَّرت! لم أبلغ الأربعين بعد وذاكرتي تخونني بالفعل!

نظرتْ إلى النجوم الهولوجرافية على السقف، ثم إلى الغابة المرسومة على الجدران، وقالت:

- من الجيد أنك عدت إلى البيت. الآن يمكنك تغيير هذه الصور. أنا وابنك سئمنا النظر إليها، لكننا لا نعرف كيفية التعامل مع هذه الأشياء المزعجة.

بحلول الوقت الذي بدأت فيه الأرض عودتها مجددًا نحو الشمس، كنا قد نسينا تلك الحادثة تمامًا.

ذات يوم أفادت الأخبار أن المحيط بدأ في الذوبان، ذهبنا في رحلة عائلية أخرى إلى الشاطئ. تجاوزت الأرض مدار المريخ بقليل. لم يكن من المفترض أن ترفع أشعة الشمس درجة الحرارة ارتفاعًا كبيرًا، لكن محركات الأرض ضمنت أن يكون سطح الكوكب دافئًا بما يكفي لإذابة جليد البحر.

الخروج دون عبء ارتداء بدلة حرارية شعور رائع. لا تزال محركات الأرض تضيء سماء نصف كرتنا الأرضية. لكن في الجهة المقابلة من الكوكب يشعر الناس بقرب الشمس. سماؤهم صافية وزرقاء نقية والشمس مشرقة كما كانت قبل بدء الرحلة. لكن من الجو، لم نرَ أي علامات على الذوبان. لم نرَ سوى امتداد أبيض شاسع من الجليد. نزلنا من سيارتنا بخيبة أمل. وما إن أغلقنا الأبواب سمعنا دويًا هائلًا كأنه يصعد من أعماق الكوكب ذاته. بدا الصوت كأن الأرض على وشك الانفجار.

صرخ والدي فوق الضجيج: «هذا صوت المحيط! الارتفاع الحاد في درجات الحرارة يؤدي إلى تسخين الجليد السميك بصورة غير متساوية- تشبه الزلزال على اليابسة»! وفجأة دوَّى صوت حاد كالرعد، مزَّق ذلك الهدير العميق، وانطلقت هتافات الناس الذين يراقبون البحر خلفنا.

رأيت شقًا طويلًا يظهر، يمتد عبر سطح المحيط المتجمد كبرق أسود. استمر الهدير وظهر المزيد من الشقوق في الجليد. اندفعت المياه من الفجوات مُشكلة سيولًا اجتاحت السهل الجليدي.

في طريق العودة إلى المنزل نظرنا من النافذة نحو الأرض القاحلة أسفلنا، فرأينا مساحات واسعة من الأعشاب البرية تبدأ في النمو من باطن الأرض. تفجَّرت جميع أنواع الزهور في تفتُّح كامل، وكست الغابات الذابلة بأوراق خضراء ناعمة. كانت الحياة تُلقي بنفسها في مهمة التجدد كأن لا وقت لديها لتضيعه.

كلما اقتربت الأرض من الشمس أكثر ازداد الخوف إحكامًا في بطوننا. قلَّ عدد الأشخاص الذين يصعدون إلى السطح للاستمتاع

بمناظر الربيع. انسحب معظمنا إلى أعماق مدننا الجوفية. ليس هربًا من الحر أو الأمطار الغزيرة أو الرياح العاتية، بل هربًا من الرعب الزاحف الذي تمثله الشمس.

في إحدى الليالي، بعدما ذهبت إلى الفراش، سمعت أمي تهمس لأبي: «ربما فات الأوان بالفعل».

ردَّ عليها قائلًا:

- كانت الأشعة نفسها تدور خلال آخر أربع نقاط حضيض[1].

لكنها أصرت:

- لكن... هذه المرة حقيقية، سمعتها من الدكتورة تشاندلر. زوجها فلكي في لجنة الملاحة. أنتم تعرفونه. أخبرها أنهم لاحظوا زيادات متسارعة في معدلات تركيز الهيليوم.

قال أبي بهدوء:

- اسمعي يا عزيزتي، يجب ألا نفقد الأمل، ليس لأنه حقيقي، بل لأن علينا التصرف بنبل. في عصر ما قبل الشمس، تطلَّب النبل ثروة أو قوة أو موهبة. أما الآن، فلا يحتاج سوى الأمل. إنه الذهب والمجوهرات في زمننا هذا. مهما طال بنا العمر، علينا التمسك به! وغدًا سنخبر ابننا نفس الشيء.

شعرت، كغيري من الناس، بالقلق والتوتر مع اقتراب نقطة الحضيض. وذات يوم بعد المدرسة، وجدت نفسي في ساحة

(1) الحضيض الشمسي (Perihelion): النقطة في مدار جرم سماوي (مثل كوكب أو مذنب أو كويكب) حول الشمس، حيث يكون هذا الجرم أقرب ما يمكن إلى الشمس.

المدينة المركزية. وقفت بجانب النافورة المستديرة في وسط الساحة، أحدّق في الماء المتلألئ داخل المسبح، ثم رفعت رأسي نحو تموُّجات الضوء الأثيرية المنعكسة على القبة العلوية. في تلك اللحظة لمحت لينجر. تحمل زجاجة صغيرة في يد وأنبوبًا قصيرًا في اليد الأخرى. تنفخ فقاعات صابون وتتابع بعينيها الفارغتين كل سلسلة من الفقاعات وهي تنجرف بعيدًا. تشاهدها تتلاشى واحدة تلو الأخرى لتنفخ سلسلة أخرى بعدها. سألتها وأنا أقترب منها:

- ما زلتِ تحبين نفخ الفقاعات في هذا العمر؟

بدت لينجر سعيدة لرؤيتي وقالت:

- لنذهب في رحلة!

سألتها بدهشة:

- رحلة؟ إلى أين؟

قالت بحماس:

- إلى السطح، بالطبع!

لوَّحت بيدها في الهواء مستخدمة حاسوبًا مثبتًا على معصمها يعرض صورة هولوجرامية لشاطئ ساعة الغروب. نسمة ناعمة تحرك أشجار النخيل والأمواج البيضاء تتلاطم بلطف على الشاطئ. يجلس عدد من العشاق على الرمال الصفراء كظلال سوداء أمام بحر مرصع بالذهب.

- منى وداجانج أرسلا لي هذا. سافرا حول العالم وقالا إن الجو ليس حارًا جدًا على السطح. الطقس رائع، هيا نذهب!

اعترضتُ:

- طُردا من المدرسة بسبب التهرُّب من الحصص.

تنهَّدت لينجر وقالت:

- هذا ليس السبب الحقيقي لخوفك، أنت خائف من الشمس!

- وأنتِ؟ ألستِ من لجأ إلى طبيب نفسي بسبب رهاب الشمس؟

- أنا شخص مختلف الآن. لقد ألهمني شيء ما! انظر.

ثم استخدمت الأنبوب لنفخ سلسلة أخرى من فقاعات الصابون. قالت وهي تشير إلى الفقاعات:

- راقب جيدًا!

ركَّزتُ نظري على إحدى الفقاعات. أمعنت النظر في موجات الضوء واللون المتدفق عبر سطحها. الأنماط القزحية معقدة جدًا بحيث لا يمكن للبشر استيعابها. بدا الأمر كأنَّ الفقاعة تعرف أنها ستعيش حياة قصيرة، تنقل بشكل محموم الأحلام والأساطير من ذاكرتها العظيمة إلى العالم. وبعد لحظة اختفت أمواج الضوء والألوان في انفجار صامت. ظلَّ أثر خافت من البخار لنصف ثانية، ثم اختفى هو أيضًا كأن الفقاعة لم تكن موجودة قط.

قالت لينجر:

- أرأيت؟ الأرض فقاعة صابون كونية. فرقعة واحدة.. وتنتهي. إذن ما الداعي إلى الخوف؟

- لكن الأمر لن يحدث بتلك السرعة. وفقًا للحسابات، بعد انفجار الهيليوم، سيستغرق الأمر مائة ساعة قبل تبخُّر الأرض بالكامل.

صرخت لينجر:

- وهذا بالضبط هو الجزء الأكثر رعبًا! نحن على عمق خمسمائة متر. الأرض مثل حشوة لحم داخل فطيرة. سنُطهى ببطء أولًا ثم نتبخر!

سرت قشعريرة باردة في جسدي بأكمله. قالت لينجر:

- لن يحدث الأمر هكذا على السطح. سيتبخَّر كل شيء في غمضة عين. أي شخص هناك سيكون مثل فقاعات الصابون: فرقعة واحدة و...

ثم توقفت عن الكلام، وأردفت:

- لذا أعتقد أن من الأفضل لو كنا على السطح ساعة الانفجار.

لم أستطع شرح السبب، لكنني لم أذهب معها. ذهبتْ مع تونج ولم أرَ أيًا منهما مرة أخرى. لكن انفجار الهيليوم لم يحدث. تجاوزت الأرض نقطة الحضيض وبدأت في الصعود نحو الأوج للمرة السادسة. تنفسَّت البشرية الصعداء جميعًا. نظرًا لأن الأرض لم تعد تدور فإن محركات الأرض المثبَّتة في آسيا موجهة تجاه حركة الكوكب. ونتيجة لذلك أُوقِفَ تشغيل المحركات بالكامل باستثناء بعض التعديلات العارضة على اتجاه الأرض. أبحرنا في ليل هادئ لا نهائي.

مع ذلك، في أمريكا الشمالية، تعمل المحركات بكامل طاقتها، حيث تثبت القارة فوهات الصواريخ على الكوكب. وبسبب مواجهة النصف الغربي من الكرة الأرضية للشمس أيضًا، صارت الحرارة هناك مدمرة. اشتعلت النيران في الأعشاب والأشجار على حد سواء.

استمر تسارُع الأرض المدعوم بالجاذبية على هذا النحو عامًا بعد عام. عندما تبدأ الأرض في الصعود نحو الأوج، كنا نسترخي طرديًا مع ابتعاد الأرض عن الشمس. وعند بداية العام الجديد، حين تبدأ الأرض سقوطها الطويل نحو الشمس، نزداد توترًا مع كل يوم يمر.

وفي كل مرة تصل فيها الأرض إلى الحضيض، تنتشر الشائعات عن قرب انفجار الهيليوم، وتستمر في الانتشار حتى تبدأ الأرض بالصعود نحو الأوج من جديد. لكن حتى عندما تبدأ مخاوف الناس في التلاشي مع تقلّص حجم الشمس في السماء، تبدأ موجة الذعر التالية في التشكل.

بدا الأمر كأنَّ معنويات البشرية معلقة على أرجوحة كونية، أو ربما من الأدق القول إننا كنا نلعب الروليت الروسي على نطاق كوكبي: كل رحلة من الحضيض إلى الأوج ثم العودة كانت مثل تدوير أسطوانة المسدس، وعبور الحضيض كان بمنزلة سحب الزناد! وكل سحبة كانت أكثر إثارة للأعصاب من سابقتها. أمضيت طفولتي في تناوب دائم بين الذعر والاسترخاء. عند التدبُّر في الأمر، حتى عند نقطة الأوج لن تخرج الأرض أبدًا من منطقة الخطر الناجمة عن وميض الهيليوم. إذا انفجرت الشمس ستذوب الأرض، وهذا مصير أسوأ بكثير من التبخر عند نقطة الحضيض.

في عصر الرحيل، تتابعت الكوارث بسرعة متلاحقة. تسببت تغيرات السرعة والمسار الناتجة عن محركات الأرض في اضطراب توازن نواة الأرض الحديدية–النيكلية. وانتقل هذا الاضطراب عبر فجوة جوتنبرج[1] وامتد إلى الغلاف الصخري. ومع تسرُّب الطاقة

(1) فجوة جوتنبرج (Gutenberg Discontinuity) هي منطقة فاصلة مهمة تقع في باطن الأرض على عمق حوالي 2900 كيلومتر تحت السطح. تُمثل هذه الفجوة الحد الفاصل بين طبقتين رئيسيتين من طبقات الأرض: الوشاح السفلي (طبقة صلبة تقع فوق فجوة جوتنبرج) والنواة الخارجية (طبقة سائلة تقع أسفل فجوة جوتنبرج).

الحرارية الجوفية إلى السطح، اجتاحت الثورات البركانية كل القارات، مما شكّل تهديدًا قاتلًا للمدن البشرية الجوفية.

ابتداءً من الدورة المدارية السادسة، أصبحت حوادث تسرُّب الحمم البركانية الكارثية شديدة التكرار في المدن حول العالم. في اليوم الذي حدث فيه ذلك، كنت عائدًا من المدرسة إلى المنزل عندما انطلقت صفارات الإنذار. تلاها بسرعة بث طارئ. اخترق الحاجز الشمالي للمدينة من مجلس المدينة:

«انتباه مواطني المدينة...

بسبب ضغط القشرة الأرضية دخلت الحمم البركانية المدينة! وصلت تدفقات الحمم بالفعل إلى القطاع الرابع! أُغلقت مخارج الطرق السريعة. على جميع المواطنين التوجه إلى الساحة المركزية والإخلاء عبر المصاعد. يُرجى ملاحظة أن الإخلاء سيجري وفقًا للمادة الخامسة من قانون الطوارئ. أكرر، سيحدث الإخلاء وفقًا للمادة الخامسة من قانون الطوارئ!».

نظرتُ حولي في متاهة الأنفاق، تبدو مدينتنا الجوفية هادئة على نحو غريب. لكنني مدركٌ مدى الخطر الذي نواجهه: من بين طريقين سريعين تحت الأرض يقودان إلى خارج المدينة، أُغلق أحدهما العام الماضي بسبب أعمال التحصين الضرورية على حواجز المدينة. إذا أُغلق الطريق المتبقي أيضًا، فلن يكون أمامنا خيار سوى الفرار عبر المصاعد العمودية المؤدية مباشرة إلى السطح. قدرة المصاعد على النقل محدودة للغاية، ونقل جميع سكان المدينة البالغ عددهم ثلاثمائة وستين ألف نسمة إلى برِّ الأمان سيستغرق وقتًا طويلًا. لكن ليست هناك حاجة للتزاحم

من أجل الحصول على مكان في المصاعد. أعدَّ قانون الطوارئ الصادر عن التحالف جميع الترتيبات اللازمة للإخلاء مسبقًا.

عانت الأجيال السابقة من معضلة أخلاقية: رجل يواجه فيضانًا متصاعدًا ولا يستطيع سوى إنقاذ شخص واحد. هل ينقذ والده أم ابنه؟ في زمننا هذا، بدا من غير المعقول أن يُطرح مثل هذا السؤال أصلًا.

عندما وصلت إلى الساحة رأيت الناس قد بدأوا بالفعل في الاصطفاف في طابور طويل حسب أعمارهم. في مقدمة الطابور، الأقرب إلى المصاعد، وقفت ممرِّضات آليات، كل واحدة منهن تحمل رضيعًا بين ذراعيها. بعدهم رياض الأطفال، ثم طلاب المرحلة الابتدائية. مكاني في منتصف الصف. لا يزال قريبًا نسبيًا من الأمام.

والدي في مهمة في مدار الأرض المنخفض، فلم يبقَ في المدينة سواي أنا وأمي. لم أتمكن من رؤيتها. ركضت بطول الطابور الذي لا ينتهي، لكن الجنود أوقفوني قبل أن أتمكن من التقدم كثيرًا. أعلم أنها تقف في آخر الطابور.

مدينتنا في الأساس مدينة جامعية. بالكاد فيها عائلات، ولهذا أُدرِجتْ مع كبار السن في المدينة. يتحرَّك الطابور ببطء شديد. وبعد ثلاث ساعات طويلة جاء دوري أخيرًا. لكنني لم أشعر بارتياح حين دخلت المصعد. لا يزال عشرون ألف طالب جامعي بين أمي وبين النجاة، وشممت بالفعل رائحة الكبريت القوية. بعد ساعتين ونصف من وصولي إلى السطح غمرت الحمم البركانية المدينة بأكملها الواقعة على عمق خمسمائة متر تحت قدمي.

شعرت كأنَّ سكينًا تنغرس في قلبي وأنا أتخيل لحظات أمي الأخيرة. واقفة جوار ثمانية عشر ألف شخص آخرين لم يتمكنوا من الإخلاء في

الوقت المناسب، كانت لتشاهد الحمم تتدفَّق إلى الساحة، من المرجَّح انقطاع التيار الكهربائي تاركًا الوهج القرمزي المخيف المنبعث من الحمم. الحرارة الشديدة كفيلة بتسويد القبة البيضاء الشاهقة فوق الساحة. وغالبًا لم يكن الضحايا بحاجة حتى إلى لمس الحمم، فدرجات الحرارة المتجاوزة الألف درجة كفيلة بأن تودي بحياتهم.

لكن الحياة استمرَّت، حتى في ظل هذا الواقع القاسي والمخيف استمرت شرارات الحب بالظهور من حين لآخر. خلال الرحلة الثانية عشرة نحو نقطة الأوج، وفي محاولة لتخفيف التوتر العام، أحيت حكومة التحالف الألعاب الأولمبية على نحو مفاجئ بعد توقف دام قرنين من الزمان.

شاركتُ في الألعاب ضمن رالي الزلاجات الثلجية. انطلق السباق من شنغهاي، حيث تسابق الرياضيون بزلاجاتهم الثلجية عبر سطح المحيط الهادي المتجمّد وصولًا إلى نيويورك. مع صوت طلقة البداية اندفع أكثر من مائة زلاجة ثلجية عبر المحيط المتجمّد، تخترق الجليد بسرعة بلغت مائتي كيلومتر في الساعة.

في البداية كان هناك دائمًا متسابق آخر في مرمى البصر، ولكن بعد يومين إما أنني تجاوزت الآخرين أو تخلَّفت عنهم، فلم يبقَ أحد في الأفق. لم يعد توهُّج محركات الأرض مرئيًا خلفي. اندفعتُ نحو أكثر أجزاء الكوكب ظلامًا.

صار عالمي سماء مليئة بنجوم لا نهاية لها وجليد ممتد في جميع الاتجاهات حتى نهاية الكون، أو ربما هذه هي نهاية الكون.

وفي هذا الكون المليء بالنجوم اللا نهائية والجليد اللا متناهي، كنت وحدي! اجتاحتني موجة جارفة من الوحدة وشعرت برغبة في البكاء. قُدت الزلاجة كما لو أنَّ حياتي تعتمد على ذلك. لم يعد يهمني إن وصلتُ إلى المنصة أو لا. كل ما يهمني هو التخلص من ثقل الوحدة الرهيب قبل أن يقتلني. في عقلي لم يعد الشاطئ المقابل موجودًا.

وفي تلك اللحظة رأيت ظلًا في الأفق. ومع اقترابي أدركت أنها امرأة تقف بجانب زلاجتها الثلجية، وشعرها الطويل يتمايل مع الرياح الجليدية. في اللحظة التي تلاقينا فيها، بدا واضحًا أن بقية حياتنا قد قُررت.

اسمها ياماساكي كايوكو، يابانية. من المفترض أن ينطلق فريق النساء قبلنا باثنتي عشرة ساعة، لكن زلاجتها علقت في شق بالجليد، مما أدَّى إلى كسر أحد ألواح التزحلق الأمامية. وأنا أساعدها في إصلاح الزلاجة، شاركتها الشعور الذي انتابني سابقًا. قالت بانفعال: «شعرت بنفس الشيء تمامًا! كأنني كنت وحيدة في الكون! أتدري! عندما رأيتك تظهر من بعيد كان الأمر أشبه بمشاهدة شروق الشمس».

سألتُ:

- لماذا لم تطلبي طائرة إنقاذ؟

رفعت قبضتها الصغيرة وقالت بحزم يعكس العزيمة اليابانية المعروفة:

- هذا السباق يُجسِّد روح الإنسان. يجب تذكُّر أن الأرض وهي تائهة في أرجاء الكون لا تستطيع طلب المساعدة!

قلت:

- حسنًا، لكن علينا الآن الطلب. لا أحد منا يملك زلاجة بديلة، زلاجتك الثلجية لا يمكن إصلاحها.

اقترحتْ:

- لماذا لا أركب خلفك؟ ما دمت غير مهتم بالفوز بالمراكز الأولى.

وبالفعل لم أكن مهتمًا. لذا أكملنا بقية الرحلة الطويلة عبر المحيط الهادي المتجمد معًا.

وحين مررنا بجزر هاواي رأينا وميضًا من الضوء يلوح في الأفق. وعلى هذا الامتداد اللا متناهي من جليد مضاء بشمس صغيرة بالكاد تُرى، قدَّمنا طلبًا للحصول على رخصة زواج إلى إدارة الشؤون المدنية التابعة للتحالف. بحلول الوقت الذي وصلنا فيه إلى مدينة نيويورك غادر حكام الأولمبياد بعدما ملوا الانتظار، جمعوا أمتعتهم ورحلوا. لكن موظفًا من مكتب الشؤون المدنية بالبلدية كان في انتظارنا. هنأنا على زواجنا، ثم بدأ بتنفيذ مهمته الرسمية.

بإشارة من يده استدعى صورة هولوجرافية تحوي عشرات الآلاف من النقاط المصطفة بدقَّة. كل نقطة تمثل زوجين سجَّلا زواجهما لدى التحالف خلال الأيام القليلة الماضية. ونظرًا للظروف البيئية القاسية نصَّ القانون على أن يُسمح بالإنجاب لزوجين فقط من كل ستة حديثي الزواج، ويُحدَّد هذا الحق عن طريق اليانصيب.

وقفت كايوكو مترددة أمام آلاف النقاط قبل اختيار واحدة في المنتصف. عندما استحالت إلى اللون الأخضر قفزتْ فرحًا. أما أنا فلم أكن متأكدًا من شعوري حيال فكرة تكوين أسرة. هل إنجاب طفل في هذا العصر المليء بالمعاناة نعمة أم لعنة؟ على الأقل، كان الموظف في غاية السعادة. أخبرنا أن رؤية النقطة الخضراء دائمًا مناسبة سعيدة. أخرج زجاجة فودكا تناوبنا نحن الثلاثة على الشرب منها. نخب استمرار الجنس البشري.

خلفنا أنار ضوء الشمس البعيد الخافت تمثال الحرية بطيف ذهبي. وأمامنا ألقت ناطحات السحاب المهجورة منذ زمن في مانهاتن ظلالًا طويلة على الجليد الهادئ الذي غطى ميناء نيويورك. شعرت ببعض الدوار من تأثير الكحول، ثم أدركت أن الدموع بدأت تنهمر على وجنتي. أرضي، أيتها الأرض التائهة!

قبل أن نفترق سلَّمنا الموظف مجموعة مفاتيح، تجشأ وقال: «مفتاح منزلكما الجديد في آسيا. اذهبا الآن إلى منزلكما الجديد الرائع!».

سألته ببرود:

- رائع إلى أي حد؟ مدن آسيا الجوفية مليئة بالمخاطر، لكن بالطبع أنتم الغربيون لا تعرفون ذلك.

فأجاب:

- نحن على وشك مواجهة خطر فريد من نوعه. الأرض على وشك المرور عبر حزام الكويكبات، ونصف الكرة الأرضية الغربي في مواجهته مباشرة.

قلتُ:

- لكننا مررنا عبر حزام الكويكبات في الدورات المدارية السابقة وليس بالشيء الكبير، أليس كذلك؟

قال:

- كنا نلامس أطراف الحزام. الأسطول الفضائي يستطيع التعامل مع ذلك. بالطبع لديهم ليزر وقنابل نووية لتفتيت الصخور الصغيرة التي تعترض مسار الأرض، لكن هذه المرة..

توقف هنيهة، وقال:

- ألم تشاهد الأخبار؟ هذه المرة ستمر الأرض مباشرة من وسط الحزام! الأسطول سيتعامل مع الصخور الصغيرة، أما الكبيرة.

في الرحلة الجوية عائدين إلى آسيا التفتتْ إليَّ كايوكو وسألت: «هل تلك الكويكبات كبيرة جدًا؟».

والدي أحد ضباط الأسطول الفضائي المكلَّف بإبعاد الكويكبات وتدميرها. لذا، ومع حظر الإعلام المعتاد المفروض من الحكومة لتجنب إثارة الذعر، كنت أعلم بعض الشيء عما نحن مقبلون عليه. أخبرت كايوكو أنَّ بعض الكويكبات التي سنواجهها بحجم الجبال، حتى القنابل النووية الحرارية بقوة خمسين ميجا طن لن تُحدث سوى خدوش سطحية على أجسامها.

ثم أضفت بغموض:

- سيضطرون لاستخدام أقوى سلاح في ترسانة البشرية.

سألتْ:

- تقصد قنابل المادة المضادة[1]؟
- ما الذي يمكن أن يكون غير ذلك؟
- ما مدى تحليق الأسطول؟
- حاليًا قدرته محدودة. قال لي والدي إنَّ المدى يصل إلى نحو مليون ونصف مليون كيلومتر فقط.

أطلقت كايوكو صرخة صغيرة من الحماس وقالت:

- إذن سنتمكن من رؤيتها!
- من الأفضل ألا تنظري.

لكن كايوكو نظرت، ودون نظارات واقية. وصل أول وميض لقنبلة المادة المضادة من الفضاء بعد وقت قصير من إقلاعنا. في ذات اللحظة كانت كايوكو تتأمل السماء المرصَّعة بالنجوم من نافذة الطائرة، ليصيبها الوميض بالعمى المؤقت لأكثر من ساعة. وظلَّت عيناها حمراوين دامعتين لأكثر من شهر بعد ذلك. في اللحظات المرعبة التالية للوميض استمرت قذائف المادة المضادة في قصف الكويكب. ومضات الخراب تنبض في السماء السوداء الحالكة

(1) تفترض النظرية أنه بحدوث التلامس بين المادة والمادة المضادة (هي مادة تتكون من جسيمات أولية لها نفس كتلة جسيمات المادة العادية، ولكن بشحنة كهربائية معاكسة وخصائص كمية أخرى معكوسة)، يفنيان بعضهما البعض في عملية تسمى الإفناء (Annihilation). في هذه العملية، يتحول كامل كتلة الجسيم والجسيم المضاد إلى طاقة نقية وفقًا لمعادلة أينشتاين الشهيرة $E=mc^2$ تكون كمية الطاقة الناتجة عن إفناء كمية صغيرة جدًا من المادة والمادة المضادة هائلة. على سبيل المثال، تفاعل جرام واحد من المادة مع جرام واحد من المادة المضادة سيطلق طاقة تعادل حوالي ضعف الطاقة الناتجة عن تفجير حوالي 43 كيلو طنًا من مادة تي إن تي (TNT)، وهي تقريبًا نفس قوة القنبلة الذرية التي أُلقيت على هيروشيما.

كما لو أنَّ حشدًا من المصوِّرين الهائجين قد اجتاح الكوكب وبدأ في التقاط الصور بجنون. وبعد نصف ساعة رأينا النيازك، تجرُّ وراءها أذيالًا من النار عبر السماء، ساحرة بجمالها المروع.

ظهر المزيد والمزيد من النيازك، كل واحد منها يخترق الغلاف الجوي أعمق من سابقه. وفجأة دوَّى صوت هائل هزَّ الطائرة، تلاه المزيد من الاهتزازات والضجيج. ظنَّت كايوكو أن نيزكًا اصطدم بالطائرة فصرخت وارتمت في أحضاني. عندها جاء صوت القبطان عبر نظام الاتصال الداخلي: «سيداتي وسادتي، الرجاء عدم الذعر. ما سمعتموه مجرد دوي صوتي ناتج عن اختراق نيزك لحاجز الصوت. يُرجى وضع سماعات الأذن لتجنب فقدان السمع الدائم. ونظرًا لعدم إمكانية ضمان سلامة الرحلة، سنهبط اضطراريًا في هاواي».

لما انتهى الإعلان ثبتُّ عينيَّ على نيزك أكبر بكثير من غيره. شعرت بيقين أنه لن يخترق الغلاف الجوي كما فعلت النيازك السابقة، وبالفعل انطلق ذلك الجسم الناري عبر السماء متقلصًا كلما اقترب قبل اصطدامه بالمحيط المتجمد.

من على ارتفاع عشرة آلاف متر ظهرت بقعة بيضاء صغيرة في نقطة الاصطدام. سرعان ما اتسعت إلى دائرة بيضاء على سطح المحيط.

سألت كايوكو بصوت مرتجف: «هل هذه موجة؟».

أجبتها محاولًا طمأنة نفسي أكثر: «نعم موجة يزيد ارتفاعها عن مائة متر، لكن المحيط متجمد تمامًا. سوف يمتصها الجليد قريبًا».

لم أنظر إلى الأسفل مرة أخرى.

هبطنا في هونولولو بعد فترة قصيرة. ورتَّبت الحكومة المحلية نقلنا إلى مدينة جوفية. نستمتع أثناء الرحلة على امتداد الساحل بمشهد واضح للسماء المليئة بالنيازك، كأنه اندفاع فيالق من شياطين بشعر ناري من نقطة واحدة في الفضاء. رأينا نيزكًا يرتطم بسطح الأرض بالقرب من الساحل دون اندفاع ماء ظاهر، سحابة بيضاء من بخار الماء تفتحت عاليًا في السماء فحسب. تحت السطح المتجمِّد بدأت مياه البحر بالغليان والاندفاع نحو الشاطئ. تئنُّ طبقات الجليد السميكة وهي تتشقَّق وتتدحرج كالأمواج كأنَّ سربًا من وحوش البحر العملاقة المتموِّجة يسبح تحت السطح.

سألت موظفًا في استقبالنا بالمطار:

- ما حجم هذا النيزك؟

- أقل من خمسة كيلوجرامات. لا يزيد حجمه عن رأسك. لكنني تلقيت للتو معلومات تفيد بأن نيزكا يزن عشرين طنًا يسقط على بعد ثمانمائة كيلومتر شمال هنا.

بدأ جهاز التواصل على معصمه يُصدر صوت تنبيه. نظر إليه بسرعة، ثم قال للسائق: «لن نتمكن من الوصول إلى البوابة 204. توجَّه إلى أقرب مدخل!».

انعطفت السيارة وتوقفت أمام أحد مداخل المدينة الجوفية. وعند نزولنا رأينا عدة جنود يحرسون المدخل بأعين مثبَّتة في الأفق مليئة بالذعر. تبعنا نظراتهم فرأينا حاجزًا أسود. للوهلة الأولى بدا

كأنه سحابة منخفضة، لكنَّ ارتفاعه الموحَّد جعله يبدو أشبه بجدار يمتد عبر الأفق، وعند التدقيق لاحظنا حوافه البيضاء.

سألت كايوكو أحد الضباط بخوف: «ما هذا»؟

كان جوابه كفيلًا بأن يقف له شعر رؤوسنا: «موجة».

أُغلقت البوابات الفولاذية العالية للمدينة الجوفية مُحدثة صريرًا. بعد عشر دقائق شعرنا بارتجاف عميق ينبعث من السقف، كأنَّ عملاقًا يتقلَّب على سطح الأرض فوقنا. حدَّقنا في بعضنا البعض في يأس صامت، أدركنا في تلك اللحظة أن أمواجًا بارتفاع مائة متر تجتاح هاواي وتتجه نحو البر الرئيسي، لكنَّ الزلازل التالية كانت أكثر رعبًا، كأنَّ قبضةً عملاقة من الفضاء الخارجي تسدد ضرباتها للأرض. الضربات خفيفة تحت الأرض، لكننا شعرنا بالاهتزاز كله في أعماق أرواحنا.

ينهال وابل نيازك على سطح الأرض. استمرَّ القصف الوحشي لكوكبنا بشكل متقطع لأسبوع كامل. لَما خرجنا أخيرًا من المدينة الجوفية صرخت كايوكو قائلة: «يا إلهي، ماذا حدث للسماء؟». السماء رمادية موحلة. امتلأ الغلاف الجوي العلوي بالغبار المنبعث من اصطدامات الكويكبات.

اختفت الشمس والنجوم في هذا الرمادي اللا متناهي كما لو أنَّ الكون كله غمرته طبقة كثيفة من الضباب، وعلى الأرض تجمَّدت مياه البحر المتخلِّفة من الأمواج الهائلة. وقفت ناطحات السحاب الناجية منعزلة فوق الجليد، تتدلى الشلالات الجليدية على جوانبها. غطَّت طبقة من الغبار سطح الجليد فامتصَّت كل الألوان من العالم، ولم يتبقَّ سوى الرمادي سائدًا في كل مكان.

سرعان ما استأنفنا أنا وكايكو رحلتنا عائدين إلى آسيا. عندما عبرت الطائرة خط التاريخ الدولي[1]، الذي لم يعد له أي معنى، شهدنا أحلك ليالي البشرية. بدت الطائرة كأنها تُحلِّق بصمت عبر أعماق محيط مظلم، بينما كنا نحدق خلال النوافذ، نبحث عبثًا عن بصيص ضوء وسط الظلمة، أصبحت مشاعرنا قاتمة.

تمتمت كايوكو: «متى سينتهي هذا؟». لم أكن أعلم إن كانت تقصد رحلتنا أم هذه الحياة الممتلئة بالبؤس والمعاناة، واعتقدت أنه لا نهاية لأي منهما. في الواقع حتى لو أبحرت الأرض خارج نطاق الانفجار الهائل الناتج عن ومضة الهيليوم، حتى لو نجونا بأرواحنا، فماذا بعد؟

نقف على أول درجة في سلم لا يُقاس طوله. بعد مائة جيل، عندما يصل أحفادنا إلى القمة ويلمحون وعدًا بحياة جديدة، ستكون عظامنا قد تحولت منذ زمن بعيد إلى تراب. لم أتخيَّل المعاناة والمصاعب التي لا تزال بانتظارنا، فضلًا عن قيادة حبيبتي وطفلي في ذلك الطريق الطيني الذي لا نهاية له.

كنت مرهقًا جدًا ، مرهقًا لدرجة لا تسمح لي بالمواصلة. بينما أوشكت مشاعر الحزن واليأس على خنقي، علا صراخ امرأة في المقصورة: «آه، لا يا عزيزي لا تفعل»! استدرت ورأيت امرأة تنتزع مسدسًا من يد الرجل الجالس إلى جوارها. حاول للتو وضع

---

(1) خط التاريخ الدولي (International Date Line - IDL) خط وهمي على سطح الكرة الأرضية يمتد من القطب الشمالي إلى القطب الجنوبي عبر المحيط الهادئ تقريبًا. يعمل خط التاريخ الدولي كـ«خط فاصل» بين يومين متتاليين في التقويم. عندما تعبر هذا الخط، فإنك تصبح نوعًا ما «مسافرًا عبر الزمن» من الناحية التقويمية: عند العبور باتجاه الغرب يصبح التاريخ يومًا واحدًا لاحقًا. والعكس.

فوهة السلاح على صدغه. الرجل شاحب وهزيل، وعيناه تُحدِّقان بلا حياة في الفراغ. دفنت المرأة وجهها في حجره وانفجرت في نحيب متقطع يشبه صوت الطيور. قال الرجل ببرود: «اصمتي». توقف النحيب ولم يبقَ سوى صوت هدير المحركات المنخفض، كأنه ترنيمة جنائزية ثابتة.

في خيالي كانت الطائرة عالقة في هذا الظلام الواسع. لا تتحرك. وليس ثمة شيء آخر مُتبقٍّ في هذا الكون سوى الطائرة والظلمة التي تطوِّقها. انكمشت كايوكو داخل حضني بجسد بارد كالجليد.

فجأة، حدثت ضجَّة في مقدمة المقصورة، وبدأ الركاب يهمسون بحماسة. نظرت من النافذة ورأيت ضوءًا ضبابيًا أمام الطائرة. السماء الليلية الممتلئة بالغبار يغمرها بالكامل وهج أزرق بلا شكل، ضوء محركات الأرض. دمَّرت النيازك ثلث محركات نصف الكرة الغربي، لكنَّ الأرض عانت من أضرار أقل مما تنبأت به الحسابات قبل الانطلاق. أمَّا محركات الأرض في النصف الشرقي المحمية على الجانب الآخر من السطح المصطدم فلم تتعرَّض لأي خسائر. من حيث القدرة، لا تزال الأرض مجهَّزة جيدًا للهرب.

عندما وقعت عيناي على الضوء الأزرق الخافت في الأمام شعرت كما لو أنني غوَّاص في أعماق البحر رأى أخيرًا سطح المياه المضيء بعد صعود طويل من الهاوية. بدأت أتنفَّس بهدوء من جديد.

وبعد عدة صفوف سمعت المرأة تقول: «عزيزي، الألم، الخوف، لا نشعر بهذه الأشياء إلا ونحن أحياء. عندما نموت لا

يبقى شيء على الإطلاق. فقط الظلام. من الأفضل أن نعيش، أليس كذلك؟!». لم يرد الرجل الهزيل. يحدق في الضوء الأزرق أمامه والدموع تنهمر على وجهه. أعلم أنه سيصمد ويعيش. ما دام ذلك الضوء الأزرق المفعم بالأمل لا يزال يسطع، سننجو جميعًا. تذكَّرت كلمات والدي المفعمة بالأمل.

عندما هبطنا لم نذهب أنا وكايوكو مباشرة إلى منزلنا الجديد تحت الأرض، بل ذهبنا لنبحث عن والدي في محطة قيادة أسطول الفضاء على السطح. لكن عندما وصلنا إلى المحطة لم أجد سوى وسام شرف مُنح له بعد وفاته، وكان باردًا كالثلج. قدَّمه لي قائد أسطول جوي. وأخبرني أنَّ والدي فقد حياته خلال عملية إزالة الكويكبات من مسار الأرض.

دفع انفجار مادة مضادة شظية من كويكب مباشرة إلى مركبته الفردية. قال قائد الأسطول الجوي: «عندما حدث ذلك كانت الصخرة تسير بسرعة مائة كيلومتر في الثانية مقارنة بسفينته، وتبخَّرت مقصورة القيادة بالكامل عند الاصطدام. لم يشعر بأي ألم. أؤكد لك، لم يشعر بأي ألم إطلاقًا».

عندما بدأت الأرض تسقط مجددًا نحو الشمس، سافرت أنا وكايوكو إلى السطح لرؤية مناظر الربيع، لكن خاب أملنا بشدة. ما زال العالم رماديًا، أحادي اللون تحت سماء ملبَّدة بالغيوم. انتشرت بحيرات متجمِّدة نتجت عن مياه البحر المتبقية في كل المشهد، ولا نبتة واحدة خضراء. لا يزال الغبار الكثيف في الغلاف الجوي يحجب ضوء الشمس مانعًا درجات الحرارة من الارتفاع مجددًا. لم تذُب المحيطات ولا القارات حتى عندما اقتربنا من

الحضيض الشمسي. بقيت الشمس مجرد حضور باهت، شبح باهت يتوارى خلف الغبار.

بعد ثلاث سنوات، ومع تلاشي الغبار في الغلاف الجوي، مرَّت البشرية لآخر مرَّة لها عبر نقطة الحضيض الشمسي. عندما وصلنا إليها حظي سكان نصف الكرة الشرقي بامتياز مشاهدة أسرع شروق وغروب شمسي في تاريخ الأرض. قفزت الشمس من البحر وانطلقت بسرعة عبر السماء. تغيَّرت اتجاهات الظلال بسرعة كبيرة لدرجة أنها بدت كعقارب الثواني وهي تجتاح وجوه ساعات لا تُعد ولا تُحصى. كان ذلك أقصر يوم شهدته الأرض على الإطلاق، لم يستغرق أكثر من ساعة. عندما غرقت الشمس تحت الأفق وحلَّ الظلام على الكوكب، شعرتُ بوخزة من الحزن. بدا هذا اليوم العابر كأنه ملخَّص موجز لتاريخ الأرض الممتد لأربعة مليارات ونصف مليار سنة في النظام الشمسي. وحتى نهاية الكون لن تعود الأرض مرة أخرى. قالت كايوكو بحزن: «أظلم كل شيء». فأجبتها: «إنها أطول ليلة».

في نصف الكرة الشرقي ستستمر هذه الليلة لمدة ألفين وخمسمائة سنة. سيمر مائة جيل قبل أن تضيء قارة بأكملها من جديد بنور بروكسيما سنتوري. أما نصف الكرة الغربي فسيواجه أطول نهار، ومع ذلك لن يدوم إلا لحظة مقارنة بليلتنا التي تمتد لعصر كامل. على ذلك الجانب من العالم ستشرق الشمس بسرعة إلى ذروتها، حيث ستبقى ثابتة، تتقلَّص تدريجيًا. في غضون نصف قرن سيصبح من الصعب تمييزها عن أي نجم آخر.

المسار المخطَّط للأرض يتطلَّب الالتقاء بكوكب المشتري. مخطَّط لجنة الملاحة على النحو التالي: سيكون المدار الخامس عشر للأرض حول الشمس بيضاويًا إلى درجة أن نقطة الأوج ستدخل مدار المشتري. ستمر الأرض بالقرب من المشتري في مسار شبه تصادمي. من خلال استغلال قوة الجذب الهائلة لهذا الكوكب الغازي العملاق للمساعدة في التسارع ستحقق الأرض أخيرًا سرعة الهروب من النظام الشمسي.

بعد شهرين من مرور الأرض بالحضيض أصبح المشتري مرئيًا للعين المجردة. في البداية، بدا كنقطة ضوء خافتة، لكنه سرعان ما بدأ يتسطح ويأخذ شكل قرص. وبعد شهر آخر أصبح المشتري بحجم القمر الكامل بلونه البني المائل إلى الحمرة مع خطوطه الخافتة المرئية.

ثم بدأت بعض أشعة البلازما المنبعثة من محركات الأرض، والتي ظلت عمودية لمدة خمسة عشر عامًا، في الانحراف. تُجرى التعديلات الأخيرة على وضعية الأرض استعدادًا للقاء. غاب المشتري ببطء تحت الأفق، وبقي مختفيًا لثلاثة أشهر تالية. لم نره، لكننا نعلم أن الكوكبين يقتربان من بعضهما بعضا.

كاد الأمر يفاجئنا لَما سمعنا أن المشتري أصبح مرئيًا مرة أخرى في نصف الكرة الشرقي. تدفَّق الجميع إلى السطح لرؤيته. عندما مررت عبر غرفة الضغط[1] في المدينة الجوفية رأيت محركات

---

(1) غرفة معادلة الضغط أو قفل هوائي (Airlock) هي حجرة أو ممر صغير ذو بابين محكمي الإغلاق، مصمَّم للسماح بالمرور بين منطقتين مختلفتين في الضغط الجوي أو التركيب الجوي، مع تقليل فقدان الضغط أو تغير التركيب بين هاتين المنطقتين.

الأرض التي عملت بشكل متواصل طوال خمسة عشر عامًا مطفأة. بات بإمكاننا رؤية النجوم في السماء مجددًا. الالتحام الجديد مع المشتري جارٍ.

حدَّق الجميع بتوتر نحو السماء الغربية، حيث بدأ وهج أحمر خافت يظهر فوق الأفق. أخذ هذا الوهج في التضخم حتى ملأ الأفق بأكمله. سرعان ما أدركت أن الامتداد الأحمر قد شكَّل حدًا واضحًا مقابل النجوم، قوسًا ضخمًا يمتد من طرف الأفق إلى طرفه الآخر. ومع ارتفاعه البطيء، تحوَّلت السماء تحته إلى اللون الأحمر، كما لو أنها ستارة مسرح مخملية تُسحب لتغطي بقية الكون.

شهقتُ مذهولًا من إدراك أنَّ تلك الستارة لم تكن إلا كوكب المشتري. كنت أعلم أن المشتري أكبر من الأرض بألف وثلاثمائة مرة، لكن لم أدرك حجم عظمته الهائل حقًا إلا عندما رأيته بعيني. من الصعب وصف مشاعر الخوف والاختناق المصاحبة لرؤية هذا الوحش وهو ينهض فوق الأرض. كتب أحد المراسلين لاحقًا: «لم أعلم إنْ كنت في كابوسي الخاص، أم إن الكون كله كان مجرد كابوس في عقل ذلك الإله الغامض الهائل».

مع استمرار صعود المشتري الرهيب احتلَّ تدريجيًا نصف السماء. ثم حصلنا على رؤية واضحة للعواصف العاتية التي اجتاحت طبقات سحبه، تدفع الغازات في الغلاف الجوي إلى خطوط فوضوية ومشوَّشة. علمت أنَّ تحت تلك الطبقات الكثيفة من السحب تكمن محيطات هائجة من الهيدروجين السائل والهيليوم السائل.

ظهرت البقعة الحمراء العظيمة الشهيرة. لا تزال هائجة على سطح المشتري بعد مئات الآلاف من السنين، دوامة هائلة كبيرة بما يكفي لابتلاع ثلاثة كواكب بحجم الأرض. ملأ المشتري السماء بأكملها. الأرض كأنها بالون يطفو فوق بحر المشتري المغلي من السحب الحمراء. تسلقتْ البقعة الحمراء العظيمة إلى منتصف السماء وحدقتْ إلى عالمنا بعين سايكلوب[1]. غمرت المشهد بأكمله بضوئها المروع.

من المستحيل تصديق أنَّ كوكبنا الصغير قادر على الإفلات من مجال جاذبية هذا العملاق. من الأرض بدا من غير المعقول حتى إنَّ الأرض قد تصبح قمرًا تابعًا للمشتري، لا بالتأكيد كنا سنسقط في الجحيم الكامن تحت ذلك المحيط الذي لا نهاية له من السحب. لكن حسابات مهندسي الملاحة كانت دقيقة بلا أخطاء، واستمرت السماء الحمراء المحيرة في الانجراف أمامنا.

وبعد فترة من الزمن ظهر هلال أسود على الأفق الغربي واتسع بسرعة ليكشف عن النجوم المتلألئة. تحرَّرت الأرض من قبضة جاذبية المشتري. في تلك اللحظة بدأت صفارات الإنذار تعوي، معلنة أن مدَّ الجاذبية[2] الذي أثاره المشتري يندفع عائدًا نحو اليابسة. أُبلغنا لاحقًا أن موجات عملاقة تجاوز ارتفاعها مائة

---

(1) سايكلوب: في الأساطير الإغريقية، عملاق بعين واحدة مستديرة في منتصف جبينه.

(2) المد والجزر الثقالي أو الجاذبي (Gravitational Tide) هو ظاهرة طبيعية تحدث بسبب قوة الجاذبية غير المتساوية التي تمارسها الأجرام السماوية على أجزاء مختلفة من جرم سماوي آخر.

متر اجتاحت القارات مرَّة أخرى. وأنا أركض نحو بوابات المدينة الجوفية اختلستُ نظرة أخيرة إلى المشتري الذي لا يزال يحتل نصف السماء.

ثمة خدوش واضحة تُشوِّه طبقة السحب الغازية لذلك العملاق. علمت لاحقًا أنها الأثر الذي تركته قوة جاذبية الأرض على سطح المشتري. وكوكبنا أيضًا خلَّف وراءه موجات جبلية من الهيليوم والهيدروجين السائلين.

في تلك اللحظة كانت الأرض، وقد تسارعت تحت تأثير جاذبية المشتري الهائلة، قد اندفعت نحو أعماق الفضاء، ومع ابتعادها عن المشتري وصلت إلى سرعة الإفلات. لم تعد بحاجة للعودة نحو الشمس، حيث لا يكمن هناك سوى الموت. أثناء ما كانت تندفع نحو آفاق الفضاء المفتوح، بدأ عصر التيه اللا متناهي.

تحت ظل المشتري الأحمر القاتم، في أعماق الأرض، وُلد ابني.

الفصل الثالث

الـثــورة

بعدما تركنا المشتري خلفنا زأرت عشرة آلاف من محركات الأرض في آسيا مجددًا. كانت ستعمل بكامل طاقتها على مدى الخمسمائة عام القادمة لتواصل تسريع الكوكب باستمرار، وخلال تلك الخمسمائة عام ستستهلك المحركات نصف جبال قارة آسيا كوقود لها.

بعد أربعة قرون من الخوف من الموت تنفَّس البشر أخيرًا الصعداء. لكن الاحتفال المنتظر لم يحدث، وما جرى لاحقًا فاق كل تصوُّر. بعد انتهاء التجمُّع الاحتفالي في مدينتنا الجوفية ارتديت بذلتي الحرارية وصعدت إلى السطح وحدي. سُوِّيت الجبال التي عرفتها في طفولتي بالأرض بواسطة آلات حفر عملاقة، ولم يتبقَّ سوى صخور عارية وتربة صلبة متجمِّدة.

تتخلل الفراغات الكئيبة بقع بيضاء ناصعة، تمتد على مرمى البصر: إنها مستنقعات الملح التي خلَّفها المد العظيم للمحيط. وأمامي كانت المدينة التي عاش فيها والدي وجدِّي -المدينة التي كانت يومًا موطنًا لعشرة ملايين- خرابًا. في ضوء البلازما الأزرق المنبعث من محرك الأرض كانت هياكل ناطحات السحاب الفولاذية المكشوفة تسحب وراءها ظلالًا طويلة، كأنها بقايا متحجِّرة لوحوش ما قبل التاريخ.

دمرت الفيضانات المزمنة وضربات النيازك كل شيء تقريبًا على السطح. كل ما صنعته البشرية والطبيعة عبر آلاف السنين أصبح الآن خرابًا، أصبح كوكبًا قاحلًا ومهجورًا كالمريخ.

في ذلك الوقت تقريبًا شعرت كايوكو بالضيق والقلق. تترك ابننا دون إشراف في كثير من الأحيان وتنطلق بالسيارة في رحلات جوية طويلة. حين تعود لا تقول سوى إنها ذهبت إلى النصف الغربي من الكرة الأرضية.

وأخيرًا، في أحد الأيام، أجبرتني على مرافقتها. قُدنا السيارة لمدة ساعتين بسرعة ماخ 4 قبل أن نلمح الشمس. بدأت تشرق للتوِّ فوق المحيط الهادي. لم تكن أكبر من كرة بيسبول، تبعث ضوء باهتًا وباردًا على السطح المتجمد.

على ارتفاع خمسة آلاف متر، حوَّلت كايوكو السيارة إلى وضع التحليق، ثم سحبت طردًا طويلًا من المقعد الخلفي. بعدما أزالت غلافه رأيت أنه تلسكوب فلكي من النوع الذي يفضِّله الهواة. فتحت كايوكو نافذة السيارة، وجَّهت التلسكوب نحو الشمس وطلبت مني أن أنظر. رأيت الشمس مكبَّرة مئات المرات عبر العدسة المظللة. رأيت بوضوح البقع الشمسية الفاتحة والداكنة وهي تنجرف ببطء عبر سطحها، وحتى البروزات الخافتة عند أطراف قرص الشمس.

ربطت كايوكو التلسكوب بجهاز الكمبيوتر الموجود على متن السيارة والتقطت صورة للشمس، ثم عرضت صورة شمسية أخرى وقالت: «هذه من أربعة قرون». بدأ الكمبيوتر في مقارنة الصورتين. سألت كايوكو مشيرة إلى الشاشة:

- هل ترى ذلك، السطوع، مصفوفات البكسل[1]، احتمالات البكسل[2]، إحصائيات الطبقات، كل المعايير متطابقة تمامًا!

هززت رأسي وقلت:

- وماذا يُثبت ذلك؟ تلسكوب ألعاب وبرنامج معالجة صور رخيص، وأنتِ هاوية تجهلين ما تفعلين، لا تهتمي بتلك الشائعات.

صرختْ في وجهي:

- أحمق!

ثم سحبت التلسكوب وأعادت توجيه السيارة نحو المنزل. وفي الطريق لاحظت بعض السيارات الأخرى، فوقنا وتحتنا، تُحلّق في الهواء كما فعلنا. كل نافذة سيارة موجَّهة نحو الشمس بتلسكوب يراقبها.

على مدار الأشهر القليلة التالية انتشرت في جميع أنحاء العالم احتجاجات رهيبة كالنار في الهشيم. أصبح المزيد والمزيد من الناس يعتبرون من واجبهم مراقبة الشمس باستخدام أدوات أكبر وأكثر تطورًا، حتى إنَّ منظمة غير حكومية أطلقت مجموعة من المجسات[3] نحو الشمس عبرت هدفها بعد ثلاثة أشهر. وأكَّدت

(1) مصفوفات البكسل (Pixel Arrays) ترتيب ثنائي الأبعاد ومنتظم للبكسلات (الوحدات الأساسية التي تشكل الصور الرقمية).

(2) احتمالات البكسل (Pixel Probabilities) قيم رقمية تُمثل احتمالية انتماء بكسل معين إلى فئة أو تصنيف محدد.

(3) أدوات أو أجهزة متخصصة ومصمَّمة لاستكشاف أو فحص أو جمع معلومات من بيئة أو نظام معين.

البيانات المُرسلة الحقيقة أخيرًا: لم تتغيَّر الشمس على الإطلاق خلال الأربعة قرون الماضية.

في كل قارة اضطرب الوضع في المدن الجوفية مثل براكين تغلي وتوشك على الانفجار. في أحد الأيام، امتثالًا لمرسوم من التحالف، وضعنا أنا وكايوكو ابننا في مركز الرعاية. في طريق عودتنا إلى المنزل شعر كلانا بانقطاع الرابط الوحيد الذي كان يجمعنا.

عندما اقتربنا من الساحة المركزية رأينا رجلًا يخاطب حشدًا من الناس، وآخرين يوزِّعون أسلحة على المواطنين المتجمِّعين حول المتحدث. قال الرجل:

«أيها المواطنون! لقد تعرَّضت الأرض للخيانة! خيانة الإنسانية! خيانة الحضارة! نحن جميعًا ضحايا خدعة هائلة! حجم هذه الخدعة سيفاجئ حتى الإله نفسه! الشمس لم تتغيَّر على الإطلاق! لن تنفجر، لا حينها ولا الآن ولا أبدًا! إنها الرمز الحقيقي للخلود! القابل للانفجار حقًا هو الطموح الشرير والخبيث لأولئك الذين في التحالف! اختلقوا كل هذا فقط ليؤسسوا إمبراطوريتهم الاستبدادية! دمَّروا الأرض! دمَّروا الحضارة الإنسانية! أيها المواطنون! أيها المواطنون أصحاب الضمائر! احملوا السلاح وأنقذوا كوكبنا! أنقذوا الحضارة الإنسانية! سوف نُسقط التحالف! سوف نسيطر على محركات الأرض ونوجه كوكبنا بعيدًا عن أعماق الفضاء الباردة إلى مداره الأصلي! إلى حضن الشمس الدافئ!».

تقدَّمت كايوكو وأخذت بندقية هجومية من أحد الموزِّعين للأسلحة منضمَّة إلى صفوف المواطنين المسلحين دون النطق

بكلمة. لم تلتفت إلى الوراء وهي تختفي وسط ضباب المدينة الجوفية إلى جانب جيرانها، أما أنا فبقيت واقفًا في مكاني. الميدالية التي ضحَّى والدي بحياته وولائه من أجلها في جيبي. تقبض عليها يدي بشدة، حتى إن أطرافها وخزت جلدي وأسالت الدم.

بعد ثلاثة أيام اندلعت الثورة في كل قارة. أينما ذهبت قوات المتمردين، انضم الناس إلى صفوفها. قلَّة فقط من المواطنين ما زالوا يشكون في أنهم خُدعوا. ومع ذلك انضممت إلى جيش التحالف. ليس لإيماني بالحكومة، لكن عائلتي خدمت في الجيش لثلاثة أجيال. زرعوا بذور الولاء عميقًا في قلبي، وخيانة التحالف ببساطة أمر لا يمكن تصوره مهما كانت الظروف.

سقطت الأمريكتان وأفريقيا وأوقيانوسيا، وحتى القارة القطبية الجنوبية، الواحدة تلو الأخرى بيد المتمردين، وتراجع جيش التحالف إلى خطوط دفاعية حول محركات الأرض في شرق آسيا ووسطها، مستعدًا للدفاع عنها حتى الموت.

سرعان ما طوَّقت قوات المتمردين تلك الخطوط. فاقت أعدادهم قوات التحالف بكثير. لكن بسبب قرب المحركات، لم تُحرز الهجمات أي تقدم لفترة طويلة. لم تكن لدى المتمردين رغبة في تدمير المحركات، ولذلك امتنعوا عن استخدام الأسلحة الثقيلة، مما منح التحالف مهلة مؤقتة.

استمر الجمود بين الجانبين لثلاثة أشهر، لكن بعد انشقاق اثنتي عشرة فرقة ميدانية متتالية، انهارت دفاعات التحالف على كل الجبهات. وبعد شهرين، ومع اشتداد الأوضاع سوءًا، وجد آخر مائة ألف جندي حكومي أنفسهم محاصرين من كل جانب في

مركز التحكم بمحركات الأرض على الساحل.

كنت وقتها برتبة رائد فيما تبقّى من الجيش. ومركز التحكم بحجم مدينة متوسطة، مبني حول جسر الملاحة الأرضي. تسبَّبت ضربة ليزر في خسارة ذراعي فأُدخِلت جناح الإصابات القتالية، وهناك علمت أن كايوكو قُتلت في معركة أستراليا.

مثل الآخرين في الجناح قضيت أيامًا وليالي في الشرب حتى أفقد الوعي. فقدنا أي إحساس بالحرب الدائرة خارج الجدران، ولم نعد نكترث بها. لا أعلم كم من الوقت مضى حين سمعت صوتًا يصرخ عبر الجناح: «أتدرون لماذا انتهى بكم الحال إلى هذا؟ لأنكم تلومون أنفسكم على وقوفكم ضد البشرية في هذه الحرب وكذلك أنا».

عندما أدرت رأسي لأنظر رأيت متحدثًا يحمل نجمة جنرال على كتفه. تابع قائلًا: «لا يهم، لدينا فرصة أخيرة لإنقاذ أرواحنا. يبعد جسر الملاحة الأرضية ثلاثة مبانٍ فقط. سنستولى عليه ونسلمه للبشر العقلاء. في الخارج! أدينا واجبنا تجاه التحالف، والآن يجب أن نؤدي واجبنا تجاه البشرية!».

سحبت مسدسي بذراعي السليمة وتبعت الحشود الهائجة من الجنود القادرين والجرحى المتدفقين عبر الممرات الفولاذية نحو الجسر. ولدهشتي لم نواجه في طريقنا مقاومة تُذكر، بل انضمام المزيد والمزيد من أشخاص يظهرون من متاهة الممرات المعقدة.

وأخيرًا وصلنا إلى بوابة معدنية شاهقة لم أستطع رؤية أعلاها. بدأت تهتز وتنفتح، فانطلقنا داخل جسر الملاحة الأرضية. على الرغم من رؤيتنا له مرارًا وتكرارًا على شاشات التلفاز فإن عظمة

الجسر أذهلت الجميع. من الصعب تقدير مساحة المكان، لاختفاء أبعاده خلف محاكاة هولوجرافية ضخمة للنظام الشمسي تهيمن على الغرفة.

تمثل الصورة كلها فراغًا أسود يمتد إلى ما لا نهاية في كل الاتجاهات. بمجرد دخولنا، بدا كأننا معلقون داخل هذا الظلام.

نظرًا لأن المحاكاة صُمِّمت لتعكس الحجم الحقيقي للنظام الشمسي، فقد بدت الشمس والكواكب صغيرة جدًا كأنها يراعات مضيئة بعيدًا، لكنها لا تزال مرئية. ثمة دوامة حمراء لافتة تمتد من النقطة البعيدة التي تمثل الشمس، تنتشر مثل تموجات حمراء متحدة المركز على سطح محيط أسود شاسع. كان هذا مسار الأرض. في نقطة على الحافة الخارجية للدوامة، تحوَّل الخط أخضر ساطعًا، مشيرًا إلى المسافة التي لا تزال الأرض بحاجة لقطعها.

مرَّ الخط الأخضر فوق رؤوسنا. تتبَّعناه بأبصارنا حتى اختفى في أعماق بحر ساطع من النجوم، حيث كانت نهايته أبعد من أن تُرى. ثمَّة جزيئات غبار متلألئة تطفو في هذا الامتداد الأسود بينما اقتربت تلك الجزيئات، أدركت أنها شاشات افتراضية مليئة بسيل من الأرقام والمنحنيات المتدفقة.

ثم وقعت عيني على منصة الملاحة الأرضية المعروفة لكل إنسان على الكوكب. كانت تبدو كأنها كويكب فضِّي أبيض يطفو في الظلام. زاد هذا المشهد من صعوبة إدراك حجم هذا المكان، إذ كانت منصَّة الملاحة نفسها عبارة عن ساحة واسعة. كانت الآن مكتظة بأكثر من خمسة آلاف شخص، من بينهم قادة التحالف ومعظم أعضاء لجنة الهجرة بين النجوم المسؤولة عن تنفيذ خطة الرحلة وآخر الموالين المتبقين.

دوَّى صوت الرئيس التنفيذي في الظلام قائلًا: «يمكننا القتال حتى النهاية، لكننا قد نفقد السيطرة على محركات الأرض. وإذا حدث ذلك فقد تحرق المواد الانشطارية الزائدة الكوكب بأكمله أو تتسبب في تبخر المحيطات، ولهذا قررنا الاستسلام. نحن نفهم الشعب. تحمَّلت البشرية أربعين جيلًا من النضال المر، ويجب أن تتحمل مائة جيل أخرى. من غير الواقعي أن نتوقع من الجميع البقاء عقلانيين طوال هذه الرحلة، لكننا نطلب من الناس تذكُّر أننا نحن الخمسة آلاف الذين نقف هنا -من الرئيس التنفيذي للتحالف إلى الجنود العاديين- بقينا مخلصين حتى النهاية. نعلم أننا لن نعيش لنشهد اليوم الذي يثبت فيه صدقنا، لكن إن نجت البشرية، فسوف تبكي الأجيال القادمة على قبورنا! سيكون هذا الكوكب، الأرض، نُصبًا تذكاريًا خالدًا لذكرانا!».

ثم انفتحت البوابة الضخمة لمركز التحكم مرة أخرى وخرج آخر خمسة آلاف من المستحوذين. قوات التمرد اقتادتهم إلى الشاطئ. اكتظ جانبا الطريق بالناس. بصق المتفرجون على الأسرى ورشقوهم بالجليد والحجارة. تحطمت بعض الأقنعة الواقية في بدلاتهم الحرارية، فكُشفت وجوههم لدرجات حرارة تقل عن مائة درجة تحت الصفر. لكنهم، رغم البرد القاتل الذي خدر أجسادهم، استمروا في السير يقاتلون من أجل كل خطوة.

رأيت فتاة صغيرة تلتقط قطعة جليد وتقذفها بكل ما أوتيت من قوة نحو رجل مُسن والغضب الوحشي يشتعل في عينيها ويخترق قناعها. عندما سمعتُ أن جميع الأسرى الخمسة آلاف قد حُكم عليهم بالإعدام، شعرتُ أن الحكم كان متساهلًا للغاية.

ميتة واحدة فقط؟ هل تكفي ميتة واحدة فقط لتكفر عن الشر الذي اقترفوه؟ هل يمكنها تعويض جريمة اختلاق خدعة مجنونة دمرت الأرض والحضارة البشرية؟ كان يجب أن يموتوا عشرة آلاف مرة!

تذكَّرت علماء الفلك الذين تنبأوا بانفجار الشمس والمهندسين الذين صمموا وبنوا محركات الأرض. مر على وفاتهم قرن من الزمان، لكنني رغبت بشدة في نبش قبورهم وجعلهم يموتون الموت الذي يستحقونه. كنت ممتنًا حقًا لأن منفذي الإعدام وجدوا طريقة مناسبة لتنفيذ الحكم. أولًا، صادروا البطاريات النووية المزودة للبدلات الحرارية بالطاقة لكل من صدر عليه الحكم، ثم نُقل السجناء إلى المحيط المتجمد، حيث تُركوا هناك لتنتزع الأحوال تحت الصفر الحياة من أجسادهم شيئًا فشيئًا.

وقف أكثر المجرمين خبثًا وخزيًا في تاريخ الحضارة البشرية متجمِّعين معًا، كتلة داكنة فوق الجليد. وثمَّة أكثر من مائة ألف شخص على الشاطئ لرؤية المشهد. أكثر من مائة ألف فك مشدود بالغضب، وأكثر من مائة ألف عين مشتعلة بالغضب ذاته الذي رأيته في وجه تلك الطفلة الصغيرة.

في ذلك الوقت توقفت جميع محركات الأرض وبدأت النجوم تتلألأ بشكل مهيب فوق الجليد. تخيلت البرودة تخترق جلودهم كالسكاكين، والدم يتجمَّد في عروقهم، والحياة تنسحب ببطء من أجسادهم. شعرت بدفء لذيذ يسري في جسدي عند هذه الفكرة. مع مشاهدة الحشد للأسرى وهم يستسلمون تدريجيًا للبرد القاتل، بدأت معنوياتهم بالارتفاع وشرعوا في غناء عزف

مبهج من أغنية «شمسي»[1]. وأنا أغني معهم حدَّقت في اتجاه نجم كان أكبر قليلًا من باقي النجوم، قرصه الصغير يشع بضوء أصفر، كانت تلك الشمس.

يا شمسي، يا شمسي
يا أم الحياة
وأبو الخلق
روحًا مضيئة وإلهًا في العلا!
ثابتة وأبدية
لسنا سوى غبار نجوم في مَدارك
ومع ذلك كالحمقى
تجرأنا على الحلم بهلاكك.

مرَّت ساعة وما زال أولئك، أعداء البشرية، واقفين على الجليد، لكن لم يبقَ أحد منهم حيًا بعد تجمُّد دمائهم في عروقهم. وفجأة فقدت بصري. مرت بضع ثوانٍ قبل بدء نظري في التعافي. بدأ الجليد والشاطئ والحشد المتفرج في الوضوح تدريجيًا. وأخيرًا أصبحت الرؤية واضحة من جديد، بل أوضح من ذي قبل لأنَّ العالم كان مغمورًا بضوء أبيض ساطع. كان هذا البريق المفاجئ هو ما أصابني بالعمى للحظة.

لكنَّ النجوم لم تظهر من جديد، فقد ابتُلع لمعانها كأنَّ الكون قد ذاب تحت وهج الضوء القاسي.

---

(1) أغنية نابولية تراثية، يعود تاريخها إلى عام 1898. لحَّنها إدواردو دي كابوا وكتب كلماتها جيوفاني كابورو، لكن بكلمات متغيرة في النص.

كان الوميض يشع من نقطة واحدة في الفضاء، وقد أصبحت تلك النقطة الآن مركز الكون، وكنت أحدق فيها مباشرة أثناء حدوث ذلك. حدث انفجار الهيليوم. توقَّف غناء «شمسي» فجأة. جمد الحشد على الشاطئ في أماكنهم مثل الجثث الخمسة آلاف على الجليد. بدوا متصلبين ساكنين كالحجر.

نشرت الشمس ضوءها وحرارتها على الأرض لآخر مرَّة. على السطح ذاب الجليد أولًا متصاعدًا في أعمدة من البخار الأبيض، ثم بدأ البحر في الذوبان، وبدأت طبقات الجليد تُصدر صريرًا وتأوُّهات مع تسخينها بطريقة غير متساوية. وبالتدريج بدأ الضوء يخفت، واكتسبت السماء مسحة زرقاء. لاحقًا، بفعل الرياح الشمسية الشرسة، ظهر الشفق القطبي في السماء[1]، ستائر هائلة من الضوء البراق ترفرف عبر السماوات.

وقف آخر المستحوذين بثبات على قمة الجليد، خمسة آلاف تمثال أبرزهم ضوء الشمس المفاجئ الساطع في وضوح تام. استمر الانفجار الشمسي وقتًا قصيرًا. بعد ساعتين بدأ الضوء يضعف بسرعة حتى انطفأ تمامًا. حلَّت مكان الشمس كرة حمراء باهتة. من موقعنا، بدأت تتضخم ببطء حتى وصلت إلى حجم الشمس القديمة، ذكرى غريبة من مدار الأرض الأصلي. كانت ضخمة لدرجة أن قطرها تجاوز مدار كوكب المريخ.

---

(1) قبل وصول الرياح الشمسية إلى الأرض، يحمي المجال المغناطيسي الأرض منها، ويوجه معظم هذه الجسيمات نحو القطبين الشمالي والجنوبي. عندما تصطدم الجسيمات المشحونة هذه بالغازات الموجودة في الغلاف الجوي العلوي للأرض (مثل الأكسجين والنيتروجين)، فإنها تمنحها طاقة، وتطلق الغازات بدورها ضوءًا ملونًا. كل غاز يُصدر لونًا مختلفًا.

عطارد، الزهرة والمريخ -رفاق الأرض الدائمون- تحولوا إلى خيوط من الدخان بسبب الإشعاع الحراري الهائل، لكنها لم تعد شمسنا بعد الآن. لم تعد تبعث الضوء أو الحرارة، بل بدت كقطعة ورق حمراء باردة ملصقة على صفحة السماء، توهجها الخافت مجرد إنعكاس لضوء النجوم المحيط بها. هذا هو المصير التطوري المشترك لجميع النجوم متوسطة الحجم: التحوُّل إلى عملاق أحمر.

خمسة مليارات سنة من الحياة العظيمة أصبحت الآن حلمًا عابرًا. لقد ماتت الشمس، ولحسن الحظ ما زلنا أحياء.

الفصل الرابع
عصر التيه

وأنا أسترجع كل هذا الآن يكون قد مضى نصف قرن. منذ عشرين عامًا تجاوزت الأرض مدار بلوتو وغادرت النظام الشمسي، مواصلة رحلتها الوحيدة في أعماق الفضاء الشاسع والبارد. زيارتي الأخيرة للسطح، قبل اثني عشر عامًا تقريبًا رفقة ابني وزوجته الشقراء ذات العينين الزرقاوين، كانت حاملًا في ذلك الوقت.

عندما وصلنا إلى السطح، أول ما لاحظته عدم رؤية أشعة البلازما الهائلة لمحركات الأرض. على الرغم من معرفتي بأن المحركات لا تزال تعمل بكامل طاقتها اختفى الغلاف الجوي للأرض. لم يعد ثمَّة ما يشتت ضوء البلازما. الأرض مغطاة ببلورات غريبة شفافة ذات لون أصفر مخضر. مكونة من الأكسجين والنيتروجين الصلب، بقايا غلافنا الجوي المتجمد.

من المثير للاهتمام أنَّ الغلاف الجوي لم يتجمَّد بطريقة متساوية على السطح، بل تشكل في تلال غير منتظمة أشبه بالهضاب.

أما سطح البحر المتجمِّد، الذي كان يومًا ما مستويًا وناعمًا، فقد ارتفع ليشكل مشهدًا بلوريًا رائعًا. فوقنا امتدت مجرة درب التبانة بلا حركة عبر السماء كأنها تجمَّدت هي الأخرى. لكنَّ النجوم

ساطعة لدرجة أنه يصعب النظر إليها طويلًا. ستستمر محركات الأرض في العمل دون انقطاع على مدار الخمسمائة عام القادمة لتسرع الكوكب حتى يصل إلى 0,5% من سرعة الضوء، وستبحر الأرض بهذه السرعة الهائلة لمدة ألف وثلاثمائة عام.

بعد أن تُكمل ثلثي رحلتها، سنعكس اتجاه محركات الأرض لتدخل في مرحلة تباطؤ تستمر خمسمائة عام. بعد ألفين وأربعمائة عام من السفر ستصل الأرض أخيرًا إلى بروكسيما سنتوري. في غضون مائة عام أخرى ستستقر في مدار ثابت حول النجم لتصبح أحد توابعه.

أعلم أنني نُسيت
وأنها رحلة تيه بلا نهاية
لكن نادِني حين يحين الموعد
حين يرى الشرق فجرًا جديدًا
أعلم أنني نُسيت
وأن رحيلنا ماضي
لكن نادني حين يحين الموعد
حين يرى البشر السماء زرقاء أخيرًا
أعلم أنني نُسيت
وحكايتنا الشمسية انتهت
لكن نادِني حين يحين الموعد
حين تتدلى الأزهار من كل غصن

في كل مرَّة أسمع فيها تلك الأغنية، يغمر الدفء هذا الجسد اليابس العجوز، وتفيض عيناي الجافتان بالدموع، وفي عين خيالي تشرق شموس ألفا سنتوري الذهبية الثلاث[1] واحدة تلو الأخرى من الأفق، تغمر كل شيء بنورها الدافئ.

ذاب الغلاف الجوي الصلب، وصارت السماء صافية وزرقاء من جديد. تُنبت البذور المزروعة قبل ألفي عام من التربة المذابة، تتنفَّس حياة جديدة على الأرض.

أرى أبناء أحفادي من الجيل المائة يلعبون ويضحكون فوق الحقول الخضراء. تجري الجداول الصافية عبر المروج ممتلئة بأسماك فضِّية صغيرة. أرى كايوكو تركض نحوي عبر الأرض الخضراء، شابة وجميلة كملاك. آه يا أرضي التائهة... يا أرضي التائهة.

(1) يتكون نظام ألفا سنتوري من ثلاث نجوم تشبه الشمس بالفعل. لو افترضنا أن كوكب يدور في مداره سيرى شروق ثلاث شموس. ألفا سنتوري A وألفا سنتوري B وبروكسيما سنتوري.

الجبل

الفصل الأول

حيث ثمة جبل

قال القبطان رافعًا حاجبه: «اليوم سأجعلك تُخبرني أخيرًا لماذا لا تنزل إلى اليابسة؟»، استطرد وهو يُحدِّق في فينج فان بنظرات فاحصة: «مضت خمس سنوات، رست سفينة بلووتر في عدد لا يُحصى من الموانئ، في بلدان أكثر مما أستطيع العد، مع ذلك لم تنزل إلى الشاطئ ولو مرَّة واحدة، لا عندما رست السفينة في الصين، ولا حتى العام الماضي في تشينجداو حينما دخلنا حوض السفن للصيانة. أنت آخر شخص أحتاج إخباره لأي حدٍّ وصلت حالة الفوضى في السفينة وبلغ الصخب، ومع ذلك بقيت هنا متحصِّنًا بمقصورتك لمدة شهرين».

ردَّ فان بسؤال:

- هل أُذكِّرك بدور تيم روث في أسطورة 1900[1]؟

ردَّ القبطان غير متأكد هل يمزح أم لا:

---

(1) شخصية رجل وُجد رضيعًا في صندوق ليمون على متن سفينة ركاب فاخرة في بداية القرن العشرين، ولم يغادر السفينة طوال حياته قط. فيلم درامي موسيقي إيطالي صدر عام 1998. إخراج جوزيبي تورناتوري، مقتبس عن مونولوج مسرحي للكاتب الإيطالي أليساندرو باريكو بعنوان «Novecento 900».

- هل تُلمح إلى أننا لو أغرقنا يومًا بلووتر فإنك تخطط للغرق معها كما فعل؟

أجاب فان:

- سأنتقل إلى سفينة أخرى. ثمَّة مكان دائمًا على سفن علوم المحيطات لمهندس جيولوجي لا يغادر السفينة أبدًا.

عاد القبطان إلى سؤاله الأصلي:

- هذا يقودنا تلقائيًا لسؤال: أهنالك شيء على اليابسة يمنعك من النزول؟

أجاب فان:

- على العكس تمامًا، ثمة شيء أشتاق إليه بشدة.

سأل القبطان بفضول وإن بدأ صبره ينفد قليلًا:

- ما هو هذا الشيء؟

قال فان بنظرة شاردة للبعيد:

- الجبال.

واقفان على جانب الميناء في سفينة أبحاث العلوم الجيولوجية بلووتر، ينظران إلى مياه المحيط الهادي الاستوائية. أول مرَّة تعبر خط الاستواء كانت قبل عام فقط. في ذلك الوقت استسلما للمرح واحتفلا بالمناسبة بطقوس عبور الخط القديم[1]. لكن اكتشافهم ترسُّب عقد المنجنيز في قاع البحر[2] جعلهم يقطعون خط الاستواء

(1) تقليد بحري قديم ابتهاجًا بعبور خط الاستواء للمرة الأولى، يتضمَّن طقوسًا مضحكة يقودها بحارة متمرسون.

(2) اكتشاف تجمُّع عقيدات المنجنيز في قاع البحر يعني العثور على منطقة فيها كميات كبيرة من كُرات معدنية غنية بالمعادن القيمة، مثل المنجنيز والنيكل والنحاس والكوبالت. وبالتالي مسح المنطقة التي يقطعها خط الاستواء ذهابًا وإيابًا عددًا لا يُحصى من المرات.

مرات أكثر مما يمكن لأي منهما تذكُّرها. بحلول هذه اللحظة كانا قد نسيا تمامًا وجود ذلك الحد غير المرئي.

أثناء غروب الشمس ببطء خلف أفق البحر الغربي، لاحظ فان أنَّ المحيط هادئ على نحو غير مألوف. في الواقع لم يسبق أن رآه ساكنًا إلى هذا الحد. ذكَّره ببحيرات الهملايا، الساكنة حتى السواد، كعيون الأرض.

ذات مرَّة، تسلل واثنان من زملائه لرؤية فتاة تبتية تستحم في إحدى تلك البحيرات، لكن مجموعة من الرعاة رصدوهم وبدأوا ملاحقتهم بسكاكين مشرعة. عندما فشلوا في الإمساك بهم، رموهم بالحجارة. قصفوهم بدقة مذهلة، فلم يكن أمام فان ورفيقيه خيار سوى الاستسلام. تأملهم الرعاة قليلًا ثم قرروا إطلاق سراحهم. تذكَّر فان تمتمة أحد الرعاة بلغة أهل التبت: «لا يُحسن الغرباء الركض هنا في الأعالي بالطبع».

قاطع القبطان شرود فان قائلًا:

- تحب الجبال؟ نشأت هناك إذن.

شرح فان:

- لا إطلاقًا، مَن يعيشون طوال حياتهم وسط الجبال، لا يبالون بها في الغالب. ينتهي بهم الحال لرؤيتها كعوائق تفصلهم عن العالم. عرفت شيربا الذي تسلق إيفرست إحدى وأربعين مرَّة، وفي كل مرَّة تقترب مجموعته من القمة، يتوقف لمشاهدة الآخرين يُكملون الطريق وحدهم. لم يشغله قط بلوغ القمة، ولا تظن للحظة أنه غير قادر: بوسعه الصعود من الجهة الشمالية والجنوبية في عشر ساعات فحسب.

مكانان فقط يمكن الشعور فيهما بسحر الجبال الحقيقي: من السهول البعيدة أو واقفًا على القمة. في سهول خبي الواسعة، موطني. رأيت جبال تايهانغ من الغرب. لكن بيني وبينها امتدَّت مساحات شاسعة من الأرض المسطحة السهلة دون أي عوائق أو علامات. لم يمضِ وقت طويل على ولادتي حتى حملتني أمي خارج المنزل لأول مرَّة. قبل أن يقوى عنقي الصغير على حمل رأسي أدرت وجهي نحو الغرب وناغيت بكل ما في قلبي. بمجرد أن تعلمت المشي كانت أولى خطواتي المتعثرة في اتجاه تلك الجبال.

عندما كبرت قليلًا خرجت ذات صباح باكر وسرت بمحاذاة سكة حديد شيجياتشوانغ- تايوان. سرت حتى منتصف النهار، وعندما قرصني الجوع عدت أدراجي. ومع ذلك لا تزال الجبال تبدو بعيدة بلا نهاية. في المدرسة قُدت دراجتي تجاهها، لكن مهما كانت سرعتي كانت الجبال كأنها تبتعد بنفس السرعة. في النهاية لم أشعر قط أنني اقتربت منها ولو بمقدار شبر واحد. بعد سنوات أصبحت الجبال البعيدة رمزًا لحياتي، مثل كثير من الأشياء، نراها بوضوح ولا نستطيع الوصول إليها. حلم متبلور في الأفق البعيد.

علق القبطان وهو يهز رأسه:

- زُرت ذلك المكان مرَّة، جبال قاحلة جدًا، لا يغطيها سوى بعض الحجارة المتناثرة والأعشاب البرية. لا بد أنك أُصبت بخيبة أمل.

ردَّ فان:

- لا، أبدًا. أنت وأنا ننظر إلى هذه الأمور على نحو مختلف تمامًا.

بالنسبة لي، كل ما رأيته هو الجبل، وما أردته هو تسلقه. لم أبحث عن شيء هناك. عندما تسلقتُ تلك الجبال لأول مرَّة ورأيت السهل الممتد تحتي، شعرت وكأنني وُلدت من جديد.

حين أنهى فان كلامه لاحظ أنَّ القبطان لا يُنصت، بل ينظر إلى السماء متأملًا النجوم المتناثرة.

قال القبطان مشيرًا إلى السماء بغليونه:

- لا ينبغي أن يكون نجم هناك.

لكن ثمة نجم خافت مرئي بالكاد.

- هل أنت متأكد؟

حوَّل فان نظره من السماء إلى القبطان وأكمل:

- هل أنت واثق؟ ألم تجعل أنظمة الجي بي إس استخدام السدسية[1] من الماضي؟ هل ما زلت تعرف النجوم إلى هذه الدرجة؟

أجاب القبطان:

- بالطبع، أساسيات فن الملاحة.

ثم عاد إلى موضوعهما السابق ملتفتًا إلى فان وقال:

- لكن كنت تقول...

أومأ فينج فان برأسه قائلًا:

- لاحقًا، في الجامعة، شكلتُ فريقًا لتسلق الجبال، وتسلقنا عدة قمم بارتفاع سبعة آلاف قدم، والأخيرة إلى إيفرست.

نظر القبطان إلى فان متفحصًا قبل النطق أخيرًا:

---

(1) السُدسية: آلة فلكية دقيقة استخدمها البحارة قديمًا لقياس الزاوية بين الأفق المرئي (خط الأفق) وبين جسم سماوي مثل الشمس أو نجم معين في وقت معين.

- كنت أظن ذلك! إنه أنت حقًا! لطالما شعرت أنك تبدو مألوفًا. هل غيَّرت اسمك؟

قال فان معترفًا:

- نعم، كنت أُدعى فينج هواباي.

سأله القبطان:

- أثرت ضجة كبيرة قبل بضع سنوات، هل كل ما قاله الإعلام عنك صحيحًا؟

قال فان بكآبة:

- الجوهر صحيح، في كل الأحوال مات المتسلقون الأربعة بسببي بالتأكيد.

أشعل القبطان غليونه مجددًا وأكمل:

- أعتقد أن قيادة فريق لتسلق الجبال لا تختلف كثيرًا عن قيادة سفينة: الجزء الأصعب ليس في معرفة متى تواصل التقدم، بل في فهم متى يجب التراجع.

ردَّ فان على الفور:

- لكن لو كنت تراجعت حينها لما حصلتُ على فرصة أخرى. تسلُّق الجبال مغامرة مكلفة جدًا، وكنا مجرد طلاب جامعيين ليس من السهل علينا إيجاد رعاة.

توقف ليلتقط أنفاسه، ثم قال:

- المرشدون الذين استأجرناهم رفضوا التقدم، ولهذا استغرقنا وقتًا أطول من المتوقع قبل إقامة أول معسكر قاعدي. تُنذر التوقعات بعاصفة، لكننا استنتجنا من دراسة الصور والخرائط

أن أمامنا على الأقل عشرين ساعة قبل أن تضرب ضربتها. بحلول ذلك الوقت كان فريقنا قد أقام المعسكر الثاني على ارتفاع ستة وعشرين ألف قدم، ظننا أنَّ بإمكاننا بلوغ القمة إذا انطلقنا فورًا. قل لي أنت، كيف يمكن التراجع في تلك اللحظة؟ لم يخطر لنا قط الاستسلام، لذا واصلنا الصعود.

قال القبطان وهو ينظر للأعلى مجددًا:

- ذلك النجم يزداد سطوعًا.

ردَّ فان باستخفاف:

- بالطبع، السماء تزداد ظلمة.

قال القبطان:

- هذا يبدو مختلفًا، لكن تابع.

- ربما عرفت ما الذي حدث بعد ذلك: ضربتنا العاصفة ونحن قريبون مما يُعرف بـ«السلم الصيني»[1] عند العتبة الثانية، هذا الحاجز الصخري شبه العمودي بارتفاع 28.500 قدم. القمة في متناول اليد تقريبًا، باستثناء خيط من الغيوم يصعد من الجانب الآخر، لا تزال السماء زرقاء تمامًا. ما زلت أتذكر بوضوح كيف بدت لي قمة إيفرست كأنها حافة سكين تمزق السماء فتُخرج دمها الشاحب المتصاعد.

---

(1) «Chinese Ladder» يشير إلى سلم معدني ثابت وُضع لتسهيل عبور حاجز صخري شديد الانحدار شبه عمودي يُعرف باسم «Second Step» على الجانب الشمالي الشرقي من الجبل. في عام 1975 ثبتت بعثة تسلق صينية سلمًا من الألومنيوم في هذا الجزء لتسهيل المرور. يُعتبر هذا السلم رمزًا لتحدي الإنسان للطبيعة والتعاون الدولي في سبيل تحقيق هدف مشترك.

سرح فان مع الذكرى قليلًا، ثم عاد إلى حديثه:

- لحظات وفقدنا كل رؤية: باغتتنا العاصفة بغتة وأثارت الثلوج من حولنا. غُطِّى كل شيء بياض كثيف لا يمكن اختراقه، لا يترك خلفه سوى عتمة قاتمة. في لحظة تُوقف القلب شعرت بأعضاء فريقي الأربعة الآخرين يُقتلعون من الجرف. كانوا متعلقين بحبل مربوط بي، وكل ما كنت أتشبَّث به هو فأس ثلج غرسته في شق بالصخرة، ببساطة لن يتحمَّل وزن خمسة أشخاص. تصرَّفت بغريزتي وقطعت مشبك الحزام الذي يربط الحبل. تركتهم يسقطون.

توقف للحظة وابتلع ريقه بصعوبة، وأكمل:

- لم يعثروا حتى اليوم على جثة اثنين منهم.

قال القبطان بنبرة جافة:

- إذن... مات أربعة بديلًا عن الخمسة جميعًا.

- نعم، تصرَّفتُ وفقًا لإرشادات السلامة في تسلُّق الجبال، ومع ذلك يبقى الحمل يجثم على قلبي.

توقف مرَّة أخرى، لكن هذه المرة ليس بسبب الذكريات، وتابع:

- أنت مُحق، هناك شيء غريب بشأن ذاك النجم، إنه يزداد سطوعًا حقًا.

قال القبطان:

- لا بأس.

ثم تابع وهو يزم شفتيه:

- هل لـ... لنقُل... لوضعك الحالي علاقة بما حدث آنذاك؟

ردَّ فان:

- هل عليَّ توضيح الأمر أكثر؟ ألا تتذكَّر الإدانات الساحقة وازدراء الإعلام الذي انصبَّ عليَّ في ذلك الوقت.

أضاف والألم ما زال واضحًا في صوته:

- وصفوا تصرُّفي بعدم المسؤولية ونعتوني بالأناني الجبان، ضحَّيت برفاقي الأربعة لأنجو. ظننت أنني قادر على الأقل على تبرئة نفسي من آخر تهمة، ارتديت عتاد التسلق ووضعت نظارتي الجبلية. كنت مستعدًا لتسلُّق جديد، لكن مكتبة الجامعة هي وجهتي هذه المرة. تسلقت ماسورة حتى وصلت إلى السطح، وكنت على وشك القفز عندما سمعت صوت أحد أساتذتي.

لم أنتبه لصعوده خلفي إلى السطح. سألني إن كنت حقًا أنوي إفلات نفسي بهذه السهولة وإذا ما كنت أحاول الهروب من العقاب الأقسى الذي ينتظرني فحسب. عندما سألته ماذا يقصد، قال إن العقاب هو عيش حياة بعيدة قدر الإمكان عن الجبال، ألَّا أراها مجددًا، أليس ذلك عقابًا أشد؟ فلم أقفز.

بالطبع تعرَّضت لسخرية أكبر، لكنني علمت أنَّ أستاذي على حق: هذا أسوأ من الموت بالنسبة لي. تسلُّق الجبال كان حياتي. سبب دراستي للجيولوجيا الوحيد، أما الآن فأنا أعيش حياة بعيدة تمام البعد عن شغفي، ممزَّقًا بضميري.. شعرت أنَّ ذلك عادل. لهذا السبب قدَّمت على هذه الوظيفة بعد التخرُّج، ولهذا أصبحت المهندس الجيولوجي على متن البلووتر.

أردف وهو يتنهَّد:

- في عرض البحر أنا أبعد ما أكون عن الجبال.

ظلَّ القبطان صامتًا، يُحدِّق بلا تعبير. ثم بدا تغيير الموضوع خيارًا أفضل. ثم كأنَّ السماء نفسها اختارت اللحظة المناسبة لتغيير الموضوع على نحو مفاجئ.

مكتبة
t.me/soramnqraa

قال القبطان بنبرة حادة:

- انظر مرة أخرى إلى ذلك النجم.

رفع فان نظره بدوره وصاح مندهشًا:

- يا للهول! إنه يتحوَّل إلى شيء ما.

لم يعُد النجم مجرد نقطة، بل تحوَّل الآن إلى قرص صغير يتسع بسرعة هائلة، وفي غمضة عين أصبح كرة بارزة في السماء، تتوهج بلون أزرق.

وقع خطوات سريعة تقترب جعلهما يعيدان أنظارهما إلى سطح السفينة. يركض الضابط الأول نحوهما مباشرة. وقبل اقترابه تمامًا، صرخ وهو يلهث مخاطبًا القبطان:

- تلقينا رسالة للتو: سفينة فضائية تقترب من الأرض! يمكننا رؤيتها بوضوح من موقعنا عند خط الاستواء! انظرا، ها هي!

نظر الثلاثة إلى السماء ليجدوا الكرة الصغيرة قد واصلت اتساعها السريع. تضخَّمت بالفعل حتى أصبحت بحجم القمر. تابع الضابط الأول حديثه سريعًا:

- أوقفت جميع المحطات بثها المعتاد لتنقل تقارير عنها. رُصد الجسم الآن وأكَّدوا طبيعته للتو. لا يستجيب لأي محاولة اتصال، لكن مساره يُظهره مدفوعًا بقوة هائلة، متجهًا مباشرة نحو الأرض! يقولون إنه بحجم القمر.

ثم وضع سماعة الأذن على رأسه، مُصغيًا باهتمام. فوقهم لم تعد الكرة الغريبة بحجم القمر، بل أصبحت أكبر منه بعشر مرات على الأقل، مهيمنة على السماء، وتبدو أقرب كثيرًا من القمر.

واصل الضابط الأول كلامه وهو يضغط بإصبعه على سماعة الأذن:

- يقولون إنها توقفت. أصبحت الآن في مدار متزامن مع الأرض على ارتفاع اثنين وعشرين ألف ميل. أصبحت قمرًا صناعيًا ثابتًا[1].

صرخ القبطان:

- قمر صناعي ثابت؟ هل تعني أنها ستبقى معلقة فوقنا؟

أكد الضابط الأول:

- نعم، فوق خط الاستواء، فوقنا مباشرة!

حدَّق فينج فان في تلك الكرة الضخمة في السماء، بدت شفافة مشبعة بضوء أزرق غامض لا يمكن فهمه. ولسبب ما أعطته نظرة واحدة إليها انطباعًا غريبًا كأنه يُحدِّق في كرة من ماء البحر. غمره شعور من الغموض العميق، وتملَّكه توق شديد مثل كل مرَّة صعد فيها مسبار عيِّنات قاع البحر، والآن وهو ينظر إلى الأعلى، انتابه نفس الإحساس تقريبًا، كأنَّ بقايا من زمن سحيق، طواها النسيان، عادت إلى السطح. صرخ القبطان وهو يلوِّح بغليونه بعنف نحو الخلف:

- انظروا المحيط! ماذا حدث للمحيط؟!

---

(1) القمر الصناعي الثابت: على ارتفاع 22 ألف ميل فوق خط الاستواء مباشرة بزاوية ميل صفر يدور بنفس سرعة دوران الأرض حول محورها وبنفس الاتجاه من الغرب إلى الشرق.

كان أول من تحرَّر من القوة المغناطيسية التي بدا أنَّ الكرة العملاقة تمارسها عليهم جميعًا. حيث أشار بدأ أفق المحيط بالانحناء، متقوِّسًا للأعلى كأنه موجة جيبية. هذه الكتلة الهائلة من الماء الصاعد ارتفعت بسرعة، وأصبحت أطول فأطول، كأنَّ يدًا عملاقة غير مرئية تمتد من الفضاء لتجرف المحيط.

قال فينج فان متعجبًا من رباطة جأشه لفهم ما يحدث:

- إنها كتلة السفينة الفضائية! تشد جاذبيتها المحيط!

كتلة السفينة على الأرجح مساوية لكتلة القمر، لكنها أقرب بعشر مرات! ولحُسن الحظ أنها دخلت في مدار متزامن مع الأرض، فالماء الذي تجذبه سيبقى في مكانه. أما لو تحركت السفينة فإنها سترسل موجة ثقالية[1] تجتاح العالم، كبيرة بما يكفي لتدمير القارات وسحق المدن.

بحلول اللحظة، ارتفعت هذه الموجة العملاقة إلى السماء، مُشكِّلة مخروطًا مسطح الرأس. جسدها يلمع بوهج أزرق صادر عن السفينة التي تعلوها وحوافها تشع بنيران قرمزية زاهية من شمس غاربة، اختفت الآن خلف الأمواج الشاهقة.

الهواء البارد القارس عند قمة المخروط جمَّد الزبد، مُطلقًا سُحبًا ضبابية سرعان ما تلاشت في سماء الليل، كما لو أنَّ ظلمة السماء قد شُقَّت. شعر فينج فان بقلبه يهتز تحت وطأة الذكريات وهو يتأمل المشهد. ورجع ذهنه عائدًا إلى يوم الصعود.

---

(1) سياق خيالي لوصف تأثير قوي جدًا للموجات الثقالية (موجات في نسيج الزمكان نفسه، تنبأت بها نظرية النسبية العامة لألبرت أينشتاين. تنشأ هذه الموجات عن تسارع الأجسام الضخمة جدًا، مثل اندماج الثقوب السوداء أو النجوم النيوترونية) إذا كانت قوية بما يكفي لإحداث تأثير ملحوظ على حركة المياه.

صرخ القبطان مما أعاده فجأة إلى اللحظة الراهنة:

- أعطني ارتفاعها.

بعد دقيقة، صرخ أحدهم قائلًا:

- نحو ثلاثين ألف قدم!

تمثَّل أمامهم أفظع وأروع مشهد رآه البشر على الإطلاق. وقف الجميع على ظهر السفينة مندهشين من رهبة المنظر. تمتم فينج فان مأخوذًا بعظمة المشهد أكثر من غيره:

- لا بد أنَّ هذا هو المصير.

صاح القبطان دون أن يُحوِّل عينيه عن المياه المتصاعدة:

- ماذا قلت؟

أعاد فان قوله بثقة:

- قلت إنه لا بد أن يكون المصير.

كان الأمر -لا بد أن يكون- المصير. لجأ إلى البحر هربًا من الجبال، ساعيًا لإبعاد نفسه قدر ما يستطيع إنسان، فإذا به يقف الآن في ظل جبل يفوق قمة إيفرست ارتفاعًا بألف قدم تقريبًا، أعلى جبل شهدته البشرية.

صرخ القبطان آمرًا الضابط الأول:

- خمس درجات إلى اليسار، بأقصى سرعة إلى الأمام! علينا مغادرة هذا المكان فورًا!

سأله فان في حيرة:

- نغادر؟ هل الوضع خطر؟

أجاب القبطان والعرق يتصبَّب على جبينه:

- خلقت سفينة الفضاء الغريبة منطقة شاسعة من الضغط المنخفض. يتكون الآن إعصار هائل. أؤكد لك، قد يكون

هذا أعظم إعصار شهدته الأرض. وإن لحق بسفينتنا بلووتر سيقتلعنا من الماء ويقذف بنا كما تفعل العاصفة بورقة شجر. أُصلي من أجل الفرار في الوقت المناسب.

في تلك اللحظة، أشار الضابط الأول إلى الجميع بالصمت واضعًا يده على سماعة أذنه مصغيًا باهتمام شديد. ثم قال:

- قبطان، الوضع أخطر بكثير! الأخبار الآن تؤكد أن الفضائيين جاؤوا لتدمير الأرض! لم تكتفِ سفينتهم بإثارة العواصف، بل هي على وشك ثقب الغلاف الجوي للأرض!

اتسعت عينا القبطان من الذهول وهو يسأل:

- ثقب؟ ثقب إلى أين؟

أجاب الضابط الأول موضحًا ما سمعه عبر اللا سلكي:

- ستخترق جاذبية السفينة الطبقات العليا من الغلاف الجوي، سيصبح غلاف الأرض كالبالون المثقوب يتسرَّب منه الهواء إلى الفضاء الخارجي، سيتلاشى كل الغلاف الجوي للأرض!

سأل القبطان وهو يواجه رعبًا بعد آخر:

- كم من الوقت تبقَّى لدينا؟

أفاد الضابط الأول بصوت آلي، لكنَّ عينيه المذعورتين كشفتا هلعه:

- يقول الخبراء إنَّ الضغط الجوي سيصل إلى مستوى قاتل خلال أسبوع تقريبًا.

استطرد وبدأ صوته ينخفض:

- ويقولون إنه عندما ينخفض الضغط إلى حدٍّ معين ستبدأ المحيطات بالغليان.

ارتعش وهو يسمع المزيد من الأخبار:

- يا للهول! سيكون الأمر مثل... سقوط جميع مدن الأرض الكبرى في حالة من الفوضى... فقدت البشرية كل مظاهر العقلانية... في كل مكان، يندفع الناس إلى المستشفيات والمصانع، ينهبون كل الأكسجين الذي يمكنهم الحصول عليه.

استمرَّ اتساع عينيه من الرعب، وأكمل:

- انتظر، يقولون الآن إن حشودًا مجنونة اجتاحت قاعدة كيب كانافيرال[1] للاستيلاء على الأكسجين السائل المستخدم في وقود الصواريخ.

بدا أنَّ روح الضابط الأول انهارت مع جسده:

- انتهى كل شيء!

قال القبطان بهدوء. بدا أن رباطة جأشه قد عادت، وبحركة سريعة من أصابعه أشعل غليونه مجددًا:

- أسبوع؟ هذا لا يمنحنا وقتًا كافيًا للعودة إلى الوطن.

ردَّ الضابط الأول، وأصبح صوته بلا مشاعر:

- صحيح، لا وقت للعودة إلى الوطن.

قال فينج فان بحماس مفاجئ في صوته. بدا جسده كله مستعدًا للموقف بوجه أحمر من الإثارة:

- إذا كان هذا هو الوضع، فلنُحسن استغلال ما تبقَّى من وقت.

---

(1) قاعدة كيب كانافيرال للقوات الفضائية (Cape Canaveral Space Force Station): كانت الموقع الأصلي لإطلاق العديد من الصواريخ والأقمار الصناعية والرحلات الفضائية المأهولة الأمريكية الأولى (مثل برنامج ميركوري).

سأل القبطان:

- وماذا تريد أن تفعل؟

أجاب فان بابتسامة:

- أتسلَّق جبلًا.

تحوَّلت ملامح الضابط فجأة من الحيرة إلى الصدمة التامة قائلًا:

- تتسلَّق جبلًا؟ تتسلَّق...؟

ثم شهق مشيرًا إلى جبل الماء الهائل الذي يلوح فوقهم:

- ذلك الجبل؟

ردَّ فان بهدوء:

- نعم، إنه الآن أعلى قمة في العالم، وحيثما وُجد جبل سيكون هناك دومًا مَن يتسلقه.

سأل الضابط الأول:

- وكيف تنوي تسلُّقه؟

قال فان مبتسمًا:

- أليس واضحًا؟ تسلُّق الجبال باستخدام اليدين والقدمين، لذا سأسبح.

صرخ الضابط الأول:

- هل جُننت؟ كيف ستسبح صعودًا على منحدر مائي بارتفاع ثلاثين ألف قدم؟ يبدو لي كأنه مائل بزاوية خمس وأربعين درجة! ها سيكون مختلفًا تمامًا عن تسلُّق الجبال. سيتعيَّن عليك السباحة بلا توقف، وإذا توقفت حتى للحظة ستنزلق

إلى الأسفل!

أصرَّ فان دون أن يتزحزح عن قراره:

- أريد المحاولة.

قال القبطان بلهجة جافة:

- دعه يذهب إذن، متى نحتضن شغفنا إن لم يكن الآن؟ كم تبعد قاعدة الجبل؟

أجاب أحدهم:

- حوالي اثني عشر ميلًا.

قال القبطان لفينج فان:

- خذ أحد قوارب النجاة ولا تنسَ أخذ طعام وماء كافيين.

عبَّر فان عن امتنانه العميق قائلًا:

- شكرًا لكم!

قال القبطان بابتسامة ساخرة وهو يربت على كتف فان:

- يبدو أنه يوم حظك.

ردَّ فان:

- أعتقد ذلك. قبطان، هناك شيء لم أخبرك به بعد: إحدى المتسلِّقات الأربعة على قمة إيفرست هي حبيبتي، وعندما قطعت الحبل لمعت فكرة واحدة في ذهني: لا أريد الموت، لا يزال هناك جبل آخر يجب تسلُّقه.

قال ذلك وعيناه تجمعان بين الألم والحماس المتقد. أومأ القبطان برأسه وقال:

- اذهب.

سأل الضابط الأول وقد بدا عليه الضياع:

- وماذا نفعل نحن؟

أجاب القبطان بتفكير عميق:

- بأقصى سرعة نبتعد عن العاصفة القادمة. لنربح يومًا إضافيًا في الحياة.

وقف فينج فان في قارب النجاة، ينظر إلى السفينة بلووتر وهي تُبحر مبتعدة في الأفق. سرعان ما أصبحت السفينة التي لطالما رآها منزله طوال حياته بعيدة تمامًا عن متناوله. خلفه ارتفع جبل الماء بهدوء تحت التوهج الأزرق للكرة الفضائية.

لو لم يشاهد تشكُّله لانخدع وظنه موجودًا هناك منذ ملايين السنين. كان المحيط هادئًا جدًا وسطحه مستويًا لا تعكره موجة. ومع ذلك شعر فينج فان بنسيم خفيف يلامس وجهه، ضعيف لكنه يهبُّ باتجاه كتلة الماء الهائلة. رفع شراع قارب النجاة وبدأ رحلته نحو الجبل. سرعان ما اشتد النسيم وامتلأ الشراع خلفه. صار مقدم القارب يشق سطح المحيط كالسيف، منطلقًا بسرعة نحو هدف فان.

في النهاية، لم تستغرق الرحلة البالغة اثني عشر ميلًا أكثر من أربعين دقيقة. ما إن بدأ فينج فان يشعر بقارب النجاة يصعد منحدر الماء، حتى قفز من جانب القارب إلى المياه الزرقاء المتوهجة بضوء السفينة الفضائية فوقه. ضربات أخرى ويصبح أول شخص يسبح على سفح الجبل. من موقعه لم يعد بإمكانه رؤية القمة، وعندما رفع رأسه خارج الجبل السائل، لم يرَ سوى امتداد لا نهائي من الماء المنحدر. كاد يتخيَّل عملاقًا وراء الأفق، يرفع المحيط مثل بطانية ضخمة من الماء.

سبح فينج فان باستخدام صدره. حاول الحفاظ على أكبر قدر

ممكن من طاقته. لا تزال تحذيرات الضابط الأول عالقة في ذهنه. بحساب سريع قدَّر المسافة إلى القمة بنحو ثمانية أميال. يقدر على قطع هذه المسافة بسهولة في مياه مستوية، لكن هنا عليه التعامل مع الانحدار. إذا توقف عن الحركة صعودًا سينزلق إلى الأسفل، وهذا وحده كفيل بجعل الوصول إلى القمة شبه مستحيل.

مع ذلك لم يكن الأمر مهمًا، مجرَّد محاولة تسلُّق هذا الإيفرست المائي أعظم مما تجرَّأ على الحلم به طوال مسيرته كمُتسلِّق جبال. حينما اجتاحت هذه المشاعر كيانه بدأ يشعر بالمزيد من الأحاسيس الجسدية. شعر بجسده يُسحب تدريجيًا إلى أعلى المنحدر. دون أن تتطلَّب السباحة للأعلى جهدًا إضافيًا.

عندما نظر إلى الخلف رأى قارب النجاة الذي تركه عند سفح الجبل. قبل مغادرة القارب أنزل شراعه، ومع ذلك ظلَّ القارب عائمًا على المنحدر بشكل غريب ثابتًا في مكانه. قرَّر فان تجريب شيء. توقف عن السباحة وبدأ في مراقبة محيطه بعناية. لم ينزلق. على العكس تمامًا، طفا على المنحدر كأنه غير موجود.

ضرب فان جبهته لاعنًا حماقته وحماقة الضابط الأول: إذا كانت مياه المحيط على المنحدر لا تتدفق إلى الأسفل، فلماذا ينساب شخص أو قارب إذن؟ حُيِّد تأثير الجاذبية للأسفل على المنحدر بسبب كتلة الكرة العملاقة. كلما صعد أكثر قلَّ إحساسه بجاذبية الأرض. هذا يعني أن زاوية الانحدار لا تهم على الإطلاق. بالنسبة للجاذبية، لم يكن هناك لا منحدر مائي ولا جبل وسط المحيط. القوى المؤثرة عليه لا تختلف عن التي يتعرَّض لها على سطح محيط مستوٍ.

عرف الآن أن هذا الجبل سيكون ملكه. واصل السباحة صعودًا، ومع تقدمه شعر أنَّ ضرباته تتطلب جهدًا أقل فأقل. يرجع ذلك في جزء كبير منه إلى أنَّ جسده أصبح أخف، مما سهَّل عليه الصعود لالتقاط أنفاسه.

من حوله رأى فان علامة أخرى على ضعف الجاذبية، كلما ارتفع سقط رذاذ المحيط ببطء أكبر. تنعكس هذه الظاهرة أيضًا في تموُّجات وحركات الأمواج، تصير أبطأ كلما صعد للأعلى. قسوة البحر المفتوح تلاشت تقريبًا، تاركة الأمواج أكثر نعومة ولطفًا مما يمكن للجاذبية العادية السماح به.

مع ذلك لم يكن البحر هادئًا تمامًا. بدأت الرياح تشتد، وظهرت نطاقات من الأمواج على المنحدر المائي. مع تحرُّرها من جزء كبير من جاذبية الأرض ارتفعت هذه الأمواج على نحو ملحوظ، مع أنها لا تتدحرج فوق المنحدر مثل الأمواج التقليدية الكاملة، بل في هيئة شرائح رقيقة من الماء تلتف حول نفسها بانسيابية أثناء انهيارها برفق. بطريقة غريبة، خُيِّلت لفان كرقائق خشب تنزعها فأرة خفية من سطح المحيط.

لم تُعق الأمواج تقدمه، بل على العكس تمامًا دفعته نحو القمة وهو يواصل سباحته المتسلقة. مع استمرار ضعف الجاذبية بدأت أمور غريبة تحدث: بدلًا من أن تدفعه الأمواج، أصبحت الآن تقذفه بلطف إلى الأمام. في غمضة عين شعر بأنه يغادر الماء ويرتفع فوق سطح المحيط لتأسره موجة أخرى بعد لحظة، ثم يعود إلى الهواء مجددًا.

دفعته أيادي المحيط اللطيفة، لكن القوية، بسرعة إلى الأمام والأعلى. في ظل هذه الظروف الغريبة، سرعان ما اكتشف أن أسلوب الفراشة في السباحة هو الأنسب لإسراع الصعود. اشتد الريح من حوله أكثر فأكثر، وباتت قبضة الجاذبية عليه أضعف فأضعف. تصل الأمواج هنا إلى ارتفاع ثلاثين قدمًا قبل السقوط بالحركة البطيئة. هذه التموُّجات الضخمة أكثر لطفًا من أي وقت مضى، تتدحرج برفق نحو بعضها البعض دون إصدار أي صوت عند سقوطها. لم يتبقَّ من الضجيج سوى عواء الإعصار المتزايد.

يقفز جسد فان الذي يزداد خفَّةً من قمة موجة إلى أخرى. عندما قفز مجددًا أدرك أنه يقضي وقتًا في الهواء أطول مما يقضيه في الماء. في الأعلى ميَّز بالكاد بين السباحة والطيران. تغلفه الأمواج الرقيقة بالكامل مرارًا وتكرارًا وتُدحرجه داخل نفق من المياه المتقلبة البطيئة. يلمع سقف هذه الأنفاق المتماوجة بضوء أزرق. من خلال السقف المائي الرقيق رأى مصدر الضوء، الكرة الفضائية العملاقة المعلقة في السماء.

شوَّش نفق الموج شكل السفينة، بدت لفينج فان كأنه يراها عبر عينين دامعتين. نظر إلى ساعته المقاومة للماء على معصمه الأيسر. لم يمضِ على صعوده سوى ساعة واحدة. وبسرعته المتحدية لم يتبقَّ سوى ساعة أخرى للوصول إلى القمة. فكَّر فان في بلووتر. وبالنظر إلى سرعة الرياح الحالية فإن العاصفة على وشك إطلاق غضبها في أية لحظة. ليس ثمة فرصة لفرار السفينة من الإعصار القادم. وفي ومضة أدرك خطأ القبطان الفادح، توجَّب عليه توجيه بلووتر نحو جبل الماء مباشرة.

بما أنَّ الجاذبية لم تمارس أي قوة سحب إلى أسفل المنحدر فبإمكان السفينة الإبحار نحو القمة بسهولة كما أبحرت عبر المحيط المستوي. وستكون القمة في عين العاصفة آمنة وهادئة! وما إن أدرك ذلك حتى سحب جهاز اللاسلكي من سترة النجاة. حاول الاتصال بها، لكن «بلووتر» لم تستجب. بحلول هذا الوقت، كان فينج فان قد أتقن مهارة القفز من قمة موجة إلى أخرى. ظل يتسلَّق بهذه الطريقة لمدة عشرين دقيقة قاطعًا بذلك ثلثي الطريق نحو القمة، بدت القمة الكروية بالكامل في متناول اليد. تتلألأ بضوء ناعم ينبعث من سفينة الفضاء الغريبة في الأعلى. بدت لفان كعالم غريب ينتظره.

في تلك اللحظة تحوَّل صفير الرياح إلى عواء حاد. يأتي هذا الصوت المرعب من كل الاتجاهات مصحوبًا بزيادة مفاجئة في شدة الرياح. أمواج يبلغ ارتفاعها خمسين قدمًا -بل حتى مائة قدم- رفيعة كالصفائح، ترتفع عاليًا، لكنها لم تسقط، بل تتمزَّق بفعل عاصفة الإعصار في الهواء. عندما نظر فان إلى الأعلى رأى المنحدر فوقه مغطى برذاذ القمم المتكسرة للأمواج وهي تؤدي رقصة هيستيرية ممزَّقة بالرياح فوق سطح المحيط.

في ضوء الكرة الفضائية المتوهِّجة، تلمع الرشقات الفوضوية بضوء أبيض مبهر. أخيرًا، قفز فينج فان لمرة أخيرة. حملته موجة نحيلة بارتفاع مائة قدم إلى الهواء. لكن الموجة تمزَّقت إلى شظايا بفعل الرياح العاتية في اللحظة التي غادر فيها قمتها، ووجد نفسه يسقط نحو حزام من الأمواج التي تتدحرج ببطء أمامه.

بدت الأمواج كأنها أجنحة شفافة عملاقة تنفتح ببطء لتعانقه، وما إن لامست يداه الممدودتان الأمواج تكسَّرت إلى ضباب أبيض

وتمزّق غشاؤها البلوري المتلألئ بفعل الرياح العنيفة. صاحب هذا المشهد الغريب صخب أغرب، بدا كأنه ضحك مزعج. في نفس اللحظة توقف فينج فان عن السقوط، أصبح جسده خفيفًا بما يكفي ليطفو.

بدأ المحيط الملتوي بجنون في الأسفل يبتعد عنه ببطء وهو يُقذف في الهواء كريشة في إعصار. بدا فان شبه منعدم الوزن يدور في الهواء الملتف حتى أصابه الدوار وشعر كما لو أن الكرة الفضائية المتوهّجة تدور حوله. عندما تمكّن أخيرًا من استعادة توازنه، أدرك مشدوهًا أنه في الواقع يدور في الهواء فوق قمة جبل الماء.

من ذلك الارتفاع بدت حزم الأمواج العملاقة المتصاعدة نحو الجبل كأنها ليست أكثر من خطوط طويلة. تتلوّى تجاه القمة، مما جعل الجبل يبدو كدوّامة مائية عملاقة، وشعر بأنَّ الدوائر التي ترسمها حتى القمة تزداد صغرًا، بينما تزداد سرعته. يُحمل مباشرة نحو قلب الإعصار.

عندما وصل إلى عين العاصفة شعر بضعف الرياح. يد الهواء غير المرئية التي تمسك به أطلقت سراحه بغتة، فسقط نحو جبل الماء، مباشرة إلى التوهج الأزرق الخافت للقمة. غاص عميقًا داخل الجبل قبل أن يشعر بنفسه يطفو صعودًا من جديد.

محاطًا بالظلام سرعان ما بدأت كوابيس الغرق تسيطر عليه. ومع تصاعد الذعر أدرك أنه في خطر مميت: النفَس الأخير الذي تنفسه قبل السقوط كان على ارتفاع ثلاثين ألف قدم! من ذلك الارتفاع، بالكاد وصله أي أكسجين، ومع الجاذبية الضعيفة هنا،

سوف يرتفع ببطء شديد. ولو سبح بكل قوته نحو السطح لخشى عدم كفاية الهواء في رئتيه حتى يحمله عائدًا إلى السطح.

انتابته مشاعر غريبة، نوع من «ديجا فو»[1]، شعر كأنه عاد إلى إيفرست، وسط الظلام الدامس، محاطًا بعاصفة ثلجية متصاعدة، تغمره رهبة الخوف من الموت. في تلك اللحظة الأشد ظلمة، وجد فان نورًا: عدة كرات فضية تطفو صعودًا بجانبه، يبلغ قطر أكبرها ثلاثة أقدام.

عندما نظر إليها أدرك أنها فقاعات هواء. سمحت الجاذبية الضعيفة بتكوُّن فقاعات أكسجين عملاقة داخل المحيط. وبكل ما تبقَّى لديه من قوة اندفع نحو أبرد فقاعة. حينما اخترق رأسه غشاءها الفضي استطاع التنفس من جديد. وأثناء تعافيه ببطء من دوخة سببها نقص الأكسجين وجد فان نفسه محاطًا بفقاعة الهواء. داخل كرة من الهواء محاطة بالكامل بالماء. عندما نظر إلى الأعلى رأى تموُّج السطح يتلألأ عبر قمة فقاعته. وهو يطفو صعودًا لاحظ انخفاضًا مفاجئًا في ضغط الماء، ممَّا جعل فقاعته تتمدَّد بسرعة. مع توسُّع الفقاعة، لم يستطع التخلص من الإحساس بأنه محبوس داخل بالونة حفلات كريستالية تطفو نحو السماء.

أخذ التوهُّج الأزرق للأمواج أعلاه يزداد سطوعًا بالتدريج، حتى أصبح بريقها في النهاية قويًا لدرجة أجبرته على صرف نظره عنها. في تلك اللحظة، انفجرت الفقاعة بصوت خافت. بلغ فان

---

(١) «déjà vu» عبارة فرنسية تعني حرفيًا «شوهد من قبل». وتشير إلى الشعور الغريب والمفاجئ بأنك قد مررت بهذا الموقف أو رأيت هذا الشيء أو المكان من قبل.

السطح، بل إنه تجاوز ذلك، حيث دفعته الجاذبية الضعيفة إلى ارتفاع ثلاثة أقدام في الهواء. كان سقوطه مرة أخرى إلى السطح نزولا لطيفًا وليس هبوطًا مفاجئًا.

أثناء هبوطه لاحظ عددًا لا يُحصى من الكرات المائية الجميلة تنزل إلى جواره بلطف. هذه الكرات مختلفة الأحجام، أكبرها يقارب حجم كرة قدم. تتلألأ كلها وتلمع بضوء أزرق صادر من الكرة العملاقة أعلاه. لمَّا دقق النظر رأى داخلها طبقات متداخلة من الماء، ممَّا جعلها تتلألأ بضوء كريستالي. هذه الكرات عبارة عن قطرات ماء تناثرت من المحيط عندما اخترق سطحه. سمحت لها الجاذبية المنخفضة بحرية تامة في تشكيل نفسها بهذه الطريقة بفضل توتر سطحها. مدَّ فان يده ليلمس واحدة من تلك الكرات، فانفجرت بصوت رنين معدني غريب، لم يكن شبيهًا بأي صوت تخيَّله قد يصدر عن الماء.

باستثناء تلك الكرات سكنت قمة الجبل تمامًا، حيث اندمجت الأمواج القادمة من جميع الجهات لتكوِّن موجات متكسرة لا أكثر. تلك -بلا شك- عين العاصفة، المكان الوحيد الهادئ في عالم تعمُّه الفوضى. لكن هذا الهدوء يُقابل بخلفية صاخبة هائلة، عواء الإعصار. عندما نظر فينج فان في الأفق أدرك أنه ومعه الجبل المائي بأكمله داخل بئر عملاقة. جدران هذه البئر مكوَّنة من المياه الهائجة والرياح المدوية للإعصار.

تلك الكتل غير القابلة للاختراق من الماء والهواء تدور ببطء حول جبل الماء. عندما نظر إلى الأعلى، رآها تمتد مباشرة نحو

الفضاء. تتلألأ الكرة الفضائية في آخر فوَّهة هذه البئر كمصباح عملاق مُعلَّق في الفضاء يضيء بنوره البئر.

عندما نظر فان إلى الأعلى رأى سحبًا غريبة تتشكَّل حولها. بدت كأنها ألياف تنسج شبكة رخوة تحيط بالسفينة الفضائية. تلمع تلك الخيوط من السحب كأنها تضيء من الداخل. خمَّن أنها مكوَّنة من بلورات جليدية نشأت مع تسرُّب الغلاف الجوي للأرض إلى الفضاء. وعلى الرغم من أن تلك الألياف بدت كأنها تحيط بالسفينة الفضائية فإنَّ المسافة بينها وبين الكرة الزرقاء لا بد أنها لا تقل عن عشرين ألف ميل. وإذا كان تخمينه صحيحًا، فإن الغلاف الجوي قد بدأ بالفعل في التسرُّب. وفوَّهة هذه البئر الدوارة العملاقة لم تكن سوى الثقب القاتل في قشرة الأرض. قال فان لنفسه: «لا يهم، لقد بلغت القمة».

الفصل الثاني

كلمات على قمة الجبل

تغيَّر الضوء المنتشر في كل مكان فجأة. بدأ يخفت ويتلاشى على نحو متقطع. نظر فينج فان إلى الأعلى مرة أخرى، فرأى الضوء الأزرق المنبعث من الكرة الفضائية قد اختفى. وفجأة أدرك ماهية هذا الضوء. كأنه خلفية شاشة عرض فارغة؛ فجسم الكرة الغريبة العملاق بأكمله لم يكن سوى شاشة هائلة. في تلك اللحظة بدأت هذه الشاشة العملاقة في عرض صورة مأخوذة من ارتفاع شاهق، تُظهر شخصًا يطفو في المحيط ووجهه نحو السماء، ذلك الشخص هو فينج فان. مرَّت ثلاثون ثانية ثم اختفت الصورة. أدرك فان معناها فورًا؛ أرادت الكائنات الغريبة أن توصِّل إليه أنها تراه. جعله ذلك يشعر كأنه يقف فعلًا على سطح العالم.

ظهر سطران من نص على الشاشة، يحتويان على جميع الحروف من كل الأبجديات التي رآها في حياته. بمجرد أن تعرَّف على كلمات مثل «الإنجليزية» و«الصينية» و«اليابانية»، خمَّن أن هذه قائمة بأسماء لغات العالم جميعًا. كما لاحظ إطارًا داكنًا يتحرك بسرعة بين الكلمات المختلفة. بدا له كل هذا مألوفًا بعض الشيء. تأكَّد حدسه حين اكتشف أن هذا الإطار يتبع نظره. ثبَّت عينيه على حروف كلمة «الصينية»، فتوقف الإطار الداكن فوقها. رمش بعينيه مرة واحدة، لكن لم يحدث أي رد فعل.

ربما يتطلب الأمر نقرتين، فكَّر فان، ثم رمش بعينيه مرتين. ارتجف الإطار الداكن، وأُغلقت قائمة اللغات في الكرة العملاقة، وبدلًا منها ظهرت كلمة ضخمة باللغة الصينية:

>> مرحبًا[1]

صاح فان مجيبًا نحو السماء:

- مرحبًا! هل تسمعونني؟

>> نحن نسمعك، لا حاجة للصراخ. يمكننا سماع جناحَي بعوضة في أي مكان على الأرض. التقطنا الموجات الكهرومغناطيسية المتسرِّبة من كوكبكم، ومن خلالها تعلمنا لغاتكم. نرغب في إجراء محادثة قصيرة معك.

سأل فان وخفض صوته كثيرًا هذه المرة:

- من أين أتيتم؟

ظهرت على سطح الكرة العملاقة صورة تُظهر تجمُّعًا كثيفًا من النقاط السوداء، متصلة ببعضها عبر شبكة معقدة من الخطوط. صورة شديدة التعقيد لدرجة أن رأس فان دار من محاولة فكِّها. الواضح أنها خريطة نجمية من نوع ما. بالفعل، توهجت إحدى تلك النقاط بضوء فضي، يزداد سطوعًا شيئًا فشيئًا. لسوء الحظ، لم يفهم فان منها الكثير، لكنه على ثقة بأنها سُجلت بالفعل في مكان آخر. وسيتمكن علماء الفلك على الأرض من فهمها. سرعان ما عرضت الكرة أشخاصًا مرة أخرى، لكن خريطة النجوم لم تختفِ، بل بقيت هناك كأنها خلفية سطح مكتب فضائية.

---

(1) >> علامة على الكتابة، الرد على فان عبر كتابة على الشاشة الكبيرة أمامه.

> > شيَّدنا جبلًا وأتيت أنت لتسلُّقه.

أجاب فان:

- تسلُّق الجبال هو شغفي.

> > الأمر ليس مسألة شغف؛ يجب علينا تسلُّق الجبال.

سأل فان:

- لماذا؟ هل في عالمكم كثير من الجبال؟

أدرك أن هذا ليس سؤال البشرية المُلح، لكنه أراد معرفته. يعتبر كل من يعرفهم تسلُّق الجبال نوعًا من الحماقة، لذا ربما يجدر به الحديث عنه مع كائنات فضائية، خاصَّة أنهم صرَّحوا بميلهم إلى التسلُّق، وفوق هذا كله، وصل إلى هذا الحد بمفرده.

> > ثمة جبال في كل مكان، لكننا لا نتسلق كما تفعلون.

لم يستطع فينج فان تحديد هل هذا وصف حقيقي أم مجاز. ليس أمامه سوى التعبير عن جهله:

- إذن.. في موطنكم كثير من الجبال؟

كانت أقرب إلى الاستفهام منها إلى التقرير.

> > كنا محاطين بجبل. هذا الجبل قيَّدنا، وكان علينا أن نحفر لتسلُّقه.

لم يخفِّف هذا الجواب من حيرة فان. ظلَّ صامتًا لوقت طويل، متأملًا ما الذي يحاولون قوله له.

ثم تابعوا الحديث..

الفصل الثالث

عالم الفقاعات

>> عالمنا مكان بسيط للغاية. فراغ كروي، يبلغ قطره -بحسب وحدات قياسكم- ما يزيد قليلًا على 3500 ميل. هذا الفراغ محاط بالكامل بطبقات من الصخور. أيًا كان الاتجاه الذي يختاره المرء للسفر، ستنتهي رحلته أمام جدار صخري صلب.

بطبيعة الحال شكَّل هذا تصوُّرنا الأول للكون: افترضنا أن الكون مكوَّن من جزأين. الأول هو الفراغ الذي نعيش فيه البالغ قطره 3500 ميل، والثاني هو طبقات الصخور المحيطة به. اعتقدنا أن امتداد هذه الصخور بلا نهاية في جميع الاتجاهات. لذلك رأينا عالمنا على أنه فقاعة جوفاء في هذا الكون الصلب، وأطلقنا عليه اسم «عالم الفقاعة»، وسمَّينا هذه الرؤية الكونية «نظرية الكون الصلب».

بالطبع، لم تنفِ هذه النظرية إمكانية وجود فقاعات أخرى داخل هذه الطبقات اللا نهائية من الصخور، لكنها لم تقدم أي مؤشر على مدى قرب أو بُعد تلك الفقاعات الأخرى. وهذا ما كوَّن الدافع لاحقًا لرحلات الاستكشاف.

وضَّح فينج فان قائلًا:

- لكن... لا وجود لطبقات لا نهائية من الصخور؛ إذ ستنهار تحت تأثير جاذبيتها.

>> في ذلك الوقت لم نكن نعرف شيئًا عن قوى الجاذبية. ليس ثمة جاذبية داخل عالم الفقاعة، لذا عشنا حياتنا دون الشعور بقوة جذب، ولم نبدأ بفهم وجود الجاذبية إلا بعد آلاف السنين.

علَّق فان:

إذن هذه الفقاعات بمثابة الكواكب في كونكم الصلب؟ هذا مثير جدًا للاهتمام. الكثافة في كوننا معكوسة تمامًا. يبدو أن كونكم نقيض شبه تام للكون الحقيقي.

>> الكون الحقيقي؟ أنت تتحدث بجهل عن الكون كما تعرفه الآن فقط. ليس لديك أدنى فكرة عن ماهية الكون الحقيقي، ولا نحن.

شعر فان بالتواضع بعد هذا الرد وقرر مواصلة استفساراته:

- هل هناك ضوء وهواء وماء في عالمكم؟

>> لا، لا شيء من ذلك. ولم نكن بحاجة إلى أي منها، عالمنا مكوَّن بالكامل من مواد صلبة. لا غازات ولا سوائل.

سأل فان:

- لا غازات ولا سوائل؟ وكيف تمكنتم من البقاء؟

>> نحن كائنات ميكانيكية حية. عضلاتنا وعظامنا من المعدن، أدمغتنا شبيهة بالرقائق المتكاملة بالغة التعقيد، والكهرباء والمغناطيسية دماؤنا. نأكل الصخور المشعَّة من نواة عالمنا، لتمُدَّنا بالطاقة اللازمة للبقاء. لم نُخلق، تطورنا طبيعيًا من كائنات ميكانيكية بسيطة وحيدة الخلية، حينما تشكلت، بمحض الصدفة، وصلات

بي إن[1] في الصخور بفعل طاقة إشعاعية. بدلاً من اكتشاف النار، كما فعلتم، اكتشف أسلافنا استخدام الكهرومغناطيسية. في الواقع، لم نعرف النار قط في عالمنا.

علّق فان:

- لا بد أنَّ المكان مظلم للغاية.

>> عرفنا في الحقيقة بعض الضوء. يصدر عن النشاط الإشعاعي داخل جدران عالمنا. تلك الجدران بمثابة سمائنا. ضوء هذه السماء خافت للغاية، ويتغير باستمرار حسب تذبذب النشاط الإشعاعي، ومع ذلك قادنا هذا الضوء إلى تطوير العيون.

بما أنَّ نواة عالمنا تفتقر إلى الجاذبية، فلم نكن بحاجة إلى بناء جدران. بدلًا من ذلك، طفت مدننا في الفراغ الخافت الذي شكَّل عالمنا. بحجم مدنكم تقريبًا، ومن بعيد تبدو لكم كسحب متوهجة.

عملية تطور الحياة الميكانيكية أبطأ بكثير من تطوُّر الحياة القائمة على الكربون، لكننا في النهاية بلغنا نفس الغايات بوسائل مختلفة. وهكذا، في يوم من الأيام، بدأنا نحن أيضًا نتأمل كوننا.

سأل فان وهو يتأمل ما كشفته الكرة من حقائق غريبة:

- لا بد أنَّ ذلك يبدو خانقًا. أهكذا شعرتم؟

>> خانق؟ هذه كلمة جديدة. وصل بنا الأمر إلى الشعور

---

(1) وصلة p-n هي منطقة تماس بين مادتين شبه موصلتين مختلفتين، إحداهما من النوع الموجب (p) ذات فائض من الفجوات الإلكترونية، والأخرى من النوع السالب (n) ذات فائض من الإلكترونات الحرة. داخل مادة شبه موصلة تسمح بمرور التيار الكهربائي في اتجاه واحد بشكل أساسي، وتُعتبر الوحدة الأساسية في صناعة الثنائيات والترانزستورات.

برغبة شديدة في التوسع، رغبة تفوق أي توق مشابه قد يشعر به جنسكم. بدأت أولى رحلاتنا الاستكشافية داخل طبقات الصخور في أقدم العصور. يعني الاستكشاف بالنسبة لنا الحفر داخل الجدران في محاولة للعثور على فقاعات أخرى في كوننا الصلب. نسجنا العديد من الأساطير الجذابة حول هذه المساحات البعيدة، وكان معظم أدبنا يدور حول خيال الفقاعات الأخرى. لكن سرعان ما أصبح الاستكشاف محظورًا وممنوعًا، يعاقب عليه بالإعدام بقصر الدائرة[1].

خمَّن فان:

- محظور؟ من قبَل كنيستكم؟

> > لا... ليست لدينا كنيسة. حضارة لا ترى الشمس والنجوم ليس لديها دين. هناك سبب عملي جدًا دفع مجلس الشيوخ لدينا إلى حظر الحفر: لم نملك المساحة شبه اللا نهائية المتاحة لكم. وجودنا محصور داخل فقاعة قطرها 3500 ميل فقط. وكل الحطام الناتج عن الحفر ينتهي به الأمر داخل هذه المساحة. وبما أننا نعتقد بوجود طبقات صخرية لا نهائية تمتد في كل الاتجاهات، فإن تلك الأنفاق يمكن أن تصبح طويلة جدًا، طويلة بما يكفي لملء كامل الفراغ في نواة عالمنا بالحطام! بعبارة أخرى: كنا سنحوِّل الفقاعة الفارغة في نواة عالمنا إلى نفق طويل جدًا.

اقترح فان:

---

(1) في الدائرة الكهربائية، عندما يحدث قصر، يتدفق التيار بكميات هائلة عبر هذا المسار الجديد ذي المقاومة المنخفضة. هذا التدفق الكبير للتيار يؤدي إلى انصهار العوازل، ومن ثم احتراق الدائرة.

بالإمكان إيجاد حلٍّ لهذه المشكلة: يمكن ببساطة نقل الركام الجديد إلى المساحة التي حُفرت بالفعل خلف الحفَّارين، وهكذا لن تخسروا سوى المساحة اللازمة لبقاء المستكشفين وأدائهم لعملهم.

>> بالفعل، استخدم المستكشفون لاحقًا الطريقة التي وصفتها تمامًا. في الواقع، كان المستكشفون يستخدمون فقاعة صغيرة بالكاد تكفيهم ومهمتهم، وأطلقنا على هذه المهام اسم «سفن الفقاعات». ولكن حتى مع ذلك، عنت كل مهمة كومة جديدة من الركام بحجم سفينة فقاعة داخل نواة عالمنا، ولا بد من انتظار عودة السفينة لنتمكَّن من إعادة الصخور إلى الجدار. وإذا فشلت سفينة الفقاعة في العودة فإنَّ تلك الكومة الصغيرة تعني فقدان قطعة صغيرة من المساحة للأبد. في ذلك الوقت شعرنا كأنَّ السفينة الفقاعية سرقت ذلك الجزء من الفضاء، ولهذا السبب بدأنا نطلق على مستكشفينا اسمًا آخر، «لصوص الفضاء».

>> في عالمنا المغلق تُعد كل بوصة من المساحة كنزًا، ولاحقًا خسرنا جزءًا كبيرًا من عالمنا بسبب العدد الكبير من السفن الفقاعية التي فشلت في العودة. وبسبب هذه الخسارة في المساحة حُظر استكشاف السفن الفقاعية في العصور القديمة. حتى دون تدخل القانون، الحياة في السفن الفقاعية مليئة بمصاعب ومخاطر تفوق الخيال.

طواقم السفن الفقاعية تضم عادةً عدة حفارين وملاحين. في ذلك الوقت لم تكن لدينا آلات للتنقيب، لذا اعتمدنا على الحفر اليدوي، يشبه التجديف على سفنكم القديمة. اضطر هؤلاء المستكشفون الأوائل إلى الحفر بلا كلل باستخدام أدوات بدائية،

يدفعون سفينتهم الفقاعية عبر طبقات الصخور بحركة بطيئة ومؤلمة. العمل كآلات داخل تلك الفقاعات الصغيرة المحاطة بالصخر الصلب كالحصار من كل جانب، والسعي وراء حلم بعيد المنال يُظهر -لا ريب- قوة روحية مذهلة.

>> بما أنَّ السفن الفقاعية تعود عادة عبر نفس المسار الذي غادرته، كانت رحلة العودة أسهل بكثير، فالصخور أمامهم فُكِّكت مسبقًا. ومع ذلك دفع جوع المقامرين للاكتشاف تجاوز نقطة العودة الآمنة غالبًا. نفد من هؤلاء المستكشفين التعساء الوقود والمؤن، وظلوا عالقين في منتصف الطريق، لتصبح سفينتهم الفقاعية قبرهم. ومع كل ذلك، وعلى الرغم من تقليص جهودنا الاستكشافية إلى حد كبير، فإن عالمنا الفقاعي لم يتخلَّ قط عن حلم العثور على عوالم أخرى.

الفصل الرابع

الانزياح الأحمر[1]

>> في أحد الأيام، عام 33.281 من عصر الفقاعة -بتعبير مقاييسكم الزمنية، فطريقة حسابنا للوقت غريبة جدًا عليكم- بدأ ثقب صغير يتكوَّن في السماء الصخرية لعالمنا. انجرفت كومة صغيرة من الصخور خارج هذا الثقب. يتلألأ ضوؤها الإشعاعي الخافت كالنجوم. أُرسلت على الفور وحدة من الجنود للطيران إلى هذا الشق والتحقق منه. (تذكَّروا أنه لا توجد جاذبية في عالم الفقاعة).

هناك، اكتشف الجنود عودة سفينة فقاعية لمستكشف. انطلقت قبل ثماني سنوات، وفقد العالم الأمل منذ زمن في عودتها. تسمَّى السفينة «رأس الإبرة»، حفرت بعمق 125 ميلًا داخل الصخر. لم تصل أي سفينة من قبل إلى هذا العمق وعادت.

>> انطلقت سفينة «رأس الإبرة» بطاقم مكوَّن من عشرين فردًا. لكنها عادت بعالم واحد فقط على قيد الحياة. دعنا نسميه

(1) زيادة في الطول الموجي للإشعاع الكهرومغناطيسي القادم من جرم سماوي نتيجة لحركته مبتعدًا عن المراقب أو لاتساع الفضاء بينهما. (عندما يتحرك مصدر الضوء بعيدًا عنا، فإن موجات الضوء «تتمدد» أثناء انتقالها إلينا، مما يزيد من طولها الموجي ويجعلها تبدو أكثر احمرارًا. أما إذا كان مصدر الضوء يقترب منا، فإن موجات الضوء «تنضغط»، مما يقلل من طولها الموجي ويجعلها تبدو أكثر زرقة (وهذه الظاهرة تُعرف بالانزياح نحو الأزرق أو Blue shift).

«كوبرنيكوس»[1]، أكل باقي أفراد الطاقم بمن فيهم القبطان. في العصور القديمة ثبت، في الواقع، أن هذه الطريقة في البقاء هي الوسيلة الأكثر فاعلية للمستكشفين الذين ينزلون إلى أعماق الصخور.

بسبب خرقه للقوانين الصارمة التي تحظر استكشاف السفن الفقاعية، وبسبب أكله لحوم البشر، حُكم على كوبرنيكوس بالإعدام في العاصمة. وفي اليوم المحدَّد لتنفيذ الحكم تجمَّع أكثر من مائة ألف شخص في الساحة المركزية للعاصمة لمشاهدة تنفيذ الإعدام.

بينما ينتظر الجميع المشهد المهيب لإعدام كوبرنيكوس، حيث سيُصعق كهربائيًا وسط وابل جميل من الشرر، طفت مجموعة من العلماء من الأكاديمية العالمية للعلوم إلى الساحة. جاؤوا ليعلنوا عن اكتشاف ثوري: اكتشف الباحثون شيئًا غير متوقع في كثافة عيِّنات الصخور المُستخرجة من سفينة رأس الإبرة. ولدهشتهم الكبيرة أشارت البيانات إلى أن كثافة الصخور تنخفض تدريجيًا كلما حفرت السفينة أعمق.

قاطعهم فان قائلًا:

- لكن عالمكم ليس به جاذبية، كيف كنتم تقيسون الكثافة[2]؟

---

(1) عالم فلك ورياضيات بولندي، يُعتبر من أهم الشخصيات في عصر النهضة وأبًا لعلم الفلك الحديث. اشتهر بوضع نظرية مركزية الشمس في كتابه «حول دوران الأجرام السماوية» والتي وضعت الشمس في مركز النظام الشمسي ودحضت الاعتقاد السائد آنذاك بأن الأرض هي مركز الكون.

(2) تعتمد أجهزة قياس الكتلة المستخدمة في حساب الكثافة على قوة الجاذبية المحلية لتحديد وزن الجسم.

>> نستخدم طريقة القصور الذاتي[1]؛ وهي طريقة أكثر تعقيدًا من أساليبكم. لا بأس، ففي تلك الأيام الأولى ظن علماؤنا أن سفينة رأس الإبرة صادفت طبقة غير منتظمة من الصخور. لكن خلال القرن الماضي انطلقت جحافل من السفن الفقاعية في جميع الاتجاهات. وصلت إلى أعماق لم تبلغها «رأس الإبرة». وعادت هي أيضًا بعيِّنات من الصخور. وما وجدوه كان مذهلًا: قلَّت الكثافة في كل الاتجاهات، وعلى نحو ثابت!

اهتزَّت نظرية الكون الصلب التي كانت مسيطرة على عالم الفقاعة لأكثر من عشرين ألف عام من أساسها. إذا قلَّت كثافة عالم الفقاعة باستمرار كلما حفرنا للخارج، فمن المنطقي أنها ستصل في النهاية إلى الصفر. باستخدام البيانات المجمَّعة، استطاع علماؤنا بسهولة حساب أنَّ هذا سيحدث عند مسافة تقارب عشرين ألف ميل.

قال فان بدهشة وقد أدرك المفهوم:

- أوه، هذا يشبه كثيرًا الطريقة التي استخدم بها هابل[2] الانزياح الأحمر!

>> إنه بالفعل مشابه جدًا. نظرًا لأنك لم تستطع تصوُّر أن سرعة الانزياح الأحمر تتجاوز سرعة الضوء، فقد استنتجت أنها تشير إلى حافة الكون. وكان من السهل جدًا على أسلافنا فهم أنَّ المنطقة ذات الكثافة الصفرية فضاء مفتوح. وهكذا وُلد نموذج جديد للكون افترض أن الكثافة تقل تدريجيًا كلما ابتعدنا عن عالم

---

(1) قانون نيوتن الأول للحركة. القصور الذاتي ليس قوة، بل هو خاصية أساسية للمادة مرتبطة بكتلتها. كلما زادت كتلة الجسم زاد قصوره الذاتي، أي زادت صعوبة تغيير حالته الحركية (القصور الذاتي هو ميل الجسم لمقاومة أي تغيير في حالته الحركية).

(2) عالم الفلك الأمريكي العظيم إدوين هابل. الذي اكتشف توسع الكون ووجود مجرات أخرى.

الفقاعة، حتى تصل إلى نقطة تفتح على فراغ يمتد إلى ما لا نهاية. وهذا ما يُعرف بنظرية الكون المفتوح.

>> لكن نظرية الكون الصلب متجذرة بعمق في ثقافتنا، وأنصارها يهيمنون على الخطاب. سرعان ما وجدوا وسيلة لإنقاذ هذه النظرية، حيث توصَّلوا إلى استنتاج مفاده أن انخفاض الكثافة لا يعني شيئًا سوى أنَّ طبقة كروية من الصخور الهشة تُحيط بعالم الفقاعة. ووفقًا لنظريتهم فإن أي شخص يعبر هذه الطبقة لن يلاحظ أي انخفاض إضافي في الكثافة. حسبوا سُمك هذه الطبقة الهشة أنه يبلغ مائتي ميل. وبالطبع، لم يكن اختبار هذه النظرية أمرًا صعبًا. كل ما كان مطلوبًا هو الحفر لمسافة مائتي ميل.

لم يستغرق الأمر وقتًا طويلًا حتى وصلت السفن إلى هذه المسافة، لكن الانخفاض في الكثافة استمر دون توقف. حينها أعلن مؤيِّدو نظرية الكون الصلب أنَّ حساباتهم السابقة كانت خاطئة وأنَّ السُمك الحقيقي للطبقة الهشة هو ثلاثمائة ميل. بعد عشر سنوات عبرت إحدى السفن هذه المسافة، ومرَّة أخرى، أظهرت القياسات أن الكثافة لا تزال تنخفض بعد هذه النقطة المحسوبة، بل في الواقع ازداد معدل الانخفاض. حينها وسَّع المتعصبون لنظرية الكون الصلب تقديراتهم مرة أخرى وأعلنوا أن سُمك الطبقة الهشة يبلغ تسعمائة ميل. وفي النهاية، جاء اكتشاف مذهل وتاريخي أنهى إلى الأبد مصير نظرية الكون الصلب.

الفصل الخامس

الجاذبية

السفينة الفقاعية التي تجاوزت علامة المائتي ميل تُدعى «شفرة المنشار». أكبر مركبة استكشافية بنيناها على الإطلاق. مزوَّدة بحفَّار بالغ القوة ونظام دعم حياة متقدم. مكَّنتها معداتها المتطورة من السفر إلى أماكن لم يصل إليها أحد من قبل، مما غيَّر مجرى تاريخنا.

عندما تجاوزت عمقًا -أو يمكن القول ارتفاعًا- قدره مائتا ميل، أبلغ كبير علماء البعثة -وسنسميه نيوتن[1]- ملاحظة محيِّرة تمامًا إلى قبطان السفينة: كلما نام الطاقم في طفوه بمنتصف السفينة الفقاعية، يستيقظون مستلقين على الجدار الداخلي الأقرب إلى عالم الفقاعة.

>> لم يرَ القبطان في ذلك أمرًا ذا شأن؛ استنتج أنه مجرد نتيجة لما سمَّاه «طفو الحنين إلى الوطن أثناء النوم» لا أكثر. في رأيه يتوق أفراد الطاقم للعودة إلى عالم الفقاعة، ولذلك انجذبوا نحوه أثناء نومهم.

---

(1) نيوتن مكتشف الجاذبية وصاحب قوانين الحركة الثلاثة التي وضعت الأساس لفهم الحركة والقوى لقرون عديدة، ولا تزال أساسية في العديد من فروع الفيزياء والهندسة حتى اليوم.

>> لكن، تأمَّل، لا هواء في عالم الفقاعة، ومن ثم لا هواء في السفينة الفقاعية أيضًا. وهذا يعني أنَّ ثمَّة وسيلتين فقط للحركة: إما بدفع أنفسهم اعتمادًا على الجدار ، وهو أمر غير ممكن أثناء الطفو في منتصف السفينة، وإما باستخدام فضلات أجسامهم كقوة دافعة. غير أن نيوتن لم يجد أي دليل على حدوث الخيار الثاني.

>> مع ذلك لم يُعر القبطان أي اهتمام لادعاءات نيوتن. توجَّب عليه التفكير على نحو مختلف، لأنَّ لا مبالاته تلك تسبَّبت في دفنه حيًا لاحقًا. في اليوم الذي حدث فيه ذلك، أُرهق الطاقم بشدة بعد إتمامهم المرحلة الأخيرة من الحفر، لذلك لم ينقلوا فورًا الأنقاض المتراكمة إلى مؤخرة السفينة، كما كانت الخطة.

من المفترض نقل الصخور كأول فعل بعد الراحة. انضمَّ القبطان إلى عمال الحفر، وناموا جميعًا في مركز السفينة. استيقظوا جميعًا مذعورين، مدفونين أحياء! في نومهم، انجذبوا -هم والصخور- جميعًا نحو مؤخرة السفينة الفقاعية، أي باتجاه عالم الفقاعة. سرعان ما أدرك نيوتن أن كل الأشياء داخل السفينة تميل إلى التحرك باتجاه عالم الفقاعة. هذا التحرك تدريجي للغاية ولا يُلاحظ عادة في الظروف العادية.

قال فان مازحًا:

- إذن نيوتنكم لم يكن بحاجة إلى تفاحة لاكتشاف الجاذبية!

>> أتظن الأمر بهذه البساطة؟ اكتشاف الجاذبية بالنسبة لنا عملية أعقد بكثير مما كانت عليه بالنسبة لجنسكم؛ ولا بد أن تكون كذلك، نظرًا للبيئة التي نعيش فيها. عندما اكتشف نيوتننا اتجاه قوة الجذب، افترض أنها تنبع من الفراغ الممتد لمسافة 3500 ميل في

عالم الفقاعة. وهكذا كانت نظريتنا المبكرة عن الجاذبية مشوَّهة بسبب افتراض غريب بعض الشيء. استنتجنا أن الفراغ هو الذي يُنتج الجاذبية وليس الكتلة.

قال فان وهو يومئ:

- أفهم كيف حدث ذلك. في بيئة معقدة مثل بيئتكم لا شك أنَّ الأمر أصعب بكثير على نيوتنكم من نيوتننا.

>> بالفعل، استغرق علماؤنا نصف قرن قبل البدء في فكِّ طلاسم هذا اللغز. عندها فقط بدأنا نفهم طبيعة الجاذبية حقًا. سرعان ما تمكنَّا -باستخدام أدوات لا تختلف كثيرًا عن أدواتكم- من قياس ثابت الجاذبية[1]. مع ذلك، كان الطريق نحو القبول الواسع لنظرية الجاذبية في عالمنا بطيئًا ومؤلمًا. لكن حين انتشرت صارت بمثابة المسمار الأخير في نعش نظرية الكون الصلب.

>> لم تسمح الجاذبية بوجود كون صلب لا نهائي يحيط بعالم فقاعتنا. انتصرت أخيرًا نظرية الكون المفتوح، وسرعان ما بدأ الكون الذي وصفته يمارس جاذبية قوية على سكان عالمنا.

>> إضافة إلى قانون حفظ الطاقة والكتلة، فيزياء عالم الفقاعة محكومة أيضًا بقانون حفظ الفراغ. الفراغ في عالم الفقاعة عبارة عن كرة يبلغ قطرها حوالي 3.500 ميل. لم يزد حفر الأنفاق في طبقات الصخور من كمية الفضاء المتاحة، بل غيَّر شكل الفضاء الموجود ومكانه فحسب. وفوق ذلك عشنا في بيئة منعدمة

(1) ثابت الجاذبية العام (Gravitational Constant)، ويُرمز له بالرمز G، هو ثابت فيزيائي أساسي يظهر في قانون نيوتن للجاذبية وقانون أينشتاين للنسبية العامة.

الجاذبية، ومن ثم طفت حضارتنا في الفضاء عند مركز عالمنا. لم نثبت شيئًا على جدران عالمنا، عكس الطريقة التي تعيشون بها أنتم على سطح كوكبكم. ولهذا فالفضاء هو أثمن بضاعة في عالم الفقاعة. التاريخ الكامل لحضارتنا كان صراعًا طويلًا ودمويًا من أجل المساحة.

الآن علمنا أنَّ الفضاء قد يكون لا نهائيًا. كيف لنا ألا نُصاب بالهوس؟ أرسلنا عددًا غير مسبوق من المستكشفين. موجة تلو موجة من السفن الفقاعية تحفر إلى الأمام والخارج. بذل الجميع قصارى جهدهم للوصول إلى ذلك الفردوس من انعدام الكثافة الذي تنبأت نظرية الكون المفتوح بأنه قد يوجد بعد 19900 ميل من الصخور.

الفصل السادس

نواة العالم

>> مما قيل حتى الآن ينبغي لك، إن كنت استوعبته، استنتاج الطبيعة الحقيقية لعالم الفقاعة.

قال فان أفضل تخمين لديه:

- هل عالمكم هو المركز المجوَّف لكوكب؟

- أنت مُحق، يقارب كوكبنا حجم كوكب الأرض؛ حيث يبلغ نصف قطره نحو خمسة آلاف ميل، لكن نواة عالمنا مجوَّفة. هذه المساحة في مركزه يبلغ قطرها حوالي 3.500 ميل. نحن الحياة الموجودة داخل تلك النواة.

>> حتى بعد اكتشاف الجاذبية، استغرق الأمر منا قرونًا عديدة قبل أن نفهم أخيرًا الطبيعة الحقيقية لعالمنا.

الفصل السابع

حرب الطبقات

>> بعدما ترسَّخت نظرية الكون المفتوح بالكامل، أصبح السعي وراء الفضاء اللا نهائي في الخارج شاغلنا الوحيد. لم نعد نهتم باستهلاك الفضاء داخل عالم الفقاعة. سرعان ما بدأت أكوام هائلة من الصخور، التي حفرتها أساطيل السفن الفقاعية، تملأ الفراغ في النواة. بدأ هذا الحطام ينجرف حول مدننا على هيئة سحب كثيفة وواسعة. ساءت الأمور إلى درجة أن التنقل عبر المدينة لم يعد أسهل من خوض مضمار حواجز معقد. وبما أن المدن نفسها متحركة، فقد عانى سكان النواة أيضًا من وابل مدمر من أمطار الصخور. لم يُسترجع سوى نصف الفضاء الذي سرقته تلك الصخور.

<< في ذلك الوقت، حلَّت حكومة عالمية محل مجلس الشيوخ لدينا. وتولى ساستها مسؤولية الإشراف على الفضاء في النواة وحمايته. حاولوا فرض إجراءات صارمة على المستكشفين المهووسين. لكن ذلك جاء دون أثر يُذكر. معظم السفن الفقاعية للمستكشفين حفرت عميقًا داخل الطبقات العميقة لكوكبنا.

سرعان ما أدركت الحكومة العالمية أنَّ أفضل وسيلة لإيقاف السفن الفقاعية هي استخدام سفن فقاعية أخرى. وبناء على هذا المنطق، بدأت الحكومة في بناء أسطول من السفن العملاقة

المصمَّمة لاعتراض سفن المستكشفين ومهاجمتها وتدميرها في أعماق الصخور. ثم تسترجع سفن الحكومة الفضاء الذي سُرق. بالطبع قوبل هذا المخطط بمقاومة من المستكشفين، وهكذا اندلعت حرب الطبقات الممتدَّة، التي دارت في ساحة معركة شاسعة مكوَّنة من طبقات الصخور.

نادى فان الكرة بحماسة:

- تبدو طريقة شائقة جدًا لخوض حرب!

>> ووحشية أيضًا، على الرغم من بطء وتيرة القتال في البداية. أتاحت تكنولوجيا الحفر في ذلك الوقت لسفن الفقاعة التحرك بسرعة تقل عن ميلين في الساعة عبر الصخور.

>> السفن الكبيرة هي في الأصل الأكثر قيمة لدى الطرفين في حرب الطبقات. والسبب بسيط: كلما كانت سفينة الفقاعة أكبر استمرت لفترة أطول دون الحاجة للتزوُّد بالوقود، كما أنَّ قدراتها الهجومية تتناسب طرديًا مع حجمها.

بغضِّ النظر عن حجمها، بُنيت جميع سفن حرب الطبقات لتكون بأضيق مقدمة ممكنة. ومرة أخرى، السبب بسيط: كلما كانت المقدمة أنحف قلَّت مساحة الصخور التي يتعين على السفينة حفرها، ومن ثم زادت سرعتها. نتيجة لذلك، معظم السفن الحربية تبدو متشابهة جدًا عند النظر إليها من الأمام. أما أجسامها وأطوالها فتختلف اختلافًا كبيرًا. في بعض الحالات القصوى، بدت أكبر سفننا كأنها نفق طويل للغاية.

>> ساحات القتال في حرب الطبقات ثلاثية الأبعاد بطبيعتها، لذا يشبه القتال إلى حد ما الحرب الجوية لدى قواتكم، وإن بدت أكثر تعقيدًا بالنسبة لنا. عندما تواجه سفينة عدوًا، أول خطوة

تتخذها هي توسيع مقدمتها بسرعة. والهدف من ذلك هو تقديم أكبر واجهة ممكنة من الأسلحة. في هذا التكوين الجديد، تستحيل السفينة إلى شكل يشبه المسمار.

>> عند الضرورة يمكن لمقدمة سفينة الفقاعة الانقسام إلى عدة أجزاء، مثل مخلب يستعد للهجوم. سمح هذا التكوين للسفينة بالهجوم من عدة اتجاهات في وقت واحد. كما تجلّى التعقيد الخام لحرب الطبقات في تكتيك آخر: كل سفينة حربية قادرة على الانفصال عند الحاجة، متحوّلة إلى عدة سفن أصغر. كما كانت السفن قادرة على الاتحاد بسرعة لتشكيل سفينة واحدة عملاقة التقت مجموعات المعركة المتعارضة، كانت مسألة ما إذا كان ينبغي لها أن تتحد أو تنقسم موضوعًا لتحليل تكتيكي عميق.

>> من المثير للاهتمام أن حرب الطبقات لم تعرقل السعي نحو المزيد من الاستكشاف، بل في الواقع أدَّت الحرب إلى ثورة تكنولوجية كان لها دور حاسم في مساعينا المستقبلية. لم تقتصر نتائجها على تطوير حفارات بالغة الكفاءة فحسب، بل أدَّت أيضًا إلى اختراع أجهزة قياس الزلازل[1]. استُخدمت هذه التقنية في الاتصالات عبر طبقات الصخور، كما استُعملت أيضًا كشكل من أشكال الرادار. كما استُخدمت الموجات الزلزالية[2] القوية كأسلحة. وتمكنت أكثر أجهزة الاتصال الزلزالي تقدمًا من نقل الصور.

---

(1) أول جهاز لقياس الزلازل في الصين القديمة (132 بعد الميلاد): يُعتبر أول سيزموسكوب معروف في التاريخ. تطوَّر إلى سيزموجراف بعد ذلك.

(2) الموجات الزلزالية (Seismic waves) اهتزازات أو موجات من الطاقة تنتشر عبر الأرض أو عبر أجرام سماوية أخرى. تحدث هذه الموجات نتيجة لإطلاق مفاجئ للطاقة داخل الأرض.

أكبر سفينة فقاعة حربية بنيناها على الإطلاق تُدعى «عالم الخط». وكُلفت من قبَل الحكومة العالمية. في وضعها القياسي، بلغ طول سفينة «عالم الخط» أكثر من تسعين ميلًا. كانت تمامًا كما يوحي اسمها: عالمًا صغيرًا ممدودًا للغاية ومكتفيًا ذاتيًا. بالنسبة لطاقمها، كانت الخدمة على متن «العالم» تشبه إلى حد كبير وقوفك في نفق بحر المانش بين إنجلترا وفرنسا. حيث تمر قطارات فائقة السرعة كل بضع دقائق حاملة حطام الحفر إلى مؤخرة السفينة. بالطبع، بإمكان «عالم الخط» التفكُّك إلى أسطول بمفرده، لكنه عمل في الغالب كسفينة حربية واحدة.

لم يكن دائمًا يحتفظ بتكوينه الشبيه بالنفق. أثناء الحركة، يمتد هيكله وينثني على نحو مذهل، ليُشكل حلقة مغلقة أو حتى مسارات متقاطعة، متشكلًا في صور معقدة متخصصة في التدمير. جُهِّز «عالم الخط» بأكثر الحفارات تطورًا لدينا، ما أتاح له السفر بسرعة ضعف السفن الفقاعية العادية. حيث وصل إلى سرعة إبحار تصل إلى أربعة أميال في الساعة.

في القتال، بإمكانه المناورة بسرعات تتجاوز ستة أميال في الساعة! علاوة على ذلك، ثُبت جهاز قياس الزلازل فائق القوة في هيكله، مكَّنه من تحديد مواقع السفن الفقاعية من مسافات تتجاوز ثلاثمائة ميل. وكان سلاحه الزلزالي ذا مدى فعال يصل إلى 3300 قدم، وكل ما ومن بداخل أي سفينة فقاعة يستهدفها يُسحق أو يُحطَّم إلى أشلاء. بين الحين والآخر، تعود «عالم الخط» إلى عالم الفقاعات، حاملة على متنها غنائم الفضاء المستعادة من المستكشفين.

دفعت الضربات المدمرة التي وجَّهتها سفينة عالم الخط حركة الاستكشاف إلى حافة الهاوية. بدا أنَّ عصر الاستكشاف على وشك الانتهاء بشكل مفاجئ. طوال مدة حرب الطبقات، وجد المستكشفون أنفسهم يتعرضون للهزيمة باستمرار. وربما الأهم من ذلك أنهم مُنعوا من بناء سفينة يتجاوز طولها خمسة أميال. أي سفينة أكبر من ذلك كانت تُكتشف بسرعة عبر أجهزة قياس الزلازل المثبتة على «عالم الخط» وجدران عالم الفقاعات. بمجرد رصدها، كان الدمار سريعًا. لذا، لاستمرار الاستكشاف بجدية، أصبح من الضروري تدمير «عالم الخط».

بعد تخطيط واستعدادات مكثفة، طوَّق تحالف المستكشفين -الذي أسسه المستكشفون المغلوبون على أمرهم- وهاجم «عالم الخط» بأكثر من مائة سفينة حربية. لم تتجاوز أي من سفن المستكشفين الثلاثة أميال طولًا. جرت المعركة على بُعد ألف ميل من عالم الفقاعات، وأصبحت تُعرف باسم «معركة الألف ميل».

>> في البداية، جمَّع التحالف عشرين سفينة، ودمجها لتشكيل سفينة واحدة بطول عشرين ميلًا، على بُعد ألف ميل من عالم الفقاعات، متحدِّين بذلك عالم الخط للهجوم. وانخدع العالم واندفع نحو القنص في تكوينه النفقي. لكن في لحظة إسراعه تجاه الفريسة، أطلق التحالف كمينه. انطلقت أكثر من مائة سفينة للأمام، مهاجمة جوانب عالم الخط من جميع الاتجاهات في آن واحد. قُسمت السفينة الجبارة، البالغ طولها تسعين ميلًا إلى خمسين قسمًا. مع ذلك كان بإمكان كل قسم من هذه الأقسام مواصلة القتال كسفينة حربية قوية بحد ذاتها.

سرعان ما شاركت أكثر من مائتي سفينة من الجانبين في معركة شرسة، تحفر في الصخور ضمن اشتباك فوضوي ووحشي. اندمجت السفن الحربية وانفصلت باستمرار حتى بات المشهد ضبابيًا بفعل سحابة غير مفهومة من السفن والعنف. في المرحلة الأخيرة من المعركة، أصبح ميدان القتال -الممتد على 150 ميلًا- مثقبًا بشكل لا يمكن تمييزه، بسبب الصخور المفككة والمساحات الفارغة التي خلفتها السفن المدمرة. خلقت معركة الألف ميل متاهة معقدة ثلاثية الأبعاد، على عمق 2250 ميلًا في سطح كوكبنا.

>> تردَّد دوي القتال العنيف والمحموم عبر هذا الميدان الغريب في أرجاء المكان كأنه سيستمر إلى الأبد. وبحكم وقوع المعركة على مسافة بعيدة من مركز الكوكب، كان للجاذبية تأثيرات ملحوظة على مجريات القتال، وهي تأثيرات كان المستكشفون أكثر دراية بها من قوات الحكومة. وفي هذه المعركة الكبرى داخل المتاهة، رجَّحت هذه الأفضلية الكفة تدريجيًا لصالح تحالف المستكشفين، وفي النهاية كان انتصارهم حاسمًا.

الفصل الثامن

تحت المحيط

>> بعد المعركة جمع تحالف المستكشفين كل الفراغ الذي خلَّفته المعركة في كرة واحدة قطرها ستون ميلًا. في هذا الفضاء الجديد، أعلن التحالف استقلاله عن عالم الفقاعة. رغم هذا الإعلان، استمر تحالف المستكشفين في تنسيق جهوده عن بُعد مع حركة الاستكشاف داخل عالم الفقاعات. استمر تدفق سفن المستكشفين من مركز الكوكب منضمَّة إلى التحالف، جالبة معها كميات كبيرة من المساحة. وبهذه الطريقة توسَّع إقليم تحالف المستكشفين باستمرار، مما أتاح لهم فعليًا تحويل أراضيهم إلى قاعدة متقدمة مجهزة بالكامل. أما الحكومة العالمية، المُنهكة من سنوات الحرب الطويلة، فقد وجدت نفسها عاجزة عن إيقاف كل هذا. في النهاية لم يكن أمامها خيار سوى الاعتراف بشرعية حركة الاستكشاف.

>> مع وصول المستكشفين إلى ارتفاعات أعلى بدأ الحفر في صخور أكثر مسامية، ولم تكن هذه الفائدة الوحيدة التي وفرتها تلك المرتفعات، فازدياد قوة الجاذبية في تلك المناطق ساعدهم كثيرًا في التعامل مع الأنقاض الناتجة عن الحفر. أدَّت هذه البيئة المكتشفة حديثًا إلى سلسلة من النجاحات المتتالية. في العام الثامن بعد نهاية الحرب، أصبحت سفينة «هيليكس» أول سفينة

تعبر الـ2.250 ميلًا المتبقية. مُتمة بذلك الرحلة التي امتدَّت خمسة آلاف ميل من مركز الكوكب، والتي بدأت على بُعد 3.250 ميلًا من حافة عالم الفقاعات.

قال فان بانفعال وقد انهمك في قصة الزوار:

- واو! وصلتم إلى السطح! لا بد أن رؤية السهول العظيمة والجبال الحقيقية مثيرة للغاية.

> > لم يكن هناك ما يدعو إلى الحماس؛ وصلت هيليكس إلى قاع البحر.

حدَّق فان في الكرة الفضائية بصمت مصدوم.

> > عندما حدث ذلك بدأت الصور الآتية من جهاز التواصل الزلزالي تهتز، ثم توقفت فجأة عن الظهور تمامًا. فُقد الاتصال. لم تلتقط سفينة الفقاعة التي تحفر أسفلها سوى صوت غريب واحد على مقاييس الزلزال، صوت بدا في العراء كما لو أن شيئًا ما يُقشر. كان ذلك صوت أطنان من الماء تنفجر داخل فراغ هيليكس. لم تُصمَّم الكائنات الحية الآلية ولا تكنولوجيا عالم الفقاعة يومًا للتعامل مع الماء. التيار الكهربائي القوي الناتج عن قصر الدائرة في الحياة والمعدات أدى إلى تبخُّر كل شيء لامسته المياه تقريبًا على الفور. وفي خضمِّ الأمواج المتدفقة، انفجر طاقم ومعدات هيليكس كما لو كانت قنبلة.

عقب هذا الحدث أرسل التحالف أكثر من اثنتي عشرة سفينة فقاعة لتنتشر في اتجاهات مختلفة، لكنها واجهت نفس المصير عندما وصلت إلى ذلك الارتفاع الذي بدا غير قابل للاختراق. لم ينجح أي طاقم في جعل تضحيتهم ذات جدوى عبر إرسال

معلومات يمكنها المساعدة في فهم ذلك الصوت الغامض الشبيه بالتقشير. ظهر نمط موجي بلوري غريب مرتين على الشاشات، لكن عجزنا تمامًا عن فهم طبيعته. حاولت السفن الفقاعية اللاحقة مسح ما يقع في الأعلى باستخدام أجهزة الاستشعار الزلزالية، لكن أدواتهم لم تُنتج سوى بيانات مشوَّشة، أشارت الموجات الزلزالية المرتدة إلى أن ما يقع في الأعلى ليس فضاءً ولا صخرًا.

هذه الاكتشافات زلزلت نظرية الكون المفتوح من جذورها، وبدأت الأوساط الأكاديمية بمناقشة احتمالية نموذج جديد. الكون محدود، وفق هذا النموذج، بنصف قطر يبلغ خمسة آلاف ميل. وتوصلوا إلى استنتاج مفاده أن السفن الاستكشافية المفقودة اصطدمت بحافة الكون وامتصَّها العدم.

واجهت حركة المستكشفين أعظم اختبار لها حتى ذلك الحين. قبل حادثة هيليكس، اعتُبرت المساحة المفقودة التي تشغلها سفن المستكشفين، ولو نظريًا، قابلة للاسترداد، أما الآن فقد واجه شعبنا حافة الكون، والمساحة التي ابتلعها الفراغ بنهم بدا أنها ضاعت إلى الأبد.

في ضوء ذلك اهتزت حتى نفوس أكثر المستكشفين ثباتًا. تذكَّر أنَّ في عالمنا، الواقع في أعماق طبقات الصخور، فإنَّ الفضاء -إذا فُقد- لا يمكن استرجاعه أبدًا. وبناءً على هذا الإدراك، قرر التحالف إرسال مجموعة أخيرة مكونة من خمس سفن فقاعة. عندما وصلت هذه السفن إلى ارتفاع ثلاثة آلاف ميل، تابعت تقدمها بأقصى درجات الحذر. إذا لاقت نفس مصير المهام السابقة فسيعني ذلك نهاية حركة الاستكشاف.

فُقدت سفينتا فقاعة. أما الثالثة، المعروفة باسم «الدماغ الحجري»، فقد حققت تقدمًا ثوريًا. عند ارتفاع ثلاثة آلاف ميل، حفرت الدماغ الحجري ببطء نحو الأعلى، تنحت كل قدم من الصخور بأقصى درجات الحذر. عندما وصلت إلى قاع البحر، لم تتدفق مياه المحيط عبر السفينة بأكملها أو تتسبَّب بانهيارها الفوري كما حدث في المحاولات السابقة. بل تسرَّبت عبر شق صغير، دافعة نفسها بقوة هائلة ولكن على شكل تيار دقيق نتيجة الضغط الهائل في الأعلى.

صُمِّم الدماغ الحجري بعرض شعاع يبلغ 825 قدمًا. وبحسب معايير سفن المستكشفين عُدَّ ذلك حجمًا كبيرًا، لكن اتضح لاحقًا أنه بمثابة ضربة حظ لا تُصدَّق. بسبب حجم السفينة، استغرق الماء المتصاعد قرابة ساعة كاملة قبل أن يملأ داخلها. قبل التفجر بسبب ملامسة المياه، سجَّلت أجهزة قياس الزلازل الشكل الجيولوجي للمحيط في الأعلى وأرسلت عديدًا من البيانات والصور بنجاح إلى التحالف. كان ذلك اليوم هو أول مرة يرى فيها شعب النواة سائلًا في حياتهم.

من الممكن تخيُّل أن السوائل وُجدت في عالم الفقاعة في العصور القديمة، لكنها لم تكن سوى حمم ملتهبة. بمجرد هدوء الجيولوجيا العنيفة المُشكلة لكوكبنا، لا بد أن تلك الحمم قد تصلَّبت تمامًا. وفي نواة كوكبنا، لم يتبقَّ شيء سوى المادة الصلبة والفراغ.

مع هذا، تنبأ علماؤنا نظريًا بوجود سوائل، لكن لم يصدق أحد فعليًا أن هذه المادة الأسطورية يمكن أن توجد في الكون. أما الآن، فقد رأى العلماء ذلك بأعينهم في الصور المُرسلة. ولما رأوه، أصابهم الذهول: ذهول من ذلك التيار الأبيض المتفجر، وذهول

من ارتفاع سطح الماء ببطء، وذهول من رؤية تلك المادة الشيطانية تتشكل بأي هيئة، وتلتصق بكل سطح متحدية كل قوانين الطبيعة.

رأوها تتسرَّب حتى إلى أصغر الشقوق، وشهدوا كيف بدت كأنها تغيِّر طبيعة الصخور ذاتها، تجعلها داكنة بلمسة واحدة، بينما تتلألأ كالمعدن. لكن ما أثار فضولهم أكثر من غيره هو أنَّ معظم الأشياء اختفت في هذه المادة الغريبة، لكن بعض بقايا الطاقم والآلات المحطمة طفت بالفعل على سطحها! ولم يكن هناك ما يميز الأشياء التي طفت عن تلك التي غرقت. أطلق شعب النواة على هذه المادة السائلة الغريبة «الصخر غير المتبلور».

منذ تلك اللحظة احتفل المستكشفون بسلسلة طويلة من النجاحات. أولًا، صمَّم مهندسو تحالف المستكشفين أنبوب تصريف بدائيًا. في جوهره عمود حفر أجوف بطول 560 قدمًا. بعد الحفر عبر الطبقات الصخرية النهائية، يُفتح رأس الحفر في هذا العمود مثل صمام رفرفي، ليسحب مياه المحيط إلى أسفل عبر الأنبوب. ورُكِّب صمام ثانٍ في أسفل أنبوب التصريف.

ارتفعت سفينة فقاعة أخرى إلى ارتفاع ثلاثة آلاف ميل، ثم بدأت في حفر أنبوب التصريف عبر الطبقات النهائية وصولًا إلى قاع البحر. ليس ثمَّة ما هو أسهل من ذلك؛ فالحفر تكنولوجيا مألوفة جدًا لشعب النواة. مع ذلك، كانت هناك قطعة أخرى في اللغز تتطلب تكنولوجيا لم نتخيلها قط: العزل.

بما أنَّ عالم الفقاعة خالٍ تمامًا من السوائل أو الغازات، لم تظهر الحاجة إلى تكنولوجيا العزل، بل لم تكن ممكنة التخيُّل

أصلًا بالنسبة لشعب النواة. ونتيجة لذلك لم يكن الصمام في أسفل أنبوب التصريف محكم الإغلاق على الإطلاق. حتى قبل فتحه سمح بتسرُّب المياه إلى داخل السفينة. لكن هذا الحادث تبيَّن في الواقع أنه محظوظ جدًا؛ فلو فُتح الصمام بالكامل، لاندفع الماء بقوة أعظم بكثير من الرذاذ الذي خرج من شقٍّ في الصخر واجهه الدماغ الحجري. كان سيندفع على شكل شعاع مُركَّز من الماء، قوي بما يكفي ليخترق كل ما يعترض طريقه كما يفعل الليزر.

لكن الآن بدلًا من ذلك، تسرَّب الماء عبر الصمام المسامي على هيئة تقطُّر يمكن التحكم به بدرجة أكبر. يمكنك تخيُّل مدى دهشة طاقم سفينة الفقاعة وهم يرون خيط الماء الرفيع هذا يتسرَّب أمام أعينهم. هذا السائل بالنسبة لهم كان عالمًا مجهولا تمامًا، كما كانت الكهرباء للبشرية في بدايتها.

بعدما ملأوا بعناية حاوية معدنية بهذا السائل الغريب، انسحبت سفينة الفقاعة إلى الطبقات السفلية، تاركة أنبوب التصريف مدفونًا في الصخور. مع هبوط السفينة، اتخذ المستكشفون احتياطات كبيرة للحفاظ على العيِّنة الغريبة ساكنة وآمنة قدر الإمكان في حاويتها. أثناء مراقبتهم لها بعناية توصَّلوا إلى أول اكتشاف جديد لهم: الصخر غير المتبلور شفاف في الواقع! عندما رأوا لأول مرة مياه البحر تندفع عبر الصخر المتشقق، محمَّلة بالطين والرواسب بطبيعة الحال، اعتبر شعب النواة أن هذا هو الشكل الطبيعي للصخر غير المتبلور. بعد هذا الاكتشاف واصلت السفينة هبوطها، ومع ذلك بدأ الجو داخلها يزداد حرارة.

وبشعور عميق من الخوف واجه المستكشفون فجأة أفظع إدراك حتى الآن: الصخر غير المتبلور حي! بدأ سطحه يغلي بغضب تشكلت على هيئته المرعبة فقاعات لا حصر لها تنفجر باستمرار. لكن قوة حياة هذا الوحش تبدو كأنها تستهلك كيانه ذاته، فبدأ جسده يذوب إلى ظل أبيض شبحي. بمجرد تحوُّل كل الصخر غير المتبلور في الحاوية إلى هذه الحالة الشبحية الجديدة، شعر المستكشفون بإحساس غريب يجتاح أجسادهم. وفي غضون لحظات، اندلعت شرارات من دوائر كهربائية قصيرة من داخل أجسادهم، مُنهيةً حياتهم في عرض مؤلم من الألعاب النارية.

نقلت الموجات الزلزالية هذا المشهد المروع مباشرة إلى تحالف المستكشفين، حتى لحظة انطفاء الشاشات. ولقيت سفينة الإنقاذ التي أُرسلت بسرعة نفس المصير. ما إن لامست السفينة المنكوبة، حتى انفجر طاقمها أيضًا في شرارات مروعة، وماتوا وهم يتعذبون. بدا كأن الصخر غير المتبلور أصبح طيفًا للموت، يخيِّم على الفضاء بأسره. مع ذلك، لاحظ العلماء أن سلسلة الدوائر القصيرة الثانية لم تكن عنيفة مثل الانفجارات المميتة الأولى. قادهم هذا إلى استنتاج مهم: كلما زاد حجم الفراغ، انخفضت كثافة ذلك الظل اللا بلوري للموت.

كلفهم ذلك عديدًا من الأرواح وعددًا لا يُحصى من الوفيات المروعة، لكن في النهاية اكتشف شعب النواة حالة جديدة من حالات الوجود لم يسبق لهم مواجهتها من قبل: الغاز.

الفصل التاسع

إلى النجوم

>> كان لهذه الاكتشافات العظيمة وقع كبير حتى على الحكومة العالمية، التي بادرت إلى المصالحة مع أعدائها القدامى، تحالف المستكشفين. كما كرَّس عالم الفقاعة موارده أيضًا لهذه القضية، مما بشَّر بعصر من الاستكشاف المكثف والتقدم السريع. وكان الاختراق النهائي يمكن تحقيقه.

على الرغم من توصُّلنا إلى فهم متزايد لبخار الماء، ظللنا نفتقر إلى تكنولوجيا العزل التي ستُمكِّن علماء النواة من حماية شعبنا وآلاتنا من الأذى. مع ذلك، علمنا أنه على ارتفاع يزيد على 2800 ميل، يبقى الصخر غير المتبلور ميتًا وخاملًا، غير قادر على الغليان. ومن أجل دراسة هذه الحالات الجديدة والغريبة، أنشأت الحكومة العالمية وتحالف المستكشفين مختبرًا على ارتفاع 2900 ميل. وزُوِّد هذا المرفق بأنبوب تصريف دائم. وهنا بدأ الخبراء في دراسة الصخر غير المتبلور بشكل جاد.

تدخَّل فان قائلًا:

- فقط حينها يمكنك البدء في عمل أرشيميدس[1].

---

(1) صاحب قانون الطفو: الجسم المغمور كليًا أو جزئيًا في سائل يتعرَّض لقوة دفع رأسية للأعلى تساوي وزن السائل الذي يزيحه الجسم. اكتشاف أرشيميدس لقانون الطفو كان له تأثير هائل على فهمنا لتفاعل الأجسام مع الماء وأدى إلى تطوير العديد من التقنيات والتطبيقات العملية المهمة.

> > أنت محق تمامًا، لكن ينبغي ألا تنسى أن أسلافنا الأوائل أنجزوا بالفعل عمل فاراداي[1].

كإحدى النتائج الجانبية لأعمالهم في مختبر أبحاث الصخر غير المتبلور، اكتشف علماؤنا ضغط الماء وقوة الطفو. تمكنوا أيضًا من تطوير وإتقان تكنولوجيا العزل اللازمة للتعامل مع السوائل. والآن فهمنا أخيرًا أن عزل الصخر غير المتبلور أمر بسيط للغاية، بل أبسط بكثير من الحفر عبر طبقات الصخور. كل ما كان مطلوبًا هو وعاء محكم بما يكفي ومقاوم للضغط. وبدون الحاجة إلى حفارات، ستكون هذه السفينة قادرة على الصعود بسرعات بدت شبه غير مفهومة لشعب النواة.

قال فان بابتسامة:

- لقد صنعتم صاروخ عالم الفقاعة.

> > أقرب إلى طوربيد في الحقيقة. هذا الطوربيد عبارة عن حاوية معدنية مقاومة للضغط على شكل بيضة، دون محرك أو مروحة. صُمِّم ليقوده شخص واحد فقط، وسنُطلق على هذا الرائد «جاجارين»[2]. أُعِدَّت منصَّة إطلاق الطوربيد في قاعة واسعة محفورة على ارتفاع ثلاثة آلاف ميل. قبل ساعة واحدة من الإطلاق دخل جاجارين إلى الطوربيد، وأُحكِم إغلاق الوعاء بأكمله.

بعد التأكد من عمل جميع الأجهزة وأنظمة دعم الحياة على نحو سليم، بدأت حفارة أوتوماتيكية في حفر ما تبقَّى من ثلاثين

---

(1) مايكل فاراداي: عالم إنجليزي رائد في الكهرومغناطيسية، اكتشف الحث الكهرومغناطيسي وأسس لقوانين التحليل الكهربائي.

(2) يوري جاجارين: رائد فضاء سوفيتي (1943-1986): يُعتبر أول إنسان يسافر إلى الفضاء الخارجي.

قدمًا من الصخور التي تفصل قاعة الإطلاق عن قاع البحر أعلاه. مع هدير عظيم، انهار السقف تحت ضغط الصخر غير المتبلور. غُمر الطوربيد تمامًا على الفور في بحر من السائل. مع انحسار الفوضى تدريجيًا، ألقى جاجارين أخيرًا نظرة على العالم الخارجي من خلال نافذة من الفولاذ الصخري الشفاف. فجأة أدرك أن مصباحَي الإضاءة الخاصين بمنصة الإطلاق يُلقيان حزمًا ضوئية عبر الصخر غير المتبلور. في عالم الفقاعة الذي يخلو من الهواء، لم يكن الضوء قادرًا على التبعثر أو تكوين أشعة. هذه أول مرة يشاهد فيها أي منا الضوء على هذا النحو. في تلك اللحظة، نقلت الموجات الزلزالية أمر الإطلاق، وسحب جاجارين ذراع التحرير.

انفكَّت المفاصل المُثبتة في أسفل الطوربيد بالصخر، وبدأ يرتفع ببطء من قاع البحر، مغمورًا في الصخر غير المتبلور، ثم تسارع طافيًا نحو الأعلى.

ونظرًا للضغط عند مستوى قاع البحر، تمكَّن علماؤنا بسهولة من حساب أن نحو ستة أميال من الصخر غير المتبلور تغطي قاع المحيط. إذا لم يحدث شيء غير متوقع سيطفو الطوربيد إلى السطح في غضون خمس عشرة دقيقة تقريبًا. لكن ما الذي قد يواجهه هناك؟ لا يعلم أحد.

اندفع الطوربيد صاعدًا دون أي عوائق، من خلال نافذته لم يرَ جاجارين سوى ظلام لا قرار له، وكانت ومضات الغبار التي تمر أحيانًا عبر ضوء المصابيح خارج نافذته هي الإشارة الوحيدة التي تدله على مدى سرعته في الصعود.

سرعان ما بدأ الرعب يتسلل إلى قلب جاجارين. عاش طوال حياته في عالم صلب. أما الآن، وللمرة الأولى، يدخل فضاءً مملوءًا بالصخر غير المتبلور، شعور الفراغ المطلق يهدِّد بابتلاع كيانه من الداخل. بدت دقائق الرحلة الخمس عشرة كأنها تمتد إلى ما لا نهاية. حاول جاجارين التركيز على مائة ألف عام من الاستكشاف أوصلته إلى هذه اللحظة.

حين كاد ينهار اخترق طوربيده سطح محيط كوكبنا.

دفعت قوة القصور الذاتي الطوربيد مسافة ثلاثين قدمًا فوق سطح الماء قبل أن يهوي عائدًا نحو البحر. من نافذته، ومن خلال السقوط، رأى جاجارين الصخر غير المتبلور الممتد بلا نهاية يلمع ببريق غريب، لكنه لم يكن لديه الوقت ليتأمل مصدر الضوء، ارتطم الطوربيد بسطح المحيط بارتطام هائل، مما تسبَّب في تناثر الصخر غير المتبلور في جميع الاتجاهات.

استقر الطوربيد طافيًا على سطح المحيط مثل قارب يتأرجح برفق مع الأمواج.

فتح جاجارين فتحة الطوربيد بحذر، ورفع جسده ببطء خارج الوعاء. شعر فورًا بهبَّة نسيم المحيط، وبعد لحظات من الحيرة أدرك أنه غاز. ارتجف جسده من الخوف وهو يتذكَّر تدفق بخار الماء الذي رآه ذات مرة عبر أنبوب من الفولاذ الصخري في المختبر. من كان يتخيَّل أن لهذا القدر الهائل من الغاز وجود في أي مكان في الكون؟ سرعان ما أدرك جاجارين أنَّ هذا الغاز مختلف تمامًا عن ذلك الناتج عن غليان الصخر غير المتبلور. لم يُسبب له قصر دائرته الكهربائية.

في مذكراته، كتب لاحقًا الوصف التالي لهذه الأحداث:

«شعرت بلمسة ناعمة ليد عملاقة غير مرئية تمر بجسدي. بدت كأنها امتداد لمكان شاسع، لا حدود له، ومجهول تمامًا. وذلك المكان الآن أمامي، يحوِّلني إلى كائن جديد بالكامل».

>> رفع جاجارين رأسه، وهناك، في تلك اللحظة، احتضن أخيرًا ثمرة مائة ألف عام من استكشاف حضارتنا: رأى روعة السماء المتلألئة المذهلة المليئة بالنجوم.

الفصل العاشر

عن كونية الجبال

قال فان بانبهار:

- لم يكن الأمر سهلًا عليكم على الإطلاق. اضطررتم للاستكشاف لسنوات طويلة فقط لتصلوا إلى نقطة البداية لدينا!

>> لهذا السبب يجب أن تعتبروا أنفسكم حضارة محظوظة جدًا.

في تلك اللحظة ازداد حجم سُحب البلورات الجليدية الناتجة عن الغلاف الجوي المتسرِّب ازديادًا كبيرًا. أضاءت السماء بضوء متلألئ، وازدهر إكليل قوس قزح متألق بينما تشتَّت وهج المركبة الفضائية الغريبة في الجليد.

في الأسفل استمرت الآبار الإعصارية العملاقة في دورانها الهادر. جعلت فان يفكر في آلة ضخمة تطحن الكوكب شيئًا فشيئًا بصوت مرعب. لكن على قمة الجبل أصبح كل شيء ساكنًا تمامًا. حتى التموجات الصغيرة اختفت من سطح القمة. المحيط ساكن كمرآة. مرة أخرى، تذكَّر فينج فان بحيرات الجبال في شمال التبت. بصدمة أعاد ذهنه إلى الواقع.

سأل الكرة التي تعلوه:

- لماذا جئتم إلى هنا؟

> > نمرُّ من هنا فحسب، وأردنا رؤية ما إذا كانت هناك حياة ذكية يمكننا التحدث معها. نتحدث إلى أول من يتسلَّق هذا الجبل.

قال فان بنبرة تأملية وهو يومئ برأسه:

- حيثما وُجد جبل، سيكون هناك دائمًا من يتسلقه.

> > بالفعل، من طبيعة الحياة الذكية تسلُّق الجبال، السعي للوقوف على أرضٍ أعلى كي تتأمل البعيد. إنه دافع منفصل تمامًا عن متطلبات البقاء. لو كنتم -على سبيل المثال- تهتمون فقط بالبقاء على قيد الحياة، لفررتم من هذا الجبل بأسرع ما يمكن وإلى أبعد مكان ممكن، لكنكم بدلًا من ذلك اخترتم القدوم لتسلقه. السبب أن التطوُّر يزرع في كل حياة ذكية رغبة في الصعود لأعلى ليست نابعة من مجرد الاحتياجات الأساسية، إنما أعمق بكثير، مع أننا ما زلنا لا نفهم الغرض الحقيقي من ذلك. الجبال موجودة في كل مكان، ونحن جميعًا نقف عند أقدامها.

قاطعهم فينج فان:

- أنا على قمة الجبل.

لم يرضَ أحد، حتى الكائنات الفضائية، أن يُشكِّك في مجد صعوده إلى أعلى جبل في العالم.

> > أنت تقف عند قدم الجبل. نحن دائمًا عند الأقدام. سرعة الضوء هي قدم جبل. الأبعاد الثلاثة للفضاء هي قدم جبل. أنتم محبوسون في وادٍ عميق من سرعة الضوء والفضاء الثلاثي الأبعاد، ألا يبدو.. خانقًا؟

أجاب فان وغرق في التفكير:

- وُلدنا هكذا، هذا ما نألفه.

>> إذن فإنَّ ما سأخبرك به قد يكون غريبًا جدًا عليك. انظر إلى الكون الآن. بماذا تشعر؟

أجاب فان:

- شاسع، بلا حدود، شيء من هذا القبيل.

>> هل يبدو لك صغيرًا؟

فسَّر فان:

- كيف يمكن ذلك؟ الكون يمتد إلى ما لا نهاية أمام عيني؛ حتى إن العلماء قادرون على النظر إلى مسافة عشرين مليار سنة ضوئية في الفضاء.

>> إذن سأخبرك: ليس أكثر من عالم فقاعي نصف قطره عشرون مليار سنة ضوئية.

لم يجد فان ما يقوله.

>> كوننا مجرد فقاعة فارغة، فقاعة داخل شيء أكثر صلابة.

سأل فان بدهشة:

- كيف يمكن ذلك؟ ألن تنهار هذه الكتلة الصلبة الأكبر فورًا تحت تأثير جاذبيتها؟

>> كلا، على الأقل ليس بعد. فقاعتنا لا تزال تتمدد داخل هذه الكتلة الفائقة الصلابة. الانهيار الثقالي[1] يُعد مشكلة فقط في حالة وجود مساحة صلبة محدودة. أما إذا كانت المنطقة الصلبة المحيطة لا نهائية فعلًا، فلن تكون هناك مشكلة انهيار ثقالي. هذا،

(1) الانهيار الثقالي (Gravitational collapse) عملية فيزيائية فلكية تحدث عندما يفقد جرم سماوي (مثل نجم أو سحابة غازية) الدعم الداخلي الذي يمنعه من الانكماش تحت تأثير جاذبيته الخاصة. ونتيجة لذلك يبدأ الجرم في التقلص والتكثف بشكل كبير.

بالطبع، ليس أكثر من تخمين. من يمكنه معرفة ما إذا كان لهذا الكون الفائق الصلابة حدوده الخاصة؟

>> هناك متسع هائل للتخمين. على سبيل المثال، يمكن للمرء افتراض أنه على هذا المقياس الهائل، تُعوَّض الجاذبية بقوة أخرى، تمامًا كما أن القوى الكهرومغناطيسية تُعوَّض إلى حد كبير بالقوى النووية على المستوى المجهري. نحن لا نعرف مثل هذه القوة، لكن عندما كنا داخل عالم الفقاعة، كنا نجهل الجاذبية أيضًا. ومن البيانات التي جمعناها، نرى أن شكل فقاعة الكون يشبه إلى حد كبير ما خمَّنه علماؤكم. الفرق الوحيد هو أنكم لا تعرفون بعد ما يكمن وراءها.

تردَّد فان لحظة قائلًا:

- ما هذه الكتلة الصلبة؟ هل هي...؟

وسأل أخيرًا:

- صخور؟

>> نحن لا نعلم، لكننا سنكتشف ذلك خلال خمسين ألف سنة، عندما نصل إلى وجهتنا.

سأل فان:

- إلى أين تذهبون بالضبط؟

>> إلى حافة الكون. سفينتنا الفقاعية تُدعى «رأس الإبرة» هل تتذكر الاسم؟

أجاب فان:

- أتذكَّر، تلك السفينة اكتشفت لأول مرة قانون انخفاض الكثافة في عالم الفقاعة.

>> صحيح، نحن لا نعلم ما الذي سنجده هناك.

سأل فان:

- هل توجد فقاعات أخرى في الكون الفائق؟

>> أنت تفكر بعيدًا جدًا بالفعل.

ردَّ فان:

- وكيف لا أفعل؟

>> تخيَّل العديد من الفقاعات الصغيرة داخل صخرة كبيرة جدًا. هي موجودة، لكن يصعب العثور عليها، ومع ذلك سنذهب ونبحث عنها.

- أنتم حقًا مذهلون.

ابتسم فان شاعرًا بإعجاب عميق تجاه هؤلاء الفضائيين المغامرين.

>> حسنًا، محادثتنا الصغيرة ممتعة للغاية، لكن علينا الإسراع، خمسون ألف سنة وقت طويل جدًا ونحن نحرق ضوء النهار، إذا صح التعبير. سعدنا بلقائك، وتذكَّر أن الجبال أمر كوني.

كثافة السحب البلورية الجليدية شديدة لدرجة أن الكلمات الأخيرة باتت غير واضحة، مطموسة خلف السحب. ومع هذه الكلمات الأخيرة بدأت الكرة العملاقة أيضًا تخفت تدريجيًا، متلاشية في السماء حتى أصبحت نقطة صغيرة، مجرد نجم آخر في سماء لا نهائية. غادرت أسرع بكثير مما وصلت، وفي لحظات اختفت تمامًا خلف الأفق الغربي.

عاد كل ما بين السماء والمحيط إلى سواده العميق. اختفت السحب البلورية الجليدية والآبار الإعصارية في الظلمة. ولم يتبقَّ

سوى أثر من فوضى سوداء دوَّارة، بالكاد مرئية في السماء أعلاه. سمع فينج فان هدير العاصفة المحيطة يتلاشى بسرعة. وسرعان ما لم يبقَ منه إلا همهمة خافتة. ثم اختفت تمامًا ولم يتبقَّ سوى صوت الأمواج.

فجأة، أصبح مدركًا لشعور السقوط، وعندما نظر حوله رأى المحيط يبدأ بالتغيير ببطء. بدأت قمة جبل الماء الدائرية تمامًا بالتسطح، مثل مظلة عملاقة تُفتح ببطء. أدرك حينها أن جبل الماء بدأ يذوب وأنه يهوي من ارتفاع ثلاثين ألف قدم. وفي غضون دقائق توقفت المياه التي كان يطفو فوقها عن السقوط، بعد وصولها إلى مستوى سطح البحر. قوة السقوط حملته إلى أعماق البحر. ولحُسن الحظ، لم يغرق كثيرًا هذه المرة وطفا بسرعة إلى السطح.

عندما ظهر على السطح أدرك أنَّ جبل الماء اختفى تمامًا في المحيط، دون أثر، كما لو أنه لم يكن موجودًا قط. تلاشى الإعصار أيضًا تمامًا مع أنه لا يزال يشعر برياحه العاتية تضربه، مُسببةً أمواجًا هائلة. لكن سطح المحيط سيعود للهدوء قريبًا.

مع تلاشي السحب البلورية الجليدية، امتدَّت مجددًا السماوات المليئة بالنجوم في عظمتها. نظر فينج فان إلى النجوم، مفكرًا في ذلك العالم البعيد جدًا، البعيد لدرجة أن ضوء ذلك اليوم لا بد أنه كان يترنح من الإرهاق قبل وصوله إلى الأرض. هناك، في ذلك المحيط منذ زمن بعيد، رفع جاجارين من عالم الفقاعة رأسه نحو النجوم كما يفعل فان الآن، ومن خلال الخواء الشاسع للفضاء وقفر الزمن، شعر برابطة عميقة من القرابة توحِّد روحيهما.

شعر فينج فان بالغثيان وبدأ بالتقيؤ. ومن الطعم عرف أنه دم. على ارتفاع أميال فوق مستوى سطح البحر، على قمة جبل الماء، أصيب بداء المرتفعات. كان يعاني من وذمة رئوية[1] تسبَّبت في نزيف. وفهم فورًا مدى خطورة حالته. تركه التغيير المفاجئ في الجاذبية مرهقًا تمامًا، غير قادر على الحركة. لم يكن ما يُبقيه طافيًا سوى سترة النجاة. ليس لديه أدنى فكرة عن مصير سفينة بلووتر، لكنه شبه متأكد من عدم وجود أي قوارب على بُعد نصف ميل منه على الأقل.

حين كان فينج فان فوق القمة شعر بأنَّ حياته اكتملت. هناك بإمكانه أن يموت بسلام. أما الآن، فجأة، فلم يكن على هذا الكوكب من هو أكثر خوفًا من الموت منه. صعد إلى السقف الصخري لكوكبنا والآن، صعد أيضًا إلى أعلى قمة مائية عرفها العالم.

فأي جبل بقي له ليتسلق؟

كان عليه أن ينجو. عليه أن يعرف. عاد إليه الخوف البدائي من عاصفة الهيمالايا. ذلك الخوف الذي جعله، ذات مرَّة، يقطع الحبل الذي يربطه برفاقه وبحبيبته. لقد حُكم عليهم بالموت، والآن أدرك أنه فعل الصواب. لو بقي ما يمكن أن يخونه لينقذ حياته لخانه. عليه أن يعيش، فهناك كون مليء بالجبال ينتظره.

---

(1) الوذمة الرئوية (Pulmonary edema) هي حالة طبية تتميز بتراكم السوائل بشكل غير طبيعي في الرئتين، تحديدًا في الحويصلات الهوائية (الأكياس الهوائية الصغيرة التي يتم فيها تبادل الأكسجين وثاني أكسيد الكربون) وفي الأنسجة الخلالية المحيطة بها.

شمس الصين

مقدمة

أخذ شوي واه طردًا صغيرًا من يدَي أمه المرتجفتين. فيه زوجان من الأحذية سميكة النعل خاطتها بنفسها، وثلاث كعكات مطهوَّة على البخار، ومعطفان مليئان بالرقع وعشرون يوانًا. جلس والده القرفصاء على جانب الطريق، يدخن غليونه الطويل بكآبة.

قالت الأم موبِّخة الأب:

- ابننا سيغادر المنزل، ألا يمكنك إظهار بعض البشاشة؟

لمَّا قوبلت بصمت بارد، أضافت:

- حسنًا، امنعه من الرحيل إذن. هل تقدر على بناء بيت له أو إيجاد زوجة؟

صاح الأب دون أن يرفع رأسه:

- فليذهب إذن! شرقًا أو غربًا. كلهم يرحلون في النهاية! ليتني ربَّيت جراء، لكان أفضل!

رفع شوي عينيه إلى القرية التي وُلد ونشأ فيها. محكومة بجفاف أبدي، يعيش أهلها بالكاد على ما يجمعونه من مياه الأمطار في خزانات. لم يكن لدى عائلة شوي مال لبناء خزان إسمنتي،

فاضطروا للاكتفاء بواحد طيني. تفوح رائحة كريهة من المياه في الأيام الحارة.

في السنوات الماضية يُغلى الماء الآسن لجعله صالحًا للشرب رغم بقاء مرارته وقبضته، لكن هذا الصيف حتى الماء المغلي صار يُصيبهم بالإسهال. سمعوا من طبيب عسكري محلي أنَّ معدنًا سامًا تسرَّب من الأرض إلى المياه.

بنظرة أخيرة إلى والده استدار شوي ومضى في طريقه. لم يلتفت إلى الوراء. لم يتوقع من والده مراقبة رحيله. يعكف على غليونه لساعات دون حراك حين يشعر بالحزن. كما لو أنه كتلة تراب على الأرض الصفراء. ومع ذلك حضر والده في ذهنه بوضوح، أو ربما من الأدق القول إنه يسير فوقه.

امتدَّت شمال غرب الصين من حوله، فسحة شاسعة من تربة قاحلة بلون المغرة[1]، مشققة، تنحتها وديان خلَّفتها عوامل التعرية. هل اختلف وجه الفلاح العجوز عن هذا المشهد؟ الأشجار، والتربة، والمنازل والبشر، كل شيء.. أسود، وأصفر، ومتغضن.

لم يقدر على النظر في عينَي هذا الوجه الممتد حتى الأفق، لكنه شعر بوجودهما، يُحدِّقان في السماء. في الصبا نظرات مُشبَعة بالأمل في سقوط المطر، وفي الشيب، استحالت زجاجًا. في الواقع هذا وجه عملاق، جامد، لا مُبالٍ دائمًا. لم يصدِّق أنَّ هذه الأرض عرفت يومًا معنى الشباب.

---

(1) المغرة: مجموعة من الألوان الترابية، تستمد صبغتها من أكسيد الحديد الموجود بشكل طبيعي في الطين والرمل يتراوح بين الأصفر المائل للبني إلى البرتقالي الداكن أو البني المحمر.

هبَّ ريح عاصف فجأة، ابتلع غباره الأصفر الطريق المؤدي إلى خارج القرية. تابع شوي السير على هذا الطريق، خطواته الأولى نحو حياة جديدة. طريق سيقوده إلى أماكن لم يتخيلها حتى في أقصى أحلامه.

هدف الحياة #1

اشرب ماء غير مُر واجنِ بعض المال

- أوه، ثمة الكثير من الضوء!

حلَّ الليل مع وصول شوي مجموعة مناجم فحم، وأفران صغيرة، غير مرخَّصة شكَّلت منطقة تعدين.

قال قوه تشيانج، من نفس قرية شوي، لكنه غادرها منذ سنوات عديدة، وقد جاء لاستقباله:

- تلك؟ بالكاد.. في المدينة الضوء الحقيقي.

تبع شوي قوه إلى عنبر العمال لقضاء الليلة. عند وقت العشاء شعر بسعادة غامرة عندما اكتشف أن الماء له طعم حلو لطيف. أخبره قوه أن بئرًا عميقة حُفرت في المنطقة، لذلك الماء جيد بطبيعته. وأضاف:

- لكن اذهب إلى المدينة.. تجد الماء الحلو بحق!

قبل النوم ناوله «قوه» طردًا صلبًا ملفوفًا ليستخدمه كوسادة. فتح شوي الطرد فرأى أعوادًا دائرية مغلفة بالبلاستيك الأسود. عندما أزال الغلاف وجد أنَّ الأعواد ذات لون أصفر مائل للون الصابون.

تمتم قوه قبل أن يستدير ويبدأ في الشخير:

- ديناميت.

لاحظ شوي رأس قوه مستندًا إلى نفس نوع الوسادة.

ثمَّة كومة من الديناميت تحت السرير، وعنقود من صواعق التفجير يتدلى فوق رأسه. فيما بعد علم شوي أنَّ كمية المتفجرات الموجودة في عنبر النوم كافية لنسف قريته بالكامل ودفعها إلى عنان السماء. «قوه» فني التفجير في المنجم.

العمل في المنجم شاق ومرهق. يركض شوي جيئة وذهابًا، يحفر المنجم، يدفع العربات، ويقيم الدعامات، ويؤدي شتَّى الأعمال الغريبة. في نهاية كل يوم ينهار من التعب. لكن شوي تربى على الشدة، فلم يخشها.

ما أخافه حقًا هو ظروف العمل في البئر؛ أشبه النزول التسلل إلى عش نمل مظلم. في البداية، بدا كابوسًا في اليقظة، ثم اعتاد عليه لاحقًا. يتقاضى أجره بالقطعة، يكسب مائة وخمسين يوانًا كل شهر. وأحيانًا مائتين إذا تحسَّن العمل، وكان راضيًا بذلك.

غير أنَّ أكثر ما أرضى شوي هو الماء. بعد أول يوم عمل غلَّف السخام جسده، فتبع زملاءه إلى الحمامات. رأى كيف يملؤون الطست من بركة كبير، شطفوا أجسادهم، وتركوا الماء ينحدر من رؤوسهم إلى أخمص أقدامهم، مخلفًا جداول سوداء على الأرض. ذُهِل تمامًا: «يا أُماه، كيف يهدرون هذا الماء العذب هكذا»؟ في عينَي شوي ذلك الماء الحلو النقي هو ما يجعل لهذا العالم المغبر المظلم جمالًا لا يُضاهى.

حثه «قوه» على الانتقال إلى المدينة، اشتغل سابقًا هناك كعامل، لكنه سرق من موقع بناء ثم وُصم بالتشرد وأُعيد إلى محل إقامته المسجل. وأكَّد لشوي إمكانية كسب مال أكثر في المدينة

دون الحاجة لإجهاد نفسه حتى الموت كما هو الحال في المنجم.

تردَّد شوي، وعندما كان يحاول اتخاذ قراره، تعرَّض «قوه» لحادث في البئر. أزال إصبع ديناميت لم ينفجر بعد، فانفجر فيه. اضطروا إلى حمله خارج الحفرة، وجسده مثقوب بشظايا الصخور. قبل موته، التفت إلى شوي وتمتم قائلًا:

- اذهب إلى المدينة.. الضوء هناك أكثر.

هدف الحياة #2

اذهب إلى المدينة، ضوء أكثر وماء أطيب، واكسب المزيد من المال

هتف شوي:

- الليل هنا ساطع كأنه نهار!

لم يكن «قوه» مخطئًا. بالفعل، ثمَّة المزيد من الضوء حقًا في المدينة. في تلك اللحظة يسير شوي خلف جونيور، حاملًا على ظهره صندوق تلميع أحذية. يمشيان على الطريق الرئيسي لعاصمة المقاطعة باتجاه محطة القطار.

جونيور من قرية مجاورة لقرية شوي، وعمل ذات مرة مع قوه في عاصمة المقاطعة. مع إرشادات قوه، استغرق الأمر من شوي بعض الوقت للعثور عليه.

اتضح أنَّ جونيور لم يعد يعمل في البناء، بل اتجه إلى تلميع الأحذية. لكن شوي حالفه الحظ: لم يجد ماسح الأحذية فحسب، بل إنَّ أحد زملاء جونيور في السكن، يعمل في نفس المهنة، عاد مؤخرًا إلى قريته لأمر شخصي. شرح جونيور بسرعة لشوي خطوات التلميع، ثم طلب منه حمل صندوق زميله واتباعه.

أثناء سيره، شعر شوي أنه لا يملك الكثير من الثقة في هذه المهنة الجديدة. يرى الفائدة في إصلاح الأحذية، أما تلميعها فأي شخص يدفع يوانًا واحدًا لتلميع -أو ثلاثة يوانات للتلميع الجيد- بالتأكيد مختل. ومع ذلك، أمام المحطة، جاء أول زبون لهما قبل

الانتهاء من إعداد المكان. ولدهشته، بحلول الساعة الحادية عشرة من تلك الليلة، كسب شوي أربعة عشر يوانًا.

أما جونيور فعاد إلى المنزل بوجه عابس. تذمَّر من سوء العمل في ذلك اليوم، ولم يفُت شوي تلميح جونيور بسرقة زبائنه.

سأل شوي، مشيرًا إلى مبنى أمامهما:

- ما تلك الصناديق المعدنية الكبيرة تحت النوافذ؟

أجاب جونيور:

- وحدات تكييف الهواء.. تشعر كأنها أوائل الربيع في الداخل.

قال شوي وهو يمسح العرق عن وجهه:

- المدينة مذهلة!

ردَّ جونيور:

- الحياة هنا صعبة. من السهل كسب ما يكفي لطبق من الأرز، لكن إن أردت الزواج والاستقرار، فانسَ الأمر.

ثم مشيرًا بذقنه نحو المبنى:

- شقة هنا تكلف ألفين أو ثلاثة آلاف يوان للمتر المربع.

سأل شوي ببراءة:

- ما هو المتر المربع؟

هزَّ جونيور رأسه باستهجان ولم يرد.

يقتسم شوي إيجار شقة صغيرة مؤقتة مع اثني عشر رجلًا آخرين. معظمهم من العمال المهاجرين أو المزارعين المتجوِّلين بمحاصيلهم في المدينة. لكن الرجل في الفراش المجاور لشوي من سكان المدن فعلًا، رغم أنه ليس ابن هذه المدينة تحديدًا.

لا يختلف كثيرًا عن بقية الرجال. ولا يأكل أفضل منهم. في الليل يتجرَّد عاريًا حتى الوسط ليستمتع بنسمات المساء الباردة، لكن كل صباح يرتدي بدلة أنيقة وحذاءً جلديًا. عندما يخرج من الباب يبدو شخصًا آخر، كما لو أنَّ طائر العنقاء الذهبي يطير من حظيرة دجاج.

اسم الرجل تشوانج يو. لم يشعر الآخرون نحوه بالغيرة، ويرجع ذلك أساسًا إلى شيء جلبه معه. بدا الأمر لشوي كأنه مظلة كبيرة، لكنها مصنوعة من المرايا. الجزء الداخلي منها شديد السطوع وعاكس. وضع تشوانج أولًا المظلة المقلوبة على الأرض تحت أشعة الشمس، ثم وضع وعاء ماء على حامل في المكان المفروض للمقبض. سخَّن الوهج المنعكس قاعدة الوعاء وغلى الماء بسرعة. لاحقًا علم شوي أنَّ هذا الشيء يُسمَّى «الموقد الشمسي». استخدمه الرجال لغلي الماء وطهي الطعام مما وفَّر لهم مالًا كثيرًا. لكن في الأيام الغائمة، لم يكن له أي فائدة.

لم تحتوِ المظلة المسماة بالموقد الشمسي على دعامات. مجرَّد ورقة رقيقة للغاية. راقب شوي بانبهار تشوانج يطويها. امتدَّ سلك كهربي رفيع وطويل من أعلى الموقد إلى داخل الشقة. سحب تشوانج المقبس ببساطه من القابس لإغلاقها، فتدلت نحو الأرض مع نفخة صغيرة من الهواء، وتحولت فجأة إلى قطعة قماش فضية. التقطها شوي وفحصها بعناية. ناعمة وملساء وخفيفة بلا وزن تكاد. تعكس صورته الممووجة على سطحها، لامعة ببريق قوس قزح شبيه بفقاعة صابون.

ما إن أرخى قبضته انزلقت القطعة الفضية من بين أصابعه وسقطت على الأرض دون صوت، كحفنة من الزئبق الطائر.

عاود تشوانج إدخال القابس، فانبسط القماش ببطء مثل زهرة لوتس تتفتح بالكامل. وبعد وقت قصير عاد إلى شكله الدائري المقلوب كمظلة. عندما لمس تشوانج سطحه مجددًا، وجده رقيقًا وصلبًا. نقر عليه بخفة، فسمع صوتًا معدنيًا لطيفًا. في هذه الحالة كان قويًا جدًا لدرجة أنَّ بإمكانه حمل وعاء كامل أو إبريق إذا ما ثُبت على الأرض.

قال تشوانج لشوي:

- إنه نوع من مواد النانو[1]. يتمتَّع سطحها بخصائص انعكاسية ممتازة، وهو قوي جدًا أيضًا. والأهم من ذلك، طري ومرن في الظروف العادية، لكنه يصبح صلبًا عند تمرير تيار كهربائي ضعيف عليه.

علم شوي لاحقًا أنَّ «طبقة النانو العاكسة» أحد إنجازات تشوانج البحثية الخاصة. بعدما تقدَّم بطلب للحصول على براءة اختراع، استثمر كل ما يملك في محاولة إدخال منتجات مصنوعة من هذه المادة إلى السوق. لكن لم يُبدِ أحد أي اهتمام بمنتجاته، حتى الموقد الشمسي المحمول، وخسر كل رأس ماله.

أصبح الآن فقيرًا لدرجة اضطرته لاقتراض المال من شوي لتسديد الإيجار. على الرغم من سقوطه إلى هذا الحد ظلَّ متفائلًا بلا كلل. يجوب المدينة يومًا بعد يوم بحثًا عن منافذ لعرض مواده الجديدة. أخبر شوي أنَّ هذه هي المدينة الثالثة عشرة التي يزورها

(1) مواد النانو: تُصنع أو تعالج بأبعاد (أو أبعاد حبيباتها الداخلية أو بنيتها السطحية) في نطاق النانومتر. النانومتر هو جزء من مليار من المتر وهو مقياس متناهي الصغر لدرجة أن خيط العنكبوت الرفيع يبلغ عرضه حوالي 500نانومتر، وقطر شعرة الإنسان حوالي 80.000 نانومتر!

بحثًا عن الفرص. إلى جانب الموقد الشمسي يمتلك تشوانج أيضًا قطعة صغيرة من الفيلم العاكس. عادة ما تستقر على طاولة بجانب سريره، وتبدو كأنها منديل فضّي صغير. كل صباح قبل الخروج يضغط تشوانج على زر تشغيل صغير فيتصلب المنديل الفضي على الفور ليصبح لوحًا رقيقًا يستخدمه كمرآة صغيرة ليرتب مظهره أمامها. في أحد الصباحات، وهو يمشط شعره أمام المرآة، ألقى نظرة جانبية على شوي، الذي نهض من فراشه للتو.

قال معلقًا:

- عليك حقًا الاهتمام بمظهرك. اغسل وجهك بانتظام، سرِّح شعرك قليلًا. ناهيك عن ملابسك. ألا يمكنك توفير بعض المال لشراء ملابس جديدة؟

قرَّب شوي من المرآة ونظر إلى وجهه فيها، ثم ضحك في النهاية وهزَّ رأسه، مرهق الأمر للغاية بالنسبة لماسح أحذية.

قال تشوانج وهو يميل نحو شوي:

- المجتمع الحديث مليء بالفرص. السماء مكدَّسة بالطيور الذهبية. ربما تمد يدك في يوم من الأيام وتقتنص واحدًا. لكن فقط إن تعلَّمت أخذ نفسك على محمل الجد.

نظر شوي حوله، لكنه لم يرَ طائرًا ذهبيًا واحدًا. هزَّ رأسه وقال:

- لم أحصل على تعليم.

- هذا مؤسف لا شك. لكن من يدري؟ ربما سيتحوَّل ذلك إلى ميزة في نهاية المطاف. عظمة هذا العصر تكمن في عدم قابليته للتوقع. يمكن أن تحدث المعجزات لأي شخص.

سأله شوي بتردد:

- التحقت بالجامعة، أليس كذلك؟

- لديَّ دكتوراه في فيزياء الحالة الصلبة، قبل الاستقالة، كنت أستاذًا جامعيًا.

بعد مغادرة تشوانج، جلس شوي لفترة طويلة وفمه مفتوح من الدهشة وأخيرًا، هزَّ رأسه. إذا كان شخص مثل تشوانج يو لم يتمكن من اصطياد طائر واحد في ثلاث عشرة مدينة مختلفة فلا أمل. شعر كأن تشوانج يسخر منه، لكن في جميع الأحوال كان الرجل نفسه مثيرًا للشفقة وسخيفًا.

تلك الليلة، بينما بعض الرجال نائمون، والبعض الآخر يلعبون البوكر، ذهب شوي وتشوانج لمشاهدة التلفاز في مطعم صغير لا يبعد سوى بضعة أبواب. تجاوز الوقت منتصف الليل وثمَّة بث إخباري على الشاشة. لم يظهر سوى المذيع دون أي جرافيك آخر.

«كشف متحدث باسم مجلس الدولة، في مؤتمر صحفي، عُقد بعد ظهر اليوم، انطلاق مشروع الشمس الصينية المذهل رسميًا. ويُعد هذا المشروع أكبر مشروع هندسي بيئي منذ حزام الحماية الثلاثي الشمالي[1]، ويتوقع منه إحداث تحول جذري في تربة بلادنا».

سمع شوي عن المشروع من قبل وعرف أنه يتضمَّن إنشاء شمس أخرى في السماء. هذه الشمس الثانية ستجلب مزيدًا من الأمطار إلى شمال غرب البلاد القاحل.

---

(1) مشروع تشجير هائل وطويل الأمد بدأته الصين لمكافحة التصحر، وتآكل التربة، والعواصف الرملية في مناطقها الشمالية والشمالية الغربية والشمالية الشرقية. يُطلق عليه أحيانًا اسم «سور الصين الأخضر العظيم» بسبب حجمه وطموحه.

بدت حكاية بعيدة المنال بالنسبة لشوي. أراد سؤال تشوانج عنه كما يفعل عادة حين يصادف أمورًا كهذه. لكنه عندما التفت، وجد صديقه يُحدِّق في التلفاز بعينين واسعتين وفم مفتوح، كما لو أنَّ الشاشة انتزعت روحه من جسده.

لوَّح شوي بيده أمام وجه الرجل الآخر، لكنه لم يتلقَّ أي رد. لم يستعد تشوانج وعيه إلا بعد فترة طويلة من انتهاء البث. تمتم لنفسه: «حقًا... كيف لم أفكر في مشروع الشمس الصينية؟».

نظر إليه شوي بدهشة. إذا كان هو نفسه يعرف عن المشروع، فلا يُعقل أن تشوانج لم يسمع به. من في الصين لم يسمع به؟ بالطبع يعلم بوجوده. فقط لم يخطر بباله حتى تلك اللحظة. لكن ما هي الإمكانية الجديدة التي استحوذت على انتباهه؟ ما علاقة هذا المشروع بتشوانج يو، الرجل المفلس الذي يعيش في شقة خانقة ومتهالكة؟

سأله تشوانج:

- هل تذكر ما قلته لك هذا الصباح؟ الآن طائر ذهبي انقضَّ أمامي، وهو ضخم. يحلق فوق رأسي طوال هذا الوقت، لكني لم ألحظه، اللعنة!

واصل شوي التحديق فيه في حيرة تامة.

أعلن تشوانج وهو ينهض:

- سأذهب إلى بكين. سأستقل قطار الثانية والنصف. تعالَ معي يا أخي!

- إلى بكين؟ لتفعل ماذا؟

- بكين كبيرة جدًا، ما الشيء الذي لا يمكن فعله هناك؟ حتى لو اكتفيت بتلميع الأحذية، ستكسب هناك أكثر بكثير مما تكسبه هنا.

وهكذا، في تلك الليلة بالذات، استقلَّ شوي وتشوانج قطارًا مزدحمًا للغاية لدرجة عدم وجود مقاعد شاغرة. وطوال الليل يشق القطار طريقه عبر المساحات الواسعة من الغرب، منطلقًا نحو شروق الشمس.

هدف الحياة #3

اذهب إلى مدينة أكبر، شاهد المزيد من العالم، واكسب مالًا أكثر

عندما رأى شوي العاصمة للمرة الأولى أصبح شيء واحد واضحًا: ثمة أشياء لا يمكن فهمها إلا برؤيتها. قوة خياله وحدها ليست كافية. فعلى سبيل المثال، تخيَّل ليل بكين مرات لا تُحصى. في البداية كان يضاعف أو يثلث عدد الأضواء في قريته أو في منطقة التعدين.

بعدما انتقل إلى عاصمة المقاطعة أعاد نفس الحيلة مع أضوائها، لكن عندما انعطفت الحافلة التي ركبها مع تشوانج من محطة سكة حديد بكين الغربية إلى شارع تشانجان أدرك أنه حتى لو ضاعف أضواء عاصمة المقاطعة ألف مرَّة، فلن يقترب من مشهد بكين الليلي. بالطبع لم تكن أضواء بكين أكثر سطوعًا فعليًا بألف مرة من أضواء عاصمة المقاطعة، لكن هناك شيء في وسط بكين لا يمكن للمدن الغربية أن تطمح لبلوغه.

قضى شوي وتشوانج ليلتهما في قبو فندق رخيص، ثم افترقا في الصباح. وقبل المغادرة تمنى تشوانج لشوي حظًا سعيدًا وقال إنه إذا واجه أي مشكلة يمكنه دائمًا أن يبحث عنه. لكن عندما سأله شوي عن رقم هاتف أو عنوان، اعترف تشوانج أنه لا يملك أيًا منهما. فقال شوي:

- إذن، كيف سأجدك؟
- فقط انتظر قليلًا وقريبًا ستعرف أين أكون بمجرد النظر إلى التلفاز أو قراءة صحيفة.

وهو يشاهد شكل تشوانج وهو يبتعد، هزَّ شوي رأسه في حيرة. يا له من رد مربك! ليس لدى الرجل سنت واحد باسمه. في هذا اليوم لم يستطع حتى دفع ثمن غرفة في الفندق، وشوي هو من اشترى لهما الفطور. قبل مغادرتهما إلى بكين أعطى موقده الشمسي لمالك الشقة بدلًا من الإيجار. والآن لم يكن أكثر من شحاذ يحمل حلمًا. بعد افتراقه عن تشوانج، خرج شوي على الفور يبحث عن عمل، لكنَّ المدينة صدمته بعمق لدرجة أنه نسي هدفه الأصلي. قضى اليوم بأكمله يتجوَّل بلا هدف في شوارع المدينة كما لو أنه دخل إلى عالم من الحكايات الخرافية، ولم يشعر بالتعب على الإطلاق.

مع حلول الغروب وقف أمام أحد الرموز الجديدة للعاصمة، برج الوحدة. اكتمل بناؤه العام الماضي. بارتفاع بلغ خمسمائة متر. رفع شوي رقبته لينظر إلى الجرف الزجاجي الذي ارتفع فوق السحاب. على سطحه قدَّم وهج الغروب المتلاشي وبحر الأضواء المتزايدة من الأسفل عرضًا رائعًا من الظل والنور. ظلَّ شوي يُحدِّق حتى بدأ عنقه يؤلمه. ما إن همَّ بالمغادرة حتى أضيء البرج نفسه. استحوذ المشهد القوي على حواس شوي، فبقي واقفًا في مكانه، موجهًا نظره نحو السماء.

- تُحدِّق لفترة طويلة، هل أنت مهتم بهذا النوع من العمل؟

استدار شوي ليرى مخاطبه. شاب، يرتدي ملابس تشبه ملابس أي ساكن في المدينة. يحمل خوذة صفراء في يده. سأل شوي في حيرة:

- أي عمل؟

ردَّ الشاب بالإشارة إلى الأعلى، بيده التي لا تزال تمسك بالخوذة وسأله:

- ما الذي كنت تنظر إليه للتو؟

رفع شوي رأسه ونظر في الاتجاه الذي أشار إليه الشاب. لدهشته، رأى عدة أشخاص في أعلى الجرف الزجاجي. من الأرض بدوا كأنهم نقاط سوداء صغيرة.

سأل شوي وهو يُجهد نفسه لينظر عن كثب:

- ماذا يفعلون هناك في الأعلى؟ هل ينظفون الزجاج؟

أومأ الرجل برأسه قائلًا:

- أنا مدير الموارد البشرية في شركة «بلو سكايز» لتنظيف النوافذ. شركتنا متخصِّصة أساسًا في خدمات التنظيف للمباني الشاهقة. هل أنت مستعد للعمل في هذا المجال؟

رفع شوي رأسه مرة أخرى. وعندما نظر إلى النقاط السوداء الشبيهة بالنمل في الأعلى شعر بالدوار قائلًا:

- يبدو.. مخيفًا.

- إذا كنت قلقًا بشأن السلامة، فاطمئن. العمل يبدو خطيرًا، وهذا ما يجعل التوظيف صعبًا للغاية. نعاني نقصًا في الأيدي العاملة حاليًا. لكن أؤكد لك أنَّ احتياطاتنا الأمنية شاملة جدًا.

ما دمت تتبع تعليمات الشغل بدقة، فلن تتعرَّض لأي خطر على الإطلاق. وندفع أجورًا أعلى من الشركات الأخرى في هذا المجال. يمكنك كسب ألف وخمسمائة يوان في الشهر، بالإضافة إلى وجبة غداء مجانية في أيام العمل، كما توفر لك الشركة تأمينًا شخصيًا.

اندهش شوي من هذا المبلغ، فحدَّق في المدير مذهولًا، لكن الرجل فهم صمته بشكل خاطئ. فقال:

- حسنًا، سألغي فترة التجربة وسأضيف ثلاثمائة أخرى. هذا يجعلها ألفًا وثمانمائة في الشهر. لا أستطيع أن أزيد على ذلك. تتراوح الأجور الأساسية لهذا النوع من العمل بين أربعمائة وخمسمائة يوان، بالإضافة إلى أجور حسب عدد النوافذ. الآن ندفع راتبًا شهريًا ثابتًا، وهذا يُعتبر جيدًا بالمقارنة.

وهكذا أصبح شوي منظف نوافذ شاهقة أو كما يُعرف أحيانًا برجل العنكبوت.

هدف الحياة #4

أن تصبح من أهل بكين.

مع أربعة من منظفي النوافذ الآخرين، بدأ شوي في النزول بحذر من الطابق العلوي لبرج الفضاء. استغرقهم الوصول إلى الطابق الثالث والثمانين، حيث توقفوا في اليوم السابق، أربعين دقيقة. تنظيف الواجهات المائلة واحدة من أكثر المشاكل التي تؤرق رجال العنكبوت، تلك التي تشكل زوايا أقل من تسعين درجة مع الأرض.

في استعراض لإبداعه المرضي، صمَّم مهندس برج الفضاء المبنى بأكمله بشكل مائل، مدعومة قمته بعمود نحيل مغروس في الأرض.

ووفقًا للمهندس المعماري الشهير فإنَّ التصميم المائل من المفترض أن يُعطي إحساسًا بالصعود. بدا تصريحه معقولًا، وأصبحت ناطحة السحاب هذه مشهورة في جميع أنحاء العالم كمعلم بارز في بكين. لكن هذا المهندس المعماري وثمانية أجيال من أجداده، يُلعنون يوميًا وبطرق أكثر ابتكارًا من قبَل رجال العنكبوت في بكين. تنظيف برج الفضاء بالنسبة لهم كابوس حقيقي. أحد جوانبه مائل بالكامل، بارتفاع يصل إلى أربعمائة متر ويلتقي بالأرض بزاوية خمس وستين درجة.

عندما وصل شوي إلى موقع عمله رفع رأسه ونظر إلى الأعلى. بدت الواجهة الزجاجية الضخمة فوقه كأنها موشكة على

السقوط. وبيد واحدة نزع الغطاء عن عبوة المنظف الخاصة به. بيده الأخرى أمسك بمقبض كأس الشفط. هذا النوع من الكؤوس مصمَّم خصيصًا لتنظيف الأسطح التي تتجاوز الوضع العمودي. لكنه مع ذلك صعب الاستخدام وغالبًا ما يفقد تماسكه. وساعتها، يتأرجح عامل التنظيف بعيدًا عن الجدار، معلقًا بحبل الأمان.

شاعت هذه الحوادث أثناء تنظيف برج الفضاء، وفي كل مرة تكاد تُخلع روح العامل من جسده من شدة الخوف. فقط أمس فقد زميل شوي تماسك الكأس وتأرجح بعيدًا عن المبنى ثم عاد للارتطام بالجدار. دفعته عاصفة هوائية فاصطدم بالمبنى، محطمًا لوحًا زجاجيًا كبيرًا. تمزَّق جبينه وذراعاه إلى شرائح. وتكلفة استبدال الزجاج المعماري المغلف الباهظ الثمن تعادل أجر سنة كاملة من عمله.

انضمَّ شوي إلى صفوف رجال العنكبوت قبل أكثر من عامين، لكن العمل لم يصبح أسهل مع مرور الوقت، فالرياح من الدرجة الثانية على مقياس بوفورت[1] على مستوى الأرض تقوى لتصل إلى الدرجة الخامسة على ارتفاع مائة متر. وفي المباني التي يزيد ارتفاعها على أربعمائة أو خمسمائة متر، تضحى أشد وأكثر عنفًا.

خطورة الوظيفة ليست محل نقاش. السقوط حتى الموت في الشوارع بالأسفل لم يكن مصيرًا نادرًا لهؤلاء العمال. في الشتاء، الرياح قوية حادة كالسكاكين، وحمض الهيدروفلوريك المُستخدم في تنظيف النوافذ الزجاجية شديد التآكل لدرجة أنه يتسبَّب في

(١) مقياس بوفورت: مقياس تجريبي لتقدير قوة الرياح بناءً على الملاحظات المرئية لتأثير الرياح على سطح البحر أو على اليابسة.

اسوداد أظفارهم وتساقطها. وللحماية من هذا المنظف، كان رجال العنكبوت يرتدون سترات وسراويل وأحذية محكمة الإغلاق ضد الماء حتى في فصل الصيف. وعند تنظيف الزجاج المطلي، تضرب الشمس الحارقة ظهورهم، أما الوهج المنعكس أمامهم فيعمي أبصارهم ويجعل من الصعب إبقاء أعينهم مفتوحة. شعر شوي كأنه وُضع داخل موقد تشوانج الشمسي.

لكن شوي أحب عمله. وكان العامان الماضيان أسعد فترة في حياته. ولا شك أنَّ الراتب المرتفع نسبيًا مقارنة بباقي العمال المهاجرين غير المتعلمين الذين يتدفقون إلى بكين ساعد في ذلك. لكن الأهم شعوره بالرضا العميق وإحساسه الرائع بالإنجاز من خلال عمله. يُسعده أداء بالأعمال التي يرفض زملاؤه من رجال العنكبوت أداءها: تنظيف ناطحات السحاب الجديدة. كل واحدة من هذه المباني ترتفع لما لا يقل عن مائتي متر، أما الأطول منها فتجاوزت الخمسمائة متر.

عندما يتدلى شوي من جوانب هذه الأبراج يستمتع بمشهد رائع لمدينة بكين وهي تمتد أسفل قدميه. تبدو ما تُسمَّى بالمباني الشاهقة المشيدة في القرن الماضي من هذا الارتفاع منخفضة الارتفاع. أما من مسافة أبعد قليلًا، فتبدو كأنها مجموعة أغصان صغيرة مغروسة في الأرض.

وفي قلب المدينة بدت المدينة المحرَّمة كما لو بُنيت من مكعبات أطفال ذهبية صغيرة. من ذلك الارتفاع، لا يسمع صخب بكين. بوسعه مطالعة المدينة بنظرة واحدة شاملة. تتنفس بهدوء من تحته ككائن حي ضخم يحيط به نسيج عنكبوتي من الطرق

الرئيسية. وأحيانًا يخترق المبنى الذي ينظفه السحاب. قد يكون الجو عاصفًا كئيبًا تحت خصره في حين تشرق الشمس فوق رأسه. عندما ينظر إلى بحر السحب اللا نهائي يتلاطم تحت قدميه، يشعر دائمًا كأن الرياح العاتية تهب من خلال جسده، لا من حوله فقط.

علَّمته هذه التجربة حقيقة فلسفية: بعض الأمور لا تتضح إلا إذا نُظر إليها من الأعلى. عندما يكون الإنسان غارقًا في العاصمة، تبدو كل الأشياء حوله معقدة بشكل يبعث على اليأس. على الأرض، المدينة أشبه بمتاهة لا نهاية لها. لكن من الأعلى، لم تكن سوى تلة نمل يسكنها عشرة ملايين شخص والعالم من حولها واسع جدًا.

في أول مرة استلم فيها راتبه، خرج شوي للتنزُّه في أحد المراكز التجارية الكبرى، وعندما استقل المصعد إلى الطابق الثالث وجد مشهدًا غريبًا بانتظاره. خلافًا للطوابق المزدحمة بالأسفل، الطابق شبه فارغ باستثناء عدد قليل من الطاولات المنخفضة والكبيرة بأسطح عريضة مغطاة بمجموعات من المباني الصغيرة، لم يتجاوز ارتفاع أي منها ارتفاع كتاب. والمساحات بين تلك المباني مغطاة بالعشب الأخضر اللامع، تتخللها أجنحة بيضاء وممرات متعرجة.

الهياكل الصغيرة جميلة، كأنها منحوتة من العاج أو الجبن. بالاشتراك مع المروج الخضراء، شكَّلت عالمًا مصغرًا رائع الجمال. في نظر شوي، بدا الأمر كأنه نموذج مُصغَّر للفردوس.

في البداية ظنَّ أنها مجرَّد ألعاب، لكنه لم يرَ أي أطفال في القاعة. بدت تعبيرات جادة ويقظة على وجوه البالغين حول

الطاولات. مأخوذًا بسحر المكان وقف بجوار أحد تلك الفراديس الصغيرة يدرسه طويلًا. لم يدرك أنه في مكتب عقاري إلا عندما حيَّته شابة جذابة. أشار إلى مبنى بشكل عشوائي وسأل عن سعر شقة في الطابق العلوي. أخبرته الموظفة أنها شقة مكوَّنة من ثلاث غرف نوم وغرفة معيشة صغيرة، وأنَّ سعرها خمسة وثلاثون ألف يوان للمتر المربع، أي مجموعه ثلاثمائة وثمانون ألف يوان.

شهق شوي عند سماعه الرقم، لكن الجملة التالية للموظفة خفَّفت من وقع هذا الرقم القاسي: «بإمكانك الدفع بأقساط شهرية تتراوح بين ألف وخمسمائة إلى ألفي يوان».

سأل بحرص:

- أنا... لست من بكين، هل يمكنني شراؤها رغم ذلك؟

ابتسمت بسحر وقالت:

- أنت مضحك جدًا، أُلغي نظام تسجيل الأسر[1] منذ سنوات. هل يوجد شيء اسمه «ابن بكين الحقيقي» بعد الآن؟ إذا استقررت هنا، أفلا يجعلك هذا من سكان بكين؟

تجوَّل شوي بلا هدف في الشوارع بعد مغادرة المركز التجاري لفترة طويلة. فسيفساء بكين اللامعة تتلألأ في الليل من حوله. يمسك في يده كتيبات ملوَّنة أعطته إياها الموظفة، ويتوقف بين الحين والآخر لينظر إليها.

---

(1) نظام الهوكو (Hukou) نظام لتسجيل الأسر في الصين، وله جذور تاريخية عميقة تعود إلى آلاف السنين. وتهدف نسخته الحديثة للتحكم في الهجرة الداخلية وخاصة من الريف إلى المدن.

قبل عامين، فقط في تلك الغرفة المتداعية في المدينة الغربية البعيدة، مجرد امتلاك شقة في عاصمة المقاطعة كان يبدو كأنه حلم خرافي. أما الآن، فمع أنه لا يزال بعيدًا عن شراء شقة في بكين، فإنَّ الأمر لم يعُد حكاية خرافية. أصبح حلمًا، ومثل هذه النماذج الصغيرة الرقيقة كان ماثلًا أمام عينيه، يستطيع أن يمد يده ويلامسه.

في تلك اللحظة طرق أحدهم على النافذة التي ينظفها شوي، قاطعًا حلم يقظته. كان هذا مصدر إزعاج شائع، بالنسبة للموظفين ذوي الياقات البيضاء، ظهور موظفي النوافذ في مكاتبهم مصدر لغيظ لا يوصف. الأمر كما لو أنَّ عمال التنظيف هؤلاء بالفعل عناكب كبيرة وغريبة كما يوحي لقبهم، والفاصل بين العمال في الخارج والموظفين في الداخل أكثر بكثير من مجرَّد لوح زجاجي.

أثناء عمل رجال العنكبوت يتذمر الناس من الضجيج، أو من حجب أشعة الشمس أو من مليون سبب آخر يجعلهم يشعرون بأنَّ عمال التنظيف أفسدوا يومهم. زجاج برج الفضاء شبه عاكس، فاضطر شوي لإجهاد نظره ليرى من خلفه، وعندما استطاع أخيرًا تمييز الرجل داخل المكتب صُدم لرؤية تشوانج يو.

بعد فراقهما قلق سوي كثيرًا على تشوانج. في ذهنه ظلَّ الرجل مشردًا أنيقًا، يشق طريقه بصعوبة في هذه المدينة الكبيرة. ثم ذات ليلة من أواخر الخريف، وشوي يجلس في سكنه مهمومًا بما إن كان لدى تشوانج ما يكفي من الملابس الشتوية، رآه على شاشة التلفاز.

بدأ مشروع شمس الصين عملية اختيار التكنولوجيا الأساسية للمشروع: المادة التي ستُستخدم لصنع العاكس الضوئي. وفي

النهاية، اختاروا طبقة النانو العاكسة التي طوَّرها تشوانج من بين عشرات المواد الأخرى. في ليلة وضحاها، تحوَّل هذا المشرَّد المهتم بالعلوم إلى أحد العلماء الرئيسيين في مشروع شمس الصين، واعتُرف بإنجازه على مستوى العالم. بعدها، ومع ظهوره المتكرر في وسائل الإعلام، بدأ شوي ينسى أمره تدريجيًا، معتقدًا أنه توجد لا علاقة تربط بينهما بعد الآن.

عندما وصل شوي إلى ذلك المكتب الفسيح رأى أنَّ تشوانج لم يتغيَّر إطلاقًا خلال العامين الماضيين. يرتدي حتى نفس البدلة. والآن أدرك شوي أن الملابس التي كان يظنها فاخرة في السابق لم تكن إلا بالية في الواقع. أخبر تشوانج بكل ما مر به في حياته في بكين. وختم قائلًا بابتسامة:

- يبدو أنَّ كلًا منا أحسن الصنع هنا.

وافقه تشوانج بحماس وهو يهز رأسه بسرعة قائلًا:

- نعم، نعم، نجحنا! لأكون صريحًا، في ذلك الصباح الذي أخبرتك فيه عن الفرص في هذا الزمن، كنت قد فقدت الأمل في كل شيء. كنت أقول تلك الأشياء لأقنع نفسي بها. لكن هذه الأيام، العالم مليء فعلًا بالفرص!

هزَّ شوي رأسه هو الآخر وقال:

- العصافير الذهبية في كل مكان.

ألقى شوي نظرة متفحِّصة على المكتب الكبير ذي الطابع العصري من حوله. ثمة بعض الزخارف غير المألوفة لفتت انتباهه وسط باقي ديكور الغرفة. تُعرض صورة ثلاثية الأبعاد للسماء على

سقف المكتب بأكمله. ومن يقف في وسط الغرفة يشعر كأنه نُقل إلى فناء مفتوح تحت نجوم لامعة. وهناك طبق فضي مُنحنٍ مُعلَّق في الفضاء والخلفية من النجوم. بدا كأنه مرآة شبيهة بجهاز الموقد الشمسي الذي صمَّمه تشوانج، لكن شوي علم أن النسخة الحقيقية أكبر من مدينة بكين بعشرين أو ثلاثين مرة.

في أحد أركان السقف يطفو مصباح كروي الشكل كالمرآة في الهواء دون أي دعامة ظاهرة ويشع ضوءًا أصفر ساطعًا. تعكس المرآة أشعته على مُجسَّم الكرة الأرضية الموضوع بجانب مكتب تشوانج، مُشكِّلة دائرة من الضوء على سطحه. بينما يطفو المصباح ببطء عبر السقف، تدور المرآة لتتبعه مُحافظةً على تسليط الضوء على المجسم دون انقطاع. السماء المرصَّعة بالنجوم، والمرآة، والمصباح، وأشعته، والكرة الأرضية، والبقعة المضيئة على سطحها، جميعها تُكوِّن لوحة جدارية تجريدية وغامضة.

سأل شوي بدهشة وهو يشير إلى المرآة:

- هل هذه هي شمس الصين؟

أومأ تشوانج برأسه قائلًا:

- إنها عاكس ضوئي تبلغ مساحته ثلاثين ألف كيلومتر مربع. ومن مداره المتزامن مع الأرض -على ارتفاع ستة وثلاثين ألف كيلومتر- سيعكس ضوء الشمس نحو الأرض. من سطح الكوكب، سيبدو كما لو أنَّ هناك شمسًا أخرى في السماء.

قال شوي:

- هناك شيء لا أفهمه، كيف يمكن لشمس إضافية في السماء جلب المزيد من المطر؟

أجاب تشوانج:

- هذه الشمس الاصطناعية يمكنها استخدام عدة طرق للتأثير على الطقس. على سبيل المثال، من خلال الإخلال بالتوازن الديناميكي الحراري في الغلاف الجوي، يمكنها التأثير على دوران الهواء، وزيادة تبخر المحيطات أو تغيير مواقع الجبهات الجوية. لكن، في الواقع، هذا لا يشرح كل شيء.

العاكس المداري هو مجرد جزء واحد من مشروع شمس الصين، أما الجزء الآخر فهو نموذج معقد لحركة الغلاف الجوي، وسيجري تشغيله على عدة حواسيب خارقة. سيكون النظام قادرًا على محاكاة حركة الجو بدقة في أي منطقة محددة، ثم تحديد نقطة حرجة. إذا وُجِّهت حرارة الشمس الاصطناعية إلى هذه النقطة فإنَّ التأثير سيكون كبيرًا بما يكفي لتغيير مناخ منطقة مستهدفة بالكامل لفترة من الزمن.

توقف للحظة ثم أكمل:

- العملية معقدة للغاية، وهي خارج نطاق تخصصي. في الحقيقة أنا نفسي لا أفهمها تمامًا.

قرَّر شوي طرح سؤال آخر يعلم أن تشوانج يمكنه بالتأكيد الإجابة عنه. يعلم أن سؤاله ساذج، لكنه جمع شجاعته وسأله على أية حال:

- كيف يمكن لشيء بهذا الحجم البقاء معلقًا في السماء دون أن يسقط؟

حدَّق تشوانج في شوي بصمت لبضع ثوان طويلة، وأخيرًا نظر إلى ساعته ثم ربت على كتف شوي قائلًا:

- هيا بنا، سأعزمك على العشاء، وسأشرح لك لماذا لن تسقط شمس الصين أثناء تناولنا الطعام.

لكن الشرح لم يكن بالبساطة التي توقَّعها تشوانج. اضطر إلى ترك موضوعه الأصلي، وبدأ بالأساسيات. على الرغم من أن شوي يعلم أنه يعيش على كوكب كروي فإنَّ النموذج التقليدي الصيني الذي يتصوَّر السماء قبة فوق أرض مربعة لا يزال متجذرًا في ذهنه.

تطلَّب الأمر جهدًا كبيرًا من تشوانج ليُقنع شوي بأن العالم الذي يعيش فيه ليس سوى صخرة كروية صغيرة تطفو في فراغ لا نهائي. ومع أنَّ شوي لم يقترب كثيرًا من فهم السبب الذي يمنع شمس الصين من السقوط، فإنَّ الكون تغيَّر تمامًا في عينيه في تلك الأمسية. دخل عصر بطليموس هذا المساء. في الليلة الثانية تناول العشاء مع تشوانج في كشك طعام على الرصيف، وهناك جرَّه بنجاح إلى عصر كوبرنيكوس. وخلال الأمسيتين التاليتين، اجتاز شوي عصر نيوتن وتعلَّم أساسيات الجاذبية الكونية. في الأمسية التي تلتها، وبمساعدة مجسم الكرة الأرضية في مكتب تشوانج، دخل شوي عصر الفضاء. وأخيرًا في يوم عطلة عامة، وأمام تلك الكرة الأرضية فهم شوي معنى المدار المتزامن مع الأرض. عندها فقط أدرك لماذا لا تسقط شمس الصين. في ذلك اليوم أخذه تشوانج في جولة داخل مركز قيادة مشروع شمس الصين.

في المركز ثمة شاشة ضخمة تعرض مشهدًا بانوراميًا لأعمال بناء شمس الصين في مدار متزامن مع الأرض. عدة صفائح فضية رفيعة تطفو في ظلمة الفضاء، ضخمة إلى حد أن مركبات الفضاء التي تحوم بجانبها بدت كأنها بعوض صغير.

لكن أكثر ما أدهش شوي صورة على شاشة أخرى. تُظهر كوكب الأرض من ارتفاع ستة وثلاثين ألف كيلومتر. بدت القارات كأنها قصاصات كبيرة من ورق التغليف البني تطفو على سطح المحيطات. بدت سلاسل الجبال مثل طيَّات في الورق. أما السحب فظهرت كمجرد بقع متبقية من مسحوق سكر منثور على السطح.

أشار تشوانج إلى موقع قريته الأصلية وموقع بكين. حدَّق شوي في الشاشة طويلًا قبل أن يُتمتم باندهاش:

- لا بد أنَّ الناس هنا يفكرون بطريقة مختلفة.

انتُهي من البناء الرئيسي لشمس الصين بعد ثلاثة أشهر. مع حلول الليل في يوم العيد الوطني، وُجِّه العاكس نحو الأرض الغارقة في الظلام، ليصب ضوءه الهائل على بكين وتيانجين. في تلك الليلة، وبين مئات من الآلاف من الأشخاص المتجمعين في ساحة تيانانمن، شهد شوي شروقًا مهيبًا للشمس.

في السماء الغربية، بدأ نجم يسطع على نحو ملحوظ، مُشكلًا حوله حلقة صغيرة من الضوء الأزرق. ومع اقتراب شمس الصين من أقصى درجات سطوعها، توسَّعت الهالة وغطَّت نصف السماء. على أطرافها انساق الأزرق الصافي إلى الأصفر، ثم إلى الأحمر البرتقالي، ثم إلى البنفسجي الداكن، ليتكوَّن قوس قزح دائري عُرف لاحقًا باسم «إكليل الفجر».

عندما عاد شوي إلى سكنه، كانت الساعة قد تجاوزت الرابعة صباحًا. وحينما كان يستلقي على سريره العلوي الضيق، تسللت

أشعة شمس الصين عبر نافذته، مضيئة منشورات الإعلانات العقارية الملصقة على الحائط فوق وسادته. مزَّق الصفحات اللامعة وسحبها من مكانها. تحت إشعاع شمس الصين الإلهي بدا له الحلم الذي كان يملأه بالإثارة من قبل باهتًا وتافهًا.

***

بعد شهرين جاء مدير شركة التنظيف للبحث عن شوي. أخبره أن المدير تشوانج من مركز قيادة شمس الصين يرغب في رؤيته. لم يرَ شوي تشوانج منذ انتهاء عمله في برج الفضاء.

عندما التقى به في مكتبه في البرج، قال شوي بإعجاب صادق:

- شمسك هذه شيء مذهل حقًا!

أجاب تشوانج:

- شمسنا جميعًا، وشمسك أنت بالخصوص!

وأضاف مبتسمًا:

- الآن لا يمكنك رؤيتها من بكين، لأنها تجلب الثلج إلى قريتك!
- ذكر والداي في رسالتهما أنهما يحظيان بكمية ثلوج غير معتادة هذا الشتاء!

ردَّ تشوانج بجدية وهو يشير إلى شاشة كبيرة خلفه:

- لكن شمس الصين تواجه مشكلة كبيرة.

ظهرت على الشاشة صورتان لبقعة دائرية واحدة من الضوء.

- هذه الصور التُقطت من نفس الموقع، لكن بفارق زمني قدره شهران، هل ترى الفرق؟
- الصورة على اليسار أكثر سطوعًا.

ردَّ تشوانج:

- كما ترى، فإن التراجع في الانعكاسية يمكن ملاحظته بالعين المجردة خلال شهرين فقط.

- كيف يمكن حدوث ذلك؟ هل تراكم الغبار على المرآة؟

- لا يوجد غبار في الفضاء، لكن هناك الرياح الشمسية، وهي تيار من الجسيمات التي تقذفها الشمس. مع مرور الوقت، تغيِّر هذه الرياح سطح مرآة شمس الصين. ومع تراكم طبقة دقيقة من الجسيمات على العاكس تنخفض قدرة السطح على عكس الضوء. بعد عام من الآن سيبدو كما لو أنه مغطى ببخار الماء، وعندها ستتحوَّل شمس الصين إلى قمر الصين، ولن تعود صالحة للاستخدام.

- ألم تفكروا في هذا من قبل؟

- بالطبع فكَّرنا في ذلك.

توقف، ثم قال:

- دعنا نتحدث عنك، ما رأيك في تغيير وظيفتك؟

- تغيير الوظيفة؟ وماذا يمكنني أن أفعل غير ذلك؟

- ستظل تعمل كمنظف على ارتفاعات عالية، لكنك ستعمل معنا هذه المرة.

نظر شوي حوله بارتباك وقال:

- لكن برجك نُظِّف للتو! لماذا تحتاج لتوظيف منظف ناطحات سحاب بشكل خاص؟

- لا، لا نريدك لتنظيف الأبراج، نريدك لتنظيف شمس الصين.

هدف الحياة #5

السفر إلى الفضاء وتنظيف شمس الصين

عُقد اجتماع لمديري مشروع شمس الصين في قسم العمليات لمناقشة إنشاء وحدة لتنظيف العاكس. قدَّم تشوانج شوي مهمته للحاضرين وشرحها لهم. عندما سأل أحدهم عن خلفيته التعليمية، أجاب شوي بصدق أنه لم يُكمل سوى ثلاث سنوات من المرحلة الابتدائية. قال للحاضرين:

- لكني أستطيع قراءة الأحرف، وأقرأ دون مشاكل.

فانفجر الحضور في قاعة الاجتماعات ضاحكين.

صاح أحدهم بغضب:

- المدير تشوانج، هل هذا نوع من المزاح؟

ردَّ تشوانج بهدوء:

- أنا لا أمزح، إذا جمَّعنا طاقمًا مكوَّنًا من ثلاثين عامل تنظيف فسيستغرق منهم الأمر ستة أشهر لتنظيف مشروع شمس الصين بالكامل إذا عملوا على مدار الساعة. وفي الواقع سنحتاج إلى ما لا يقل عن ستين إلى تسعين شخصًا يعملون بنظام الورديات. إذا طُبِّق قانون حماية العمال في الفضاء الجوي في موعده المقرر فسوف نحتاج إلى عدد أكبر، ربما ما بين مائة وعشرين إلى مائة وخمسين عامل تنظيف، فهل يمكننا

إرسال مائة وخمسين رائد فضاء يحملون شهادات دكتوراه بساعات طيران تبلغ ثلاثة آلاف ساعة في مقاتلات عالية الأداء إلى الفضاء لإنجاز هذه المهمة؟

- بالتأكيد يمكننا العثور على مرشحين أكثر تأهيلًا! فالتعليم العالي أصبح شبه شامل في المدن هذه الأيام. كيف يمكن إرسال رجل أمي من الريف إلى الفضاء؟

احتجَّ شوي قائلًا:

- أنا لست أميًا!

لكنَّ الرجل تجاهله وواصل حديثه مع تشوانج:

- إنك تسيء إلى هذا المشروع العظيم!

هزَّ الآخرون رؤوسهم بالموافقة.

حتى تشوانج أومأ برأسه وقال:

- توقَّعت ردكم على هذا النحو. سيداتي وسادتي، باستثناء عامل التنظيف هذا، أنتم جميعًا تحملون شهادات الدكتوراه. حسنًا، دعونا نرَ مستوى أدائكم في التنظيف! تفضلوا معي.

تبع تشوانج اثنا عشر مشاركًا مذهولين، خرجوا من قاعة الاجتماعات ودخلوا المصعد. هناك ثلاثة أنواع من المصاعد في البرج: عادي وسريع وفائق السرعة. صعدوا في المصعد الأسرع، فانطلق بهم بسرعة هائلة إلى الطابق العلوي من المبنى.

قال أحدهم مندهشًا:

- هذه أول مرة أركب فيها هذا المصعد. أشعر كأنني أُقلع في صاروخ!

ردَّ تشوانج مستقبلًا نظرات غريبة من الآخرين:

- بعد دخول المدار المتزامن مع الأرض سيختبر الجميع ما يعنيه تنظيف مشروع شمس الصين.

بعد خروجهم من المصعد قادهم تشوانج إلى درج ضيق صعدوا عليه حتى خرجوا من باب معدني منخفض إلى سطح البرج المفتوح. فور خروجهم استقبلتهم أشعة الشمس الساطعة والرياح القوية. بدت السماء الزرقاء فوقهم أوضح من المعتاد، وبدأ المديرون ينظرون حولهم بإعجاب إلى منظر بكين البانورامي. هناك مجموعة صغيرة من الأشخاص بانتظارهم. فوجئ شوي بمدير شركته وزملائه من رجال العنكبوت يقفون هناك!

أعلن تشوانج بصوت عالٍ:

- الآن، سيجرِّب الجميع مهنة شوي!

تقدَّم رجال العنكبوت وربطوا كل مدير بحزام أمان، ثم قادوهم إلى حافة السطح وساعدوهم بحذر على ركوب منصات معلَّقة ضيقة، وهي نفس المنصات التي يستخدمها عادة عشرات من رجال العنكبوت كموقع عمل. أُنزِلت الألواح (المنصات) ببطء، حتى أصبحت معلَّقة ببطء على بُعد خمسة أو ستة أمتار تحت حافة السطح، ثم توقفت. عندها ارتفعت صرخات رعب خالص؛ حيث كان المديرون يتدلون مقابل الواجهة الزجاجية للبرج.

صاح تشوانج وهو يطل من فوق الحافة:

- سيداتي وسادتي، دعونا نتابع الاجتماع من حيث توقفنا!

صرخ أحدهم:

- أيها الوغد! اسحبونا للأعلى فورًا!

- لن أرفع أيًا منكم حتى ينظف كل واحد لوح زجاج!

كان هذا الطلب مستحيلًا. لم يكن أمام الأشخاص في الأسفل سوى التشبث بأحزمة الأمان الخاصة بهم أو بالحبال التي تدعم المنصات متشبثين بحياتهم دون أن يجرؤوا على التحرك. لم يقدروا إطلاقًا على تحرير إحدى أيديهم ليمسكوا ممسحة أو يزيلوا غطاء دلو المنظف. اعتاد هؤلاء المسؤولون في قطاع الفضاء يوميًا التعامل مع ارتفاعات تصل إلى عشرات الآلاف من الكيلومترات من خلال المخططات والوثائق، لكن الآن، بعد أن شعروا لأول مرة بارتفاع أربعمائة متر، أصيبوا بذعر شديد.

نهض تشوانج وسار إلى الموضع فوق عقيد في سلاح الجو. هو الوحيد الذي بقي هادئًا ومتزنًا من بين العشرات الذين كانوا معلقين على جانب المبنى. بدأ العقيد بتنظيف الزجاج، محافظًا على حركاته ثابتة ومنضبطة. لكن أكثر ما أدهش شوي هو أنَّ الرجل يعمل بكلتا يديه وتخلى عن التمسك بأي شيء يساعده على التوازن. ومع ذلك بقي لوحه معلقًا دون أن يتحرك في مهب الريح القوية، وهو إنجاز لا يقدر عليه إلا رجال العنكبوت المخضرمون. عندما تعرَّف شوي على الرجل، لم يعد المشهد أمامه غريبًا، فقد كان رائد فضاء شارك في رحلة مركبة «شنتشو 8»[1] قبل أكثر من عقد.

---

(1) أول التحام مداري للصين: شنتشو 8 هي أول مركبة فضائية صينية تلتحم بنجاح مع وحدة فضائية أخرى في المدار، وهي الوحدة التجريبية تيانغونغ1- (Tiangong-1) التي أطلقتها الصين قبلها بوقت قصير. كانت هذه المهمة غير مأهولة (لم يكن على متنها رواد فضاء)، وكان هدفها الرئيسي هو اختبار تقنية الالتحام (Docking) في المدار.

سأل تشوانج:

- العقيد تشانغ، في رأيك الصريح هل المهمة التي أمامك الآن أسهل حقًا من السير في الفضاء؟

أجاب رائد الفضاء السابق:

- من حيث القدرة البدنية والمهارة المطلوبة لا يوجد فرق كبير.

قال تشوانج:

- أحسنت، ووفقًا لدراسات أجريت في مركز التدريب الفضائي، فمن منظور هندسي هناك العديد من أوجه التشابه بين تنظيف ناطحات السحاب وتنظيف العاكس في الفضاء. كلا المهمتين تتطلب من العاملين الحفاظ على توازنهم باستمرار في وجه الخطر، أثناء أداء عمل متكرر، رتيب وشاق بدنيًا. كلتاهما تتطلب يقظة دائمة، حيث إن أقلَّ قدر من الإهمال يؤدي إلى وقوع حادث. بالنسبة لرائد الفضاء قد يعني ذلك الانحراف عن المدار، أو فقدان أدوات أو مواد، أو حدوث خلل في نظام دعم الحياة الخاص به.

أما بالنسبة لرجل العنكبوت فقد يعني ذلك تحطم الزجاج، أو سقوط أدوات او منظفات، أو انقطاع حزام الأمان أو انزلاقه. من حيث القوة البدنية، والمهارة التقنية، والصلابة النفسية، فإنَّ رجال العنكبوت مؤهلون تمامًا للعمل كمنظفي العاكس.

رفع رائد الفضاء السابق رأسه وأومأ لتشوانج قائلًا:

- هذا يُذكّرني بالقصة القديمة عن بائع الزيت[1] الذي يستطيع سكب الزيت في زجاجة من خلال فتحة في قطعة نقدية نحاسية. كان ماهرًا تمامًا كجنرال لا يُخطئ إصابة الهدف. الفرق الوحيد بينهما هو المكانة الاجتماعية.

أضاف تشوانج:

- كولومبوس اكتشف أمريكا، وكوك اكتشف أستراليا، لكن هذه العوالم الجديدة استوطنها أناس عاديون. رواد جاؤوا من أدنى طبقات المجتمع الأوروبي. وتنمية الفضاء لا تختلف عن ذلك. في خطة الخمس سنوات القادمة، حددنا الفضاء القريب من الأرض كحدود غربية ثانية. انتهى عصر الاستكشاف، ولن تعود صناعة الفضاء بعد اليوم حكرًا على نخبة صغيرة. إرسال أشخاص عاديين إلى المدار هو الخطوة الأولى نحو التصنيع الفضائي!

صاح زملاؤه بصوت مبحوح من الأسفل:

- حسنًا! كفى! أوصلت وجهة نظرك! الآن بسرعة، دعونا نصعد!

في المصعد، أثناء النزول، مال مدير شركة التنظيف نحو تشوانج وهمس في أذنه:

- كلماتك مؤثرة ومليئة بالحماس، لكن ألا تراها مبالغة بعض

(1) تدور القصة حول رجل يُدعى تشن ياو بينغ، بائع زيت بارع جدًا في إحدى الأسواق. اشتهر بمهارته المذهلة في صب الزيت من إبريق إلى وعاء صغير دون تسرب قطرة واحدة، حتى إنه كان يضع عملة معدنية فوق فوهة الوعاء ويصب الزيت من خلال الثقب الصغير الموجود في منتصف العملة، دون أن يبلل العملة نفسها.

الشيء؟ بالطبع من الصعب مناقشة المسألة الجوهرية أمام شوي ورجالي.

قال تشوانج وهو يرمقه بنظرة متسائلة:

- هاه؟

- الجميع يعلم أن مشروع شمس الصين عملية شبه تجارية. في منتصف الطريق نحو الاكتمال كادت فجوة التمويل تؤدي إلى إلغاء المشروع، والآن ليس لديكم تقريبًا أي ميزانية تشغيل. في قطاع الفضاء التجاري يتقاضى رائد الفضاء المؤهَّل راتبًا سنويًا يزيد على مليون يوان. سيوفر رجالي لكم عشرات الملايين كل عام.

ابتسم تشوانج ابتسامة غامضة وقال:

- أتظن أن هذا المبلغ الزهيد يستحق المخاطرة؟ اليوم، خفضت عمدًا المعايير التعليمية المطلوبة لمنظفي العاكس لإرساء سابقة. بعد ذلك سأتمكن من توظيف خريجين جامعيين عاديين لشغل الوظائف في المدار لتشغيل شمس الصين. بهذه الطريقة، سنوفر أكثر بكثير من مجرد عشرات الملايين. كما قلت، هذا هو الخيار الوحيد المتاح. لم يعُد لدينا أي مال.

قال المدير بابتسامة مريرة وهو يهز رأسه ويصفع تشوانج على ظهره:

- عندما كنت صغيرًا كان الذهاب إلى الفضاء حلمًا رومانسيًا. ما زلت أتذكَّر بوضوح أنه عندما زار دنغ شياو بينغ مركز جونسون الفضائي، وصف رائد الفضاء الأمريكي بأنه إله. والآن.. لا أنا أفضل منك ولا أنت أفضل مني.

استدار تشوانج لينظر إلى رجال العنكبوت الشباب، ثم قال بصوت مرتفع للمدير:

- لكن، سيدي، الراتب الذي أقدمه يفوق ما تدفعه لهم بثمانية إلى عشرة أضعاف!

في اليوم التالي وصل شوي وستون من زملائه من رجال العنكبوت إلى المركز الوطني للتدريب الفضائي في شيجينغشان. وكل واحد منهم فتى ريفي جاء من ركن ناء من أرياف الصين الواسعة إلى بكين بحثًا عن عمل.

مزارعو المرايا

في مركز شيتشانغ الفضائي، خرج مخروط مقدمة مكوك الفضاء «هورايزن» من بين سحب العادم البيضاء الكثيفة التي سبَّبتها محركاته. وبهدير مدوٍّ، ارتفع المكوك مباشرة نحو السماء الزرقاء الصافية. كان شوي وأربعة عشر من منظفي العاكس الآخرين مربوطين في مقاعدهم داخل الكابينة. بعد ثلاثة أشهر من التدريب على الأرض، جرى اختيارهم من بين ستين مرشحًا ليكونوا أول طاقم يُكلف بمهام فعلية في الفضاء.

بالنسبة لشوي، لم تكن قوة التسارع (الجاذبية) أثناء الإقلاع مرعبة كما تُروى في القصص، بل وجد فيها راحة مألوفة تشبه شعور الاحتضان الدافئ حين تضمُّه والدته إليها بقوة أيام الطفولة. من النافذة الصغيرة إلى يمينه العلوي، بدأ لون السماء الأزرق يغمق تدريجيًا.

ثم سُمع صوت فرقعة خافتة ناتجة عن تفجير البراغي خارج الكابينة، وانفصلت الصواريخ المعززة. ومع تخليهم عن تلك الصواريخ، تحوَّل هدير المحركات الصاخب إلى طنين خافت يشبه صوت البعوض. تحوَّل لون السماء إلى البنفسجي الداكن، ثم إلى السواد الكامل، وظهرت النجوم ساطعة بلا وميض، تلمع بشدة.

ثم توقف الطنين فجأة، وحلَّ الصمت داخل الكابينة. اختفى

الاهتزاز في مقعد شوي مع زوال الضغط الذي يثبت جذعه على ظهر المقعد. دخلوا في بيئة انعدام الجاذبية. تدرَّب شوي وزملاؤه من رجال العنكبوت في مسبح ضخم لإعدادهم لحالة انعدام الوزن. وبالفعل، كان الشعور كما لو أنه يطفو في الماء.

لكن من غير الآمن بعدُ فك حزام الأمان. عاد أزيز المحرك، وضغط تسارع المكوك الرجال إلى مقاعدهم. بدأت المناورة الطويلة للدخول في المدار. ظهرت السماء المليئة بالنجوم والمحيط بالتناوب من خلال النافذة الصغيرة. في لحظة، غمرت الكابينة توهجات زرقاء منعكسة من الأرض، وفي اللحظة التالية يغمرها ضوء الشمس الأبيض.

مع كل مرة تظهر فيها الأرض عبر النافذة، يصبح انحناء الأفق أكثر وضوحًا، وتظهر مساحة أكبر من سطح الكوكب. استغرقت مناورة الدخول في المدار المتزامن مع الأرض ست ساعات كاملة من البداية إلى النهاية. استمر التناوب بين السماء والأرض خارج النافذة وأشعر شوي بالنعاس، حتى غلبه على نحو متوقع. استيقظ فجأة على صوت القائد عبر جهاز الاتصال الداخلي يبلغه بأنَّ مناورة إدخال المدار اكتملت.

واحدًا تلو الآخر، بدأ رفاقه يطفون من مقاعدهم، يضغطون وجوههم على نوافذ المشاهدة ليروا المنظر الخارجي. فكَّ شوي حزام أمانه، وبحركات تشبه السباحة طفا ببطء وبتلعثم في الهواء نحو أقرب نافذة. ولأول مرة رأى الأرض كاملة بعينيه. تجمَّع معظم الرجال الآخرين أمام نوافذ المشاهدة على الجانب الآخر من الكابينة. دفع نفسه بقدمه من الحائط الداخلي فانطلق عبر

الكابينة لينضم إليهم. لكنه لم يستطع التحكم بسرعته، فاصطدم رأسه بالجدار المقابل. عندما نظر من النافذة أدرك أنَّ مكوك «هورايزن» كان بالفعل تحت شمس الصين مباشرة. غطَّى العاكس معظم السماء المليئة بالنجوم، وبدت مركبتهم الفضائية كأنها بعوضة صغيرة محاصرة تحت قبة فضية.

مع استمرار اقتراب «هورايزن» بدأ شوي يدرك ضخامة هذا العاكس. احتل سطح العاكس المشهد بالكامل من النافذة وانعدمت أي علامات على انحنائه، كما لو أنهم يحلقون فوق سهل فضي لا نهاية له. ظهر انعكاس لمكوك «هورايزن» على سطح العاكس، وتقلصت المسافة بينهم. استطاع شوي رؤية خطوط طويلة على السطح الفضي، شكَّلت شبكة تشبه خطوط الطول والعرض على الخريطة.

الشبكة هي المرجع الوحيد الذي اعتمد عليه شوي لتقدير السرعة النسبية للمكوك. بعد فترة، لم تعد خطوط الطول تسير بشكل متوازٍ، بل بدأت تتقارب في اتجاه واحد، في البداية تدريجيًا ثم بشكل أكثر حدة، كما لو أن «هورايزن» تتجه نحو أحد الأقطاب على هذه الخريطة العظيمة. سرعان ما ظهر القطب في المشهد. تلتقي جميع الخطوط الطويلة عند نقطة سوداء صغيرة. عندما بدأ المكوك بالهبوط نحو تلك النقطة، أدرك شوي أنها ليست نقطة، بل برجًا هائلًا يرتفع فوق السهل الفضي. علم أنَّ هذه الأسطوانة المحكمة الإغلاق هي محطة التحكم بشمس الصين. ولمدة الأشهر الثلاثة القادمة، ستكون هذه المحطة موطنهم الوحيد في وحشة الفضاء.

***

وهكذا بدأ رجال العنكبوت حياتهم الجديدة في الفضاء. كل يوم -إذ كانت شمس الصين تدور حول الأرض مرة كل أربع وعشرين ساعة- كانوا يقودون آلات صغيرة تشبه الجرارات على السطح العاكس لتلميعه. يقودون جراراتهم ذهابًا وإيابًا عبر الامتداد الواسع للعاكس كما لو كانوا يحرثون أرضًا فضية. نتيجة لذلك أطلقت وسائل الإعلام الغربية على رجال العنكبوت اسمًا أكثر شاعرية: أصبحوا يُعرفون بـ«مزارعي المرايا».

العالم الذي يعيش فيه هؤلاء المزارعون غريب بحق. ثمَّة سهل فضي تحت أقدامهم. على الرغم من أنَّ الشكل المنحني للعاكس جعل السهل يرتفع تدريجيًا في كل اتجاه نحو الأفق، فإنه كان شاسعًا جدًا لدرجة أنه بدا مسطحًا وهادئًا كالماء الراكد.

الأرض والشمس مرئيتان معًا فوق رؤوسهم. بدت الشمس أصغر بكثير من الأرض، كما لو أنها قمرها الساطع. على سطح الأرض، المحتلة لمعظم السماء، تمكَّنوا من رؤية دائرة ضوء تتحرك ببطء. المشهد مذهل بشكل خاص عندما تنجرف تلك الدائرة إلى النصف الليلي من الكرة الأرضية. هذه كانت المنطقة التي تضيئها شمس الصين.

يقدر العاكس على تغيير حجم بقعة الضوء من خلال تعديل شكله. عندما يرتفع السهل الفضي بشدة من بعيد، تكون البقعة أصغر وأكثر سطوعًا. وعندما يكون الانحدار أكثر لطفًا، تكبر البقعة ويخفت ضوؤها.

عمل منظفي العاكس شاق جدًا.

سرعان ما أدركوا أن تلميع العاكس أكثر رتابة واستنزافًا من تنظيف ناطحات السحاب على الأرض. وعندما يعودون إلى محطة التحكم في نهاية كل يوم، غالبًا ما يشعرون بإرهاق شديد لدرجة أنهم لا يقدرون حتى على خلع بذلات الفضاء.

مع وصول المزيد من الأفراد من الأرض بدأت المحطة تبدو ضيقة، وأصبحوا يعيشون مثل طاقم غواصة. مع ذلك يعتبرون أنفسهم محظوظين لمجرد تمكُّنهم من العودة إلى المحطة. أبعد نقطة في العاكس تبعد نحو مائة كيلومتر عن المحطة. ومن يعملون في الحافة الخارجية للعاكس غالبًا لا يتمكنون من العودة بعد يوم من العمل، ويضطرون إلى قضاء الليلة في البرية. بعد امتصاص وجبة عشاء سائلة من بذلاتهم، يخلدون للنوم وهم معلقون في الفضاء.

كان العمل خطيرًا لدرجة لا تُصدَّق. لم يسبق في تاريخ رحلات الفضاء البشرية أن نفَّذ هذا العدد الكبير من الأشخاص أنشطة سير في الفضاء. وفي البرية، قد تعني أبسط أعطال في بذلة الفضاء الموت. كما كان هناك خطر النيازك الصغيرة، وقطع الحطام الفضائي والعواصف الشمسية.

شكا مهندسو محطة التحكم بمرارة من ظروف المعيشة والعمل هذه، أما مزارعو المرايا، الذين وُلدوا في بيئة قاسية، فتأقلموا مع ظروفهم الجديدة دون شكوى.

في اليوم الخامس له في الفضاء، تلقَّى شوي اتصالًا من عائلته. كان يعمل على بُعد أكثر من خمسين كيلومترًا من محطة التحكم، وكانت شمس الصين تسلط شعاعها على قريته. سمع صوت والده يقول:

- واه، هل أنت علي تلك الشمس؟ إنها تشع فوق رؤوسنا الآن. صار الليل مشرقًا كالنهار!

أجاب شوي:

- نعم، أبي، أنا فوقكم تمامًا.

ثم تحدثت أمه:

- واه، هل الجو حار عندكم؟
- يمكنك القول إنه حار وبارد في نفس الوقت. كل شيء خارج ظلي أسخن من عشرة فصول صيف في قريتنا. لكن داخل ظلي أبرد من عشرة فصول شتاء.

قالت أمه لأبيه:

- أستطيع رؤيته، تلك النقطة السوداء الصغيرة على الشمس هناك!

كان شوي يعلم أن هذا غير ممكن، لكنه قال ودموعه تنهمر على وجنتيه:

- أمي، أبي، أنا أيضًا أستطيع رؤيتكما. هناك نقطتان سوداوان صغيرتان على قارة آسيا، في المكان الذي أنتما فيه! البسا ملابس ثقيلة غدًا. أرى موجة باردة قادمة من الشمال!

***

بعد ثلاثة أشهر، وصلت مجموعة التنظيف الثانية لتُعفي الطاقم الأول من مهامه، فعاد شوي وزملاؤه إلى الأرض لقضاء إجازة مدتها ثلاثة أشهر. بعد هبوطهم، أول ما فعله كل واحد منهم هو شراء تلسكوب أحادي العدسة عالي القدرة. عندما عادوا إلى شمس الصين بعد ثلاثة أشهر استخدموا هذه التلسكوبات الجديدة لمراقبة الكوكب في الأسفل خلال فترات الاستراحة بين نوبات العمل. وغالبًا ما يوجهون عدساتهم نحو موطنهم. لكن على

ارتفاع يقارب الأربعين ألف كيلومتر، من المستحيل رؤية قراهم.

أحد الرجال كتب قصيدة بسيطة وغير متقنة على سطح العاكس باستخدام قلم تحديد:

من هذه الأرض الفضية أراقب موطني البعيد
وعند أطراف القرية تنظر أمي إلى شمس الصين
قرصها هو صورة عين ابنها
الأرض الصفراء مكسوة بالأخضر تحت نظره

أدى مزارعو المرايا عملًا رائعًا. ومع الوقت بدأوا يتحملون مسؤوليات تتجاوز مجرد التنظيف. في البداية، أجروا إصلاحات على الأضرار الناتجة عن ضربات النيازك. لكن لاحقًا أُوكلت إليهم مهام أكثر صعوبة، مثل مراقبة وتقوية الأجزاء المعرَّضة لخطر الانهيار بسبب الضغط الزائد.

تدور شمس الصين في مدارها باستمرار وتعدِّل وضعيتها باستمرار وتُنفذ هذه التعديلات عبر ثلاثة آلاف محرك موزَّعة على الوجه الخلفي للمرآة، أما السطح العاكس الفعلي فكان رقيقًا جدًا، ومثبتًا على الهيكل بالكامل بعدد كبير من الدعامات الرفيعة.

عندما تعمل المحركات تتعرَّض أجزاء من سطح العاكس لإجهاد مفرط. وإذا لم تصحَّح مخرجات المحركات في الوقت المناسب، أو لم يُدعم الموقع المتأثر، قد يمزِّق هذا الإجهاد غير المُعالج السطح العاكس. اكتشاف نقاط الإجهاد هذه وتدعيمها يتطلب مهارة تقنية كبيرة وخبرة واسعة.

باستثناء فترات إعادة التوجيه أو إعادة التشكيل كان احتمال حدوث الإجهاد المفرط أعلى ما يكون خلال ما يُعرف بـ«قصَّة

المدار» أو كما يُسمى رسميًا: «تصحيح مقاومة الرياح الشمسية والضغط الإشعاعي»، فقد كان كل من الرياح الشمسية والإشعاع يمارسان قوة كبيرة على السطح الهائل للمرآة. وهناك نحو كيلوجرامين من الضغط يُسلطان على كل كيلومتر مربع من العاكس، مما يتسبَّب في انحرافه نحو الخارج عن مداره.

راقب مركز التحكم على الأرض هذه التغيرات باستمرار، وقارن المسار المنحرف بالمدار المطلوب على شاشة ضخمة. وعلى الشاشة يبدو كما لو أن شعيرات طويلة ومتموجة تنمو من المدار المثالي، ومن هنا جاء اللقب الغريب لهذه العملية.

سرعة العاكس خلال قصَّة المدار أعلى بكثير منها أثناء عمليات إعادة التشكيل أو إعادة التوجيه. عملُ مزارعي المرايا بالغ الأهمية خلال هذه الفترة. يحلقون فوق السهل الفضي ويدققون النظر في أي خلل على سطحه ويجرون التعزيزات الطارئة عند الضرورة.

أدَّوا مهامهم ببراعة، وزادت رواتبهم بناءً على ذلك. لكن المستفيد الأكبر كان تشوانج يو، الذي صعد إلى أعلى منصب في مشروع شمس الصين دون الاضطرار إلى توظيف خريج جامعي واحد.

ومع ذلك فمن الواضح لمزارعي المرايا أنهم سيكونون أول وآخر مجموعة من العمال في الفضاء لا تتعدَّى مؤهلاتهم التعليم الابتدائي، أما من سيأتون بعدهم فسيكونون على الأقل من خريجي الجامعات. ومع هذا فقد أدَّوا الدور الذي تصوَّره تشوانج. أثبتوا أن المهارة والخبرة والقدرة على التكيف مع الظروف الصعبة أهم من المعرفة والإبداع في الوظائف اليدوية التي أوجدها تطور الفضاء. لقد أثبت الناس العاديون أنهم قادرون تمامًا على أداء المهمة.

غيَّر الفضاء طريقة تفكير مزارعي المرايا مع ذلك، فلا أحد غيرهم حظي بامتياز التحديق إلى الأرض من ارتفاع ستة وثلاثين ألف كيلومتر كل يوم. بنظرة واحدة، يمكنهم رؤية الكوكب بأكمله. بالنسبة لهم، لم تعد «القرية العالمية» مجرد استعارة، بل أصبحت واقعًا ماثلًا أمام أعينهم.

وبصفتهم أول العمال في الفضاء أصبح مزارعو المرايا ظاهرة عالمية، لكن التطور الصناعي في مدار الأرض القريب قد انطلق بكامل قوته. كُلفت مشاريع ضخمة، من بينها محطات طاقة شمسية هائلة تبث طاقة الموجات الدقيقة إلى الكوكب أدناه ومصانع تعتمد على الجاذبية الصغرى[1] وغيرها الكثير. بل بدأ بناء مدينة مدارية يمكنها استيعاب مائة ألف ساكن. وتدفقت أعداد كبيرة من العمال الصناعيين إلى الفضاء. هؤلاء أيضًا من الناس العاديين. وبالتالي، بدأ العالم تدريجيًا ينسى أمر مزارعي المرايا.

***

مرَّت سنوات عديدة. اشترى شوي منزلًا في بكين، وتزوج وأنجب طفلًا. يقضي نصف العام في المنزل والنصف الآخر في الفضاء. يحب عمله. دورياته الطويلة على تلك الأرض الفضية الواقعة على ارتفاع يزيد على ثلاثين ألف كيلومتر فوق الأرض، تملأ قلبه بسكينة منفصلة عن العالم. شعر كأنه وجد نمط الحياة المثالي، ويمتد المستقبل أمامه مستويًا وناعمًا مثل السهل الفضي تحت قدميه. لكن حدث شيء ما كسر هدوءه وغيَّر مسار رحلته

(1) الجاذبية الصغرى (Microgravity) هي الحالة التي تبدو فيها الأجسام والأشخاص كأنهم بلا وزن أو يطفون بحرية. تُستخدم كلمة «صغرى» (Micro) للدلالة على أنَّ قوة الجاذبية الموجودة تكون صغيرة جدًا، وليست منعدمة تمامًا.

الذهنية تمامًا. التقى شوي بستيفن هوكينج[1].

لم يتوقَّع أحد أن يعيش هوكينج حتى يبلغ المائة من عمره. تلك معجزة طبية. لكنها أيضًا شهادة على قوة إرادته. فعندما بُنيت أول منشأة للمعيشة بمساعدة الجاذبية المنخفضة في مدار قريب من الأرض، أصبح هو أول مقيم فيها. ومع ذلك كادت قوة الجاذبية العالية أثناء الإطلاق أن تودي بحياته. بما أنه سيتعرَّض لنفس القوى أثناء العودة إلى الأرض، فقد أصبح من غير الممكن عودته. على الأقل حتى يُخترع مصعد فضائي أو وحدة مقصورة مضادة للجاذبية، أو وسيلة نقل مشابهة. في الواقع، نصحه أطباؤه بالاستقرار الدائم في الفضاء، لأن البيئة المنعدمة الوزن مناسبة جدًا لجسده.

في البداية، لم يُبدِ هوكينج اهتمامًا كبيرًا بشمس الصين. كان مشروع مسح التباين في إشعاع الخلفية الكونية[2] كافيًا لإقناعه بتحمُّل قوى الجاذبية الناتجة عن الرحلة من مدار الأرض القريب إلى المدار المتزامن مع الأرض (على الرغم من أن هذه القوى كانت بالطبع أقل مما تحمَّله أثناء الإطلاق).

رُكِّبت محطة الرصد على الجانب الخلفي لشمس الصين لأن العاكس يحجب كل التداخلات القادمة من الشمس والأرض. لكن عندما اكتمل المسح، وفُككت محطة الرصد وسُحب فريق البحث، لم يرغب هوكينج في المغادرة. قال إنه أحب المكان ورغب في البقاء لفترة أطول. شيء ما جذب انتباهه إلى شمس الصين.

---

(1) ستيفن هوكينج: أحد أشهر وأبرز علماء الفيزياء النظرية في العصر الحديث. اشتهر بأبحاثه الرائدة في الثقوب السوداء وعلم الكونيات. توفى عام 2018.

(2) إشعاع الخلفية الكونية الميكروي: أقدم ضوء يمكننا رؤيته في الكون، ويعود تاريخه إلى حوالي 380 ألف سنة بعد الانفجار العظيم.

استغلت الصحافة ذلك وأطلقت شتى أنواع التكهنات، لكن شوي وحده يعرف الحقيقة كاملة. ما كان يستمتع به هوكينج أكثر من غيره في حياته على شمس الصين هو جولاته اليومية عبر سطح العاكس. لدهشة الكثيرين، ينجرف ببساطة على الجانب السفلي من العاكس لعدة ساعات كل يوم.

وأُوكلت مهمة مرافقة البروفيسور في جولاته إلى شوي الذي كان في ذلك الوقت أكثر رواد الفضاء خبرة في المشي الفضائي على شمس الصين. في ذلك الحين، ضاهت شهرة هوكينج أينشتاين، حتى شوي سمع به. ومع ذلك صُدم عندما التقى به لأول مرة في مركز التحكم.

لم يتخيَّل قط أن شخصًا يعاني من إعاقة جسدية شديدة يمكنه تحقيق كل هذا، رغم أنه لم يفهم إنجازات العالِم الكبير على الإطلاق. ومع ذلك لم يُظهر هوكينج أثناء جولاته أي علامة على شلله. ربما كانت خبرته الطويلة في قيادة كرسيه المتحرك الكهربائي هي ما مكَّنه من تشغيل المحركات الصغيرة في بذلته الفضائية بمهارة تضاهي مهارة أي شخص سليم الجسد، لكن هوكينج وجد صعوبة في التواصل مع شوي.

لديه غرسة تُمكِّنه بالفعل من التحكم في مُركب صوتي باستخدام موجات دماغه، مما جعل الحديث أقل مشقة مما كان عليه في القرن السابق. مع ذلك، ما نزال كلماته تُمرَّر عبر جهاز يقدم ترجمة فورية إلى اللغة الصينية حتى يتمكن شوي من فهمه.

وجَّه رؤساء شوي إليه تعليمات صارمة بعدم بدء أي محادثة مع البروفيسور أبدًا حتى لا يشتت أفكاره. لكن هوكينج لم يمانع

الحديث، بل رغبه أكثر. سأل هوكينج شوي أولًا عن حياته، ثم بدأ يسترجع ذكرياته عن سنواته الأولى.

أخبره عن منزل طفولته البارد والواسع في سانت ألبانز، وكيف كانت قاعة الجلوس الشاهقة تصدح بموسيقى فاجنر خلال الشتاء القارس. وحكى له عن العربة الغجرية التي وضعها والده في حقل في أوزمنغتون ميلز وكيف كان هو وأخته الصغرى ماري يقودانها إلى شاطئ البحر.

وتحدَّث عن الأوقات التي ذهب فيها مع والده إلى قمة إفينغهو بيكون في تلال تشيلترن[1]. دهش شوي من ذاكرة الرجل، لكنه دُهش أكثر من كونهما يتشاركان مفردات لغوية مفهومة. استمتع البروفيسور كثيرًا بسماع حكايات شوي عن حياته في قريته الريفية. وعند أطراف العاكس، طلب هوكينج من شوي الإشارة إلى موقع قريته.

مع مرور الوقت، تحولت محادثاتهما بشكل طبيعي إلى مواضيع علمية. خشي شوي أن يُنهي هذا الحديث صداقتهما، لكنه فوجئ بالعكس. فبالنسبة للبروفيسور من المريح مناقشة مواضيع عميقة في الفيزياء وعلم الكون بلغة بسيطة يمكن حتى للناس العاديين فهمها. كلَّمه عن الانفجار العظيم[2]، والثقوب السوداء[3]،

---

(1) التل هو نقطة إشارة قديمة، كانت تُستخدم في أوقات الأزمات لإرسال رسائل عبر مسافات طويلة. يقع في إنجلترا.

(2) نظرية الانفجار العظيم (The Big Bang Theory) هي النموذج الكوني العلمي السائد الذي يصف كيف بدأ الكون وتطور على مدى ما يقرب من 13.8 مليار سنة. ليست «انفجارًا» بالمعنى التقليدي كنقطة مركزية تنفجر في الفضاء، بل هي توسع سريع للغاية للمكان نفسه من حالة شديدة الكثافة والحرارة.

(3) الثقب الأسود هو منطقة في الزمكان تكون فيها الجاذبية قوية جدًا لدرجة أنه لا شيء -بما في ذلك الضوء أو أي شكل آخر من الإشعاع الكهرومغناطيسي أو المادة- يمكن أن يفلت منها. هذا هو السبب في أنها تبدو «سوداء». هذه الجاذبية الهائلة تنجم عن تركيز كمية هائلة من الكتلة في حجم صغير للغاية.

والجاذبية الكمومية[1].

عندما عاد شوي إلى المحطة بدأ يُجاهد لفهم الكتاب الصغير الذي كتبه هوكينج في القرن الماضي، واستعان بمهندسي المحطة وعلمائها عندما صادف ما يصعب عليه فهمه. وفاق مدى استيعابه محتوى الكتاب توقعات الجميع.

في أحد الأيام سافر الرجلان إلى أطراف العاكس. قال البروفيسور وهو يواجه شريطًا من الأرض يظهر خلف حافة العاكس:

- هل تعرف لماذا أحب هذا المكان؟ هذه المرآة الضخمة تفصلنا عن الأرض بالأسفل. تمكنني من نسيان العالم وتكريس كامل تركيزي للكون.

قال شوي:

- العالم في الأسفل معقد، لكن عندما يُرى من هذا البعد، يبدو الكون بسيطًا للغاية، مجرد نجوم متناثرة في الفضاء.

- نعم، يا بني، هذا صحيح فعلًا.

الجهة الخلفية للمرآة مثل واجهتها الأمامية، مغطاة بطبقة عاكسة أيضًا. الفرق الوحيد هو وجود المحركات المنتشرة عليها والتي تُستخدم لضبط اتجاه العاكس وشكله. بدت هذه المحركات كأبراج سوداء صغيرة.

في نزهاتهم اليومية، كان شوي وهوكين يطفوان ببطء قريبين من الأرض التي تحتهما. كثيرًا ما كانا ينجرفان من مركز التحكم

---

(1) الجاذبية الكمومية (Quantum Gravity) هي مجال بحث نظري في الفيزياء يسعى إلى توحيد نظرية النسبية العامة لأينشتاين (التي تصف الجاذبية على المقاييس الكبيرة) مع ميكانيكا الكم (التي تصف سلوك المادة والطاقة على المقاييس الصغيرة جدًا).

إلى الحافة الخارجية عندما لا يكون القمر ظاهرًا، الجبهة الخلفية للعاكس مظلمة للغاية، وسطحها يعكس السماء المرصعة بالنجوم. بالمقارنة مع الواجهة الأمامية، الأفق هنا أقرب ومُنحنٍ بشكل واضح.

تحت ضوء النجوم، كانت خطوط العرض والطول السوداء التي تشكلها العوارض الداعمة، تمر تحت أقدامهما وكأنهما يطوفان فوق سطح كوكب صغير وهادئ. عندما يُعاد توجيه العاكس أو تغيير شكله، تشتعل المحركات الموجودة على الجانب الخلفي. بفضل وميض ألسنة اللهب العديدة، بدا سطح هذا الكوكب الصغير أكثر جمالًا وغموضًا. وفوقه، كانت درب التبانة تتلألأ دائمًا، ساطعة وثابتة.

في ذلك المكان واجه شوي لأول مرة أعمق أسرار الكون. تعلَّم أن السماء المرصَّعة بالنجوم التي تملأ رؤيته ما هي إلا نقطة غبار في الاتساع الذي لا يمكن تصوره لهذا الكون، وأنَّ هذا الوجود كله ليس سوى شرارة خافتة لانفجار وقع قبل عشرة مليارات عام.

منذ سنوات، عندما خطا شوي خطوته الأولى كرجل عنكبوت على سطح ناطحة سحاب، رأى بكين كلها. عندما وصل إلى شمس الصين رأى كوكب الأرض بأكمله. والآن وقف شوي أمام اللحظة الثالثة المجيدة في حياته. واقفًا على سطح الكوكب، بإمكانه رؤية أشياء تفوق كل أحلامه. ورغم أنَّ فهمه لتلك العوالم البعيدة كان سطحيًا، فإنها ظلت تجذبه بقوة لا تقاوم.

في أحد الأيام، عبَّر شوي عن حيرته لأحد المهندسين في المحطة.

- هبط الإنسان على القمر في الستينيات. وماذا بعد؟ حتى الآن لم نطأ سطح المريخ. لم نعد حتى نزور القمر.

أجابه المهندس:

- البشر مخلوقات عملية. ما كان مدفوعًا بالمثالية والإيمان في منتصف القرن الماضي لم يكن قابلًا للاستمرار على المدى الطويل.

قال شوي:

- وما الخطأ في المثالية والإيمان؟

- ليس هناك خطأ فيهما بحد ذاتهما، لكن المصالح الاقتصادية أفضل. لو أن البشرية في الستينيات لم تدَّخر جهدًا في سبيل استكشاف الفضاء وتكبَّدت خسائر هائلة لربما ظل كوكب الأرض غارقًا في الفقر حتى اليوم. الناس العاديون، مثلك ومثلي، ما كنا لنصل إلى الفضاء أبدًا، حتى وإن كنا لا نزال ضمن مدار الأرض القريب. يا صاح، لا تدع هوكينج يُفسدك. الناس العاديون يجب ألا يعبثوا بالأشياء التي يعبث بها هو.

غيَّرت هذه المحادثة شوي. من الخارج بدا هادئًا، يعمل بجد كما كان دائمًا. لكن في أعماقه، يتأمل آفاقًا جديدة.

***

مرَّ عشرون عامًا كلمح البصر. من ارتفاع يبلغ ستة وثلاثين ألف كيلومتر تمكَّن شوي ورفاقه من رؤية التغيرات الطارئة على العالم على مدار عقدين من الزمان بوضوح تام. شاهدوا حزام الحماية الثلاثي في شمال الصين يتحول إلى شريط أخضر يعبر شمال غرب البلاد، محولًا الصحراء الصفراء إلى أراضٍ خضراء.

لم تعد قراهم تعاني من نقص المطر أو الثلوج أبدًا. وعادت الأنهار الجافة على أطراف القرى لتجري بمياه نقية صافية من جديد.

تستحق شمس الصين أن يُنسب إليها الفضل في كل ذلك. لعبت دورًا رئيسيًا في الحملة الكبرى لتغيير مناخ شمال غرب الصين. ولم تكتفِ بذلك، بل أجرة عددًا من الأنشطة اللا منهجية المبتكرة: أذابت ذات مرة ثلوج جبل كليمنجارو لتخفيف حدة الجفاف في أفريقيا، وفي مناسبة أخرى حوَّلت مدينة مستضيفة للأولمبياد إلى مدينة لا تنام فعلًا.

لكن مع ظهور تقنيات أحدث بدأت أساليب شمس الصين في التلاعب بالطقس تبدو خرقاء ومثقلة بالكثير من الآثار الجانبية. أنجزت شمس الصين مهمتها. أقامت وزارة صناعة الفضاء حفلًا كبيرًا لتكريم أول مجموعة من العمال الصناعيين في المدار.

كُرِّموا ليس فقط لعملهم الشاق الاستثنائي على مدى عشرين عامًا، ولكن الأهم من ذلك، كُرِّم الرجال الستون لإنجازهم الفريد في دخول الفضاء كشباب لم يحصلوا إلا على تعليم ابتدائي أو إعدادي، وبذلك فتحوا أبواب تطوير الفضاء على مصراعيها أمام الجميع. أجمع الاقتصاديون على أنَّ هذه اللحظة كانت البداية الحقيقية لأعمال الفضاء.

حظي الحفل باهتمام واسع من وسائل الإعلام. إلى جانب الأسباب المذكورة أعلاه، اكتسبت قصة مزارعي المرايا طابعًا أسطوريًا في قلوب الناس. كما أنها فرصة ممتازة للتشبث بالحنين إلى الماضي في عصر تُقتنى فيه الأشياء بسرعة وتُنسى. أولئك

الفتية الصادقون البسطاء بلغوا منتصف العمر، لكنهم لم يبدوا كأنهم تغيروا كثيرًا.

لا يزال الجمهور يتعرَّف عليهم عبر شاشات التلفاز الهولوجرافي. على مر السنين، حصل معظم هؤلاء الرجال على شكل من أشكال التعليم العالي، بل إن معظمهم نال لقب «مهندس فضاء». ومع ذلك، فهم في أعين أنفسهم وأعين الناس ظلوا المجموعة ذاتها من العمال المهاجرين القادمين من الريف. ألقى شوي خطابًا نيابة عن رفاقه، قال فيه:

«مع اكتمال نظام النقل الكهرومغناطيسي، أصبح دخول مدار الأرض القريب لا يكلف سوى نصف تكلفة رحلة طيران عبر المحيط الهادي. أصبح السفر إلى الفضاء أمرًا عاديًا، خاليًا من البهرجة. من الصعب على الأجيال الجديدة تخيُّل ما يعنيه السفر إلى الفضاء لشخص عادي قبل عشرين عامًا. وكيف كان ذلك يثير حماسته ويغلي دمه. كنا محظوظين. رجال عاديون ولا شيء كثير يُقال عنا. تجربتنا الاستثنائية كانت بفضل شمس الصين. على مدار العشرين عامًا الماضية، أصبحت موطننا الثاني. هي أشبه بكوكب أرض مصغر في قلوبنا.

في البداية، استخدمنا الوصلات على السطح العاكس للمرايا لتمثيل خطوط الطول والعرض لنصف الكرة الأرضية الشمالي. وعندما نحدد مواقعنا، نحفظ إحداثياتنا بالدرجات شمالًا وشرقًا أو غربًا. لاحقًا، ومع ازدياد معرفتنا بالعاكس، بدأنا نرسم عليها القارات والمحيطات. كنا نقول: نحن الآن في بكين أو في موسكو. كل قرية من قرانا لها موقع مقابل على سطح العاكس وكنا ننظف تلك المناطق بأشد حرص».

شرد شوي قليلًا في أفكاره، ثم تابع قائلًا:

«عملنا بجد على تلك الأرض الفضية الصغيرة، وأدينا واجبنا. في المجمل، فقد خمسة من منظفي العاكس حياتهم من أجل شمس الصين. بعضهم لم يجد وقتًا كافيًا للاحتماء من العواصف المغناطيسية الشمسية، وآخرون أصابتهم نيازك أو حطام فضائي. قريبًا، سيختفي عالمنا الفضي ذاك، الذي عشنا وعملنا فيه لعشرين سنة. من الصعب التعبير عن مشاعرنا بالكلمات».

سكت شوي، فالتقط تشوانج، الذي أصبح وزيرًا لصناعة الفضاء، خيط الحديث وقال:

«أفهم تمامًا ما تشعرون به، لكنني سعيد لأنني أستطيع إخباركم أنَّ شمس الصين لن تختفي! كما تعلمون جميعًا، لا يمكن السماح لمثل هذا الجسم الضخم بالاحتراق في الغلاف الجوي كما كان يحدث عادة في القرن الماضي، لكن هناك وسيلة أخرى أكثر أناقة، لنمنح شمس الصين مثواها الأخير. إذا أوقفنا ما يُعرف بقصّ المدار وأجرينا التعديلات المناسبة على اتجاهها، فإنَّ ضغط الرياح والإشعاع الشمسي سيدفعها لتبلغ السرعة الكونية الثانية. وفي النهاية، ستخرج من مدار الأرض وتصبح قمرًا يدور حول الشمس. وربما، بعد سنوات طويلة، تعثر عليها سفن الفضاء بين الكواكب. يمكننا حينها تحويلها إلى متحف، ونعود إلى تلك السهول الفضية لنتذكر هذه السنوات التي لا تُنسى».

توهَّج وجه شوي بحماس مفاجئ، وسأل الوزير بصوتٍ عالٍ:

- معالي الوزير، هل تعتقد حقًا أنَّ هذا اليوم سيأتي؟ هل تعتقد فعلًا أنَّ سفن الفضاء بين الكواكب ستصبح واقعًا؟

حدَّق تشوانج إليه عاجزًا عن إيجاد كلمات. تابع شوي قائلًا:

- في منتصف القرن الماضي، عندما ترك أرمسترونج أول أثر لقدمه على سطح القمر، آمن كل الناس تقريبًا بأنَّ البشرية ستحط على المريخ خلال العشر أو العشرين سنة التالية. والآن، مرت عقود عديدة. ولم يعد أحد إلى القمر، ناهيك عن المريخ. والسبب بسيط: إنه أمر خاسر.

منذ نهاية الحرب الباردة، أصبح الاقتصاد هو الحاكم الحقيقي لحياتنا اليومية. وتحت سلطته حققت البشرية تقدمًا كبيرًا. قضينا على الحروب والفقر واستعدنا البيئة، وأصبح كوكب الأرض بالفعل جنة. وهذا ما عزَّز إيماننا بكفاءة المبدأ الاقتصادي.

أصبح هذا المبدأ في غاية الأهمية حتى تسلل إلى حمضنا النووي. لا شك أنَّ المجتمع البشري أصبح مجتمعًا اقتصاديًا. لن ننفذ بعد الآن أي مشروع لا يجني عائدًا يفوق كلفته. تطوير القمر لا يُجدي اقتصاديًا، واستكشاف الكواكب بطواقم بشرية وعلى نطاق واسع يُعد جريمة اقتصادية. أما الرحلات بين النجوم فذلك جنون بحت! الآن لم يعد الإنسان يعرف سوى المدخلات والمخرجات والاستهلاك.

أومأ تشوانج برأسه وقال:

- في هذا القرن اقتصر التطوير البشري للفضاء على الفضاء القريب من الأرض. هذه حقيقة. هناك العديد من الأسباب العميقة لذلك، لكنها خارج نطاق موضوعنا اليوم.

قاطعه شوي قائلًا:

- بل في صميم الموضوع! لقد مُنحنا فرصة. إذا أنفقنا فقط القليل من المال يمكننا تجاوز الفضاء القريب من الأرض ونشرع في رحلة كبرى نحو الكون. تمامًا كما يمكن لضغط الإشعاع الشمسي دفع شمس الصين للخروج من مدار الأرض، يمكنه أيضًا دفعها إلى أماكن أبعد.

ضحك تشوانج وهزَّ رأسه قائلًا:

- آه، تقصد استخدام شمس الصين كإبحار شمسي؟ قد ينجح ذلك من الناحية النظرية، فجسم العاكس رقيق وخفيف ومساحة سطحه كبيرة. وبعد فترة طويلة من التسارع بفعل ضغط الإشعاع، سيصبح أكبر مركبة فضائية أطلقتها البشرية على الإطلاق.

لكنني أتكلم هنا من منظور نظري فقط. في الواقع السفينة التي تعتمد على شراع فقط لا يمكنها الذهاب بعيدًا. إنها بحاجة إلى طاقم، فاليخت الشراعي من دون طاقم لن يفعل سوى الدوران في دوائر في عرض البحر، دون مغادرة الميناء أبدًا. أتذكر أن رواية «جزيرة الكنز» لستيفنسون[1] تحتوي على وصف حيٍّ جدًا لمثل تلك السفينة. العودة من رحلة طويلة عبر ضغط الإشعاع الشمسي تتطلب تحكمًا دقيقًا ومعقدًا في اتجاه العاكس. لكن شمس الصين صُمِّمت لتعمل في مدار حول الأرض. ومن دون تحكم بشري،

(1) جزيرة الكنز: رواية مغامرات كلاسيكية شهيرة كتبها المؤلف الأسكتلندي روبرت لويس ستيفنسون. في الفصل 41، عندما يعود جيم هوكينز إلى سفينة هيسبانيولا بعد أن تركها معظم الطاقم (القراصنة والمخلصين) إما على الجزيرة وإما في القتال، يجد السفينة تنجرف انجرافًا خطيرًا وغير متحكم فيه، وكأنها سفينة أشباح. يدرك جيم أنه يجب عليه السيطرة عليها لإنقاذ نفسه ومن معه.

ستتبع مسارًا عشوائيًا، تائهة في الفضاء ولن تصل إلى مكان بعيد.

أجاب شوي بهدوء:

- لكن ثمة طاقمًا على متنها. أنا من سيقودها.

في تلك اللحظة، أظهرت أنظمة قياس المشاهدة أن تقييمات القناة ارتفعت ارتفاعًا حادًا. سُلطت عليهم أنظار العالم بأسره.

قال تشوانج:

- لكن لا يمكنك التحكم بشمس الصين وحدك. نظام توجيهها يتطلب على الأقل...

قاطعه شوي:

- على الأقل اثني عشر شخصًا. وإذا أخذنا بعين الاعتبار عوامل أخرى تتعلق بالسفر بين النجوم، نحتاج إلى ما لا يقل عن خمسة عشر إلى عشرين شخصًا. وأعتقد أن عدد المتطوعين سيكون كافيًا.

ضحك تشوانج ضحكة عاجزة قائلًا:

- لم أتوقع حقًا أن يأخذ حديثنا هذا المنحنى اليوم.

- معالي الوزير تشوانج، قبل أكثر من عشرين عامًا، غيَّرتُ مسار حياتي أكثر من مرة.

ردَّ تشوانج متنهدًا:

- لكنني لم أتخيَّل قط أنك ستسافر بعيدًا إلى هذا الحد. أبعد بكثير مما وصلت أنا إليه.

ثم أضاف:

- حسنًا، هذا مثير للاهتمام. دعنا نتابع النقاش! آه، لكنني أخشى أن فكرتك غير قابلة للتنفيذ. الهدف الأكثر منطقية لشمس الصين هو المريخ، لكنك لم تأخذ بعين الاعتبار أن شمس

الصين لا يمكنها الهبوط. وإذا أردت الهبوط، فسيتطلب ذلك إنفاقًا هائلًا، مما يجعل الخطة غير مجدية اقتصاديًا. وإذا لم تنوِ الهبوط فإن المشروع كله لا يعدو كونه إطلاق مسبار غير مأهول، فما الجدوى إذن؟

أجاب شوي:

- شمس الصين ليست متجهة إلى المريخ.

نظر إليه تشوانج في حيرة وسأله:

- إذن إلى أين؟ إلى المشتري؟

- ليس إلى المشتري أيضًا، بل إلى ما هو أبعد بكثير.

- أبعد؟ إلى نبتون؟ بلوتو؟

توقف تشوانج، وبقى لوهلة طويلة يحدق في شوي بعدم تصديق، وقال:

- يا إلهي، لا تقُل إنك تقصد...

أومأ شوي بحزم:

- نعم، ستتجاوز شمس الصين النظام الشمسي وتصبح أول مركبة فضائية بين النجوم!

في جميع أنحاء العالم حدَّق الناس في شاشات تليفزيوناتهم بنفس الذهول الذي بدا على وجه تشوانج.

ظل تشوانج ينظر إلى الأمام مباشرة ثم أومأ برأسه كأنه آلة وقال:

- حسنًا، إن لم تكن تمزح، دعني أجرِ تقديرًا سريعًا...

أغمض عينيه جزئيًا وبدأ في إجراء حسابات ذهنية.

- وجدتها، باستخدام ضغط الإشعاع الشمسي ستتسارع شمس

الصين حتى تبلغ عُشر سرعة الضوء. وبأخذ وقت التسارع في الحسبان ستصل إلى بروكسيما سنتوري خلال خمسة وأربعين عامًا، ثم ستستخدم ضغط الإشعاع في بروكسيما سنتوري للتباطؤ. وبعد إكمال دراسة نظام ألفا سنتوري ستتسارع في الاتجاه المعاكس لتعود إلى النظام الشمسي بعد بضعة عقود أخرى. تبدو كخطة رائعة، لكنها في الحقيقة حلم لا يمكن تحقيقه.

ردَّ شوي بثقة:

- خطأ مرة أخرى. عندما نصل إلى بروكسيما سنتوري لن تبطئ شمس الصين، سوف نمر بجوارها بسرعة ثلاثين ألف كيلومتر في الثانية، ونستخدم ضغط إشعاعها للتسارع أكثر أثناء التوجه نحو نجم سيريوس[1]، وإذا أمكن سنواصل القفز في الفضاء إلى نجم ثالث ثم رابع..

صرخ تشوانج وبدأ يفقد صبره:

- ما هي خطتكم؟

أجاب شوي:

- كل ما نطلبه من الأرض هو نظام دعم حياة بيئي موثوق، وإن كان صغير النطاق.

- وتريد استخدام هذا النظام للحفاظ على حياة عشرين شخصًا لأكثر من قرن من الزمن؟

---

(1) (Sirius) ألمع نجم في سماء الليل. يُعرف أيضًا باسم «نجم الكلب» (Dog Star) لأنه جزء من كوكبة الكلب الأكبر (Canis Major).

ردَّ شوي:

- دعني أكمل، ونظام سبات بالتبريد العميق. سنقضي معظم الرحلة في حالة سُبات، ولن نُشغِّل نظام دعم الحياة إلا عند اقترابنا من بروكسيما سنتوري. بمستوى التكنولوجيا الحالي ينبغي أن يكون هذا كافيًا لنتمكن من السفر عبر الكون لأكثر من ألف عام، وبالطبع هذان النظامان لا يأتيان بثمن زهيد، لكن تكلفتهما لا تتعدَّى واحدًا من ألف من رأس المال المطلوب لبناء مسبار بين نجوم مأهول من الصفر.

قال تشوانج:

- حتى لو لم تطلبوا فلسًا واحدًا، لا يمكن للعالم أن يسمح لعشرين شخصًا بالانتحار.

- هذا ليس انتحارًا، بل استكشافًا. ربما لن نتجاوز حتى حزام الكويكبات الذي أمامنا مباشرة، لكن ربما نصل إلى نجم سيريوس أو إلى ما هو أبعد. وإن لم نحاول، كيف سنعرف؟

قال تشوانج:

- لكن هناك ما يميز هذه الرحلة عن الاستكشاف. لا يوجد احتمال للعودة.

أومأ شوي قائلًا:

- نعم، لن نعود. بعض الناس يرضون بزوجة وأطفال وسرير دافئ، ولا يلقون نظرة واحدة على الأجزاء التي لا تخصهم من العالم، لكن هناك من يقضون حياتهم كلها يحاولون من أجل لمحة من شيء لم تره البشرية من قبل. كنت كلا الشخصين،

ولي الحق في اختيار الحياة التي أريد أن أحياها، بما في ذلك أن أقضي أيامي على مرآة، تائهًا في الفضاء على بُعد عشر سنوات ضوئية.

قال تشوانج:

- سؤال أخير: بعد ألف عام، وأنتم تنطلقون بسرعة عشرات أو مئات الآلاف من الكيلومترات في الثانية، سيستغرق الأمر عقودًا أو حتى قرونًا حتى تتلقى البشرية إشارات الراديو الضعيفة التي ترسلها، هل الأمر يستحق التضحية؟

أجاب شوي مبتسمًا، مخاطبًا العالم بأسره:

- عندما تطير شمس الصين خارج النظام الشمسي سيتحول نظر البشر بعيدًا عن رفاهيتهم، ويرتفع من جديد نحو السماء المرصَّعة بالنجوم. سنتذكر حلمنا القديم بالسفر إلى الفضاء، ونُشعل من جديد شغفنا بالاستكشاف بين النجوم.

هدف الحياة #6

التحليق نحو النجوم، وجذب أنظار البشرية من جديد نحو أعماق الكون

وقف تشوانج على سطح برج الفضاء، يُحدِّق في شمس الصين وهي تشق السماء بسرعة. ينعكس ضوؤها على ناطحات السحاب في العاصمة، ويلقي بظلال سريعة لا تُحصى، كأنَّ بكين وجه مقلوب يتبع شمس الصين بنظره.

هذه آخر دورة لشمس الصين حول الأرض. بلغت بالفعل سرعة الإفلات، وسرعان ما ستغادر مجال الجاذبية الأرضية لتدخل في مدار حول الشمس. على متن أول مركبة بين نجمية مأهولة في تاريخ البشرية عشرون شخصًا. إلى جانب شوي، اختير الباقون من بين أكثر من مليون متطوِّع. بينهم ثلاثة مزارعي مرآة عملوا مع شوي لسنوات طويلة. حققت شمس الصين هدفها قبل حتى بداية رحلتها. وُلد من جديد حماس البشرية لاستكشاف ما وراء النظام الشمسي.

عادت أفكار تشوانج إلى تلك الليلة الصيفية الحارَّة، في تلك المدينة الشمالية الغربية قبل ثلاثة وعشرين عامًا، حين استقلَّ هو وفلاح شاب من الريف القاحل قطار الليل المتجه إلى بكين. وفي لحظة الوداع سلَّطت شمس الصين بقعة نورها على كل مدينة

رئيسية بالتتابع، لتمنح البشرية نظرة أخيرة على إشعاعها المتوهج.

وأخيرًا، استقرت بقعة الضوء فوق شمال غرب الصين. في مركزها، تقع القرية الصغيرة التي وُلد فيها شوي. على جانب الطريق في أطراف البلدة، يقف والدا شوي مع الجيران، يراقبون شمس الصين وهي تطير نحو الشرق.

صاح والده في الهاتف:

- واه، هل أنت ذاهب إلى مكان بعيد؟

أجاب شوي من الفضاء:

- نعم، أبي... أخشى أنني لن أعود إلى البيت.

سألته أمه:

- هل هو بعيد جدًا؟

أجاب شوي:

- بعيد جدًا يا أمي.

سأل الأب:

- أبعد من القمر؟

سكت شوي لثوانٍ قليلة، ثم قال بصوت أخفض بكثير من قبل:

- نعم، يا أبي. أبعد قليلًا من القمر.

لكن الحزن لم يبدُ على وجهيهما للغاية. ابنهما ذاهب ليصنع أمورًا عظيمة في ذلك المكان الذي يقع بعد القمر! ثم إنَّ هذه أزمنة استثنائية، من أقصى بقاع الأرض يمكنهما التحدث إليه في أي وقت، بل ويمكنهما رؤيته على تلفازهما الصغير.

لا يختلف الأمر كثيرًا عن التحدُّث إليه وجهًا لوجه. لم يخطر

مكتبة
t.me/soramnqraa

بالهما أنَّ التأخير سيزداد يومًا بعد يوم، وأنَّ إجابات شوي عن أسئلتهما القلقة ستصبح أبطأ فأبطأ. في البداية سيكون التأخير بضع ثوانٍ، ثم ستطول الفجوات بين السؤال والجواب. وبعد عام سيستغرق كل سؤال ساعات حتى يأتيه رد. في النهاية سيختفي ابنهما.

وسوف يقال لهما إنَّ شوي دخل في سُبات وإنه لن يستيقظ لأربعين عامًا. بعدها سيواصل والداه العناية بتلك القطعة من الأرض التي كانت في يوم ما قاحلة، وأصبحت الآن خصبة، ويعيشان ما تبقى من حياتهما التي كانت شاقة في الماضي، وأصبحت الآن حياة مُرضية. وكانت أمنيتهما الأخيرة أن يعود ابنهما في يوم ما، في مستقبل بعيد، ليرى الوطن الأجمل.

بينما غادرت شمس الصين مدار الأرض، أخذت تتلاشى تدريجيًا في السماء الشرقية، وتقلصت هالتها الزرقاء حتى أصبحت نقطة نجمية، ثم ذابت في ظلام الليل. ثم جاء الفجر، وابتلعت أشعة الشمس الصباحية نورها بالكامل.

أطلَّ النهار في بكين، لكن تشوانج ظلَّ واقفًا على سطح برج الفضاء، محدقًا في النقطة التي اختفت فيها شمس الصين. بدأت رحلتها الأبدية التي لا عودة منها.

ستعبر شمس الصين أولًا مدار كوكب الزهرة، مقتربة قدر الإمكان من الشمس لزيادة ضغط الإشعاع وتعظيم المسافة المتاحة للتسارع، وسيتحقق هذا عبر سلسلة معقدة من مناورات الانتقال المداري، أشبه بتلك التي كانت تنفذها السفن الشراعية في عصر الملاحة حين تبحر عكس الرياح.

بعد سبعين يومًا ستمر بمدار المريخ، وبعد مائة وستين يومًا ستنطلق مارَّة بجانب المشتري، وبعد عامين ستتجاوز مدار بلوتو وتصبح مركبة بين نجمية، وسيدخل طاقمها في سُبات.

بعد أربعين عامًا ستمر بجوار ألفا سنتوري ويصحو الطاقم لفترة قصيرة. بعد مرور قرن على بدء الرحلة ستتلقى الأرض المعلومات التي جمعتها الرحلة خلال استكشافها ألفا سنتوري.

لكن بحلول ذلك الوقت ستكون شمس الصين قد انطلقت بالفعل نحو سيريوس. بفضل الدفع الناتج عن إشعاع شموس ألفا سنتوري الثلاث ستكون قد بلغت خمسة عشر بالمائة من سرعة الضوء. بعد ستين عامًا أخرى -أي بعد مرور مائة وستين عامًا على مغادرتها الأرض- ستصل إلى سيريوس.

بعد مرورها بنظام النجوم الثنائية المكوَّن من سيريوس (أ) وسيريوس (ب)، ستزيد سرعتها إلى عشرين بالمائة من سرعة الضوء، وستنطلق أعمق فأعمق نحو ظلام الفضاء. وبالنظر إلى العمر الافتراضي لنظام السبات بالتبريد العميق على متنها، فقد تتمكَّن شمس الصين من الوصول إلى إبسيلون إريداني[1] أو -على الرغم من ضآلة الاحتمال- حتى 79 سيتي[2]. ويُعتقد أنَّ كلا النظامين النجميين يحوي كواكب.

---

(1) إبسيلون إريداني (Epsilon Eridani) هو نجم آخر مهم في الفلك، خاصة في سياق البحث عن الكواكب الخارجية وإمكانية وجود حياة. إنه نجم قريب نسبيًا من شمسنا، ويقع في كوكبة النهر (Eridanus). يُعد إبسيلون إريداني أحد أقرب النجوم الشبيهة بالشمس إلى الأرض.

(2) نجم يقع في كوكبة قيطس (Cetus) يبعد عن الشمس حوالي 123 سنة ضوئية.

لا أحد يعرف إلى أي مدى ستحلق شمس الصين، ولا ما العوالم العجيبة التي قد يشاهدها شوي ورفاقه. ربما ستصل منهم رسالة إلى الأرض في يوم ما، لكن الرد عليها سيستغرق أكثر من ألف عام. ومهما حدث فإن شوي سيتذكر دائمًا بلدًا اسمه الصين على كوكب أمه. سيتذكر دائمًا قرية صغيرة في شمالها الغربي القاحل، وسيتذكر دائمًا الطريق الذي قاده إلى خارج تلك القرية، الطريق الذي بدأت منه رحلته.

لمصلحة البشرية

العملُ.. عملٌ، لا أكثر ولا أقل. مبدأ يسير عليه سموثبور[1]. غير أنَّ هذا العميل بالتحديد يُشعره بالحيرة.

أولًا، تصرَّف مع المهمة على نحو خاطئ تمامًا.

رغب في لقاء شخصي، الأمر غير المعتاد بالمرة في هذا النوع من الأعمال. تذكَّر سموثبور تحذير مُدرِّبه المُلح قبل ثلاثين عامًا: العلاقة بالعملاء كما بين الجبين ومؤخرة الرأس؛ لا يلتقيان أبدًا. وذلك، بطبيعة الحال، حفاظًا على مصلحة الطرفين.

أدهشه اختيار العميل لمكان اللقاء أكثر، قاعة رئاسية مهيبة في أفخم فنادق المدينة، آخر مكان ينفع لمثل هذه النوعية من العمليات، ووفقًا للطرف الآخر يتضمَّن هذا العقد معالجة ثلاث وحدات.

هذه ليست مشكلة، لا يمانع في بعض العمل الإضافي.

فتح له أحد الخدم الباب الذهبي للقاعة الرئاسية، وقبل دخوله مدَّ سموثبور يده خلسة داخل سترته، فكَّ كبسولات حافظة المسدس تحت إبطه الأيسر بهدوء. في الحقيقة دون داع، لا أحد يجرؤ على افتعال مفاجآت في مكان كهذا.

---

(1) اسم يعني الماسورة الملساء، سوف يُذكر سبب تسميته لاحقًا.

تتلألأ القاعة بالأخضر والمُذهَّب البرَّاق، عالم آخر بالمقارنة مع الواقع خارجها، شمسه ثريا كريستال ضخمة تتدلَّى من السقف، تتوهَّج على سهل من سجاد أرجواني بلا نهاية.

بدت القاعة خالية للوهلة الأولى، لكن سرعان ما لمح سموثبور جماعة محتشدين عند نافذتين فرنسيتين في زاوية القاعة، أزاحوا ستائرها الثقيلة لينظروا إلى السماء. أحصاهم بعينيه، ثلاثة عشر شخصًا. توقَّع عميلًا، لا مجموعة عملاء.

قال له مُدرِّبه أيضًا إنَّ العملاء كالخليلات: بإمكانك أن يكون لديك أكثر من واحدة، دون السماح لهن بالالتقاء أبدًا.

عرف سموثبور بالضبط ما الذي ينظرون إليه: مركبة «الإخوة الأكبر» الفضائية. عادت للتحليق فوق نصف الكرة الجنوبي، ويمكن رؤيتها في السماء بوضوح.

ثلاث سنوات مرَّت على مغادرة حضارة «المنشئين» كوكب الأرض. وسَّعت زيارتهم الكونية الهائلة قدرة البشر الذهنية على تقبُّل فكرة الحضارات الفضائية على نحو هائل.

علاوة على ذلك، في حين كان أسطول المنشئين -المكوَّن من عشرين ألف مركبة فضائية- يغطِّي السماء بالكامل، لم تصل من عالم الإخوة الأكبر سوى مركبة واحدة. ليست غريبة الشكل كسفن المنشئين الفضائية، بل أسطوانية ذات نهايتين مستديرتين، تشبه كبسولة علاج زكام عملاقة بين النجوم.

مع رؤيتهم دخول سموثبور، ترك العملاء الثلاثة عشر النوافذ عائدين إلى طاولة مستديرة كبيرة وسط القاعة. وحين تعرَّف إلى بعض الوجوه فقدت القاعة بريقها في عينيه فجأة.

أبرزهم تشو هانيانج، من مجموعة سينوسيس، صاحب نظام التشغيل «أورينت- 3000» الذي حلَّ بديلًا عن نظام ويندوز القديم على مستوى العالم، والباقون جميعًا ضمن قائمة أغنى خمسين شخصًا على وجه الأرض. ربما وازت أرباحهم السنوية الناتج المحلي الإجمالي لدولة متوسطة الدخل.

لا يشبهون الأخ تيث، فكَّر سموثبور. كوَّن الأخ ثروته بين ليلة وضحاها؛ أما هؤلاء فورثة سلالات عريقة، نتاج أصقلته أجيال من الثروة. نبلاء هذا العصر، معتادو الثراء والسلطة كما يعتاد أحدنا التنفس.

تمامًا كخاتم الألماس الرقيق الذي يزين إصبع تشو هانيانج النحيف، لا يكاد يُرى لولا لمعة وميضه الدافئ، ومع ذلك يساوي عشرة أضعاف قيمة كل الخواتم الذهبية البراقة والضخمة بحجم الجوز التي يرتديها الأخ تيث.

لكن ها هم أمراء المال الثلاثة عشر مجتمعين لاستئجار قاتل محترف لتنفيذ ثلاث عمليات قتل. وبحسب عقده، ليست سوى الدفعة الأولى.

لم ينشغل سموثبور بالخاتم الألماس، عيناه مثبتتان على ثلاث صور في يد تشو، الوحدات المطلوب معالجتها لا ريب. مال تشو عبر الطاولة ودفع الصور نحوه.

ألقى سموثبور نظرة وشعر بإحباط خافت يعاود التسلل إليه. قال مُدرِّبه إنَّ من الحكمة في نطاق عمله التعرُّف مسبقًا على الوحدات المحتمل معالجتها في المستقبل. وفي هذه المدينة، على الأقل، حرص سموثبور على ذلك، لكنه جهل الوجوه الثلاثة أمامه بالمرة.

بعدسة مقرَّبة التُقطت الصور، شخوصها شُعث، متَّسخون، كأنهم من نوع مختلف تمامًا غير الشخصيات الراقية حول الطاولة، وبعد تدقيق تبيَّن أن أحد الوجوه الثلاثة لامرأة. شابة لا تزال، ومظهرها أنظف من الآخرين نسبيًا.

شعرها، مع أنَّ الغبار يغطيه، ممشَّط بعناية. نظرتها غير عادية، ينتبه سموثبور دائمًا لتعبيرات الناس، مثل غيره في هذه المهنة. يرى عادة أحد تعبيرين: رغبة مشوبة بالقلق أو بلادة تامة. لكنَّ عينيها ممتلئتان بصفاء نادر. خفق قلبه بخفة، شعور بمثل سرعة ما جاء اختفى كضباب رقيق بعثره الريح.

قال تشو:

- هذه هي المهمة الموكلة إليك من مجلس تصفية الثروة الاجتماعية. نحن اللجنة الدائمة للمجلس، وأنا رئيسها.

مجلس تصفية الثروة الاجتماعية؟ اسم غريب. باستثناء ما يدل عليه كتجمُّع لأثرياء العالم لم يستطع سموثبور استنتاج مغزاه. دون معلومات إضافية، ربما من المستحيل كشف أهدافهم الحقيقية.

تابع تشو:

- أماكنهم مكتوبة على ظهر الصور. ليس لديهم عناوين ثابتة، لذا فالمواقع تقريبية. عليك البحث عنهم، لكن العثور عليهم لن يكون صعبًا. حُوِّل المبلغ إلى حسابك بالفعل. يُرجى التحقق.

رفع سموثبور بصره فوجد تعبير تشو أبعد ما يكون عن النبل. عيناه باهتتان وفارغتان، وهو ما أدهش سموثبور بعض الشيء، دون حتى بريق لرغبة.

أخرج هاتفه وفتح حسابه البنكي. وبعدما عدَّ الأصفار الطويلة بعد الرقم قال ببرود:

- أولًا، المبلغ زائد. أنا ملتزم بعرضي الأصلي. ثانيًا، نصف المبلغ يُدفع مقدمًا، والنصف الآخر عند الإنجاز.

ردَّ تشو بتثاقل:

- لا بأس.

ضغط سموثبور عدة أزرار:

- أُعيد المبلغ الزائد. يُرجى التحقق سيدي. لدينا أيضًا معايير مهنية.

بابتسامة آسرة قالت شو شوبينج، المديرة التنفيذية لمجموعة فار سورس، أكبر كيان لتطوير الطاقة في آسيا بعد تحرير سوق الكهرباء بالكامل:

- حقًا، أصبح مجالك مشبعًا بالمنافسة هذه الأيام. لكننا نُثمِّن احترافيتك ونزاهتك.

وقال شو تونج، قطب النفط البحري:

- هذه أول عملية، لذا نرجو إنجازها بسلاسة.

سأل سموثبور:

- تبريد فوري أم مؤجَّل؟

ثم أضاف سريعًا:

- بوسعي الشرح لو لزم.

ردَّ تشو:

- نفهم المقصود، ولا فرق لدينا. نفِّذ حسبما ترى.

- طريقة التحقق؟ تسجيل مصوَّر أم عينة مادية؟

- لا حاجة لأيٍ منهما. أنجز المهمة فحسب، لدينا طرقنا الخاصة للتأكد.
- هل هذا كل شيء؟
- نعم، يمكنك الانصراف.

رأى سموثبور، وهو يغادر الفندق، سفينة الإخوة الأكبر تمر ببطء فوقه من فرجة ضيقة في السماء بين المباني الشاهقة. بدت أكبر من ذي قبل، وازدادت سرعتها بوضوح، لا بد أنها خفضت من ارتفاع مدارها.

يُزهر سطحها الأملس بأنماط قُزحية تتغير ببطء، مُحدثةً إحساسًا بالنُّعاس لمن يطيل النظر. سطح السفينة، في الواقع مرآة مثالية، وما يراه النُظار من أنماط ليست سوى انعكاسات مشوَّهة للأرض أدناها. تخيَّلها سموثبور فضَّة خالصة، معادل الجمال في نظره. يُحب الفضة أكثر من الذهب؛ الفضة هادئة، وباردة.

قبل رحيلهم منذ ثلاث سنوات أخبر المنشئون البشرية خلقهم لستة كواكب أرضية في المجمل، لم يتبقَّ منها سوى أربعة تقع ضمن نطاق مائتي سنة ضوئية من بعضها بعضا. وحثوا سكان الأرض على تسريع وتيرة التطور التقني: علينا القضاء على كواكبنا الشقيقة، وإلا تعرضنا للفناء.

لكن هذا التحذير جاء متأخرًا.

بعد مغادرتهم بوقت قصير ثبتت إحدى سفن أحد تلك الكواكب الثلاثة، كوكب الأرض الأول، مدارها حول الأرض، ووصل مبعوثوها إلى النظام الشمسي. أصحاب حضارة أقدم من البشر بمرتين. لذا أطلق عليهم سكان أرضنا «الإخوة الأكبر».

أخرج سموثبور هاتفه المحمول وتفقَّد رصيده المصرفي مجددًا. أخي تيث، أصبحت غنيًا مثلك الآن، لكن ثمة شعورًا بنقص شيء ما. بينما تحسبُ دائمًا أن كل شيء لديك، وكل ما فعلته ليس سوى محاولة يائسة للحفاظ عليه. هزّ سموثبور رأسه، كأنما يبدِّد سحابة معتمة عن ذهنه، ليس من حُسن الطالع التفكير في الأخ تيث الآن.

***

اشتقَّ الأخ تيث اسمه من منشار لم يفارق جنبه. شفرته رفيعة ومرنة، وأسنانه حادَّة كالموسى. نُحت مقبضه من قطعة مرجان صلبة، وزُيِّن برسوم أوكيو-إي[1] الجميلة. يلتفُّ المنشار حول خصره كحزام، وفي أوقات الفراغ يفكّه ويمرِّر قوس كمان على ظهر الشفرة. بثني النصل والعزف على أجزاء مختلفة العرض تخرج موسيقى حزينة لتطفو في الهواء كأرواح تئن. بالطبع سمع سموثبور حكايات عن استخدامات المنشار الأخرى، لكنه لم يشاهد الأخ تيث يستخدمه في عمله إلا مرة واحدة.

لعبة نرد عالية الرهان داخل مستودع قديم. راهن مساعده، رجل اسمه نصف طوبة، بكل ما يملك وخسر، حتى رهن بيت والديه. بعينين محمرَّتين، عرض وضع ذراعيه على الطاولة في رهان الضعف أو لا شيء.

---

(1) نوع من الفن الياباني، اشتهر بشكل خاص في شكل مطبوعات خشبية. تعني الكلمة حرفيًا «صور العالم العائم»، وتشير إلى الفن الذي يصور مشاهد من الحياة اليومية اليابانية، وخاصة جوانب الترفيه والثقافة الشعبية في فترة إيدو «الاسم القديم لطوكيو»(1603-1868) باليابان.

هزَّ تيث النرد وابتسم. قال: « ذراعا نصف طوبة رهان غير مقبول. المستقبل طويل، ودون يدين، كيف سيلعبان النرد معًا من جديد؟».

تابع:

- راهِن على ساقيك.

فراهن على ساقيه، وعندما خسر تيث مرة أخرى، فكَّ منشارَه وقطعهما من أول الركبة.

تذكَّر سموثبور جيدًا صوت الشفرة تمزق الأوتار والعظام. وضع الأخ تيث قدمه على عنق نصف طوبة لكتم صراخه البشع، ليدوِّي صدى صريرها وحده تنهش اللحم في المستودع المظلم الفسيح. وبينما يغني المنشار بمرح عبر رضفتي «نصف طوبة» خرجت نغمة غنية، كثيفة الرنين. تناثرت شظايا العظم الناصعة البياض وسط بركة من الدم القاني، لترسم لوحة فاتنة، بل آسرة.

زلزل الجمال الغريب وجدان سموثبور. استجابت كل خلية في جسده لسحر نغمة اللحم الممزَّق. تلك هي الحياة حقًا! عيد ميلاده الثامن عشر، أيُّ طقس عبور إلى الرشد أروع؟

عندما انتهى مسح تيث الدم عن منشاره الحبيب وأعاده إلى خصره. نُقل نصف طوبة وساقاه بعيدًا بالفعل. فأشار إلى آثار الدم قائلًا:

- قُل له إنني سأتكفَّل به من الآن فصاعدًا.

سموثبور أحد أفراد بطانة الأخ تيث الموثوقين على الرغم من صغر سِنِّه. تبع منذ صغره الرجل يصعد إلى السلطة، ولم يكن

غريبًا عن العنف وسفك الدماء. ولمَّا جمع الأخ تيث أخيرًا ثروة من بلاعات المجتمع الدموية وسعى في تحويل إمبراطورية أعماله إلى قنوات شرعية، منح أتباعه الأوفياء ألقابًا فخمة: رئيس مجلس إدارة ونائب الرئيس وهكذا. وحده سموثبور ظلَّ حارسًا شخصيًا.

العارفون يدركون ما تعنيه ثقة كهذه لرجل شديد الحيطة. ربما نتيجة لمصير عرَّابه، الحذِر على نحو غير مسبوق. بحسب كلمات الأخ تيث: «يغلف نفسه بالحديد لو استطاع». بعد سنوات طويلة بلا حوادث استقلَّ طائرة وجلس في مقعده المخصص بين اثنين من أخلص حُراسه الشخصيين. عندما هبطت الطائرة في تشوهاي، لاحظت المضيفة الثلاثة جلوسًا ما زالوا وكأنهم غارقون في أفكارهم. وكشفت نظرة ثانية تسرُّب دمائهم بالفعل لبُعد أكثر من عشرة صفوف.

اخترقت إبر فولاذية فائقة الدقة ظهر المقاعد، غُرزت ثلاث إبر في قلب كل حارس، وأربع عشرة إبرة نصيب العرَّاب، كما لو أنه فراشةٌ دُبِّست بعناية في صندوق عينات. حمل العدد -بلا شك- رسالة: ربما لمَّح إلى أربعة عشر مليون يوان منهوبة، أو أربع عشرة سنة انتظرها القاتل ليثأر.

مثل عرَّابه، مُلئ طريق الأخ تيث إلى القمة بالأشواك. واستحال التنقل في المجتمع كعبور غابة من شفرات خفية أو مستنقع مكدَّس بالفخاخ. سلَّم حياته فعلًا لسموثبور.

لكن مكانة سموثبور اهتزَّت بقدوم السيد كيه الروسي. شاع ساعتها بين الأثرياء توظيف ضباط «كي جي بي» سابقين كحرس شخصي، مصدر تباهٍ كأن تعرض عشيقتك نجمة السينما.

لم يُفلح أحد في دائرة تيث في نطق اسم كيه الروسي المعقد، فنادوا الوافد الجديد اختصارًا بـ«كيه جي بي»، ثم استقروا على «السيد كيه». وفي الحقيقة لا علاقة للسيد بالـ«كيه جي بي»، فأغلب ضباطه السابقين أصبحوا موظفين مكتبيين، وحتى من عملوا في الصراعات السرية على الخطوط الأمامية غير متدربين على الحماية الشخصية.

أما السيد كيه فعمل بمكتب الأمن المركزي للاتحاد السوفيتي، وكان حارسًا شخصيًا لأندريه جروميكو[1]، وزير الخارجية المعروف في الغرب بلقب «السيد لا».

مثال حي للأصالة، محترف حقيقي بالفعل في إبقاء موكله حيًا. وظَّفه تيث براتب نائب رئيس. ليس تفاخرًا، بل لحرص حقيقي على سلامته الشخصية.

منذ لحظة وصوله وضح اختلافه التام عن بقية الحرس. معتادو الأكل والشرب على طاولة العشاء ربما أكثر من أرباب عملهم، والتدخل في الأحاديث بلا حياء، وعند الخطر إما يندفعون مثل البلطجية وإما يفرُّون مذعورين.

يقف السيد كيه خلف تيث بهدوء في المآدب والمفاوضات، بهيئته المهيبة كجدار لا يُزحزَح، مستعدًا لصدِّ أي تهديد. ومع أنه لم يُختبر في أي موقف طارئ، فإن احترافيته الصارمة كفيلة ببثِّ الثقة التامة.

---

(1) أندريه جروميكو سياسي ودبلوماسي سوفيتي بارز خلال فترة الحرب الباردة. شغل منصب وزير الخارجية لفترة طويلة، من عام 1957-1985، ثم تولى رئاسة الوزراء. تلقب بـ«السيد لا» (Mr. Nyet) في الغرب بسبب استخدامه المتكرر لحق النقض (الفيتو) في مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة.

سموثبور، ومع أنه أكثر مهنية من زملائه ولا يشاركهم هذه العيوب الواضحة، يدرك الفارق الشاسع بينه وبين كيه. على سبيل المثال، استغرق الأمر وقتًا حتى فهم أن كيه لا يرتدي النظارات الشمسية طوال ساعات اليوم ليبدو أنيقًا، بل ليُخفي نظراته.

على الرغم من تعلُّم السيد كيه الصينية بسرعة، فإنه حافظ بعناية على مسافة بينه وبين محيط تيث، حتى جاء يوم دعا فيه سموثبور إلى الدخول إلى غرفته البسيطة. قدَّم له كأسين من الفودكا، ثم قال بلهجته المتعثرة:

- أريد أن أعلِّمك الكلام.

- الكلام؟

- لغة أجنبية.

وهكذا بدأ سموثبور يتعلم لغة أجنبية على يده. لم يدرك أنها الإنجليزية، لا الروسية، إلا بعد أيام. تعلَّم بسرعة، وحين تمكنا من التفاهم بالإنجليزية والصينية، قال له كيه:

- لست مثل الآخرين.

أومأ سموثبور:

- أعلم.

- ثلاثون عامًا من الخبرة علَّمتني التمييز بدقة بين أصحاب الموهبة والآخرين. أنت نادر. منذ أن رأيتك شعرت بقشعريرة. من السهل التصرف بدم بارد، لكن من الصعب البقاء كذلك دون أن تذوب من الداخل. بإمكانك أن تصبح الأفضل في هذا المجال.. إذا لم تُهدر موهبتك.

- وماذا أفعل؟
- أولًا، ادرس في الخارج.

وافق الأخ تيث على اقتراح السيد كيه بكل سرور، وتكفَّل بكامل نفقات سموثبور. أمَّل في التخلص منه منذ قدوم السيد كيه، ولم تكن ثمة مناصب شاغرة تناسبه في الشركة.

وهكذا، في ليلة شتوية قارسة، صعد هذا الفتى اليتيم الذي تربَّى وترعرع في أحشاء المجتمع إلى طائرة ركاب متجهة إلى أرض غريبة ونائية.

***

قاد سموثبور سانتانا[1] متهالكة عبر المدينة ليتفقَّد كل موقع ذُكر على الصور. محطته الأولى ساحة بلاسوم، لم يستغرق وقتًا طويلًا حتى عثر على الرجل الظاهر في الصورة. ينبش في حاوية قمامة حين وصل سموثبور، وبعد دقائق جرَّ كيس قمامته المنتفخ إلى مقعد قريب.

أسفر بحثه عن علبة طعام جاهز كبيرة بالكاد مُسِّت، ونقانق خنزير لم يُؤكل منها سوى قضمة واحدة، وعدة شرائح خبز صالحة تمامًا للأكل، ونصف زجاجة كولا.

توقع سموثبور أن يأكل الرجل بيديه، لكنه راقب بدهشة كيف أخرج المتشرد ملعقة ألومنيوم صغيرة من جيب معطفه القذر الذي يرتديه رغم حرارة الصيف. أتمَّ طعامه ببطء، ثم رمى ما تبقى في سلة القمامة.

---

(1) أول سيارة أجنبية أُنتجت في الصين عبر مشروع مشترك مع فولكس فاجن. وُتستخدم كسيارات أجرة في الصين، تُعامل كالبيجو في مصر.

تلفَّت سموثبور حوله ورأى أضواء المدينة آخذة في التوهج من كل الجهات. مع درايته التامة بهذه المنطقة، فإنَّ شيئًا ما فيها غير طبيعي. فجأة أدرك السبب وراء تمكُّن الرجل من تناول طعامه بهدوء. الساحة مكان تجمع مشرَّدي المدينة المعروف، خاوية إلا من هذا الهدف. أين ذهب الآخرون؟ هل جرت «معالجتهم» جميعًا؟

قاد سموثبور إلى العنوان على الصورة التالية. تحت جسر على أطراف المدينة، يتسلَّل ضوء أصفر خافت من كوخ مهترئ بُني بألواح كرتون مضلَّع. دفع سموثبور باب الكوخ المهشَّم بحذر، ليُحدث فرجة بالكاد. وما إن أدخل رأسه حتى وجد نفسه في عالم فانتازي من الألوان. غُطت جدران الكوخ بلوحات زيتية مختلفة الأحجام، لتشكِّل جدارية فنية منفصلة.

تبع خيط دخان بعينيه حتى وصل إلى الفنان المتجوِّل الممدَّد تحت حمالة رسم مكسورة كدبٍّ في سُبات شتوي. طويل الشعر، وقميصه الملطَّخ بالطلاء فضفاض حتى بدا كعباءة. يدخن سجائر رخيصة تُدعى «فراشة اليشم»[1].

تجول عيناه بين لوحاته، بمزيج من الدهشة والفقد ملأ نظراته، كأنه يراها لأول مرة. خمَّن سموثبور أنه يقضي معظم وقته في الوله بأعماله. شاع هذا الطراز من الفنانين الجائعين في تسعينيات القرن الماضي، لكنه أصبح نادرًا اليوم.

قال الفنان وعيناه ما برحتا لوحاته، بنبرة أقرب إلى لهجة قصر إمبراطوري منها إلى كوخ مهترئ:

---

(١) اليشم حجر كريم ثمين للغاية في الصين، ويُقدَّر أحيانًا أكثر من الذهب والماس. يرمز للخلود والصحة.

– لا بأس، ادخل.

وما إن دخل حتى سأله الفنان:

– هل تحب لوحاتي؟

نظر سموثبور حوله فرأى معظم اللوحات مجرد لطخات لون فوضوية، لو سكب الطلاء مباشرةً على قماش الرسم لبدا منطقيًا بالمقارنة، لكن ثمة لوحات بأسلوب واقعي صارخ، جذبته إحداها على الفور:

يسيطر على قماش الرسم أرض صفراء متشققة. بضع نباتات ميتة تبرز من الشقوق، كأنها ذبلت منذ قرون، إن كان ثمة ماء في هذا العالم أصلًا. جمجمة ناصعة البياض، مليئة بالشروخ على الأرض الجافة، لكنَّ نبتتين خضراوين نمتا من فم الجمجمة وأحد تجاويف عينيها.

في تناقض صارخ مع الجفاف والموت المحيطين تعلو نضرة النباتات، زهرة صغيرة رقيقة. في تجويف العين الأخرى عين بشرية متجهة حدقتها الصافية نحو السماء، مليئة بنفس مشاعر الدهشة والفقد التي رآها سموثبور في الفنان.

قال سموثبور مشيرًا إلى اللوحة:

– تعجبني هذه.

أجابه الفنان:

– اسمها الأرض القاحلة رقم 2. هل ترغب في شرائها؟

– بكم؟

– كم معك؟

أخرج سموثبور محفظته وأعطاه كل ما فيها من أوراق نقدية فئة المائة يوان. لكن الفنان لم يأخذ سوى ورقتين.

– لا تستحق أكثر من هذا. أصبحت لك الآن.

أدار سموثبور محرك السيارة والتقط الصورة الثالثة ليتفحص العنوان الأخير. لكنه أطفأ المحرك بعد لحظات، إذ بانت وجهته بجانب الجسر مباشرة: أكبر مكبٍّ نفايات في المدينة. أخرج منظاره المقرِّب وراح يتفحَّص المشهد عبر الزجاج الأمامي، باحثًا عن هدفه بين جموع النباشين المتسلقين لأكوام القمامة.

ثلاثمائة ألف نبَّاش يعيشون على قمامة المدينة الكبرى، مُشكِّلين طبقة قائمة بذاتها، بتراتبية اجتماعية كاملة. يمكن لأعلاهم مرتبة دخول أحياء القصور الفخمة، وجمع حمولة يومية من ملابس وجوارب ومفارش أسرَّة لم تُستخدم سوى مرة واحدة، من صناديق قمامة مصمَّمة بعناية في هذه الأحياء، تُعتبر سلعًا كتلك للاستخدام مرة واحدة.

كل أنواع الأشياء تجد طريقها إلى القمامة: أحذية وأحزمة جلدية فاخرة بالكاد خُدشت، أو سيجار هافاني نصف مدخَّن، أو شوكولاتة باهظة الثمن قُضمت من الأطراف فحسب.

لكنَّ البحث هناك يتطلب رشاوى باهظة لحراس المجمعات السكنية لا يقدر على دفعها إلا قلة، وهؤلاء يشكلون أرستقراطية مجتمع النباشين.

يتمركز النباشون من الطبقة الوسطى عند محطات تجميع النفايات المتعددة في المدينة، أول نقطة لفرز النفايات البلدية،

حيث تُلتقط بسرعة النفايات الأعلى قيمة: إلكترونيات تالفة، معادن، أوراق سليمة، معدات طبية مهملة، وأدوية منتهية الصلاحية. غير أنَّ هذه المواقع ليست مفتوحة أمام أي شخص، كل محطة تحت سيطرة زعيم قمامة، ودخول أي نبَّاش دون إذن يعرِّض من يخالف، ولو بمخالفات بسيطة، منهم للضرب المبرح والطرد، وربما تصل المخالفات الجادة للموت.

ما يتبقَّى من محطات التجميع والفرز يصل إلى مكبَّات ومدافن الأطراف، نفايات شبه معدومة القيمة. ومع هذا تعيل العدد الأكبر من الناس: أدنى طبقة من النباشين، أولئك الذين أمام سموثبور الآن. يتعاملون مع بلاستيك مُكسَّر لا يُعاد تدويره، وأوراق ممزَّقة، وبقايا طعام متعفنة تُجمع وتُباع كعلف للخنازير بسعر عشرة يوان للكيلو.

تشع العاصمة من بعيد كجوهرة متلألئة تُلقي بهالة متراقصة فوق جبل القمامة النتن. بينما يختبر النباشون رفاهية المدينة عبر فرز قمامتها. بين الطعام الفاسد يمكن العثور على خنزير مشوي لم يُؤكل سوى من ساقيه، أو سمكة هامور بالكاد مُسَّت، أو دجاجة كاملة.

شاع مؤخرًا العثور على دجاجات حريرية[1] كاملة بسبب رواج طبق جديد يُدعى دجاج اليشم الأبيض، يُشق جوف الدجاجة وتُحشى بالتوفو[2]، ثم تُترك لتغلي ببطء. تُؤكل شرائح التوفو، أما الدجاج، رغم لذاذته فمجرد غلاف. مثل أوراق القصب حول

(1) نوع من الدجاج يتميز بريشه الناعم الشبيه بالفرو.

(2) التوفو طعام شهير يُعرف أيضًا باسم جبنة الفول الصويا، وهو عنصر أساسي في العديد من المأكولات الآسيوية، خاصة في اليابان والصين.

فطائر الأرز[1]، من يجرؤ على ارتكاب حماقة أكل الدجاجة نفسها يُعد أضحوكة وسط الذواقة المتمرسين.

وصلت آخر شاحنة قمامة في اليوم، بينما تُفرغ حمولتها على الأرض، تدافع فريق من النباشين لملاقاة سيل النفايات، وسرعان ما اختفوا في دوَّامة الغبار والحطام. كأنهم طور جديد من البشر، لا يتأثر برائحة المكب، ولا بالجراثيم، ولا القذارة السامة. بالطبع، لا يعدو الأمر مجرد وهم، يُغذِّيه من يرون كيف يعيش هؤلاء، دون أن يروا موتهم. جثث النباشين، مثل الحشرات والجرذان، متناثرة في المكب، تموت بصمت، لتطمرها نفايات اليوم التالي.

وسط ضوء خافت تبقَّى من الكشافات على أطراف المكب، ظهر النباشون كظلال مُغبرة باهتة، لكن سموثبور تعرَّف على هدفه بسرعة. ليس بسبب حدة بصره فحسب، ثمة سببًا آخر، كما في ساحة بلاسوم، عدد النباشين أقل من المعتاد بكثير. ما الذي يجري؟

راقب سموثبور الهدف بمنظاره. بدت عادية للوهلة الأولى كأي زبَّال، بالحبل المشدود على خصرها، تحمل جوالًا ضخمًا، مع مجرفة ذات مقبض طويل. أنحف قليلًا من الآخرين ربما. لعدم قدرتها على التوغل في الزحام ومجاراتهم، نبشت على الأطراف لفرز قمامة القمامة.

أنزل سموثبور منظاره وأخذ يفكر، هزَّ رأسه قليلًا. شيئًا خياليًا حقًا يتكشف أمامه: رجل مشرد، فنان جائع متجول، وفتاة تعيش

(1) إشارة إلى الزونغزي: فطائر أرز مُعجن محشوة بحشوات مختلفة (لحم، بيض مملح، فاصوليا، إلخ)، تُلف بإحكام في أوراق نباتية (عادةً أوراق الخيزران أو أوراق القصب/ اللوتس أو أوراق القصب الهندي) ثم تُطهى بالبخار أو تُغلى.

على القمامة - ثلاثة من أفقر وأضعف الناس في العالم، بطريقة ما، يشكلون تهديدًا لثلاثة عشر من أغنى وأقوى أثرياء الأرض. تهديد جسيم، في الواقع، لدرجة أن تستأجر قاتلًا محترفًا للتعامل معه.

على المقعد الخلفي ترقد لوحة الأرض القاحلة رقم 2. عين الجمجمة الواحدة، في الظلام، تحدق في سموثبور، كشوك في لحمه.

سمع صرخات مفزوعة من المكب، ورأى العالم خارج سيارته مغمور بضوء أزرق. وهج انبعث من الشرق، حيث ارتفعت شمس زرقاء بسرعة فوق الأفق: سفينة الإخوة الأكبر الفضائية، وصلت إلى نصف الكرة الجنوبي.

لا ينبعث منها الضوء في العادة؛ في الليل، ينعكس على جوانبها ضوء الشمس فيجعلها تتلألأ كقمر صغير، لكن بين الحين والآخر تشع على العالم فجأة وهجًا أزرق، يدفع البشر إلى هلع غامض.

الوهج هذه المرَّة أقوى من أي وقت مضى، ربما لأنَّها في مدار أدنى من المعتاد. ارتفع القمر الأزرق فوق المدينة، يمدُّ ظلاله على ناطحات السحاب بطول الطريق حتى مكبِّ القمامة، كأذرع عمالقة شرهة. ومع صعود السفينة بدأت الظلال في الانحسار بالتدريج. أضاء نور السفينة وجه الفتاة في المكب. رفع سموثبور منظاره مجددًا وأكَّد ملاحظته السابقة: هي الهدف.

جاثية والجوال على حجرها، وفي نظرتها إلى الأعلى مسحة قلق، لكنها حافظت على نفس الهدوء الذي رآه في الصورة. مُسَّ قلب سموثبور، لكنه شعور عابر، مضى كما جاء. عرف أنه تموُّج عاطفي من مكان عميق داخل روحه، وأسف لفقده مرة أخرى.

انطلقت السفينة عبر السماء، واختفت خلف الأفق الغربي،

تاركة أثرًا أزرق شاحبًا في الأعالي. عاد المكب إلى ظلامه، وتألقت أضواء المدينة من جديد. وعاد سموثبور إلى التفكير في اللغز: أغنى ثلاثة عشر شخصًا على وجه الأرض يريدون قتل أفقر ثلاثة.

فاق الأمر حدود العبث، وأي تفسير يتجاوز خياله. لكن لم يمضِ وقت طويل حتى فرمل أفكاره بشدة. ضرب على المقود نادمًا، إذ أدرك فجأة أنه خرق قاعدة مهنته الذهبية. ترددت كلمات معلمه في ذهنه، تُعيد عليه مبدأ عملهم الأساسي:

«المسدس لا يعبأ بمن يُوجَّه نحوه».

***

حتى يومنا هذا لم يعرف سموثبور في أي بلد في الخارج تلقّى تعليمه، ناهيك عن موقع الأكاديمية الدقيق. عرف موسكو أول محطة في الرحلة فحسب. استقبله عند وصوله عدد من الرجال، تحدَّثوا الإنجليزية دون أدنى أثر للهجة روسية. طُلب منه ارتداء نظارات شمسية معتمة، وتنكَّر في هيئة كفيف، ليقضي بقية الرحلة في ظلام دامس. وبعد رحلة طيران أخرى استمرت ثلاث ساعات ويومًا كاملًا من القيادة، وصل إلى الأكاديمية، وليس بمقدوره الجزم ما إذا كان في روسيا لا يزال حتى تلك المرحلة.

تقع الأكاديمية في أعماق الجبال، محاطة بجدران عالية. ولا يُسمح للطلاب تحت أي ظرف بمغادرة المكان قبل التخرج. لمَّا سُمح له أخيرًا بخلع النظارات المعتمة، ميَّز طرازين مختلفين تمامًا من المباني: الأول رمادي خاليًا من أي ملامح مميزة، والثاني غريب الشكل والبنية، اكتشف لاحقًا أنها مشيَّدة، في الحقيقة، من كتل بناء عملاقة قابلة لإعادة التشكيل حسب الرغبة، لتُستخدم

في محاكاة طيف واسع من بيئات القتال. المؤسسة بأكملها في جوهرها ميدان رماية فائق التطور.

مراسم الاستقبال، المناسبة الأولى والأخيرة التي اجتمع فيها طلاب الأكاديمية معًا، زاد عددهم عن أربعمائة قليلًا. ألقى المدير ذو الشعر الفضي، الوقور كعالم كلاسيكي، كلمة افتتاحية قال فيها:

«أيها الطلاب، على مدار السنوات الأربع القادمة ستتعلَّمون المعرفة النظرية والمهارات العملية المطلوبة لمهنتنا، المهنة التي لن نذكر اسمها أبدًا بصوت عالٍ. واحدة من أقدم المهن في تاريخ البشرية، والواعدة بمستقبل مشرق. على نطاق ضيق، عملنا، وعملنا فحسب، القادر على حل المعضلات المستعصية لعملاء يائسين، لكن على النطاق الواسع يمكن لعملنا تغيير مجرى التاريخ.

في الماضي، عرضت علينا جهات حكومية مختلفة مبالغ طائلة لتدريب مقاتلي حروب العصابات، لكننا رفضنا جميع العروض، لأننا لا ندرِّب سوى المحترفين المستقلين. نعم، مستقلين عن كل شيء عدا المال. من هذه اللحظة، يجب أن تعتبر نفسك سلاحًا ناريًا.

واجبك تأدية وظيفة السلاح، وإظهار جمالها أثناء ذلك. المسدس لا يعبأ بمن يُوجَّه نحوه. الشخص (أ) يرفع المسدس ويطلق النار على الشخص (ب)، فيستولي (ب) على المسدس ويطلق النار على (أ)، والمسدس يؤدي المهمتين بكفاءة متساوية دون تمييز. هذه هي القاعدة الأولى وأبسط مسلمات مهنتنا».

خلال المراسم تعرَّف سموثبور أيضًا على بعض المصطلحات الشائعة في المهنة: المهمة الأساسية عُرفت باسم «المعالجة»،

والهدف يُسمى «الوحدة» أو «العمل»، أما الموت فيُعرف بـ«التبريد».

تنقسم الأكاديمية إلى ثلاثة تخصصات: «ب». و«م». و«ق». أي المدى البعيد، والمتوسط، والقريب. تخصص «ب» هو الأكثر غموضًا وتكلفة. يُعزل طلابه القليلون عن غيرهم، ونادرًا ما يختلطون بطلبة «م» أو «ق». كذلك، نصح مدربو سموثبور طلابهم بتجنُّب طلاب «ب»:

«هؤلاء نبلاء هذه المهنة، لأنهم الأقدر على تغيير مجرى التاريخ».

يدرس طلاب «ب» معارف واسعة وعميقة، يستخدمون بنادق قنص باهظة الثمن، يصل طولها إلى مترين بعد تركيبها بالكامل، ويبلغ ثمن الواحدة مئات الآلاف من الدولارات. مدى «المعالجة» المعتاد في هذا التخصص حوالي ألف متر، ويُقال إنَّ لدى بعضهم القدرة على إصابة أهداف من مسافة تصل إلى ثلاثة آلاف متر. تتطلب المعالجة على مسافات تتجاوز 1500 متر إعدادات معقدة، من ضمنها تثبيت «أجراس الرياح» على امتداد مسار الرماية، وهي مَقاييس رياح دقيقة تنقل بياناتها لاسلكيًا إلى نظارات يرتديها المعالج، لتوفر له/ لها قراءة دقيقة لسرعة الرياح واتجاهها على طول المسار.

من مسافة «معالجة» بين عشرة أمتار إلى ثلاثمائة متر يـأتي التخصص «م» الأكثر تقليدية والمتفاخر بأكبر عدد من الطلاب، يستخدمون عادة بنادق قياسية. وعلى الرغم من توفر العمل في

هذا التخصص، فإنه يُعد باهتًا وأقل غموضًا من غيره.

انتمى سموثبور لتخصص «ق»، وتعلَّم «المعالجة» من مسافات تقل عن عشرة أمتار. لم يتطلب هذا التخصص أسلحة محدَّدة، وغالبًا ما يستخدم المتخصصون فيه المسدسات أو حتى الشفرات والأسلحة البيضاء. من بين التخصصات الثلاثة كان «ق» -لا ريب- هو الأخطر، لكنه الأكثر شاعرية ورومانسية أيضًا.

مدير الأكاديمية سيد هذا التخصص، ودرَّس مواده شخصيًا. لكن، ولدهشة الجميع، كانت أول مادة درَّسها «الأدب الإنجليزي».

قال المدير بنبرة جادة، متأملًا وجوه الطلاب الحائرة:

- يجب فهم قيمة تخصص «ق» أولًا... في تخصصي «ب» و«م»، لا يلتقي المعالج والهدف أبدًا، يجري التعامل مع الهدف وتبريده دون أن يعي مصيره. هذه نعمة للهدف، ربما، لكنها ليست كذلك للعميل. يحتاج بعض العملاء إبلاغ الهدف من اختاره للمعالجة ولماذا، وهنا يأتي دورنا. في تلك اللحظة، لا نكون نحن أنفسنا، بل نكون تجسيدًا لإرادة العميل. علينا نقل رسالته/ ها الأخيرة إلى الهدف بوقار وإتقان، لنوقع به أقصى صدمة نفسية وأقسى عذاب قبل التبريد.

تلك شاعرية تخصص «ق»، وجماله، نظرة الرعب واليأس في عينَي الهدف قبل لحظة التبريد. لا متعة في عملنا تفوق هذه اللحظة؛ ولكن للوصول إليها، علينا صقل براعتنا في الخطاب وبلاغتنا الأدبية.

لذا؛ أمضى سموثبور عامًا كاملًا في دراسة الأدب. قرأ ملاحم هوميروس، وحفظ أعمال شكسبير، ودرس نتاج عدد كبير من

الكُتَّاب الكلاسيكيين والمعاصرين. شعر أن هذا العام هو ما استحق التعليم في الخارج من أجله. بقية المواد في المتناول، وبوسعه تعلمها لاحقًا إن لم يتقنها في الأكاديمية.

مثَّلت الدراسة فرصته الوحيدة للانخراط بعمق في الأدب، وعبره أعاد اكتشاف جوهر الطبيعة الإنسانية، وأذهلته خفاياها. بينما أشبه القتل، من قبل، تحطيم وعاء رديء الصنع مملوء بسائل أحمر، أصبح يشعر الآن كأنه حطّم آنية من اليشم النقي، مما زاد الفعل لذة.

ثم بدأ دراسته التالية، التشريح البشري. من بين التخصصات الثلاثة، تميَّز تخصص «ق» بميزة أخرى، القدرة على التحكم في توقيت تبريد الهدف. المصطلحان الفنيان «التبريد السريع»، «التبريد المؤجَّل».

طلب كثير من العملاء تبريدًا مؤجلًا وتسجيلًا للعملية بالكامل، ذكرى خالدة يمكنهم الاحتفاظ بها إلى الأبد. بالطبع، تطلَّب هذا مهارات دقيقة وخبرة عميقة، ومعرفة تفصيلية بتشريح الإنسان أمر لا غنى عنه.

ثم بدأت مقرراته الحقيقية.

***

تفرَّق نبَّاشو القمامة بالتدريج من فوق المكب، حتى لم يتبقَّ سوى الهدف وعدد قليل آخر. في تلك اللحظة، قرر سموثبور معالجة الوحدة قبل نهاية الليل. تصرف مخالف لأعراف مرحلة الرصد الأولية، لكن ثمة استثناءات حين تتاح فرصة مناسبة للمعالجة.

ناور بسيارته للخروج من تحت الجسر وانطلق متخبطًا بطول طريق مليء بالحفر يحاذي المكب. لاحظ أن أي نبّاش يغادره لا بد أن يمر من هنا. لا يكشف الظلام سوى ظلال الأعشاب البرية المتمايلة في نسيم الليل. الموقع مثالي للمعالجة. قرر انتظار الوحدة هناك.

وضع مسدسه على لوحة القيادة بلطف. عيار 7.6 ملم غير أنيق، دوّار، بسبطانة[1] ملساء صُمِّم لذخيرة بلاك ستار الكبيرة. يُطلق عليه «أفطس الأنف» بسبب شكله[2]. اشتراه كقطعة خاصة الصنع لا يمكن تتبُّعها بثلاثة آلاف يوان من السوق السوداء في شيشوانجبانّا. على الرغم من مظهره البدائي، فإنه مصنوع بإتقان، شُغل كل جزء فيه بدقة. عيبه الأكبر أن المُصنِّع لم يكلف خاطره عناء تحزيز[3] ماسورته: جدران السبطانة من الداخل ملساء تمامًا.

لا يُعجز سموثبور الحصول على أسلحة أفضل من ماركات مشهورة. زوَّده الأخ تيث في بداية مسيرته كحارس شخصي بسلاح عوزي 32 طلقة[4]، ثم أهداه لاحقًا مسدس تايب 77[5] في عيد ميلاده. ولو أنه حشر كليهما في قاع صندوق السيارة، ولم يحمل

---

(1) السبطانة: الجزء الأنبوبي من السلاح الناري الذي تمر عبره الرصاصة عند إطلاقها.

(2) Snubnose وصف يُطلق على المسدسات الدوارة ذات الماسورة القصيرة بسبب شكلها وترجمتها العربية الأنف الأفطس.

(3) يُسهم تحزيز (تعشيق، تخديد، حلزنة) الماسورة من الداخل في دقة التصويب.

(4) عوزي Uzi: مسدس رشاش مدمج، ذو قدرة نيران عالية، صهيوني الصنع.

(5) تايب 77 مسدس صغير الحجم صيني شبه آلي، أبرز ميزاته هي نظام تشغيل فريد يسمح بتلقيم المسدس بيد واحدة عن طريق سحب الجزء الأمامي من واقي الزناد للخلف لتحريك الزلاقة.

أيًا منهما. فضَّل «أفطس الأنف» ببساطة، يلمع ببرود تحت هالة أضواء العاصمة، ما أعاد إلى ذهنه سنوات دراسته في الأكاديمية.

في أول أيام التدريب الفعلي، طلب المدير من كل طالب عرض سلاحه. عندما وضع سموثبور «أفطس الأنف» وسط صف المسدسات ذات التصميم الفاخر، شعر بإحراج بالغ، لكنَّ المدير التقطه وتفحصه بيده وقال بإعجاب صادق:

إنه مسدس رائع.

سخر أحد الطلاب:

- ليس مُحززًا، ولا يمكنك حتى تركيب كاتم صوت له.

ردَّ المدير:

- الدقة والمدى لا أهمية لهما لمتخصصي «ق»، والتحزيز أقل أهمية. كاتم صوت؟ وسادة صغيرة كفيلة بالأمر. يا فتى، لا تحصر نفسك في قوالب تقليدية بالية. في يد الماهر، يمكن لهذا السلاح أن يُنتج فنًّا لا تستطيع ألعابكم الثمينة مجاراته.

المدير مُحق. بدون تحزيز، تنقلب الطلقات في الهواء بحركات بهلوانية مُصدرة صفيرًا مرعبًا تفتقر إليه الطلقات العادية. وتستمر بالدوران حتى بعد اختراقها للهدف، كأنها شفرة دوَّارة تمزق كل ما يعترض طريقها.

قال المدير وهو يعيد السلاح إلى صاحبه:

- من الآن فصاعدًا سنطلق عليك لقب سموثبور! احتفظ بهذا السلاح يا فتى. يبدو أنك ستحتاج إلى دراسة رمي السكاكين.

فهم سموثبور المغزى على الفور: رامي السكين المحترف

يمسكه من النصل لتمنحه قوة الدوران الدفع اللازم لقوة الرمية، لكن عليه ضمان وصول النصل إلى الهدف أولًا في الوقت نفسه.

يأمل المدير إتقان سموثبور استخدام «أفطس الأنف» بنفس حرفية سيطرة الرامي على نصله! مثل هذا الفن يمنح سموثبور قدرة غير مسبوقة على التحكم بنوعية الجروح التي تُحدثها طلقاته الدوَّارة. بعد سنتين من التدريب المرير، ونحو ثلاثين ألف طلقة، بلغ مستوى من المهارة فاق حتى مدربي الأسلحة النارية في الأكاديمية. وخلال دراسته في الخارج لم ينفصل سموثبور عن «أفطس الأنف».

تعرَّف في عامه الرابع إلى طالبة في تخصصه تُدعى «فاير»، ربما بسبب شعرها الأحمر الكثيف. من المستحيل تحديد جنسيتها، لكنه خمَّن أنها من أوروبا الغربية. في الأكاديمية طالبات قليلات، ومعظمهن راميات بالفطرة.

«فاير»، مع ذلك، تصويبها بشع، ومهاراتها في السكاكين مثيرة للشفقة. لا يفهم سموثبور كيف تدبَّرت أمرها قبل الالتحاق بالأكاديمية. لكن أول حصة في صف الخنق، استلت شعرة رفيعة تكاد لا تُرى من خاتم رقيق ترتديه. لفَّت السلك الحاد حول عنق الماعز المستخدم في الدرس، وببراعة تدل على تمرُّس، فصلت رأسه بقطع نظيف. سمَّته «نانو واير» سلك فائق القوة ربما يُستخدم يومًا ما لبناء مصاعد فضائية.

لا تُكِنُّ «فاير» أي مشاعر حقيقية لسموثبور، هذا النوع من الأشياء مستحيل في الأكاديمية. تقضي الوقت أيضًا مع «ذئب

الصقيع»، طالب إسكندنافي يدرس تخصصًا آخر. تتقافز بينهما كصراصير القتال[1]، محاولة إثارة العنف لكسر رتابة الحياة الأكاديمية. وسرعان ما نجحت، فاتفق الشابان على حسم الأمر بلعبة الروليت الروسية.

في جنح الليل أعاد زملاؤهما ترتيب الكتل المعمارية العملاقة في ساحة التدريب لتشكل كولوسيوم[2]. تقرَّر بدء المبارزة وسط الساحة باستخدام «أفطس الأنف».

ترأست «فاير» المشهد بأكمله. بحركة مسرحية أنيقة، وضعت طلقة واحدة في أسطوانته الفارغة، ثم أمسكت بالسبطانة ودحرجت الأسطوانة فوق ساعدها الأبيض النحيل اثنتي عشرة مرة.

بعدما رفض الرجلان بأدب فرصتهما للبدء أولًا، ابتسمت وسلمت السلاح إلى سموثبور. رفع السلاح ببطء إلى رأسه. وعندما لامست الفوهة الباردة صدغه، اجتاحه شعور بالفراغ والعزلة أشد من أي شيء اختبره من قبل. ريح باردة دون شكل اجتاحت العالم، حتى لم تتبقَ نقطة دافئة في الكون حالك الظلمة سوى قلبه. تحجَّر قلبه، وضغط الزناد خمس مرات. سقطت المطرقة خمس مرات. دارت الأسطوانة خمس مرات. ولم تخرج الرصاصة.

كليك.. كليك.. كليك.. كليك.. كليك، هكذا فقط، دق ناقوس موت معدني قارس على ذئب الصقيع. تعالت هتافات الزملاء.

---

(1) صراصير القتال: تشير إلى تقليد قديم وشائع جدًا، خاصة في الصين، حيث تُستخدم ذكور الصراصير في مباريات قتال منظمة. وهناك أسواق متخصصة لبيع الصراصير القتالية، وقد يصل سعر الصرصور القوي إلى مبالغ كبيرة.

(2) كولوسيوم: مدرج المصارعة الروماني.

وانهمرت دموع البهجة من عيني فاير وهي تصيح لسموثبور أنها أصبحت له. وسط كل هذا، وقف ذئب الصقيع مبتسمًا بهدوء، ثم أومأ إلى سموثبور وقال بإخلاص:

- يا لك من وغد شرقي، هذه أروع مبارزة منذ اخترع كولت أول مسدس.

ثم استدار إلى فاير:

-لا بأس يا عزيزتي. الحياة كلها مجرد رهان على أية حال.

أمسك بأفطس الأنف ووضعه على صدغه. وبفرقعة مكتومة، تناثرت الدماء والعظام على أرض الساحة.

تخرَّج سموثبور بعد ذلك بفترة قصيرة. ارتدى النظارات الداكنة نفسها التي جاء بها، وغادر الأكاديمية التي لا اسم لها، عائدًا إلى مسقط رأسه. لم يسمع شيئًا عن الأكاديمية بعد ذلك، وكأنها لم تكن موجودة قط.

***

لم يعلم سموثبور بالأخبار إلا بعد رجوعه إلى العالم الخارجي: عاد المنشئون، مَن رعوْا الحضارة البشرية في يوم من الأيام ليطالبوا بدعمها، لكنهم، إذ لم يستطيعوا التأقلم مع ظروف المعيشة على الأرض، غادروها بعد عام واحد فقط. اختفى بالفعل أسطولهم المؤلف من عشرين ألف سفينة في رحابة الكون اللامحدود.

لم يكد سموثبور يطأ أرض المطار حتى تلقَّى أول أمر «معالجة» له.

استقبله الأخ تيث بحرارة، وأقام وليمة فخمة احتفالًا بعودته. بعد العشاء طلب سموثبور لقاءً خاصًا معه، قائلًا إن لديه الكثير مما يريد البوح به، وحين انفضَّ الجمع قال للأخ تيث:

- نشأت في كنفك. وفي قلبي، لم تكن يومًا أخي، بل والدي الحقيقي. أسألك الآن: هل ينبغي لي ممارسة المهنة التي تدرَّبت عليها؟ فقط قُل الكلمة، وسأطيع.

لفَّ الأخ تيث ذراعه حول كتف سموثبور وقال:

- إن كنت تحبها فامضِ بها، وأرى أنك تستمتع. لا تشغل بالك بمسألة طريق رفيع أو دنيء، أصحاب المستقبل المشرق ينجحون أيًّا كان الدرب الذي يسلكونه.

- كما تقول.

أخرج سموثبور مسدسه وأطلق النار على بطن الأخ تيث. بزاوية مدروسة تمامًا حفرت الرصاصة الدوَّارة خطًّا عبر بطن الرجل، لتستقر مدفونة في ألواح الأرضية الخشبية. وحين انقشع الدخان نظر الأخ تيث إلى سموثبور. بدت في عينيه ومضة صدمة سرعان ما حلَّ الخدر الذي يلي لحظة الفهم بديلًا عنها. ضحك بخفوت، وأومأ برأسه:

- صرت رجلًا بحق، يا صغيري.

قالها وهو يبصق دمًا، ثم انهار بهدوء إلى الأرض.

نص أمر المعالجة على «تبريد متأخر» لمدة ساعة، دون تسجيل. وثق العميل بسموثبور.

صبَّ كوبًا من الخمر، وظل يراقب الدم وهو يتجمَّع حول الأخ تيث ببرود خالٍ من الانفعال. الرجل المحتضر يعيد ترتيب أمعائه المسكوبة ببطء كما لو كان يرص قطع الماهجونج[1]. وما إن

(1) لعبة بلاطات صينية تُشبه الدومينو.

يدفعها داخل بطنه حتى تنزلق الأجزاء الزلقة خارجه مجددًا. شرع يجمعها بحذر، وحين كرَّر العملية للمرة الثانية عشرة لفظ أنفاسه الأخيرة، تمامًا عند انقضاء ساعة كاملة على إطلاق الرصاصة.

صدق سموثبور حين قال إن الأخ تيث بمثابة أبٍ له. في أحد الأيام الماطرة، حين كان في الخامسة، خسر والده البيولوجي مبلغًا كبيرًا في القمار، فطالب والدته بتسليمه جميع دفاتر التوفير في البيت، ولما رفضت انهال عليها بالضرب حتى قتلها. وحين حاول سموثبور منعه كسر له أنفه وذراعه، واختفى وسط المطر. بحث عنه لاحقًا في كل مكان دون جدوى. لو وجده يومًا، لنال هذا الرجل ما يستحقه: تبريد بطيء.

عرف سموثبور لاحقًا أنَّ السيد كيه أعاد كل قرش من راتبه إلى عائلة الأخ تيث، ورجع إلى روسيا. قبل مغادرته قال الروسي إنه علم يوم أرسل سموثبور للدراسة في الخارج أن الأخ تيث سيموت على يديه. عاش الأخ تيث حياته على حافة السكين، ولم يفهم قط ما يجعل الشخص قاتلًا حقيقيًا.

***

غادر النبَّاشون القلائل المتبقُّون في المكبِّ واحدًا تلو الآخر، حتى لم يتبقَّ سوى هدف سموثبور. تغوص وسط النفايات، منغمسة في عملها تمامًا. لأنها لم تملك القوة الكافية لتنال موضعًا جيدًا عند وصول الشاحنات، لم يعد أمامها سوى تعويض ذلك بساعات عمل أطول. ومثابرتها تلك جعلت من غير الضروري لسموثبور انتظارها بالخارج. دسَّ مسدسه «أفطس الأنف» في جيب سترته، وخرج من السيارة متجهًا مباشرة نحو هدفه في كومة القمامة.

القمامة تحت قدميه إسفنجية ودافئة على نحو فاتر، كأنه يسير فوق جسد وحش هائل، ومع اقترابه من الهدف بأربعة أو خمسة أمتار أخرج مسدسه من جيبه.

في تلك اللحظة اندفعت ومضة من الضوء الأزرق نحو السماء من جهة الشرق. أكملت سفينة الإخوة الأكبر مدارها كاملًا حول الأرض وعادت، متوهجة لا تزال، إلى نصف الكرة الجنوبي.

أثار ظهور الشمس الزرقاء المفاجئ انتباه الشخصين الواقفين فوق مكبِّ النفايات. حدَّقا في النجم الغريب لحظة، ثم تبادلا النظر. عندما التقت أعينهما ارتكب سموثبور، فعل لا يليق بأي قاتل محترف: كاد يُفلت مسدسه من يده. للحظة أنساه الذهول وجود «أفطس الأنف»، وكاد يهتف دون تفكير: «سويت بي!»، لكنه يعلم أنها ليست هي. لقد رأى موتها المؤلم بعينيه قبل أربعة عشر عامًا، بيد أنها ظلَّت حيَّة في قلبه، تكبر وتنضج. كثيرًا ما رآها في أحلامه، وتخيَّلها تمامًا مثل تلك الشابة الواقفة أمامه الآن.

في سنوات صعوده عمل الأخ تيث في تجارة لا تُوصف: يشتري الأطفال المعاقين من تجار البشر، ويجبرهم على التسوَّل في المدينة. في تلك السنوات لم يكن تعاطف الناس قد نضب بعد. درَّ الأطفال أرباحًا وفيرة، ولعبوا دورًا لا يستهان به في تراكم رأس مال الأخ تيث في البداية.

ذات مرَّة، رافق سموثبور الأخ تيث لتسلُّم مجموعة أطفال جديدة من أحد المهرِّبين. وعندما وصلا إلى المخزن القديم وجدا خمسة أطفال بانتظارهما. أربعة منهم بتشوُّهات خلقية، الخامسة

فتاة صغيرة سليمة تمامًا. في السادسة من عمرها، «سويت بي» فاتنة الملامح، بعينين واسعتين مليئتين بالحياة، في تناقضٍ صارخ مع الأطفال من حولها. انكسر قلب سموثبور عندما تذكّر تلك العيون والنظرات الفضولية التي تمسح بها العالم من حولها دون أدنى إدراك لما ينتظرها.

قال المهرّب مشيرًا إلى الأربعة المعاقين:

هؤلاء هم.

ردَّ الأخ تيث:

- ألم نتفق على خمسة؟

أجاب الرجل:

- امتلأت العربة، وأحدهم لم يصل.

أشار الأخ تيث إلى «سويت بي» وسأل:

- وماذا عن تلك؟

- ليست للبيع.

قال بنبرة لا تقبل الجدال:

- أريدها. بنفس سعر الآخرين.

- لكنها.. سليمة تمامًا. كيف ستجني من ورائها المال؟

- يا غبي، ببعض اللمسات الأخيرة تُصبح جاهزة.

وهو يتحدث فكَّ الأخ تيث المنشار الملفوف حول خصره، ومرَّره عبر ساق «سويت بي» الرقيقة، تاركًا فيها جرحًا غائرًا. تفجَّرت الدماء والصغيرة تصرخ وتصرخ.

أمر الأخ تيث سموثبور:

- ضمِّد الجرح وأوقف النزيف، لكن لا تُعطها مضادات حيوية. يجب أن يتقيَّح.

ضمَّد سموثبور ساقها، لكنَّ الدم ظلَّ يتسرَّب عبر طبقات الشاش، وشحب لون وجه الطفلة حتى قارب الموتى. دسَّ لها سموثبور سرًا بعض جرعات الإريثروميسين والسلفاميثوكسازول، لكن دون فائدة. تفاقم الالتهاب في ساقها.

بعد يومين أرسلها الأخ تيث إلى الشوارع لتتسوَّل. وترك تعبيرها البائس وساقها المشوَّهة أثرًا فاق توقعاته. جمعت في أول يوم ثلاثة آلاف يوان، ولم ينخفض دخلها اليومي طوال الأسبوع عن ألفي يوان. وفي آخر يوم لها، ناولها زوجان أجنبيان، من مجرد نظرة واحدة، أربعمائة دولار أمريكي.

ومع هذا لم تنل من الأخ تيث سوى صندوق طعام فاسد واحد يوميًا. ليس لبخله وحسب، إنما طريقة مقصودة للحفاظ على مظهرها البائس أيضًا، ولم يكن أمام سموثبور سوى مدِّها ببعض الفُتات تحت جنح الظلام.

في إحدى الليالي، عندما جاء سموثبور ليأخذ «سويت بي» من الرصيف حيث تتسوَّل، اقتربت منه وهمست في أذنه:

- أخي.. لم تعد ساقي تؤلمني.

بدت سعيدة بذلك.

باستثناء لحظة وفاة والدته لم يتذكَّر سموثبور أنه بكى في حياته إلا حينها. لم تعُد ساق سويت بي تؤلمها لأنَّ الأعصاب ماتت. اسودَّت ساقها بالكامل، وظلَّت تعاني من حُمَّى مرتفعة ليومين. لم يعُد سموثبور قادرًا على تنفيذ أوامر الأخ تيث، حملها إلى المستشفى. وهناك أخبره الأطباء بفوات الأوان: عانت من تسمُّم

دموي، وفارقت الحياة في وقت متأخر من الليلة التالية، بعدما التهمتها الحمى.

ومنذ تلك اللحظة ودم سموثبور بارد لم يدفأ ثانية، تمامًا كما تنبأ السيد كيه. صار القتل متعة لديه، أشد إدمانًا من أي مخدر. أصبح يعيش ليحطم أواني اليشم الرقيقة المُسماة «بشرًا» ليشاهد السائل الأحمر يندفع منها ويبرد إلى درجة حرارة الغرفة. تلك وحدها الحقيقة، أي دفء في ذلك السائل خداع بصري فحسب.

ودونما قصد حُفرت في ذاكرته صورة مطابقة تمامًا لجرح ساق سويت بي، ثم ظهرت لاحقًا على بطن الأخ تيث الممزَّق، كل بكسل في مكانه نسخة دقيقة من الجرح الأصلي.

***

وقفت النبَّاشة تحمل على كتفها كيسًا مفرط الضخامة، واستدارت ببطء لتغادر. لم يكن وصول سموثبور هو ما دفعها للرحيل. ولا لاحظت ما يحمله في يده، ولا خطر ببالها أنَّ هذا الرجل المهندم قد تكون له أي صلة بها.

حان وقت المغادرة لا أكثر، وفي حين تغوص سفينة الإخوة الأكبر خلف الأفق الغربي، وقف سموثبور بلا حراك على مكبِّ النفايات، يراقب اختفاءها في الشفق الأزرق الباهت.

أعاد مسدسه إلى حزامه. أخرج هاتفه الخلوي واتصل برقم تشو هانيانج:

- أريد لقياك، ثمة شيء يجب أن أسألك عنه.

أجاب تشو هانيانج بهدوء وإيجاز كما لو أنه يتوقع مكالمة سموثبور.

- غدًا في التاسعة، نفس المكان.

***

عندما دخل القاعة الرئاسية اكتشف سموثبور اجتماع اللجنة الدائمة بأكملها، المكوَّنة من ثلاثة عشر شخصًا. «مجلس تصفية الثروة الاجتماعية»، تنصبُّ أنظارهم الصارمة عليه.

قال تشو هانيانج:

- اسأل عمَّ جئت من أجله.

- لماذا تريدون قتل هؤلاء الثلاثة؟

أجاب تشو بجفاء وهو يقطع رأس سيجار فاخر بمقص أنيق:

- تنتهك أخلاقيات مهنتك.

ردَّ سموثبور:

- نعم، وسأدفع الثمن. لكني بحاجة لمعرفة السبب، وإلا فلن أستطيع تنفيذ المهمة.

أشعل تشو السيجار بعود ثقاب طويل وهزَّ رأسه ببطء:

- لا يسعني سوى الاعتقاد بأنك لا تقبل إلا استهداف الأثرياء، ولو كان هذا صحيحًا فأنت لست قاتلًا محترفًا، بل مجرد بلطجي مدفوع بنزعة انتقام طبقي، مختل عقلي قتل واحدًا وأربعين شخصًا خلال ثلاث سنوات، وتطارده الشرطة في هذه اللحظة بشدة. شهرتك على وشك الانهيار.

ردَّ سموثبور بهدوء:

- يمكنك استدعاء الشرطة الآن.

سألت شو شوبينغ:

– هل للمسألة علاقة بتاريخك الشخصي؟

لم يسعه إلا الإعجاب بنفاذ بصيرتها. وكفى صمته كإجابة.

– هل كانت المرأة؟

لم يُجب. خرج الحديث عن مساره كثيرًا.

قال تشو وهو ينفث دخانًا أبيض من رئتيه:

– حسنًا. هذه المهمة بالغة الأهمية، ولا يمكننا العثور على من هو أكثر كفاءة منك في هذا الوقت الضيق. ليس أمامنا خيار سوى قبول شروطك وإخبارك بالأسباب، لكن اعلم أنها ستتجاوز أكثر تصوراتك جنونًا. نحن، النخبة الثرية في هذا المجتمع، نرغب في قتل أفقر أفراده وأضعفهم، وهذا يجعلنا وحوشًا مجنونة حاقدة في نظرك. قبل شرح دوافعنا يجب تصحيح هذا الانطباع أولًا.

قال سموثبور:

– لست مهتمًا بقضايا الخير والشر.

– لكنَّ الحقائق تقول عكس ذلك، تعال معنا من فضلك.

ألقى تشو سيجاره، الذي لم يُدخنه سوى قليلًا، ووقف مغادرًا القاعة.

خرج سموثبور من الفندق بصحبة كامل اللجنة الدائمة لمجلس تصفية الثروة الاجتماعية. يحدث شيء غريب في السماء، والمارة يرفعون رؤوسهم بقلق نحو الأعلى. سفينة الإخوة الأكبر تمر في مدار منخفض. تحت ضوء الشمس الصاعد بدت واضحة بشكل خاص في سماء الصباح المبكر. نثرت السفينة أثرًا من نجوم فضية لامعة خلفها امتد حتى الأفق.

قصر طول السفينة بشكل ملحوظ، وبدت لكتلتها تضاريس كعصا مكسورة، تُطلق نجمًا وراء الآخر. علم سموثبور من الأخبار أنَّ سفينة الإخوة الأكبر العملاقة مؤلفة في الحقيقة من آلاف السفن الصغيرة، ويبدو أنها تتفكك الآن إلى أسطول فضائي.

قال تشو مشيرًا إلى اللجنة:

– انتبهوا! كما ترون تطوَّرت الأوضاع، ولا وقت لدينا لنضيعه. يجب الإسراع في تنفيذ مهمتنا. على كل فريق التوجه فورًا إلى منطقة التصفية المكلف بها ومتابعة عمل الأمس.

ثم صعد هو وشو شوبينغ إلى شاحنة، ودعوا سموثبور ليرافقهما. عندها فقط لاحظ المركبات المتوقفة خارج الفندق. لم تكن ليموزين الأثرياء الفاخرة المعتادة، بل صف من شاحنات إيسوزو.

قالت شو بعدما لاحظت دهشته:

– حتى نتمكن من نقل كميات أكبر.

نظر سموثبور داخل صندوق الشاحنة، فرآها محملة بعناية بحقائب سوداء صغيرة متطابقة الشكل. أنيقة وغالية المظهر، وقدَّر عددها بأكثر من مائة.

ليس ثمة سائق، قاد تشو الشاحنة بنفسه إلى الشارع الرئيسي، ثم انعطف بها إلى شارع تصطف على جانبيه الأشجار، وأبطأ السرعة. لاحظ سموثبور قيادة تشو ببطء جانب أحد المشاة – متشرد. في هذا العصر، لا يرتدي الفقراء الخِرق بالضرورة، غير أنَّ ثمة ما يدل عليهم دومًا. يلف هذا الرجل كيسًا بلاستيكيًا حول خصره، تُصدر محتوياته صوت خشخشة مع كل خطوة.

عرف سموثبور أنَّ سر اختفاء المتشردين والنبَّاشين على وشك الانكشاف، لكنه لم يعتقد أنَّ تشو وشو سيجرؤان على قتل الرجل في وضح النهار. يغريانه، على الأرجح، بركوب الشاحنة ثم يتخلصون منه في مكان آخر. وبالنظر إلى مكانتهما لم يكن من الضروري أبدًا تلطيخ أيديهم بهذا العمل. ربما يعطونه درسًا تمهيديًا فحسب؟

لم يرغب سموثبور في التدخل، كما أنه غير مستعد للمساعدة أيضًا. هذا ليس ضمن عقده.

لم يعِ المتشرد تمامًا إبطاء الشاحنة من أجله حتى نادت عليه شو شوبينغ:

– مرحبًا!

توقف الرجل واستدار لينظر إليها. بدت على وجهه النظرة الخدرة المعتادة لطبقته.

سألته مبتسمة:

– هل لديك مكان تعيش فيه؟

– في الصيف يمكنني النوم في أي مكان.

– وماذا عن الشتاء؟

– فوق فتحات التهوية الساخنة.. وبعض الحمامات العامة فيها تدفئة.

– منذ متى وأنت تعيش هكذا؟

– لا أذكر تمامًا. جئت إلى المدينة بعد ما نفدت تعويضات مصادرة الأرض[1].. ومن ساعتها وأنا أعيش على هذا الحال.

---

(1) الأرض في الصين إما ملكية الدولة (الأراضي الحضرية) أو ملكية تعاونيات

– هل ترغب في منزل بثلاث غرف في المدينة؟ منزل حقيقي؟

حدَّق الرجل بخواء إلى المليارديرة. ولم تبدُ عليه أي بوادر فهم.

سألته شو:

– هل تعرف القراءة؟

أومأ الرجل برأسه. فأشارت إلى لوحة إعلانات ضخمة أمام الشاحنة:

– انظر هناك.

تعرض اللوحة تلًا عشبيًا تنتشر عليه مبانٍ كريمية اللون أشبه بجنة خضراء.

نظر الرجل إلى اللوحة، ثم عاد لينظر إليها دون أن يبدو عليه فهم المغزى:

– هذا إعلان عن سكن تجاري.

– حسنًا، خذ الآن حقيبة من الصندوق الخلفي.

امتثل، وسحب حقيبة ثم عاد بها. أشارت إلى الحقيبة قائلة:

– بداخلها مليون يوان. خُذ نصفها لشراء منزل مثل الذي في الصورة، واستخدم الباقي لتعيش براحة، وإن لم تتمكن من إنفاقه كله فافعل مثلنا وأعطه لمن هو أفقر منك.

تحرَّكت عيناه بسرعة، لكنه لم يقُل شيئًا، وظلَّ ممسكًا الحقيبة بحذر. عرف أنَّ ثمة خدعة.

الفلاحين (الأراضي الزراعية) وبالتالي لديها صلاحيات واسعة للاستحواذ على الأراضي لاستخدامات التنمية مقابل تعويض.

- افتحها وانظر بنفسك.

تحسَّسها بيد قذرة. فتح شقًا صغيرًا من الحقيبة، ثم أغلقها مرة أخرى بسرعة، وتحطَّم قناع اللا مبالاة المتجمِّد على وجهه أخيرًا. بدا كأنه رأى شبحًا.

قال تشو:

- هل تملك بطاقة هوية؟

أومأ الرجل آليًا، يمسك بالحقيبة بعيدًا قدر الإمكان عنه كأنها قنبلة.

- إذن، أودعها في البنك، سيكون ذلك أسهل.

سأل الرجل بتردد:

- وماذا تريدون مني؟

أجابه تشو:

- نريد منك معروفًا بسيطًا فقط: الفضائيون قادمون، إذا سألوك قل لهم إنك تملك هذا المبلغ من المال. هذا فحسب. هل تعدنا؟

أومأ الرجل.

نزلت شو من الشاحنة وانحنت له احترامًا:

- شكرًا لك.

أضاف تشو من داخل الشاحنة:

- شكرًا لك.

وما أدهش سموثبور أكثر من أي شيء هو أنَّ امتنانهم بدا صادقًا.

عندما تحرَّكت الشاحنة ظلَّ الرجل المتشرد واقفًا في مكانه، يحمل الحقيبة بصمت ويحدِّق بها، ولم يتبعهم.

واصلوا القيادة حتى اختفى المليونير الجديد عن مرآة السيارة الخلفية. لم يبتعدوا كثيرًا حتى توقفت الشاحنة عند زاوية شارع. لمح سموثبور ثلاثة من عمال يومية مهاجرين، جاثمين على الرصيف، ينتظرون فرصة عمل. يحمل كل واحد منهم مسطرينًا معدنيًا صغيرًا، وُضعت على الأرض أمامهم لافتة كرتونية مكتوب عليها: «كاشطين».

وما إن توقفت الشاحنة هرع الثلاثة نحوها، يتزاحمون على فرصة العمل:

– لديك عمل لنا يا زعيم؟

هزَّ تشو هانيانج رأسه نافيًا:

– لا. لكن.. كيف حال العمل مؤخرًا؟

أجاب أحدهم:

– لا يوجد عمل. يستخدم الكل الطلاء الحراري الجديد الآن، ما عاد ثمَّة حاجة لكاشطين مثلنا.

– من أين أنتم؟

– من خنان.

أطلق تشو سيلًا من الأسئلة بسرعة:

– من نفس القرية؟ هل هي فقيرة؟ كم عدد العائلات؟

– إنها في أعالي التلال، حوالي خمسين عائلة. كل الناس فقراء. ما عادت تمطر أبدًا. تصدق يا زعيم؟ نروي المزروعات بالمرشَّة يدويًا، نبتة.. نبتة!

– انسوا الزراعة. هل لديكم حسابات بنكية؟

هزَّ الثلاثة رؤوسهم بالنفي.

– إذًا ستأخذونها نقدًا. ثقيلة، لكن مع ذلك سأزعجكم بأخذ اثنتي عشرة حقيبة من مؤخرة الشاحنة.

– اثنتا عشرة؟

مثَّل هذا سؤالهم الوحيد، ثم انطلقوا يحملون الحقائب من صندوق الشاحنة ويكدسونها على الرصيف. دون توقف للتفكير أو التساؤل حول تعليماته، العمل هو العمل.

قال لهم تشو:

– لا بأس.. انقلوا المزيد لو رغبتم.

وسرعان ما أصبح هناك خمس عشرة حقيبة على الأرض. أشار إليها تشو وقال:

– في كل حقيبة مليون يوان، خمسة عشر مليونًا في المجمل. عودوا بها إلى قريتكم ووزعوها على الجميع.

ضحك أحد الرجال كأنَّ تشو أطلق نكتة، ثم انحنى زميل له وفتح إحدى الحقائب. نظر الرجال إلى ما بداخلها، لتزحف على وجوههم نفس ملامح الذهول التي كانت مرتسمة على وجه المتشرد من قبل.

قالت شو شوبينغ:

– الحقائب ثقيلة، استأجروا سيارة تعود بكم إلى خنان. في الواقع لو أنَّ أحدكم يعرف القيادة فليشترِ سيارة. سيكون الأمر أكثر راحة.

حدَّق الكاشطون الثلاثة في الشخصين أمامهم في حيرة تامة، كأنهم لا يعرفون إن كانوا يتعاملون مع ملائكة أم شياطين. وكما لو أنه سؤال مُبرمج، ألقى أحدهم نفس ما طرحه المتشرد من قبل:

– ماذا تريدون منا؟

وكان الجواب هو ذاته:

– نطلب منكم معروفًا بسيطًا فقط: الفضائيون قادمون، إذا سألوكم قولوا لهم إنكم تملكون هذا القدر من المال. هذا كل شيء. هل تعدوننا؟

أومأ الرجال الثلاثة بالموافقة.

– شكرًا لكم.

– شكرًا لكم.

قالها الثريان، ثم انحنيا بامتنان صادق، وغادرا، تاركين الكاشطين الثلاثة مشدوهين أمام رزم المال.

قال تشو وهو لا يزال يحدق في عجلة القيادة:

– لا بد أنك تتساءل إن كانوا سيحتفظون بالمال لأنفسهم. ربما سيفعلون في البداية. لكنهم سرعان ما سيشاركونه مع من هم أكثر حاجة، كما فعلنا نحن.

ظلَّ سموثبور صامتًا. في مواجهة هذا القدر من العبث شعر أنَّ الصمت هو الرد الأنسب. أخبره حدسه أنَّ العالم كما يعرفه على وشك الخضوع لتغيير جوهري.

– أوقف السيارة!

صرخت شو. ثم نادت على طفل صغير متَّسخ ينقِّب في حاوية قمامة عن علب الصفيح وقوارير المشروبات الغازية:

– أيها الصغير، تعال!

أسرع الطفل نحوها، يجرُّ كيسه شبه الممتلئ خلفه كما لو كان كنزًا يخشى فقدانه.

– خُذ حقيبة من مؤخرة الشاحنة.

فعل الطفل ما طُلب منه.

– افتحها.

فتح الحقيبة ونظر بداخلها. بدا مندهشًا، وإن لم يكن في مثل ذهول البالغين الأربعة.

سألته شو:

– ما هذا؟

ردَّ الصبي، رافعًا رأسه ليتطلع إليها:

– مال.

– مليون يوان. خُذها إلى المنزل وأعطها لوالديك.

رمش الطفل بعينيه وهو يحدِّق في الحقائب المكدَّسة في مؤخرة الشاحنة:

– إذن الأمر حقيقي؟

– ماذا تعني؟

– سمعت أنَّ هناك من يوزِّع المال في كل أنحاء المدينة.

كما لو يرمون أوراقًا بالية، فكَّر سموثبور.

واصلت شو:

– لكن عليك أن تعدني بشيء قبل أخذ المال. الفضائيون قادمون، وإذا سألوك يجب إخبارهم أنَّ هذا هو مقدار المال الذي لديك، نفس المال بالضبط، حسنًا؟ هذا كل ما نريده. هل ستفعل؟

– نعم!

قال تشو وهو يدير محرّك الشاحنة:

- إذن خُذ نقودك واذهب إلى بيتك يا فتى. لن يعاني أحد من الفقر بعد اليوم.

قالت شو بوجه عابس:

- ولا غنيٌّ بعد اليوم أيضًا.

ردَّ تشو:

- تماسكي.. الوضع سيئ، نعم. لكن علينا مسؤولية ألا نتركه يزداد سوءًا.

قالت شو:

- هل تعتقد حقًا أنَّ لهذه اللعبة الصغيرة معنى؟

ضغط تشو على المكابح بعنف، فتوقفت الشاحنة فجأة. ولوَّح بيديه فوق عجلة القيادة وهو يصرخ:

- نعم، بالطبع لها معنى! أم تفضّلين عيش حياتك مثل هؤلاء الناس؟ جائعة ومشرَّدة؟

قالت شو:

- أنا لا أريد العيش أصلًا.

فأجابها:

- إحساسك بالواجب هو ما سيُبقيك واقفة. في هذه الأيام المظلمة هو الشيء الوحيد الذي يدفعني للاستمرار. ثروتنا تفرض علينا تكريس أنفسنا لهذه المهمة.

صرخت شو:

- ثروتنا ماذا؟! نحن لم نسرق، لم نُجبر أحدًا، وكل يوان كسبناه بشرف. ثروتنا التي دفعت المجتمع إلى الأمام! على المجتمع أن يشكرنا!

قال تشو وهو يترجَّل من الشاحنة، رافعًا وجهه إلى السماء وزافرًا تنهيدة طويلة:

- حاولي قول هذا للإخوة الأكبر.

ثم التفت إلى سموثبور، الذي تبعه إلى الخارج، وسأله:

- ترى الآن، لسنا قتلة مختلّين عقليًا حاقدين على الفقراء؟ على العكس تمامًا، نوزِّع ثروتنا على أفقر الفقراء كما رأيت للتو. في هذه المدينة وفي غيرها، وفي أكثر المناطق فقرًا في بلادنا، يفعل موظفونا المثل. إنهم يستخدمون كل مورد امتلكه تكتلنا، مليارات الشيكات، وبطاقات الائتمان، والحسابات البنكية، شاحنة نقود تلو الأخرى، للقضاء على الفقر.

حينها لاحظ سموثبور مشهدًا غريبًا في السماء: صف من النجوم الفضية يمتد من أفق إلى آخر. تفكَّكت سفينة الإخوة الأكبر الأم بالكامل، وشكَّلت آلاف السفن الصغيرة هالةً لامعة حول الأرض.

قال تشو:

- الأرض محاصرة. كل واحدة من تلك السفن بحجم حاملة طائرات، وتسليح الواحدة منها كفيلٌ بتدمير الكوكب بأكمله.

قالت شو مقاطعةً:

- دمَّروا أستراليا الليلة الماضية.

سأل سموثبور رافعًا رأسه إلى السماء:

- دمَّروها؟ ماذا تعنين بكلمة (دمَّروها)؟

أجابت شو:

- مسحوا قارة أستراليا بليزر من الفضاء. اخترق المباني والملاجئ، وقضى على كل البشر والثدييات الكبيرة خلال ساعة.

الحشرات والنباتات لم تُمسّ، حتى الخزف في واجهات المحلات لم يُخدش.

رمقها سموثبور بنظرة سريعة، ثم عاود النظر إلى السماء. بدا قادرًا على التعامل مع هذا النوع من الرعب أفضل من معظم الناس.

قال تشو:

- كان استعراضًا للقوة. اختاروا أستراليا لأنها أول دولة رفضت بشكل صريح خطة «المحمية».

مكتبة
t.me/soramnqraa

سأل سموثبور:

- ما هي تلك الخطة؟

أجاب تشو:

- دعني أذهب للبداية. جاء الإخوة الأكبر إلى نظامنا الشمسي كلاجئين بعدما فقدوا القدرة على الحياة في «الأرض الأولى». قالوا: «فقدنا موطننا»، ولم يوضحوا الأسباب. الآن يريدون احتلال أرضنا، «الأرض الرابعة»، وجعلها موطنًا جديدًا لهم. أما نحن سكانها فسنُنقل إلى «محمية بشرية» فيما كان يُعرف سابقًا بأستراليا. كل الأراضي الأخرى ستصبح ملكًا للإخوة الأكبر.. وسيُعلن عن ذلك في نشرة أخبار الليلة.

قال سموثبور:

- أستراليا؟ إنها مجرد صخرة كبيرة في وسط المحيط.

ثم وهو يفكر بصوت عالٍ:

- لكن.. نعم.. في الواقع مناسبة.. الصحراء الأسترالية شاسعة على الأطراف – إذا حشروا خمسة مليارات إنسان على تلك الجزيرة، ستُحل المجاعة في غضون أسبوع.

قال تشو:

الأمر ليس بهذا السوء. لن يكون هناك إنتاج زراعي أو صناعي في المحمية. لن يحتاج الناس للعمل للبقاء على قيد الحياة.

فقال سموثبور:

- وكيف سيعيشون؟

أجاب تشو:

- سيتكفَّل بهم الإخوة الأكبر. سيوفرون كلَّ ما نحتاجه، ويوزِّعونه بالتساوي على الجميع. كل إنسان سيحصل على الكمية ذاتها. في المستقبل ستختفي الفجوة بين الغني والفقير.

سأل سموثبور:

- لكن كيف سيحددون كمية ما يحصل عليه كل فرد؟

ردَّ تشو:

- وصلت إلى لُبِّ المسألة. بحسب خطة المحمية سيُجري الإخوة الأكبر تعدادًا شاملًا للبشر بهدف تحديد الحد الأدنى المطلق لمستوى المعيشة الذي يمكن للبشر تحمُّله. ثم يوزِّعون الموارد بناءً على هذه النتائج.

أطرق سموثبور برأسه متأملًا، ثم ضحك فجأة:

- أعتقد أنني فهمت. على الأقل، بدأت أرى الصورة الكبيرة الآن.

سأله تشو:

- هل أدركت حجم المأزق الذي تواجهه البشرية؟

قال سموثبور:

- في الواقع، خطة الإخوة الأكبر عادلة جدًا بحق البشر.

شهقت شو:

- ماذا؟ تعتقد أنها عادلة؟! أنت..

قاطعها تشو بهدوء:

- هو مُحق، إنها عادلة. إذا اختفى الفارق بين الغني والفقير، ولم يعد هناك فرق بين أدنى وأعلى مستوى معيشة، فستكون المحمية جنة على الأرض.

- ولكن الآن..

فقال تشو:

- الآن، كل ما علينا ببساطة: قبل أن يُجري الإخوة الأكبر تعدادهم، يجب تقليص الفجوة بين الأغنياء والفقراء بسرعة.

سأل سموثبور:

- إذن.. هذا ما تسمونه «تصفية الثروة الاجتماعية»؟

قال تشو:

- بالضبط. في الوقت الحالي ثروة المجتمع متصلِّبة. لها قمم وقيعان، كناطحات السحاب أو جبل فوق سهل، لكن حين تُسيَّل ستصبح كصفحة البحر الملساء.

قال سموثبور:

- لكن ما تفعلونه الآن سيسبِّب الفوضى.

أومأ تشو موافقًا:

- صحيح. ما نفعله الآن ليس سوى بادرة حُسن نيَّة من قبَل أصحاب المال، أما التصريف الحقيقي للثروة فسيبدأ قريبًا بقيادة موحَّدة من الحكومات الوطنية والأمم المتحدة. حملة شاملة للقضاء على الفقر على وشك الانطلاق. ستضخ الدول الغنية رؤوس الأموال في العالم النامي، ويُمطر الأغنياء الفقراء بالنقود – ويُنفَّذ ذلك بكل إخلاص.

ضحك سموثبور بسخرية:

- قد لا يكون الأمر بهذه البساطة.

زمَّت شو شفتيها وقالت بغضب:

- ماذا تعني أيها الوغد؟

مشيرة بإصبعها إلى أنفه، لكنَّ تشو أوقفها فورًا.

قال تشو وهو يميل برأسه نحو سموثبور:

- إنه رجل ذكي، لقد فهم الأمر.

قال سموثبور:

- نعم، فهمت. ثمة فقراء لا يريدون أموالكم.

حدَّقت شو فيه بغضب، ثم خفضت رأسها وصمتت. وأومأ تشو:

- صحيح. هناك من يرفض المال. متخيِّل؟ يبحث في القمامة عن طعام، ويرفض عرضًا بمليون يوان؟ أصبت كبد الحقيقة.

قال سموثبور:

- لكن هؤلاء لا بد أنهم أقلية نادرة.

ردَّ تشو:

- بالطبع، لكن حتى لو كان واحدًا من كل مائة ألف فقير، سيُحتسب كطبقة اجتماعية منفصلة. وبحسب طرق المسح المتقدِّمة لدى الإخوة الأكبر سيجري تحديد مستوى معيشتهم كحدٍّ أدنى ممكن للبشر، وسيُعتمد كمعيار لتوزيع الموارد في المحمية! هل فهمت؟ واحد فقط من كل مائة ألف!

سأله سموثبور:

- وكم نسبتهم الآن؟

أجاب تشو:

- واحد من كل ألف.

صرخت شو باتجاه السماء:

- خونة منحرفون مقززون!

دون رغبة في استخدام المصطلحات المهنية في هذه اللحظة قال:

- لذا استأجرتموني لقتلهم.

أومأ تشو برأسه.

حدَّق فيه سموثبور بتعبير غريب، وألقى برأسه للوراء في ضحكة عالية:

- أنا أقتل لمصلحة البشرية!

قال تشو:

- نعم تفعل. أنت تنقذ الحضارة الإنسانية.

فقال سموثبور مفكرًا:

- في الواقع، ربما يكفي التهديد بالقتل.

اقتربت شو منه وهمست بصوت خافت:

- لكن لا ضمانة لذلك! نحن نتعامل مع مجانين مشوَّهين بالكراهية الطبقية، حتى لو أخذوا المال قد يقسمون أمام الإخوة الأكبر أنهم لا يملكون شيئًا. علينا محوهم من الكوكب بأسرع وقت.

أومأ سموثبور:

- فهمت.

قال تشو:

- ما خطتك الآن؟ شرحنا لك دوافعنا كما طلبت، بالطبع المال سيصبح بلا قيمة قريبًا، وأنت بالتأكيد لا تكترث لمساعدة البشرية.

قال سموثبور وهو ينزل من الشاحنة:

- لم يكن المال يومًا ذا أهمية عندي، ولم أفكر يومًا بمساعدة البشرية.. لكنني سألتزم بالعقد بحلول منتصف هذه الليلة. أرجو تجهيز وسائل التحقق من الإنجاز.

ناداه تشو:

- لديَّ سؤال واحد. ربما غير لائق، ولستَ مضطرًا للإجابة. لو كنت فقيرًا، هل كنت سترفض مالنا؟

ردَّ سموثبور دون أن يلتفت:

- أنا لست فقيرًا.

ثم توقف لحظة، استدار، وحدَّق فيهما بنظرة حادَّة كالصقر:

- لكن لو كنت... نعم، سأرفضه.

ثم مضى في طريقه.

***

سأل سموثبور هدفه الأول:

- لماذا رفضت مالهم؟

رأى الرجل المتشرد آخر مرة في ساحة بلاسوم. يقفان الآن بين أشجار كثيفة في حديقة قريبة، ثمة نوعان من الضوء يتسللان عبر مظلة الأشجار، الأول توهُّج أزرق غريب ينبعث من حلقة سفن الإخوة الأكبر يُلقي بظلال متناثرة على الأرض، الثاني ذاك الوميض المتلألئ للمدينة بألوان شتى كأنها من كاليودوسكوب[1]، يتمايل ويتذبذب أثناء اختراقه الأشجار كأنه مذعور من التوهج الأزرق.

ضحك المتشرد بسفه:

---

(1) كاليودوسكوب: أداة بصرية تُستخدم لإنتاج أنماط هندسية متغيرة من خلال انعكاس الضوء على المرايا الداخلية، مما يخلق تأثيرات لونية متحولة ومتغيرة باستمرار.

- كانوا يتوسلون لي. كل أولئك الأثرياء يتوسلون! حتى إنَّ امرأة منهم بكت! لو أخذت مالهم لما اهتموا لأمري. شعرت براحة لم أعهدها من قبل، أن يتوسل الآخرون إليَّ على سبيل التغيير.

- نعم، راحة كبيرة فعلًا.

قال وهو يضغط زناد «أفطس الأنف».

كان المتشرَّد لصًا طموحًا. رأى بلمحة أنَّ الرجل الذي استدعاه عند الأشجار يُخفي شيئًا ملفوفًا تحت معطفه، واشتعل فضوله لمعرفة ما هو. لمح بريقًا خاطفًا من تحت المعطف يشبه ومضة مخلوق غريب يغمز من الظلام، ثم غرق في ظلمة لا نهائية.

تمَّت المعالجة والتبريد بسرعة شبه فورية. الرصاصة الدوَّارة بسرعة مزَّقت معظم الرأس فوق الحاجب. وخفَّف صوتها طبقات من الملابس، فلم يلاحظها أحد.

***

حين عاد سموثبور إلى مكبِّ النفايات وجد أنَّ هدفه التالي وحده، يبدو أنَّ بقية النباشين حصلوا على ثرواتهم الجديدة وغادروا.

تحت ضوء الحلقة الزرقاء للسفن النجمية تقدَّم بثبات عبر أكوام النفايات الدافئة والمرنة، متوجهًا مباشرة نحو هدفه.

ذكَّر نفسه مائة مرة بأنَّ هذه ليست «سويت بي»، ولا حاجة لإعادة التحذير. برد دمه، ولن تدفئه حفنة من ذكريات المراهقة.

لم تلاحظ فتاة القمامة وصوله حتى عندما أطلق سموثبور النار.

لا حاجة لكتم الصوت هنا. بعدما خلع معطفه دوَّى الصوت بوضوح، وأضاءت ومضة الطلقة القمامة من حوله كبرق صغير.

أتاحت المسافة التي أطلق منها للرصاصة الغناء وهي تدور في الهواء، وعويلها كأنين الأرواح.

وهذه المهمة أيضًا عولجت وبُردت على الفور. في لحظة مزَّقت الرصاصة قلب الوحدة كأنها شفرة منشار دوَّارة. ماتت قبل ملامسة الأرض، وابتلع جسدها مكبُّ النفايات سريعًا، حتى الدم الذي ربما شهد على وجودها امتصَّته النفايات على الفور.

دون تحذير شعر سموثبور بوجود أحد خلفه. استدار على عقبيه ليواجه الفنان الجوال. يتطاير شعر الرجل الطويل في النسيم المسائي كلهيب أزرق تحت ضوء حلقة النجوم.

سأل الفنان:

-هل قتلتها بأمر منهم؟

- أنفِّذ عقدًا فحسب. هل كنت تعرفها؟

- نعم. كانت تأتي أحيانًا لرؤية لوحاتي. لم تعرف القراءة جيدًا، لكنها تفهم اللوحات. تحبها، مثلك تمامًا.

قال سموثبور:

- يقضي العقد بقتلك أنت أيضًا.

أومأ الفنان برأسه في اعتراف هادئ. لم يُظهر أدنى علامة على الخوف:

- توقعت ذلك.

- بدافع الفضول فقط، لماذا رفضت المال؟

- لوحاتي تتحدث عن الفقر والموت. لو أصبحت مليونيرًا بين عشية وضحاها لمات فني.

هزَّ سموثبور رأسه:

- فنُّك سيبقى. أحب لوحاتك حقًا.

ثم رفع مسدسه.

قال الفنان:

- انتظر لحظة. قلت إنك تنفِّذ عقدًا. هل يمكنني إبرام عقد معك؟

أومأ سموثبور:

- بالطبع.

أشار إلى حيث ترقد فتاة القمامة بين النفايات:

- لا يهم موتي، لكنني أريدك أن تنتقم لها.

- دعني أعيد صياغة طلبك بلغة مهنتي: تريد التعاقد معي لمعالجة نفس الوحدات التي تعاقدت معي على معالجتك وهذه الوحدة الأخرى.

أومأ الفنان:

- كذلك تمامًا.

قال سموثبور بجديَّة:

- لا مشكلة.

قال الفنان:

- لا أملك مالًا.

ضحك سموثبور:

- لقد بعتني اللوحة بثمن بخس جدًا. دفعت ثمن هذا العمل مسبقًا.

قال الفنان:

- شكرًا لك.

- على الرحب والسعة. أنفذ عقدًا فحسب.

لفظت فوهة «أفطس الأنف» نيرانه القاتلة مجددًا. اندفعت الرصاصة، تدور وتتمايل في الهواء، وضربت قلب الفنان. تطاير دمه من صدره وظهره وهو يسقط، وانهمرت قطراته على الأرض كأنها مطر أحمر حار.

جاء الصوت من خلف سموثبور:

- لم يكن ثمة داع لذلك.

استدار مجددًا، فرأى رجلًا يقف وسط مكبِّ النفايات. يرتدي سترة جلدية تكاد تطابق سترة سموثبور، ويبدو شابًا لكنه عادي الملامح. ينعكس ضوء الحلقة الزرقاء في عينيه.

خفض سموثبور مسدسه وأبعده عن الهدف الجديد، لكنه ضغط برفق على الزناد، فارتفعت مطرقة أفطس الأنف بهدوء إلى وضع الاستعداد التام جاهزة للإطلاق عند أقل لمسة.

سأله سموثبور:

- هل أنت شرطي؟

هزَّ الغريب رأسه.

قال سموثبور:

- استدعهم إذن.

ظلَّ الرجل واقفًا دون حركة.

- لن أطلق النار على ظهرك. أنا لا أنفِّذ سوى ما هو مذكور في عقدي.

ردَّ الرجل بنبرة متزنة:

- حاليًا لسنا مخوَّلين بالتدخل في شؤون البشر.

نزلت كلماته كالصاعقة على سموثبور. ارتخت قبضته، وعادت مطرقة المسدس إلى مكانها. تأمَّله عن قُرب، وفي ضوء سفن النجوم بدا له إنسانًا عاديًا بكل المقاييس.

قال سموثبور وصوته يرتجف قليلًا:

- إذن... هبطتم بالفعل؟

أجاب الغريب:

- هبطنا منذ وقت طويل.

وقفا فوق مكبٍّ نفايات في مكان ما على الأرض الرابعة، خيَّم عليهما صمت طويل، اثنان من عالمين مختلفين. شعر سموثبور فجأة بضيق في الهواء الدافئ الثقيل، وأراد قول شيء.. أي شيء. دفعه ما مرَّ به في الأيام القليلة الماضية لسؤالٍ:

- لديكم فقراء وأغنياء في عالمكم؟

ابتسم الأرضي الأول وقال:

- بالطبع.. أنا فقير.

وأشار إلى حلقة السفن في السماء:

- وكذلك هم.

- كم عدد الناس هناك؟

- لو تقصد في السفن التي تراها فحوالي نصف مليون، لكننا مجرد الطليعة. في غضون سنوات قليلة ستصل عشرة آلاف سفينة أخرى تحمل مليار شخص.

تساءل سموثبور:

- مليار؟ لا يمكن أن تكونوا جميعًا فقراء، أليس كذلك؟

أكَّد الغريب:

- كلهم حتى آخر واحد.

- وكم عدد سكان الأرض الأولى؟

- مليارا نسمة.

- كيف يمكن أن يكون كل هذا العدد فقيرًا؟

ردَّ الغريب بسؤال:

- وكيف يمكن ألا يكونوا؟

- أظن أنَّ كثرة الفقراء تزعزع استقرار العالم وتصعِّب الأمور على الطبقتين الوسطى والعليا أيضًا.

- في هذه المرحلة من تطور الأرض الرابعة هذا صحيح.

- لكنه لن يظلَّ صحيحًا إلى الأبد؟

أطرق الأرضي الأول برأسه متفكرًا:

- ما رأيك إن رويت لك قصة الأغنياء والفقراء على الأرض الأولى؟

قال سموثبور وهو يُعيد «أفطس الأنف» إلى حزامه تحت الإبط:

- أودُّ سماعها.

بدأ الفضائي كلامه:

- حضارتانا البشريتان متشابهتان على نحو ملحوظ. الطريق الذي تسلكونه اليوم سافرنا فيه قبلكم، ومررنا أيضًا بعصر مماثل لعصركم الحالي، وعلى الرغم من عدم عدالة توزيع الثروة فإن مجتمعنا تمكَّن من الحفاظ على توازن معين. كان عدد السكان من أغنياء وفقراء محدودًا وقابلًا للإدارة، والاعتقاد السائد أنَّ التفاوت الطبقي سيتلاشى مع تقدُّم المجتمع.

تطلَّع الجميع إلى عصر من الازدهار التام والانسجام العظيم، لكن سرعان ما اكتشفنا أنَّ الأمور أعقد بكثير مما تصوَّرنا، وأنَّ ذلك التوازن الذي حققناه على وشك الانهيار.

- وما السبب؟
- التعليم. تعرف أنه وسيلة الارتقاء الاجتماعي الوحيدة في العصر الحالي من الأرض الرابعة. إذا اعتبرنا المجتمع محيطًا يتدرَّج وفق فروق درجة الحرارة والملوحة فإن التعليم هو الأنبوب الذي يصل قاع المحيط بالسطح، ويمنع العزل التام بين طبقاته.
- تقصد أنَّ عددًا متزايدًا من الفقراء لم يعُد قادرًا على تحمُّل تكاليف التعليم الجامعي؟
- نعم. أصبحت كلفة التعليم العالي باهظة بالتدريج، حتى صارت امتيازًا اقتصر على أبناء الطبقة الثرية، لكن التعليم التقليدي كانت له حدود في الأسعار، وإن كانت محكومة بحسابات السوق البدائية، ولهذا أصبح الأنبوب رقيقًا جدًا ولم يختفِ تمامًا. غير أنَّ ظهور تكنولوجيا ثورية جديدة غيَّر التعليم جذريًا.

غامر سموثبور بالتخمين:

- هل تقصد القدرة على نقل المعرفة مباشرة إلى الدماغ؟
- نعم، لكن حقن المعرفة المباشر ليس سوى جزء من الأمر. أمكن زرع دماغ بشري داخل حاسوب فائق السعة يتجاوز قدرة الدماغ ذاته، ويمكن لمن زُرع داخله استدعاء المعلومات المخزَّنة في الحاسوب كأنها ذكريات خاصة به.. لكن هذه لم تكن سوى إحدى الوظائف الثانوية للحاسوب. كان الحاسوب مضخِّمًا للذكاء، مضخِّمًا للفهم، قادرًا على رفع الفكر البشري إلى مستوى جديد كليًا. فجأة أصبحت المعرفة والذكاء وعمق الفكر-بل

وحتى الكمال الذهني والشخصي والذوق- سلعًا تُشترى وتُباع.

علَّق سموثبور:

- لا بد أنَّ ثمنها كان باهظًا.

- باهظ إلى حدٍّ لا يُصدَّق، بحسب مقاييسكم النقدية الحالية يعادل ثمن هذا التعليم الممتاز لشخص واحد شراء شقتين أو ثلاث بمساحة 150 مترًا مربعًا في أرقى أحياء شنغهاي أو بكين.

- ومع هذا لا بد أنَّ قلة من الناس قدروا على تحمُّل التكلفة.

أقرَّ الأرضي الأول:

- نعم... لكنهم شريحة ضئيلة للغاية من الطبقة العليا. انقطع الأنبوب الواصل من قاع المجتمع إلى قمته تمامًا. أولئك الذين تلقَّوا هذا النوع من التعليم الفائق صاروا أذكى بكثير من بقية البشر. الفجوة الإدراكية بينهم وبين بقية الناس كانت شاسعة، كما بين الإنسان والكلب، وظهرت آثارها في كل مناحي الحياة، حتى في الحس الفني، على سبيل المثال كوَّن هؤلاء العباقرة الجدد ثقافة خاصة بهم، ثقافة لا يمكن لغيرهم فهمها كما لا يستطيع الكلب فهم السيمفونية.

يتقنون مئات اللغات، ويستخدمون اللغة المناسبة بحسب مقتضى الذوق واللباقة في كل موقف. من منظورهم بدا الحديث مع الأشخاص العاديين متعاليًا، كما لو كانوا يداعبون جراء صغيرة. وهكذا، وبشكل طبيعي تمامًا، حدث شيء ما. أنت ذكي، ينبغي أن تكون قادرًا على التخمين.

تردَّد سموثبور:

- لم يعُد الأغنياء والفقراء نفس... لم يعودوا من نفس... نفس...

- لم يعُد الأغنياء والفقراء من نفس النوع. أصبح الأغنياء يختلفون عن الفقراء كما يختلف الفقراء عن الكلاب. لم يعد الفقراء يُعتبرون بشرًا.

شهق سموثبور:

- لا بد أنَّ ذلك غيَّر كل شيء.
- غيَّر أشياء كثيرة. أولًا، العوامل التي ذكرتها والتي حفظت توازن توزيع الثروة وحدَّت من عدد الفقراء لم تعُد قائمة، حتى وإن فاق عدد الكلاب عدد البشر فلن تستطيع زعزعة أسس المجتمع البشري. يمثل وجودهم في أسوأ الأحوال مصدر إزعاج لا تهديد.

عبس الفضائي وتابع:

- صحيح أنَّ قتل كلب قد يُعاقب عليه القانون، لكنه ليس كقتل إنسان. وعندما يهدد داء الكلب صحة الإنسان وسلامته يُعتبر قتل جميع الكلاب أمرًا مشروعًا.

قام تعاطف البشر مع الفقراء على سمة مشتركة: الإنسانية. وعندما فقد الفقراء تلك السمة، وتلاشت جميع أوجه التشابه بينهم وبين الأغنياء، تلاشى التعاطف أيضًا. تلك طفرة البشرية الثانية. عندما انفصلنا أول مرة عن القردة كان ذلك بفضل الانتخاب الطبيعي، أما انفصالنا عن الفقراء فبدافع قانون مقدَّس بنفس القدر: حُرمة الملكية الخاصة.

- الملكية مقدَّسة في عالمنا أيضًا.
- في الأرض الأولى كانت تُصان بواسطة شيء يُعرف بـ«الآلة الاجتماعية». نظام ضخم لإنفاذ القانون، وُجدت وحدات

تنفيذها في كل زاوية من الكوكب. بعضها كان بحجم البعوض، لكنه قادر على قتل المئات بضربة واحدة. لم تُحكم بقوانين أزيموف[1] الثلاثة مثلكم، بل بمبدأ الدستور الأول للأرض الأولى: الملكية الخاصة لا تُمس.

لكن سيكون من غير الدقيق القول إنها جلبت الاستبداد؛ طبَّقت القانون بصرامة مطلقة، دون تحيُّز لصالح الأغنياء. تحمي بنفس الروح ملكية فقير بائس إذا ما تعرَّضت للخطر، وفقًا للدستور.

تحت حماية الآلة الاجتماعية تدفقت ثروات الأرض الأولى بلا توقف إلى جيوب أقلية نخبوية، وزاد الطين بلة أنَّ التقدم التكنولوجي جعل الطبقة المالكة غير محتاجة إلى الطبقة المعدمة. في عالمكم ما زال الأغنياء بحاجة إلى الفقراء لأن المصانع لا تزال بحاجة إلى العمال، أما على الأرض الأولى فلم تعُد الآلات بحاجة إلى تشغيل بشري، وبإمكان الروبوتات عالية الكفاءة إنجاز أي عمل. لم يعُد بوسع الفقراء حتى بيع قوة عملهم، فغرقوا في فقر مطلق. هذا غيَّر الواقع الاقتصادي للأرض الأولى، وسرَّع بشكل مذهل عملية تركُّز الثروة في أيدي عدد قليل للغاية من الناس.

---

(1) آيزك أزيموف (Isaac Asimov) كاتب أمريكي غزير الإنتاج، واحدًا من عمالقة الخيال العلمي في القرن العشرين. يُعرف بتأثيره الهائل على هذا النوع الأدبي، لعل أشهر إسهاماته هي قوانين الروبوتات الثلاثة التي صاغها في قصصه، والتي أصبحت أساسًا لأي مناقشة عن أخلاقيات الروبوتات والذكاء الاصطناعي حتى يومنا هذا. هذه القوانين هي: يجب ألا يؤذي الروبوت إنسانًا، أو يسمح، بتقاعسه، بأن يصاب إنسان بأذى/ يجب أن يطيع الروبوت الأوامر التي يصدرها البشر، إلا إذا تعارضت هذه الأوامر مع القانون الأول: .يجب أن يحمي الروبوت وجوده الخاص، ما دام ذلك لا يتعارض مع القانونين الأول والثاني.

من الصعب شرح الآلية المعقدة للغاية لتركُّز الثروة، لكنها تشبه، في جوهرها، حركة رأس المال في عالمكم. في زمن جدي الأكبر كان عشرة ملايين شخص يملكون 60% من ثروات الأرض الأولى. في زمن جدي أصبح 80% من الثروة في يد عشرة آلاف شخص. في زمن والدي امتلك 42 شخصًا 90% من الثروة، وعندما وُلدت أنا بلغت الرأسمالية على الأرض الأولى ذروتها، وحقَّقت معجزة لا تُصدَّق: امتلك شخص واحد فقط 99% من ثروات الكوكب! وأُطلق عليه لقب آخر رأسمالي.

بينما استمرت فروق المعيشة بين المليارين الآخرين قائمة فإنهم لم يملكوا سوى 1% من الثروة مجتمعة، بمعنى أنَّ الأرض الأولى أصبحت عالمًا فيه شخص غني واحد وملياران من الفقراء. كل ذلك حدث بينما استمرت حُرمة الملكية الخاصة بالدستور، والآلة الاجتماعية تؤدي واجبها بحماية ممتلكات ذلك الشخص الوحيد بإخلاص.

رفع الفضائي صوته وتابع:

- هل ترغب في معرفة ما يملكه آخر رأسمالي؟ يملك الأرض الأولى! كل قارة ومحيط على الكوكب، غرف جلوس وحدائق شخصية له، حتى الغلاف الجوي ضمن ممتلكاته الخاصة.

عاش بقية المليارين في مساكن مغلقة بالكامل، وحدات دعم حياة صغيرة ومكتفية ذاتيًا، معزولين في عوالمهم الضيقة، يعتمدون على مواردهم الضئيلة من الماء والهواء والتربة وغيرها. المورد الوحيد الذي لم يكن ملكًا لآخر رأسمالي، وبوسعهم الحصول عليه قانونيًا، هو ضوء الشمس.

وقع منزلي قُرب نهر صغير يحدُّه العشب الأخضر. تمتد المروج إلى ضفاف النهر وما بعده لتجتاح التلال الزمردية في الأفق. من الداخل نسمع زقزقة العصافير وقفزات الأسماك، ونرى قطعان الغزلان ترعى على مهل، لكن منظر العشب المتموِّج تحت النسيم أكثر ما سحرني.

لكن لا شيء من ذلك ملك لنا. معزول أنا وعائلتي تمامًا عن العالم الخارجي، نراقب فقط عبر نوافذ محكمة الإغلاق لا يمكن فتحها أبدًا. للخروج علينا المرور من غرفة عزل، كما لو كنا نغادر مركبة فضائية إلى الفضاء الخارجي.

في الحقيقة منزلنا أقرب ما يكون إلى مركبة فضائية، الفرق أنَّ البيئة العدائية في الداخل! لا نتنفس إلا الهواء الفاسد الذي توفره أنظمة الحياة، ولا نشرب إلا ماءً أعيد تدويره ملايين المرات، ولا نأكل إلا طعامًا مصنوعًا من فضلاتنا المعاد تدويرها، وخلف جدار واحد فحسب ثمَّة عالم طبيعي فسيح وخصب. وعندما نخرج، نرتدي بدلات روَّاد فضاء، ونحمل طعامنا وماءنا معنا. حتى الهواء كنا نحضره معنا، لأنه لم يكن ملكًا لنا، بل لآخر رأسمالي.

طبعًا سمحنا لأنفسنا ببعض الترف من حين إلى آخر. في حفلات الزفاف أو العطلات كنا نخرج من وحداتنا المغلقة ونتنعَّم بالطبيعة. يُسكرنا أول نفَس من الهواء الطبيعي، حلو على نحو رهيف، حلاوة تكاد تدفعك للبكاء، لكنه ليس مجانيًا. نبتلع كبسولات تحتوي على مقاييس هواء قبل الخروج، تقيس بدقة كمية الهواء الذي نستنشقه. مع كل نفس يُخصم من رصيدنا البنكي.

رفاهية لا يقدر أغلب الفقراء على تحمُّلها سوى مرة أو مرتين في السنة. لم نجرؤ أبدًا على بذل أي مجهود بدني ونحن في الخارج. نجلس في الغالب ونتحكم في تنفسنا. وعند عودتنا نحرص على كشط الأتربة عن نعال أحذيتنا لأنَّ التربة ليست ملكنا.

توقف الأرضي الأول للحظة:

- سأخبرك قصة موت أمي..

وتابع ببطء:

- لتوفير النفقات امتنعت عن الخروج من المنزل لثلاث سنوات، ولا حتى في العطلات. ليلة وقوع الحادث تسلَّلت وهي نائمة عبر أبواب غرفة العزل. لا بد أنها كانت تحلم بالطبيعة.

ابتعدت كثيرًا، حين عثر عليها أحد رجال الإنفاذ اكتشف عدم ابتلاعها مقياس الهواء، فسحبها إلى المنزل مقيدًا عنقها بمخلب معدني. ليس بنيَّة خنقها. كل ما فعله –بمنعها من التنفّس– لحماية ملكية مواطن آخر الخاصة التي لا تُنتهك: الهواء.

وصلت البيت ميتة. ألقى الجندي بجثتها وأبلغنا بارتكابها جريمة سرقة. فُرضت علينا غرامة، ولم نستطع دفعها، فصودرت جثة والدتي بدلًا من المبلغ.

ينبغي أن تعلم أنَّ الجثة شيء ثمين لعائلة فقيرة، سبعون بالمائة من وزنها ماء، إضافة إلى بعض الموارد الأخرى، لكن قيمة جثة والدتي لم تكفِ لتغطية الغرامة، لذا اقتطعت الآلة الاجتماعية كمية من الهواء تعادل باقي الدين.

مخزون الهواء في نظام دعم الحياة الخاص بعائلتي منخفض بالفعل إلى حدٍّ خطير، لأننا لا نملك ما يكفي من المال لإعادة تعبئته، واقتطاع المزيد من الأكسجين هدَّد وجودنا ذاته.

ولتعويض الأكسجين المفقود اضطر نظام دعم الحياة إلى فصل بعض موارده المائية عبر التحليل الكهربائي[1]، ولسوء الحظ تسبَّبت هذه العملية في تدهور حاد للنظام بأكمله.

أطلق الحاسوب المركزي إنذارًا: إن لم نُضِف خمسة عشر لترًا من الماء خلال ثلاثين ساعة فسيحدث انهيار شامل. ملأ وهج التحذير القرمزي أرجاء المنزل كافة.

فكَّرنا في سرقة الماء من النهر القريب، لكننا سرعان ما تخلينا عن الفكرة. لن نصل إلى المنزل أحياء إن حاولنا ذلك، فجنود الإنفاذ حاضرون في كل مكان.

فكَّر والدي قليلًا، ثم قال لي ألا أقلق، وأن أذهب إلى النوم. على الرغم من خوفي الشديد فإنَّ نقص الأكسجين تسلَّل إليَّ، وغفوت. مكتبة سُر مَن قرأ

لا أعلم كم مضى من الوقت حتى أيقظني روبوت. دخل عبر مركبة تحويل الموارد المتصلة بمنزلنا. أشار إلى دلو من الماء شديد الصفاء وقال لي: «هذا هو والدك».

مركبات تحويل الموارد منشآت متنقلة تقوم بتحويل الأجساد البشرية إلى موارد قابلة للاستخدام في أنظمة دعم الحياة المنزلية. استخدم والدي الخدمة لتُستخرج من جسده آخر قطرة ماء، بينما ينساب النهر الجميل على بعد أقل من مائة متر من منزلنا تحت ضوء القمر.

---

(1) النظام، بسبب النقص الحاد في الأكسجين، لجأ إلى الماء كمصدر أخير لإنتاج الأكسجين الحيوي. استخدم النظام الكهرباء (التحليل الكهربائي) لكسر جزيئات الماء (H_2O) وتحرير غاز الأكسجين (O_2) الذي يمكنهم تنفسه.

استخرجت المركبة أيضًا بعض المواد الأخرى المفيدة من جسده لنظامنا: وعاء شحم، قنينة أقراص كالسيوم، وحتى قطعة حديد بحجم عملة معدنية..

توقف الفضائي مرة أخرى ليجمع شتات نفسه، وتابع:

- أنقذت مياه والدي نظام دعمْ حياتنا، وبقيتُ على قيد الحياة. كبرت يومًا بعد يوم، ومضت خمسة أعوام. وفي إحدى أمسيات الخريف، وحين كنت أنظر من خلال الكوَّة إلى العالم الخارجي، رأيت فجأة شخصًا يركض على ضفة النهر. ذُهلت من هذا الباذخ الذي جرؤ على التنفس في الخارج بهذا الشكل؟! نظرت عن كثب، وتبيَّن لي أنه هو ذاته: الرأسمالي الأخير!

تهادى حتى صار يتنزه، ثم جلس على صخرة عند حافة النهر، وغمس قدمه العارية في الماء. بدا كرجل في منتصف العمر، لكنه في الحقيقة تجاوز الألفي عام.

ضمنت الهندسة الوراثية له حياة تمتد لألفي عام إضافية على الأقل، وربما إلى الأبد، لكنه بدا لي شخصًا عاديًا تمامًا.

بعد عامين تعطَّل نظام دعم الحياة لدينا مرة أخرى. الأنظمة البيئية الصغيرة كتلك محكومة بأعمار افتراضية محدودة. انهار النظام بالكامل في النهاية، ومع تناقص محتوى الأكسجين في الجو ابتلعتُ مقياس هواء وخرجت من الباب قبل الدخول في غيبوبة نقص الأكسجين.

كما فعل كل من انهار نظامه استسلمت لمصيري بهدوء: سأتنفَّس آخر ما تبقَّى من مدَّخراتي الضئيلة، ثم أختنق أو يُطلَق

عليَّ النار من قِبل جندي إنفاذ. لكنني وجدت كثير من الناس في الخارج. انهارت أنظمة دعم الحياة المنزلية على نطاق واسع.

ثمة جندي إنفاذ عملاق يحوم فوقنا، وأطلق إنذارًا أخيرًا عبر مكبراته:

أيها المواطنون، دخلتم ممتلكات الغير. هذا تعدٍّ على الملكية. الرجاء المغادرة فورًا! وإلا..

المغادرة؟ إلى أين؟ لم يبقَ في منازلنا أي هواء للتنفس. ركضنا معًا على العشب الأخضر بجانب النهر، وتركنا النسيم العليل يلفح وجوهنا الشاحبة.. وكأننا نحاول الموت بمهابة.

لا أعلم كم ركضنا، قبل إدراكنا فجأة أننا استنفدنا مدخرات الهواء، ومع ذلك، لم يتصرف رجال الإنفاذ.

حينها، دوَّى صوت آخر رأسمالي من داخل جندي الإنفاذ الطائر:

«مرحبًا بكم جميعًا في منزلي المتواضع!

يسرني استضافة هذا العدد من الزوار، وآمل أنكم استمتعتم بحديقتي. لكن، أستميحكم عذرًا، عددكم كبير للغاية.

اعتبارًا من هذه اللحظة، غادر ما يقرب من مليار شخص حول العالم منازلهم، ودخلوا إلى ممتلكاتي. ومليار آخرون في الطريق. انتهكتم الممتلكات الخاصة، وحقوق السكن والخصوصية لرفيقكم المواطن.

الآلة الاجتماعية مخوَّلة قانونًا باتخاذ الإجراءات اللازمة لإنهاء حياتكم، ولو لم أثنها عن ذلك لتبخرتم جميعًا بأشعة ليزر

المنفذين منذ زمن. بيد أنني تدخَّلت، على أي حال، كرجل نبيل، تلقَّى أفضل تعليم ممكن، وأعامل ضيوفي – حتى المتسللين منهم غير الشرعيين– بلطف واحترام.

لكن، تخيَّلوا الوضع من منظوري. اثنان مليار ضيف عدد مبالغ فيه حتى لأكثر المضيفين كرمًا، وأنا أحب العزلة والهدوء. لذا، أرجو منكم المغادرة.

أعلم أنه لا يوجد مكان تذهبون إليه على الأرض، غير أنني أخذت على عاتقي إعداد أسطول من عشرين ألف سفينة فضاء لكم. كل مركبة بحجم مدينة متوسطة، يمكنها السفر بسرعة واحد بالمائة من سرعة الضوء.

ليست مجهزة بأنظمة دعم حياة مكتملة، إلا أنَّ هناك ما يكفي من غرف التجميد على متنها لاستيعاب ملياري شخص منكم لمدة خمسين ألف عام. هذا هو الكوكب الوحيد في نظامنا الشمسي، لذا سيتعين عليكم البحث عن وطن جديد بين النجوم. أنا على يقين أنكم ستجدون مثل هذا المكان. في هذا الكون الشاسع، هل من الضروري أن تتزاحموا جميعًا في كوخي الصغير؟

ليس لديكم سبب للضغينة. حصلت على منزلي بطرق شرعية تمامًا. بدأت كمدير صغير في شركة لمنتجات العناية النسائية، واعتمدت طوال حياتي على حنكتي التجارية فقط.. أنا مواطن ملتزم بالقانون، حمتني الآلة الاجتماعية وستواصل حمايتي وممتلكاتي الشرعية. غير أنها لن تتسامح مع خطئكم، لذلك أنصح الجميع بالمغادرة في أسرع وقت ممكن.

احترامًا لأصلنا التطوري المشترك، سأذكركم، وآمل أن تذكروني. اعتنوا بأنفسكم».

أنهى الأرضي الأول قصته قائلًا:

- وهكذا وصلنا إلى الأرض الرابعة.. استغرقت رحلتنا ثلاثين ألف عام. فقدنا ما يقرب من نصف أسطولنا ونحن ننتقل بين النجوم. بعض السفن اختفت في غبار الفضاء، وابتلعت الثقوب السوداء بعضها.

لكن عشرة آلاف سفينة نجت، وبلغ عدد من وصلوا إلى هذا العالم مليار شخص. هذه قصة الأرض الأولى.. قصة مليارَي فقير، وغني واحد.

سأله سموثبور بعد انتهاء السرد:

- لو لم تتدخلوا هل كان عالَمُنا ليعيد تكرار هذه القصة؟

ردَّ الأرضي الأول:

- لا أعلم... ربما، وربما لا. مسار الحضارات مثل مصير الأفراد، متقلِّب ولا يمكن التنبؤ به...

توقف، ثم قال:

- عليَّ الذهاب الآن. أنا مجرد موظف إحصاء عادي، ويجب أن أعمل لأعيش.

قال سموثبور:

- وأنا أيضًا لديَّ أمور عليَّ إنجازها.

- وداعًا، يا أخي الصغير.

- وداعًا، أيها الأخ الكبير.

وفي ضوء حلقة النجوم، افترق رجلان من عالمين مختلفين، في اتجاهين مختلفين.

***

عندما دخل سموثبور القاعة الرئاسية استدار الأعضاء الثلاثة عشر في اللجنة الدائمة لمجلس تصفية الثروة الاجتماعية نحوه.

قال تشو هانيانج أولًا:

- تحققنا من عملك، أتممتَ المهمة على أكمل وجه. حُوِّلت الدفعة الثانية من أجرك إلى حسابك، رغم أنها لن تفيدك كثيرًا بعد الآن..

ثم أضاف:

- ثمة أمر آخر لا بد أنك تعرفه: موظفو إحصاء الإخوة الأكبر هبطوا على الأرض. عملنا لم يعد له معنى الآن، وليس لدينا مهمة أخرى نكلفك بها.

ردَّ سموثبور:

- في الواقع قبلتُ مهمة جديدة.

وهو يتكلم، أخرج مسدسه بيد، ومد الأخرى بقبضة مشدودة..

بانغ.. بانغ.. بانغ.. بانغ.. بانغ.. بانغ.. بانغ، سبع رصاصات تلمع على الطاولة أمامه. وباحتساب الست الطلقات الموجودة في «أفطس الأنف» صار المجموع ثلاث عشرة.

تلوَّت الوجوه الثلاثة عشر، المرهقة بثقل ثروتها الهائلة، في لحظة واحدة تحت وقع الصدمة والرعب. ثم، حلَّ عليهم هدوء غريب. ربما شعروا بالراحة.

في الخارج شقَّت زخَّات من النيازك العملاقة السماء. اخترق نورها الستائر الثقيلة وتجاوز بريق الثريا الكريستال، وارتجَّت الأرض بعنف. دخلت سفن الأرض الأولى الغلاف الجوي.

قالت شو شوبينغ لسموثبور:

- هل تناولت العشاء؟

أشارت نحو كومة من المعكرونة سريعة التحضير على الطاولة:

- دعنا نأكل أولًا.

وضعوا وعاءً فضيًا كبيرًا فوق ثلاث منفضات كريستال، وأضافوا إليه الماء.

ثم أشعلوا النار تحته بورقة نقدية فئة مائة يوان. يضيف كل واحد منهم المزيد من الأوراق إلى النار بالتناوب، ويحدِّقان بلا مبالاة في اللهب الأصفر والأخضر المتراقص مثل مخلوق صغير مبتهج.

وبعدما التهمت النار 1.35 مليون يوان، بدأ الماء بالغليان.

اللعنة 5.0

وُلدت اللعنة 1.0 في 8 ديسمبر 2009. في السنة الثانية من الأزمة المالية. حيث افتُرض انتهاء الأزمة سريعًا؛ لم يتوقع أحد أنها بالكاد بدأت. غاص المجتمع في القلق، واحتاج الجميع إلى التنفيس عن توترهم، فصبُّوا طاقاتهم في ابتكار وسائل جديدة. لعلَّ اللعنة كانت نتاجًا لهذا المزاج السائد.

مؤلفة اللعنة شابة يتراوح عمرها بين الثامنة عشرة والثامنة والعشرين. هذا كل ما استطاع علماء آثار تكنولوجيا المعلومات كشفه لاحقًا عنها.

أما الهدف من اللعنة فشاب يبلغ العشرين من عمره. تفاصيله الشخصية موثَّقة بدقة. اسمه «سا بي»[1]، طالب في السنة الرابعة بجامعة تاي يوان[2] للتكنولوجيا. لا شيء استثنائي حدث بينه وبين الشابة، الدراما الشائعة بين الفتيان والفتيات في مثل هذا

(1) اسم الشاب مشؤوم للغاية، «سا بي» يشبه لفظًا كلمةً صينية تعني «الأبله الأحمق».

(2) تاي يوان: عاصمة وأكبر مدن مقاطعة شانشي في شمال الصين، وهي مركز صناعي رئيسي ومدينة تاريخية يمتد تاريخها لأكثر من 2500 عام. تتمتع بتاريخ غني كعاصمة لسلالات عديدة وتضم العديد من المواقع التاريخية والثقافية.

العمر فحسب. ظهرت لاحقًا آلاف الروايات عن قصتهما، ولعلَّ إحداها صحيحة، لكن لا أحد يعرف ما حدث فعليًا بينهما. في كل الأحوال، بعدما انتهت علاقتهما لم تشعر الشابة نحوه إلا بالكراهية المريرة، فكتبت اللعنة 1.0.

الشابة مبرمجة بارعة، لا يُعرف أين أو كيف تعلمت مهاراتها. في تلك الأيام وذاك العصر، وعلى الرغم من التزايد الهائل في ممارسي تكنولوجيا المعلومات، فإنَّ عدد المتقنين لبرمجة الأنظمة منخفضة المستوى لم يزد. أُتيحت أدوات متنوعة للغاية، وأضحت البرمجة مريحة، إلى حدٍّ جعل الغوص في سطور الشفرة سطرًا بسطر، مثل حمَّال بائس، أمرًا لا ضرورة له، إذ يمكن توليد معظمها عبر أدوات جاهزة.

حتى الفيروس، مثل ذلك الذي توشك الشابة على كتابته، لم يعد يتطلب العديد من أدوات الاختراق سوى تجميع بعض الوحدات الجاهزة، أو ببساطة أكثر تعديل وحدة واحدة فحسب. الفيروس الكبير السابق على اللعنة، المعروف بـ«مبخرة الباندا»[1]، أُنشئ بهذه الطريقة.

لكنَّ الشابة اختارت البدء من الصفر، دون أي مساعدة من أدوات متاحة، تكتب الكود سطرًا تلو الآخر، كفلاحة نشيطة تنسج خيوط القطن قماشًا على نول بدائي.

تصوُّرها منحنيةً أمام شاشة الحاسوب، تطحن أسنانها وتطرق

(1) فيروس كمبيوتر حقيقي ومشهور جدًا، خاصة في الصين. ظهر في عام 2006 وتسبَّب في أضرار واسعة النطاق. يغير رمز الأيقونة إلى صورة باندا تحمل ثلاثة أعواد بخور، وهو رمز تقليدي للصلاة في الصين.

المفاتيح بعنف، يُذكِّر ببيتين من قصيدة هاينريش هاينه[1] «نسَّاجو سيليزيا»:

«ألمانيا العجوز، ننسج كفنك،

وفيه نخيط لعنتنا الثلاثية – نخيط... نخيط».

اللعنة 1.0 أوسع فيروس انتشارًا في التاريخ. ويُعزى نجاح اللعنة إلى عاملين رئيسيين:

أولًا، لم تُلحِق ضررًا فعليًا بالحواسيب المصابة. في الواقع، تفتقر معظم الفيروسات لنية الإيذاء، يحدث الضرر غالبًا نتيجة آليات النشر والتنفيذ الرديئة. صُمِّمت اللعنة بإتقان لتفادي مثل هذه الآثار الجانبية. سلوكها محسوب بدقة، ولم يظهر على معظم الأجهزة المصابة أي أعراض. فقط في مزيج من ظروف معينة للنظام– جهاز واحد من كل عشرة أجهزة – تُفعَّل. وحتى حين تُفعَّل، يحدث لمرة واحدة فقط على كل جهاز. وعندها، تُعرض رسالة على الشاشة.

« >مُتْ يا سا بي!!!!!!!!!!»

وإذا نقر المستخدم على نافذة الإشعار تظهر معلومات إضافية عن «سا بي»، تُخبره بأن الملعون طالب في جامعة تاي يوان للتكنولوجيا، بمقاطعة شانشي في الصين، مسجل في قسم xx، وتخصص xx، وصفُّه الدراسي xx، وسكنه الجامعي xx، غرفة xx. زُرع الفيروس في البرنامج الثابت للجهاز (firmware)، لذا فإن

(1) شاعر وناقد وصحفي ألماني شهير (1797–1856). أحد أهم شعراء الرومانسية الألمانية.

إعادة تثبيت نظام التشغيل لن تُجدي نفعًا.

ثانيًا، مثَّلت قدرة اللعنة 1.0 على محاكاة أنظمة التشغيل العامل الآخر وراء نجاحها. لم تبتكر الفتاة هذه الميزة، لكنها برعت في استخدامها. تعني تقنية محاكاة النظام تعديل أجزاء كثيرة من شفرة الفيروس لتتشابه مع شفرة النظام المُضيف، واعتماد سلوكيات مشابهة لعمليات النظام الطبيعية. وحين تحاول برامج الحماية إزالة الفيروس تخاطر بإتلاف النظام نفسه، وفي النهاية تستسلم كما تتراجع ربة منزل عن رمي شبشبها على فأر يقف بجوار أطقم الخزف الثمينة.

في الواقع حاولت شركات تطوير برامج مكافحة البرامج الضارة مثل رايزينج[1] ونورتون[2] التصدي لـ«اللعنة 1.0»، لكن سرعان ما اكتشفت أنَّ المشكلات التي ورَّطتها فيها الملاحقة أسوأ مما حدث في عام 2007 حين حذفت «نورتون» ملفات نظام ويندوز XP عن طريق الخطأ[3]. هذا بالإضافة إلى أنَّ الفيروس لم

---

(1) Rising Antivirus رايزينج: هي شركة صينية متخصصة في تطوير برامج مكافحة الفيروسات وحلول أمن الكمبيوتر. لها مكانة قوية في السوق الآسيوي، خاصة في الصين.

(2) نورتون: علامة تجارية عالمية رائدة في مجال الأمن السيبراني، تابعة لشركة Gen Digital Inc. ويقع مقرها الرئيسي في ماونتن فيو، كاليفورنيا، بالولايات المتحدة الأمريكية.

(3) يناير 2007، أصدر برنامج Norton AntiVirus (خاصة الإصدار 2007 وبعض الإصدارات الأخرى) تحديثًا لملفات تعريف الفيروسات (virus definitions) يحتوي على خطأ جسيم. هذا الخطأ أدى إلى أن البرنامج صنَّف عن طريق الخطأ العديد من الملفات النظامية الحيوية لنظام التشغيل Windows XP على أنها فيروسات أو برامج ضارة. كانت ضربة كبيرة لسمعة نورتون وثقة

يسبِّب ضررًا حقيقيًا ولم يستهلك موارد النظام، ما دفع المطوِّرين إلى شطب اسمه من قواعد بيانات الفيروسات.

يوم مولد اللعنة زار كاتب الخيال العلمي الصيني ليو تسي شين[1] مدينة تاي يوان في عمله للمرة الـ264. ومع أنها المدينة التي يكرهها أكثر من أي مكان آخر، فقد حرص دائمًا على زيارة متجر صغير في حي الدعارة ليشتري زجاجة وقود لولاعته الزيبو[2] العتيقة، أحد أشياء قليلة لا تُباع على تاوباو أو إيباي.

تساقط الثلج قبل يومين، وكعادته تحوَّل سريعًا إلى قشرة جليدية سوداء. انزلق ليو وسقط على مؤخرته. وعندما وصل إلى محطة القطار، أنساه وجع مؤخرته نقل زجاجة الوقود من حقيبته إلى جيبه، فضُبطت في التفتيش الأمني، وصودرت[3]، وفُرض عليه غرامة قدرها 200 يوان.

مقت هذه المدينة.

***

عاشت «اللعنة 1.0» خمس سنوات، ثم عشرًا، تتكاثر بصمت داخل عالم افتراضي لا يكف عن التمدُّد.

المستخدمين في برامج مكافحة الفيروسات بشكل عام.

(1) ليو تسي شين: مؤلف الكتاب، يُعد أحد أبرز وأشهر كتاب الخيال العلمي في العالم حاليًا، والأكثر شهرة في الصين.

(2) ماركة ولاعات أمريكية شهيرة تستخدم وقودًا سائلاً (بنزين خاص بالولاعات) ساهم ارتباطها بالجيش الأمريكي والجنود في ترسيخ مكانتها كرمز للمتانة والاعتمادية والوطنية الأمريكية. كما أنها مقتنيات لهواة الجمع.

(3) سائل قابل للاشتعال مثل البنزين أو الكيروسين الخاص بولاعة Zippo يُصنّف كمادة خطرة ومحظور حملها في وسائل النقل العامة في الصين.

في هذه الأثناء انتهت الأزمة المالية، وعاد الرخاء. ومع نضوب احتياطيات النفط العالمية تدريجيًا، عادت للفحم مكانته في موازين الطاقة العالمية. وبدأت أموال الذهب الأسود المدفون تتدفق على مقاطعة شانشي، لتحوّلها من مقاطعة فقيرة إلى خليج عربي في شرق آسيا. وصارت تاي يوان، عاصمة المقاطعة، دبي الجديدة.

تطبَّعت المدينة بنزعة رئيس عمال منجم فحم مهووس بالخوف من الفقر مرَّة أخرى. في تلك الأيام الواعدة، في بداية القرن، ارتدى أهلها سترات مصمَّمة من أشهر العلامات فوق سراويل بالية. وحتى مع ازدحام الشوارع بالعاطلين يومًا بعد يوم، استمر تشييد أفخم قاعة موسيقى وبيت استحمام في الصين بلا توقف.

انضمَّت تاي يوان الآن إلى طبقة الأثرياء الجدد، وعجَّت بضحك هستيري على ترفها المفرط. بدا أفق منطقة بودونغ في شنغهاي باهتًا أمام ناطحات سحابها العملاقة المصطفة بطول شارع ينغ زي. والشارع -الأوسع بعد شارع تشانغ آن في بكين[1]- تحوَّل إلى وادٍ عميق لا تصل إليه الشمس. تدفَّق الناس من كل الطبقات، يحملون أحلامهم ورغباتهم، لينسوا فور وصولهم من هم وماذا يريدون، ويتهاوون في دوامة من الثراء والفوضى تدور 365 يومًا في السنة.

في رحلته الـ397 إلى تاي يوان، ذهب ليو تسي شين مجددًا إلى حي الدعارة ليشتري زجاجة وقود جديدة. وهو يمشي في شوارع المدينة لمح شابًا أنيقًا وسيمًا، تتخلل شعره الطويل خصلة بيضاء

(1) الشارع الممتد من الشرق إلى الغرب عبر بكين شمال بوابة تيانانمن مباشرة.

مميزة. كان هذا هو بان داجياو[1]، الذي بدأ بكتابة الخيال العلمي، ثم تحوَّل إلى الفانتازيا، ثم استقر على شيء بين الاثنين. وبفعل ازدهار المدينة، هجر بان داجياو شنغهاي وانتقل إلى تاي يوان.

في ذلك الوقت وقف بان وليو تسي شين على طرفي نقيض من الانقسام بين «الخيال العلمي الجامد» و«الخيال الناعم (الفانتازيا)»، وكانت مصادفة لقائهما ممتعة.

جلس الاثنان في مطعم توناوي[2] صغير، وتورَّدت وجناتهما بالنبيذ. تحدَّث ليو بحماسة عن مشروعه القادم: ملحمة خيال علمي من عشرة مجلدات، ثلاثة ملايين حرف، تصف ألفَي وفاة لمائتي حضارة في كون يُمسح مرارًا وتكرارًا بواسطة انهيارات الفراغ[3]. وتنتهي القصة بسقوط الكون المعروف كله في ثقب أسود، كما لو أنَّ الماء يُسحب في دوامة مرحاض.

انبهر بان، واقترح التعاون: العمل من نفس المفهوم، يكتب ليو النسخة الأصلية من الرواية لتُخاطب القرَّاء الذكور، ويكتب بان النسخة الأنعم على هيئة فانتازيا تُخاطب القارئات.

---

(1) بان هايتيان: كاتب خيال علمي وفانتازيا صيني. من الجيل الثالث من كُتاب الخيال العلمي الصينيين. معروف بأعمال مثل: مجموعة قصص «Run, Dajiao, Run» (اركض يا داجياو، اركض). سماه النص الأصلي على اسم أشهر شخصياته «بان داجياو».

(2) توناوي (Tounao): طبق تقليدي في تايوان.

(3) نظرية علمية معقدة تفترض تحوُّل الفراغ الزائف المستقر إلى فقاعة فراغ حقيقي عبر نفق كمومي، تتسع في جميع الاتجاهات لتحوَّل كل ما بداخلها (المادة، الطاقة، قوانين الفيزياء نفسها) إلى حالة جديدة تتوافق مع الفراغ الحقيقي. انهيار الفراغ هو آلية نهائية وشاملة لتدمير الكون أو جزء منه، مما يسمح للكاتب بإعادة «مسح» الكون وإعادة بدء الحضارات مرارًا وتكرارًا لاستكشاف مصائرها المختلفة.

انسجم الاثنان بشدَّة، وتخلَّيا عن كل شواغل الدنيا لينغمسا في خلق محموم.

***

مع بلوغ «اللعنة 1.0» عامها العاشر اقترب يوم نهايتها. بعد نظام فيستا وجدت «مايكروسوفت» صعوبة في تبرير التحديثات المتكررة لنظام التشغيل، مما أطال عمر اللعنة 1.0 لبعض الوقت.

غير أنَّ أنظمة التشغيل كزوجات المليارديرات الجديدات: لا مفر من تحديثهن. أضحت شفرة اللعنة أقل توافقًا مع الأنظمة الحديثة فأقل، وبدأت الغرق إلى قاع الإنترنت، لكن قبيل اختفائها وُلد فرع جديد من العلوم: علم آثار تكنولوجيا المعلومات.

مع أنَّ المنطق يقر افتقار الإنترنت، بتاريخ لا يتجاوز النصف قرن، إلى أي آثار قديمة بما يكفي للدراسة، فإنَّ عددًا من الأفراد المتعلقين بالماضي كرَّسوا أنفسهم لهذا المجال.

ركَّز علم آثار تكنولوجيا المعلومات بشكل أساسي على اكتشاف أي بقايا رقمية لا تزال تقبع في زوايا وشقوق الفضاء السيبراني، مثل صفحة ويب عمرها عشر سنوات لم يُنقر عليها يومًا، أو لوحة نشرات إلكترونية BBS[1] لم تستقبل زائرًا منذ عشرين عامًا، لكنها لا تزال تسمح بإضافة منشورات جديدة.

---

(1) Bulletin Board System: BBS عبارة عن خادم كمبيوتر يمكن للمستخدمين الاتصال به عن بُعد (غالبًا عبر خط الهاتف والمودم) لقراءة وكتابة الرسائل العامة (شبه المنتديات)، وتبادل الملفات، ولعب ألعاب بسيطة، وأحيانًا الدردشة المحدودة. كان يمثل شكلًا مبكرًا من المجتمعات الرقمية قبل ظهور الإنترنت الواسع النطاق بشكله الحالي.

وجاءت فيروسات «العصور القديمة» من بين أكثر تلك البقايا طلبًا لدى علماء الآثار الرقميين. العثور على عيِّنة حية من فيروس كُتب قبل أكثر من عقد من الزمان أشبه باكتشاف ديناصور في بحيرة تيانتشي[1].

وهكذا أُعيد اكتشاف «اللعنة 1.0»، رقَّى مكتشفها الكود كاملًا ليعمل على نظام تشغيل جديد، ما ضمن بقاءها واستمراريتها. سُمِّي الإصدار المحدَّث «اللعنة» 2.0». أُطلق على المرأة المنشئة للنسخة الأصلية «المبدعة الأولى»، وعُرف الأثري مكتشفها بـ«المُحدِّث».

***

عندما ظهرت اللعنة 2.0 على الإنترنت وُجد ليو تسي شين وبان بجانب سلة قمامة قرب محطة قطارات تاي يوان، يتشاجران على نصف عبوة نودلز سريعة التحضير التُقطت للتو من القمامة.

ناما على ألواح الخشب وتجرَّعا المرارة ست سنوات، إلى أن ألَّفا عملًا من الخيال العلمي وآخر من الفانتازيا، كل منهما في عشرة مجلدات وبثلاثة ملايين حرف. أطلقا على أعمالهما «معضلة الأجسام الثلاثة»[2] و«نوفانتامليلاند»[3] على التوالي. بثقة

---

(1) بحيرة بركانية على الحدود بين الصين وكوريا الشمالية تُسمى البحيرة السماوية وترتبط بها أسطورة شعبية حول وحش البحيرة.

(2) معضلة الأجسام الثلاثة مصطلح فيزيائي حقيقي يشير إلى صعوبة (أو استحالة) التنبؤ بحركة ثلاثة أجسام سماوية تتأثر بجاذبية بعضها البعض بشكل متبادل. لا يوجد حل تحليلي عام لهذه المشكلة. وهو اسم عمل حقيقي للكاتب ليو تسي شين، جعلها ثلاثة آلاف لتتناسب مع المحتوى الخيالي المقترح.

(3) Novantamililands محاكاة ساخرة وتضخيم لعنوان مشروع فانتازيا صيني حقيقي شهير يُعرف باسم «نوفولاند» (Novoland). عالم فانتازيا مشترك ضخم ومُفصَّل للغاية، أُنشئ في أوائل الألفية الثالثة (حوالي 2001-2002)

كاملة في روائعهما، لكنهما لم يجدا ناشرًا.

باعا كل ما يملكان، حتى منزليهما، واقترضا على حساب تقاعدهما، ونشرا كتبهما بنفسيهما.

في النهاية باعت «معضلة الأجسام الثلاثة» 15 نسخة، و«نوفانتامليلاند» 27 نسخة. أي 42 نسخة بالضبط، وهو رقم الحظ لدى عشاق الخيال العلمي[1]. بعد جلسة توقيع مهيبة – بتمويل ذاتي – في تاي يوان، بدآ مسيرة التشرد.

ليس ثمَّة مدينة أكثر ودًا للمشردين من تاي يوان بحاويات قمامة باذخة تمثل مصدرًا لا ينضب للطعام، وفي أسوأ الأحوال بالإمكان دائمًا العثور على بعض حبوب «من التاسعة إلى الخامسة».

وإيجاد مأوى لم يكن مشكلة أيضًا. تاي يوان تحاكي دبي، وكل موقف حافلات فيها مزوَّد بالتدفئة والتكييف، وإذا سئما الشوارع أمكنهما قضاء بضعة أيام في أحد الملاجئ.

من قبَل مجموعة من كُتاب الفانتازيا الصينيين (من بينهم بان هايتيان). صمموا معًا تاريخًا، وجغرافيا، وأعراقًا، وأنظمة سحرية، وأساطير خاصة بهذا العالم، ثم كتب كل كاتب رواياته وقصصه الخاصة داخل هذا العالم المشترك. يُعتبر «نوفولاند» مشروعًا رائدًا في الأدب الصيني، أنتج العديد من الروايات والمسلسلات التلفزيونية والأفلام.

(1) رقم 42 يُعتبر رقم حظ، أو بالأحرى رقمًا ذا دلالة خاصة جدًا، عند عشاق الخيال العلمي، وذلك بفضل سلسلة كتب «دليل المسافر إلى المجرة» للمؤلف الإنجليزي دوجلاس آدامز، في هذه السلسلة الكوميدية الخيالية الشهيرة، يُطرح سؤال عميق من قبَل مجموعة من الكائنات الفائقة الذكاء: «ما هو معنى الحياة والكون وكل شيء؟». بعد سبعة ملايين ونصف مليون سنة من الحساب، يقدم الكمبيوتر العملاق الإجابة: 42. أصبحت هذه النكتة الفلسفية الساخرة أيقونية في ثقافة الخيال العلمي.

هناك لا يحصلان على الطعام والمأوى فحسب، بل تجاوبت صناعة الجنس المزدهرة مع دعوة الحكومة، وخصَّصت يوم الأحد من كل أسبوع كمبادرة المساعدة الجنسية للفئات الضعيفة، والملاجئ مواقع شهيرة لنشاط متطوعي حي الدعارة الخيري.

في مؤشر السعادة الاجتماعية الرسمي للمدينة احتل المتشرِّدون المهاجرون المرتبة الأولى. ندم ليو تسي شين وبان قليلًا لأنهما لم يسلكا هذا الطريق في وقت أبكر.

مثَّلت دعوات هيئة تحرير مجلة ملك الخيال العلمي الأسبوعية أسعد محطات حياتهما الجديدة. غالبًا ما جاءت في أماكن فاخرة، مثل مطعم تانغ دو[1]. استوعب فريق التحرير جوهر ما يعنيه أن تكون مجلة خيال علمي، أنَّ روح هذا الجنس الأدبي في مزيج الدهشة والاغتراب، غير أنَّ الخيال عالي التقنية فقد القدرة على إثارة تلك المشاعر. ابتُذلت التكنولوجيا المتقدمة وعجزت عن إثارة الدهشة: تحدَّث كل يوم. وحدها خيالات التقنية البدائية قادرة على إثارة الدهشة والقلق لدى القارئ المعاصر. لذا طوَّر المحررون نوعًا فرعيًا، وهكذا ظهرت مدرسة «تيار الخيال العلمي العكسي»، تتخيَّل مستقبلًا بدائيًا.

أدَّى نجاحها الهائل إلى دخول العصر الذهبي الثاني للخيال العلمي، وفي سبيل تجسيد هذه الروح رفضت هيئة تحرير المجلة استخدام الحواسيب أو الإنترنت تمامًا. لم تقبل سوى المخطوطات المكتوبة بخط اليد، وعادت إلى الطباعة بالقوالب

(1) مطعم شهير يمثل حديقة نباتات طبيعية.

البارزة. واشترت العشرات من خيول السهوب المغولية بسعر يعادل سيارة بي إم دبليو لكل حصان، وبنت إسطبلًا فخمًا بجوار مكتب التحرير.

ولا يركب موظفو المجلة إلا خيولًا لم تتصفَّح الإنترنت قط. يُنذر وقع حوافرها في الشوارع بقرب وصول مندوب من شركة «ميم خاء عين»[1].

جاءت دعوات العشاء التي يتلقاها ليو تسي شين وبان من هيئة التحرير كتعبير عن احترامهم لأعمالهما السابقة، وأيضًا اعترافًا بأنَّ أعمالهما الحالية- مع أنها لم تعد تُحسب خيالًا علميًا -جسَّدت مبدأ «الخيال العلمي العكسي» بصورة خالصة. عاشوا حياتهم بلا اتصال رقمي؛ حياة منخفضة التقنية بكل معنى الكلمة.

لكن لا ليو تسي شين ولا بان ولا موظفي «ميم خاء عين» يعلمون أنَّ هذا النمط الغريب من الحياة سينقذهم لاحقًا.

ازدهرت «اللعنة 2.0» سبع سنوات أخرى، حتى عثرت عليها ذات يوم امرأة ستُعرف لاحقًا بلقب المُسلِّحة. درست كودها بعناية، وأحسَّت بغلٍّ ومرارة المبدعة الأولى المنسوج بهما الشفرة، على الرغم من مرور سبعة عشر عامًا على كتابتها وعلى الرغم من تحديثها.

مرَّت مثل المبدعة الأولى بنفس التجربة، وكرهت رجلًا لدرجة آلمت أسنانها. بيد أنها وجدت الشابة الأخرى مثيرة للشفقة والضحك في آن: ما الفائدة؟ هل أصابت شعرة واحدة من رأس ذلك الوغد «سا بي»؟

---

(1) الحروف الأولى من ملك الخيال العلمي.

كالعذارى المهجورات في القرن الماضي، يغرسن الدبابيس في دمى قماشية صغيرة. ألعاب سخيفة كهذه لا تغير شيئًا، بل لا تجلب سوى مزيد من الغرق في مستنقع الكآبة، لكن الأخت الكبرى جاءت لتتدخل.

(في الواقع، لا تزال المبدعة الأولى على قيد الحياة على الأرجح، لكن نظرًا لفارق السن، توجَّب على المُسلَّحة مناداتها بالخالة).

***

مرَّ سبعة عشر عامًا على ولادة اللعنة، وحل عصر جديد وقعت فيه البشرية بأسرها في الشبكة. ربط الإنترنت في الماضي بين الحواسيب فقط، أما الآن فقد تحوَّل إلى شجرة عيد ميلاد ضخمة متلألئة، تتدلى منها كل الأشياء على وجه الأرض تقريبًا وتتوهج. في المنازل، على سبيل المثال، جميع الأجهزة الكهربائية متصلة بالإنترنت وتُدار عبره.

حتى مقصَّات الأظافر وفتَّاحات الزجاجات ليست استثناء. تكتشف الأولى نقص الكالسيوم من خلال بقايا الأظفار المقصوصة وترسل تحذيرًا عبر رسالة نصية أو بريد إلكتروني. وبوسع الثانية التحقق من قانونية المشروبات الكحولية الموشك فتحها، بل وإبلاغ الفائزين بجوائز سحب اليانصيب. ويمكنها أيضًا منع المستخدم من الإفراط في الشرب عبر رفض فتح زجاجة جديدة ما لم يكن قد مضى وقت كافٍ على فتح السابقة. في ظل

هذه الظروف أصبح بإمكان اللعنة التفاعل المباشر مع الأجهزة.

أضافت المُسلِّحة وظيفة جديدة إلى اللعنة :2.0

« > إذا استقلَّ سا بي سيارة أجرة، فاقتله في حادث سير!»

في الواقع ليست مهمة صعبة على مبرمجي الذكاء الاصطناعي في ذلك العصر. جميع المركبات الحديثة بلا سائق، تقاد عبر الإنترنت. وعندما يُمرِّر أحدهم بطاقته البنكية لاستئجار سيارة أجرة تتمكَّن اللعنة من التعرف عليه من خلال الاسم على البطاقة. وبمجرد تأكيد أنَّ «سا بي» هو الراكب تصبح أساليب قتله لا حصر لها.

أبسطها الاصطدام بمبنى أو الانحراف بالسيارة من فوق جسر، لكن المُسلِّحة رأت أنَّ حادثًا بسيطًا لا يكفي. أرادت نهاية أكثر شاعرية تليق بالرجل الذي أساء إلى الأخت الصغرى قبل سبعة عشر عامًا.

(في الحقيقة لم تكن المُسلِّحة تعرف أكثر من غيرها ما الذي فعله سا بي بالمبدعة الأولى، ومن المحتمل ألا يكون مذنبًا).

بمجرد أن يتعرَّف إصدار اللعنة المُطوَّر على وجود الهدف داخل السيارة يتجاهل الوجهة التي اختارها، وينطلق كالسهم على الطريق بين تاي يوان وتشانغجياكو، وهي منطقة أصبحت صحراء قاحلة شاسعة. تُوقف السيارة نفسها في عمق الصحراء وتقطع كل اتصال بالعالم الخارجي. (بحلول ذلك الوقت تكون اللعنة قد اتخذت من الكمبيوتر الموجود في السيارة مكانًا لها ولن تحتاج إلى الإنترنت).

خطر الاكتشاف ضئيل، وحتى لو مر أشخاص أو مركبات بالجوار بالصدفة فبمقدور السيارة الاختباء داخل بقعة نائية أخرى

من الصحراء، مهما طال الوقت، وأبواب السيارة محكمة الإغلاق من الداخل.

وبهذه الطريقة سيموت «سا بي» مجمَّدًا في الشتاء، أو مشويًا في الصيف، أو عطشًا أو جوعًا في الربيع أو الخريف.

وهكذا وُلدت «اللعنة 3.0»، وكانت لعنةً حقيقية بكل ما تحمله الكلمة من معنى.

تنتمي المُسلِّحة إلى جيل جديد من فناني الذكاء الاصطناعي، يستخدمون الشبكات لإنشاء أعمال فنية أدائية لا معنى عملي لها، لكنها ذات قيمة جمالية خالصة. (بطبيعة الحال، اختلفت معايير الجمال في العصر الحالي تمامًا عن عقد مضى). ربما يعزفون، على سبيل المثال، سيمفونية من إطلاق أبواق السيارات في مدينة كاملة بوقت واحد، أو يرتبون أضواء نوافذ الفنادق لتشكيل صورة عملاقة على الواجهة. مثَّلت اللعنة 3.0 واحدة من هذه الإبداعات.

سواء نجحت فعلًا في أداء وظيفتها أم لا، فقد كانت عملًا فنيًا مذهلًا بحدِّ ذاته. ونتيجة لذلك حازت على إعجاب النقاد في بينالي شنغهاي 2026. مع أنَّ الشرطة صنَّفتها كعمل غير قانوني نظرًا لنواياها العدوانية، فإنها واصلت التغلغل في أرجاء الشبكة، وانضم عدد هائل من فناني الذكاء الاصطناعي إلى مشروع الإبداع الجماعي هذا.

وتطوَّرت اللعنة 3.0 بسرعة كبيرة مع إضافة المزيد من الوظائف إلى كودها:

« >إذا كان سا بي في منزله، فاخنقه بالغاز!»

هذا سهل نسبيًا لأنَّ المطابخ في جميع المنازل تُدار عبر الإنترنت، مما يتيح للناس طهي الطعام عن بُعد. وبالطبع شمل

ذلك تشغيل الغاز، وتمكنت اللعنة 3.0 من تعطيل كواشف خطر الغاز في الغرفة.

« >إذا كان سا بي في منزله، فاحرقه بالنار!»

وهذا مباشر أيضًا. بالإضافة إلى الغاز توجد أشياء عدة قابلة للاشتعال في كل منزل، حتى موس وبخاخ الشعر متصل بالإنترنت (مما يسمح لمصفف الشعر بالعمل على شعر الشخص دون مغادرة منزله). يمكن بالطبع تعطيل أجهزة إنذار الحريق ومطفئات الحريق.

« >إذا استحمّ سا بي، فاقتلْه بماء يغلي!»

وهذا، مثل ما سبق، سهل التنفيذ للغاية.

«إذا ذهب سا بي إلى المستشفى، فاقتلْه بوصفة طبية سامة!»

هذا أكثر تعقيدًا إلى حدٍّ ما. وصف دواء قاتل ليس صعبًا إذ كانت صيدليات المستشفيات الحديثة تصرف الأدوية أوتوماتيكيًا وكل أنظمتها متصلة بالشبكة. العقدة في اسم الدواء. سا بي ليس غبيًا، على الرغم من اسمه، وقد يرفض تناوله.

ولضمان نجاح الخطة على اللعنة 3.0 تتبُّع مسار الدواء من المصنع إلى التغليف، ثم إلى نقاط البيع. التأكد من بيع العقار القاتل للهدف مهمة معقدة، لكنها ممكنة. وبالنسبة لفناني الذكاء الاصطناعي كلما زادت التعقيدات زاد جمال العمل الفني النهائي.

« >إذا صعد سا بي الطائرة، فاقتله!»

كان هذا صعبًا. أصعب بكثير من السيطرة على سيارة أجرة، لأنَّ سا بي وحده الهدف، واللعنة لا يُسمح لها بإيذاء الآخرين. وبما أنه من غير المرجَّح امتلاك سا بي طائرة خاصة فإن تحطيم طائرة تقله ليس خيارًا.

لكن ثمَّة بديل:

أي طائرة يصعد إليها «سا بي» تتعرَّض فجأة لفقدان الضغط داخل المقصورة (عبر فتح باب الطائرة أو أي وسيلة أخرى). ثم، عندما يضع جميع الركاب أقنعة الأكسجين، يتعطل قناع «سا بي» وحده.

« >إذا أكل سا بي، اجعله يختنق!»

يبدو سخيفًا، لكن سهل التنفيذ. ولَّد إيقاع الحياة الحديثة الخاطف نوعًا جديدًا من الطعام فائق السرعة: حبَّة صغيرة تُعرف باسم «من التاسعة إلى الخامسة». حبوب شديدة الكثافة، تشعر بثقلها في اليد كرصاصة. تتمدد داخل المعدة بمجرد ابتلاعها، مثل بسكويت البحارة الصلب[1] قديمًا.

السر في التلاعب بعملية التصنيع لإنتاج حبَّة تتمدد بسرعة؛ بعد ذلك، تقدر اللعنة على التحكم في عملية البيع لتضمن أنَّ سا بي هو من يشتريها. وما إن يتناول الحبة في استراحة الغداء ويشرب فوقها الماء تنتفخ في حلقه وتخنقه.

بيد أنَّ اللعنة 3.0 لم تعثر أبدًا على هدفها، ولم تقتل أي شخص. منذ ظهور اللعنة 1.0، طارد الصحفيون والغرباء سا بي، ما اضطره إلى تغيير اسمه الأول وحتى لقبه. قِلة في الأصل يحملون لقب سا، ومع الإيحاء الفاضح لاسمه الكامل، لم يكن ثمة آخر في المدينة يُدعى سا بي.

---

(1) Hardtack بسكويت البحارة أو الجنود: يُصنع عادةً من الدقيق، الماء، والقليل من الملح. يُخبز لدرجة يصبح معها صلبًا للغاية وجافًا جدًا، ولإطالة مدة صلاحيته بشكل كبير، بحيث يمكن تخزينه لسنوات دون أن يفسد أو يتعفن. يستخدمه الجنود في الحملات العسكرية والبحارة في الرحلات الطويلة .

وفي الوقت نفسه لم يُحدِّث «سا بي» بيانات عنوانه أو جهة عمله منذ ظهور اللعنة. يتصوَّر الفيروس أنه ما زال يدرس في جامعة تاي يوان للتكنولوجيا، ما جعل من المستحيل تتبُّعه. صحيح، زُوِّدت اللعنة بوظيفة البحث عن تغييرات الاسم في سجلات وزارة الأمن العام، لكنها لم تجد شيئًا. وهكذا ظلت اللعنة 3.0 طيلة أربع سنوات عملًا فنيًا من أعمال الذكاء الاصطناعي لا أكثر.

ثم ظهرت الأحرف البديلة: تشي شين وبان.

مصطلح الأحرف البديلة يعبِّر عن مفهوم قديم، نشأ في عصر المعلِّمين (العصر القديم للحوسبة بنظام DOS). أكثر الرمزين استخدامًا كانا «*» و«؟». يمكن لهذين الرمزين تمثيل واحد أو أكثر من الأحرف في سلسلة نصية: يشير «؟» إلى حرف واحد، و«*» يشير إلى أي عدد من الأحرف، وكان الأكثر استخدامًا.

فمثلًا، «ليو*» تشير إلى كل من يحملون اسم عائلة يبدأ بـ«ليو»، و«شانشي*» تشير إلى أي سلسلة تبدأ بـ«شانشي». أما «*» وحده، فيمثل كل السلاسل الممكنة من الأحرف. لذلك، في عصر المعلِّمين، كان الأمر «del*.*» من أخطر الأوامر، لأنَّ «del» تعني الحذف، وكل أسماء الملفات كانت تتكون من اسم وامتداد مفصولين بنقطة.

مع تطوُّر أنظمة التشغيل بقيت الأحرف البديلة، لكن مع استبدال واجهات سطر الأوامر واستخدام الواجهات الرسومية[1]،

(1) نظام بصري وتفاعلي يسمح للمستخدمين بالتفاعل مع الأجهزة الإلكترونية (مثل أجهزة الكمبيوتر، الهواتف الذكية، الأجهزة اللوحية، وحتى أجهزة التلفزيون الذكية) من خلال عناصر رسومية مرئية بدلًا من الأوامر النصية المعقدة. مثل النقر على الأيقونات بديلًا عن كتابة سطر الأوامر.

بدأت تختفي من ذاكرة معظم مستخدمي الحاسوب، إلا أن بعض البرامج، ومن ضمنها اللعنة 3.0، لا تزال تدعم استخدامها.

حلَّ عيد منتصف الخريف. في ظل أضواء تاي يوان المتلألئة، بدا القمر الكامل أشبه بفطيرة سمسم مدهونة بالزيت. جلس ليو تسي شين وبان على مقعد في ساحة وويي. عرضا غنائم ما بعد ظهيرة ذاك اليوم: خمس زجاجات خمر نصف ممتلئة، كيسان شبه ممتلئين بشرائح لحم بقري من بينغياو[1]، كيس لم يُمس تقريبًا من لحم حمار جينتسي[2]، وثلاث حبوب من التاسعة إلى الخامسة. كانت غنيمة طيبة، وكانا مستعدين للاحتفال.

مع حلول الظلام انتشل ليو تسي شين حاسوبًا محمولًا مكسورًا من حاوية نفايات. أقسم على إصلاحه، وإلا راحت سنواته في التعامل مع الحواسيب بلا جدوى. قرفص جوار المقعد وبدأ في تفكيك مكونات الجهاز. في هذه الأثناء ظلَّ بان يتحدث عن المساعدة الجنسية التي تلقيَّاها في المأوى في وقت سابق من اليوم. دعاه تشي شين بحماسة لتناول الحبوب الثلاث على أمل الاستحواذ على نصيب الأسد من اللحم والخمر، لكن بان لم يُخدع، وتجنب تناول أي منها.

---

(1) بينغياو مثال استثنائي لمدينة صينية تقليدية حافظت على تخطيطها الحضري ومعمارها من عهد أسرتي مينغ وتشينغ (القرن الرابع عشر إلى أوائل القرن العشرين). أسوار المدينة القديمة المحيطة بها هي من أفضل الأسوار المحفوظة في الصين. متحف مأهول بالسكان.

(2) جينتسي: معبد جينتسي على بعد حوالي 25 كيلومترًا جنوب غرب مدينة تاي يوان. موقع تاريخي يحمل قيمة ثقافية ومعمارية كبيرة في الصين. لحم الحمير هو في الواقع طعام شائع ومحبوب في بعض مناطق شمال الصين، ويُعتبر شهيًا ومغذيًا.

سرعان ما عاد الحاسوب للعمل، وانبعث منه ضوء أزرق خافت. وعندما رأى بان أنَّ الجهاز لديه اتصال لاسلكي فعَّال بالإنترنت انتزعه من يد ليو تسي شين. فتح تطبيق كيو كيو[1]، لكنَّ حسابه ألغي تنشيطه منذ زمن بعيد. تلا ذلك تفقُّده مواقع نوفولاند وقلعة في السماء (لعبة MMORPG)[2] ودوبان[3] ومنتدى جامعة تسينغهوا BBS[4] وجيانجدونج، لكنَّ الروابط كلها ميتة. رمى الحاسوب جانبًا وتنهَّد: «منذ زمن بعيد، طار رجل على ظهر رافعة صفراء»[5].

يلمح ليو تسي شين الشاشة وهو يخلط زجاجات الخمر، وردَّ بالسطر التالي من القصيدة التي تعوَّد لأكثر من 1300 عام: «وما تبقّى سوى برج الرافعة الصفراء»، ثم التقط الحاسوب وبدأ يتفحَّص محتوياته بدقَّة. وجد العديد من أدوات الاختراق وعيِّنات

---

(1) QQ: برنامج مراسلة فورية وشبكة اجتماعية صينية ذات تاريخ طويل وشعبية كبيرة، خاصة بين الشباب.

(2) ذُكر سابقًا، نوفولاند هو عالم فانتازيا مشترك صيني ضخم أنتج العديد من الروايات والمسلسلات التلفزيونية والألعاب. وبالفعل، هناك سلسلة تلفزيونية تحمل اسم «Novoland: The Castle in the Sky» والتي أنتجت لاحقًا ألعاب MMORPG مرتبطة بهذا العالم.

(3) دوابان: منصة تواصل اجتماعي صينية فريدة ومتعددة الأوجه، تأسست في عام 2005 على عكس فيسبوك أو تويتر التي تركز على التفاعل الشخصي، تُعرف دوابان بتركيزها على المحتوى المتعلق بالثقافة والفن وأسلوب الحياة.

(4) بنظام لوحة نشرات إلكترونية، كانت بمثابة الفضاءات العامة الرقمية الأولى التي شهدت تطور لغة الإنترنت الصينية وثقافتها، وساهمت في تشكيل جيل كامل من مستخدمي الإنترنت.

(5) «منذ زمن بعيد، طار رجل على ظهر رافعة صفراء». هو السطر الأول من قصيدة صينية كلاسيكية شهيرة بعنوان «برج الرافعة الصفراء» (Yellow Crane Tower) للشاعر تساي هوانغ.

من فيروسات. لعلَّ الحاسوب كان ملكًا لأحد القراصنة، اضطر للتخلص منه أثناء فراره من شرطة الذكاء الاصطناعي.

فتح ليو تسي شين ملفًا على سطح المكتب، فوجد برنامجًا بلغة C[1] شفرته مُفككة. تعرَّف عليه فورًا: اللعنة3.0. وهو يقلب الشفرة عرضًا تذكَّر أيامه كشاعر رقمي. ومع بدء تأثير الكحول وصل إلى جزء تعريف الهدف في الكود. وبجانبه بان يسهب في الحديث عن روائع الخيال العلمي القديمة، وسرعان ما اجتاح الحنين قلب ليو تسي شين. دفع بالحاسوب جانبًا وشاركه الذكريات. يا لتلك الأيام! ألهبت ملاحمه المدمّرة، المطلقة المعرفة، قلوب الشباب بحماسة عسكرية وعقائدية جارفة! أما الآن.. خمس عشرة نسخة فقط! لم يبع سوى خمس عشرة نسخة! اللعنة!

شرب جرعة كبيرة من الزجاجة. النكهة ضاعت، لكن لذع الكحول لا يخطئ. اجتاحته كراهية تجاه القرَّاء الذكور، ثم تجاه جميع الرجال. حملق بغضب في معايير الهدف داخل اللعنة 3.0. وتمتم وهو يكتب بلسان مثقل: «ولا رجل محترم على قيد الحياة، هذه الأيام»، ثم غيَّر اسم الهدف من «سا بي» إلى «*». بعد ذلك، غيَّر المعايير الأخرى مثل جامعة تاي يوان للتكنولوجيا، مسجل في قسم xx، تخصص xx، يسكن في مهجع xx إلى: «*،*،*،*،*». ولم يترك سوى معيار الجنس دون تغيير: «ذكر».

---

(1) لغة C هي لغة برمجة كمبيوتر عامة الغرض، إجرائية، وتُعد واحدة من أقدم وأقوى لغات البرمجة وأكثرها تأثيرًا. قريبة من الآلة أو «لغة برمجة منخفضة المستوى نسبيًا» مقارنة بلغات أخرى مثل بايثون أو جافا. هذا يعني أنها تتيح للمبرمج التحكم بشكل مباشر في موارد الأجهزة مثل الذاكرة والمعالج.

في هذه الأثناء بدأ بان النحيب هو الآخر. استحضر أعماله الحية العميقة في سنواته الأولى كالأحلام، كالقصائد، منذ وقت ليس بالبعيد سحر نثره المراهقات. كان معبودهن. أما الآن فإنهن يعبرن بجواره دون حتى نظرة! يا للذل! رمى زجاجة فارغة، وتمتم: «إذا كان كل الرجال بهذا السوء فكيف النساء؟»، ثم غيَّر معيار الجنس من «ذكر» إلى «أنثى».

لم يحتمل ليو تسي شين ذلك. ليس لديه شيء ضد النساء؛ لم تجد رواياته الفجة يومًا رواجًا بين القارئات من الأساس. أعاد المعيار إلى «ذكر»، لكن بان أعاده إلى «أنثى» فورًا. وهكذا اشتعل شجار بينهما حول كيفية معاقبة قرائهما الخونة والجاحدين، وتقلَّب مصير تاي يوان بين الترمُّل والعنوسة. تطايرت الزجاجات الفارغة بينهما حتى تدخَّل شرطي. وبينما يفركان الكدمات على رأسيهما، توصَّلا إلى تسوية: جعلا معيار الجنس هو «*»، مُكملين بذلك تعميم الحروف البديلة في «اللعنة 3.0».

ربما تدخُّل الشرطي، أو ربما سُكرهما الشديد، ما حدا بهما إلى الغفلة عن ثلاثة معايير: «تاي يوان، مقاطعة شانشي، الصين». وهكذا، وُلدت «اللعنة 4.0».

لُعنت تاي يوان.

***

لحظة إنشائها، استوعبت نسخة اللعنة الجديدة المهمة العظمى التي أُنيطت بها تمامًا. ونظرًا لضخامتها لم تبدأ اللعنة 4.0 على الفور، بل منحت نفسها وقتًا للتغلغل والانتشار. وما إن ترسَّخت

تمامًا في أنحاء الشبكة شرعت في وضع خطة هجومها: ستبدأ بالأهداف السهلة، ثم تنتقل إلى الأهداف الصعبة، لتُصعِّد الهجوم تدريجيًا من هناك.

بعد عشر ساعات، ومع بزوغ أول خيوط الفجر على الأفق، انطلقت اللعنة 4.0 إلى العمل.

تمثَّلت الأهداف السهلة في أولئك الحساسين، والعصابيين، والمندفعين، وخاصة الرجال والنساء الذين يعانون من الاكتئاب أو الاضطراب الوجداني ثنائي القطب. وفي عصرٍ انتشرت فيه الأمراض النفسية وتعمَّم العلاج النفسي، سهُل على اللعنة 4.0 العثور على هذا النوع من الأهداف.

في الموجة الأولى من عملياتها تلقَّى ثلاثون ألف شخص خضعوا حديثًا لفحوصات طبية إشعارات تفيد بأنهم قد شُخِّصوا بسرطان الكبد أو المعدة أو الرئة أو الدماغ أو القولون أو الغدة الدرقية، أو بمرض اللوكيميا. والتشخيص الأكثر شيوعًا هو سرطان المريء (صاحب معدلات الإصابة الأعلى في تلك المنطقة). كما تلقَّى عشرون ألف شخص آخر أجروا مؤخرًا تحاليل دم إشعارات تؤكد إصابتهم بفيروس نقص المناعة البشرية (الإيدز).

ليس مجرَّد تلاعب بنتائج الفحوصات، بل استولت اللعنة 4.0 مباشرة على أجهزة التصوير بالموجات فوق الصوتية، والتصوير المقطعي، والرنين المغناطيسي، وأجهزة تحليل الدم، لتُخرج نتائج «حقيقية» زائفة. وحتى حال لجأ المرضى إلى مستشفيات أخرى للحصول على رأي طبي ثانٍ، تأتي النتائج متطابقة. من بين أول

خمسين ألف حالة اختار معظمهم البدء في العلاج. غير أنَّ نحو أربعمائة شخص كانوا بالفعل مرهقين من العيش، أنهوا حياتهم على الفور. وفي الأيام التالية لذلك استمر تيار رتيب من حالات الانتحار.

وسرعان ما تلقَّى خمسون ألف شخص آخر من الحساسين أو المصابين بالاكتئاب أو الاضطراب ثنائي القطب مكالمات هاتفية من أزواجهم أو شركائهم. سمع الرجال أصوات زوجاتهم أو حبيباتهم يقلن:

«انظر لنفسك، قطعة خراء. هل تُدعى رجلًا أصلًا؟ أنا الآن مع [* اسم شخص يكرهه في الغالب]، ونحن في قمة السعادة، فاذهب إلى الجحيم».

أما النساء فقد سمعن أصوات أزواجهن أو أحبائهن يقولون:

«أصبحتِ تبدين في غاية الكِبر، وبصراحة كنتِ بشعة منذ البداية. لا أعلم ما الذي جذبني إليك. على أي حال أنا الآن مع [* اسم واحدة تكرهها في الغالب]، ونحن سعداء جدًا، فاذهبي إلى الجحيم».

بالنسبة للخمسين ألفًا أولئك سعى معظمهم إلى لقاء أحبائهم وحاولوا حل سوء الفهم مباشرة، لكن نحو واحد في المائة اختاروا قتل شركائهم أو الانتحار، وبعضهم فعل الأمرين معًا.

اختارت اللعنة أيضًا بعض الأهداف السهلة الأخرى. على سبيل المثال، حرَّضت على معارك دامية بين عصابات متناحرة لا يمكن التوفيق بينها، عدَّلت الأحكام الصادرة بحق بعض المجرمين المحكوم عليهم بعقوبات طويلة أو بالسجن المؤبد لتحوِّلها إلى أحكام بالإعدام الفوري، ومع ذلك كانت فاعلية هذه العمليات منخفضة نسبيًا، وأسفرت عن القضاء على بضعة آلاف فقط من الأهداف.

لكن اللعنة4.0 امتلكت العقلية الصحيحة: تدرك أنَّ الإنجازات العظيمة تبدأ بخطوات صغيرة. لم تتوانَ عن ارتكاب أي شر، مهما بدا تافهًا، ولم تتردد في تجربة أي وسيلة.

في المرحلة الأولى من خطتها تخلَّصت اللعنة 4.0 من خالقتها نفسها، فبعد ابتكار اللعنة حافظت المبدعة الأولى على شك دائم وعميق تجاه الرجال. أصبحت خبيرة مراقبة، مستخدمة أحدث التقنيات لمراقبة زوجها (الوفيّ بلا انقطاع) على مدى عشرين عامًا، وعندما تلقَّت إحدى تلك المكالمات أُصيبت بنوبة قلبية. وبعد إدخالها إلى المستشفى أُعطيت أدوية أدَّت إلى تفاقم احتشاء عضلة القلب، فماتت على يد اللعنة التي أنشأتها بنفسها.

بينما لقت المسلِّحة حتفها أيضًا في هذه المرحلة تلقَّت نتيجة اختبار إيجابية لفيروس نقص المناعة، ولم تكن تنوي الانتحار في البداية، لكنها تناولت جرعة زائدة من مضادات القلق، وفي نوبة الهلوسة الناتجة عن الأدوية ظنَّت النافذة بوابة إلى حديقة جميلة، فسقطت من الطابق الخامس عشر ولقيت حتفها.

***

بعد خمسة أيام بدأت العمليات الموجهة ضد الأهداف الصعبة. ارتفعت معدلات الانتحار وجرائم القتل الناجمة عن العمليات السهلة الفائتة بصورة غير طبيعية أدخلت المدينة في حالة من الذعر، لكن اللعنة 4.0 لا تزال تُحلق تحت رادار الحكومة، لذا نُفذت أولى عملياتها الصعبة في سرية تامة.

أولًا، ارتفع عدد المرضى الذين تلقوا أدوية خاطئة على نحو غير مسبوق. تبدو العبوات طبيعية تمامًا، لكن تناول جرعة واحدة

كان كافيًا لقتل إنسان. في الوقت ذاته تزايد عدد المختنقين على طاولة الطعام بشكل مفاجئ. أصبحت كثافة ضغط حبوب «من التاسعة إلى الخامسة» تتجاوز بكثير المعايير الصناعية. ويظن الزبائن المقبلون على الحبوب الثقيلة بين أيديهم أنهم حصلوا على صفقة ممتازة مقابل ما دفعوا.

استهدفت أول محاولة إبادة واسعة النطاق شبكة المياه. في مدينة مثل تلك، يسيطر عليها الذكاء الاصطناعي بالكامل، من المستحيل إدخال السيانيد أو غاز الخردل مباشرة إلى مياه الشرب، لذلك اختارت اللعنة 4.0 إدخال نوعين من البكتيريا المعدلة وراثيًا، كلٌّ منهما غير ضار بمفرده، لكنهما ينتجان سُمًّا قاتلًا عند امتزاجهما. لم تُضَف السلالتان في الوقت نفسه، بل أُدخلت الأولى أولًا، وعندما أُزيل معظمها من النظام، أُدخلت الثانية. وجرى المزج الفعلي داخل أجسام البشر.

عندما تلتقي البكتيريا في المعدة أو مجرى الدم تنتج السم القاتل وإن لم يقتل السم الهدف مباشرة، فبمجرد وصوله إلى المستشفى يتلقَّى دواءً يتفاعل مع تلك البكتيريا ليوجه الضربة القاضية.

بحلول تلك المرحلة حدَّدت وزارة الأمن العام ووزارة سلامة الذكاء الاصطناعي مصدر الكارثة، وبدأتا العمل المحموم على تطوير أدوات متخصصة لمواجهة اللعنة 4.0. وفي المقابل سرَّعت اللعنة عملياتها وصعَّدتها بدرجة كبيرة. حوَّلت مكائدها الخفية إلى كابوس يهز الأرض.

في صباح أحد الأيام، خلال ساعة الذروة، دوَّت سلسلة من الانفجارات المكتومة تحت المدينة، كان صوت اصطدام

القطارات. شُيِّدت شبكة أنفاق مترو تاي يوان حديثًا، وتصادف تصميمها مع النمو المتفجر للمدينة، مما جعله نظامًا متقدمًا للغاية. تسير القطارات المغناطيسية المعلقة عبر أنفاق فراغية[1]، تُعرف بسرعتها المذهلة، ولقّبها السكان «البوابات الزمنية»، إذ ما إن يدخل الراكب العربة حتى يصل وجهته النهائية.

لكنَّ السرعة الرهيبة للقطارات جعلت الاصطدامات شديدة العنف. انتفخت الأرض وارتجَّت من شدَّتها، تقذف أكوام الدخان والركام إلى السماء مثل بثور ملتهبة على وجه المدينة.

سيطرت اللعنة الآن على معظم مركبات المدينة (جميع المركبات، في هذا العصر، قابلة للتحكم بواسطة الذكاء الاصطناعي)، وتلك أقوى أداة في ترسانة الفيروس. فجأة، بدأ ملايين المركبات بالتعرُّج والاندفاع عشوائيًا في أنحاء المدينة، كأنها جزيئات في حركة براونية[2].

وعلى الرغم مما بدا مشهدًا فوضويًا فإن الاصطدامات اتبعت أنماطًا وتسلسلات محسوبة بدقة. تمثَّل الهدف الأول لكل مركبة في دهس أكبر عدد ممكن من المارَّة، وبشكل منسَّق قادت

(1) أنفاق فراغية: الهدف الرئيسي من إخلاء الهواء داخل هذه الأنفاق هو تقليل مقاومة الهواء إلى أقصى حد ممكن.

(2) حركة براونية هي حركة عشوائية وغير منتظمة لجسيمات صغيرة جدًا معلقة في سائل أو غاز، ناتجة عن اصطدام هذه الجسيمات بشكل عشوائي مع جزيئات الوسط المحيط بها (الماء أو الهواء). سُميت نسبة إلى عالم النبات الأسكتلندي روبرت براون، في عام 1827 لاحظ براون أن حبوب اللقاح المعلقة في الماء تتحرك بشكل عشوائي ومتقطع تحت المجهر دون معرفة السبب في وقتها.

السيارات الناس إلى الشوارع، ثم تجمَّعت في دوائر ضخمة في الساحات والأماكن المفتوحة.

وقع أكبر هذه التشكيلات في ساحة ووبي، حيث أحاطت عدة آلاف من السيارات بالساحة، ثم اندفعت إلى مركزها في آنٍ واحد، لتُبيد عشرات الآلاف من الأهداف على الفور.

وحين قُضي على معظم المشاة أو احتموا داخل المباني، بدأت السيارات بالاندفاع نحو الأبنية القريبة، تقتل الأشخاص المحاصرين داخلها باصطدامات منظمة كذلك. تجمَّعت السيارات في مجموعات وركَّزت هجماتها على المباني ذات الكثافة العالية، أما السيارات في الخلف فاندفعت فوق ركام زميلاتها المدمَّرة، متكدِّسة طبقة تلو الأخرى.

وعند قاعدة أطول مبنى في المدينة -برج بورصة الفحم البالغ ارتفاعه ثلاثمائة طابق- كوَّنت السيارات كومة حطام بلغ ارتفاعها عشرة طوابق. اشتعلت الهياكل الملتوية بنيران هائلة كأنها محرقة جنائزية ضخمة.

في الليلة السابقة للكارثة العظمى شهد سكان تاي يوان مشهدًا غريبًا: تجمَّعت سيارات الأجرة في طوابير طويلة للتزود بالوقود. تأكد الفيروس من امتلاء خزاناتها استعدادًا للحظة الانقضاض، والآن ترتطم بالمباني كأنها أمطار لا تنتهي من القنابل الحارقة، تنفخ لهيب النيران إلى عنان السماء.

أصدرت الحكومة نشرة طارئة لإعلان حالة الطوارئ، وطلبت من المواطنين البقاء في منازلهم. في البداية بدت استجابة منطقية. مقارنةً بناطحات السحاب جاءت الهجمات على المباني السكنية

بسيطة، كما أنَّ شوارع المناطق السكنية أضيق بكثير من الشوارع الرئيسية، وسرعان ما شُلت بالكامل بفعل الحطام.

لكن اللعنة 4.0 حوَّلت كل منزل إلى فخ مميت. فتحت صمامات الغاز، وعندما بلغت نسبة الغاز في الهواء عتبة الانفجار أطلقت شرارة. التهمت ألسنة اللهب صفوفًا وراء صفوف من المباني السكنية، وانفجرت مبانٍ بأكملها وطارت في عنان السماء.

في الخطوة التالية قطعت الحكومة الكهرباء عن المدينة، لكن بعد فوات الأوان؛ اللعنة 4.0 ربما تعطَّلت، لكنها أنجزت مهمتها. المدينة بأكملها تشتعل، ومع توهُّج الجحيم حاكى تأثيرها ما جرى في قصف دريسدن[1] الناري خلال الحرب العالمية الثانية، إذ إنَّ امتصاص الأكسجين من الهواء جعل النجاة من النيران مستحيلة، حتى لمن نجا من اللهب ذاته.

في تلك المرحلة التهمت النيران المُحدِّث، ثالث شخصية محورية في تاريخ الفيروس تقع ضحية خلقها الخاص.

بفضل تواصلهما المحدود مع الشبكة استطاع ليو تسي شين وبان، إلى جانب إخوانهم من المتشردين، النجاة من المراحل الأولى لعمليات اللعنة، ومع بدء العمليات اللاحقة اعتمدوا على مهارات أصقلوها خلال سنوات من التجوال في شوارع المدينة للبقاء على قيد الحياة. وبرشاقة لا تتوافق مع أعمارهم تفادوا كل

(1) سلسلة من الغارات الجوية المدمِّرة شنَّتها القوات الجوية الملكية البريطانية والقوات الجوية لجيش الولايات المتحدة على مدينة دريسدن الألمانية خلال الحرب العالمية الثانية. وقعت هذه الغارات بشكل أساسي بين 13 و15 فبراير 1945، قبل أسابيع قليلة فقط من نهاية الحرب في أوروبا.

مركبة مندفعة نحوهم، وبفضل معرفتهم العميقة بكل شارع وزقاق نجحوا في النجاة من «التحطيم العظيم».

لكنَّ الأوضاع سرعان ما ازدادت خطورة. ومع تحوُّل المدينة بأكملها إلى بحر من النيران وجدوا أنفسهم في مركز تقاطع طرق بالقرب من دايينغبان. موجات خانقة من الحرارة تتدفق فوقهم، وألسنة اللهب تمتد من ناطحات السحاب المحيطة بهم كأنها ألسنة سحالي عملاقة.

أصاب ليو تسي شين، الذي لطالما وصف دمار الأكوان الخيالية في كتاباته، الذعر حتى نخاعه. وظلَّ بان، الذي اتسمت أعماله دومًا بالدفء الإنساني، هادئًا متماسكًا. راح يمرر يده في لحيته، ينظر إلى الجحيم المحيط بهم، ويتمتم بنبرة متأملة:

- من كان يظن... أنَّ الدمار... يمكن أن يكون بهذه الروعة... لماذا لم أكتب عنه من قبل؟

ارتجفت ساقا تشي شين وسقط على الأرض يئن:

- لو علمت أنَّ الدمار بهذا الرعب، لما كتبت عنه بهذا الكم... تبًا لي ولساني الطويل. ها هي النتيجة.

وأخيرًا توصَّلا إلى استنتاج مشترك:

أكثر أنواع الدمار إثارةً هو تدمير المرء لنفسه.

وفجأة سمعا صوتًا رقيقًا كالفضَّة، كأنه لمسة بلورة جليدية وسط بحر من اللهب:

- تشي شين، بان، أسرعا!

وبتتبُّع الصوت شاهدا جوادين يخرجان من وسط النيران كأنهما طيفان، على صهوتهما فتاتان شابتان من هيئة تحرير «ميم

خاء عين»، تنساب خصلات شعرهما الطويل خلفهما. سحبتا ليو تسي شين وبان إلى ظهور الجياد، ثم انطلقتا بهما كالصاعقة عبر فجوات اللهب، تقفزان فوق حطام السيارات المحترقة.

وبعد لحظات انقشع الدخان عن ناظريهما. عبرت الخيول جسر نهر فن. تنفَّس ليو تسي شين وبان بعمق من الهواء البارد النقي، وهما يمسكان بخصري الفتاتين النحيلين ويشعران بخصلات الشعر تلامس وجهيهما تمنَّيا لو طالت رحلة الهروب أكثر.

عبر الفرسان الجسر إلى برِّ الأمان، وسرعان ما انضموا إلى بقية طاقم تحرير «ميم خاء عين»، ممتطين جميعًا جيادًا قوية. انطلقت تلك الكتيبة الرائعة من الفرسان باتجاه معبد جينتسي وسط نظرات الدهشة والغيرة من الناجين الفارين سيرًا على الأقدام.

لاحظ ليو تسي شين وبان وجود درَّاج وحيد بين صفوف الناجين، فاسترعى انتباههم لسبب وحيد: الدراجات الهوائية في هذا العصر مربوطة بالشبكة وتخضع لتحكمها، وقد أوقفت اللعنة عجلاتها في بداية هجومها.

كان الراكب رجلًا مُسنًا، يُعرف في السابق بـ«سا بي». وبفضل حملة التحرش المبكرة التي شنَّتها اللعنة، كوَّن سا بي خوفًا لا واعيًا من الشبكة ونفورًا منها. وتجنَّب استخدامها قدر الإمكان باستخدام دراجة قديمة تعود لعشرين عامًا، على سبيل المثال يعيش على ضفة نهر فن في أطراف المدينة. عندما بدأ «التحطيم العظيم» انطلق إلى برِّ الأمان على دراجته غير المتصلة بأي نظام.

وفي الواقع سا بي واحد من قلة آنذاك يشعرون بالرضا حقًا. وجد السلام في سلسلة من العلاقات العاطفية، وعلى استعداد لملاقاة الموت دون شكوى أو ندم متى جاء.

وصل سا بي وفرسان «ميم خاء عين» إلى قمّة جبل على أطراف المدينة. ومن هناك تطلّعوا نحو المدينة المشتعلة أسفلهم. إعصارٌ هائج يعصف عبر التلال، قادمًا من كل اتجاه نحو حوض تاي يوان، لتعويض الهواء المفقود بسبب الحرارة المتصاعدة.

وغير بعيدة عنهم مجموعة من كبار مسؤولي الحكومة الإقليمية والبلدية يترجَّلون من مروحية أنقذتهم من الجحيم، ومسوَّدة خطاب في جيب العمدة لا تزال محفوظة، أعدَّها بمناسبة احتفالات المدينة السنوية.

تأسَّست تاي يوان عام 497 قبل الميلاد كعاصمة لمملكة جين، ونجت من الاضطرابات خلال فترتي «الربيع والخريف»[1] و«الممالك المتحاربة».[2] وازدادت أهميتها كحصن عسكري استراتيجي في شمال الصين، في عهد أسرة تانغ.

دمَّرتها قوات سونغ عام 979 ميلادية، لكنها نهضت مجددًا وازدهرت عبر عصور سونغ وجين ويوان ومينغ وتشينغ. لم تكن مدينة ذات أهمية عسكرية فحسب، بل مركزًا مشهورًا للثقافة والتجارة، وكان الشعار المقترح للاحتفال بذكراها: «تاي يوان – 2500 عام من المجد!».

لكن الآن المدينة التي صمدت 25 قرنًا تحوَّلت إلى رماد في بحر من اللهب.

---

(1) تقريبًا من 771 إلى 476 قبل الميلاد. سُميت بهذا الاسم نسبةً إلى حوليات الربيع والخريف (Spring and Autumn Annals)، وهو سجل تاريخي لمملكة لو (مسقط رأس كونفوشيوس) يُعتقد أن الفيلسوف كونفوشيوس قد قام بتحريره.

(2) تقريبًا من 475 إلى 221 قبل الميلاد.

أُنشئ رابط اتصال لاسلكي عسكري مع الحكومة المركزية، وأُبلغ المسؤولون أن فرق الإنقاذ تتوجه نحو تاي يوان من جميع أنحاء البلاد.

لكن سرعان ما انقطعت الاتصالات مجددًا، ولم يبقَ في الأثير إلا الصمت والتشويش. وبعد ساعة ورد تقرير يُفيد بأنَّ فرق الإنقاذ قد توقفت، وعادت الطائرات إلى قواعدها.

مرة أخرى في مكتب شانشي لسلامة الذكاء الاصطناعي، فتح مدير كبير جهاز الكمبيوتر المحمول الخاص به. عرضت الشاشة أحدث نسخة مجمَّعة من الفيروس؛ اللعنة 5.0 معلمات الهدف «تايوان، مقاطعة شانشي، الصين» تُقرأ الآن «*،*،*».

العصر المجهري

الفصل الأول

العودة

الآن.. أدرك الرائد أنه آخر من تبقَّى في الكون. استشعر ذلك عندما تجاوز مدار بلوتو. من هذه النقطة لم تعُد الشمس سوى نجم خافت، لا تختلف عن حالها يوم غادر النظام الشمسي قبل ثلاثين عامًا.

لكن تحليل تباعُد[1] أجراه الحاسوب منذ لحظات أخبره بانزياح مدار بلوتو انزياحًا ملحوظًا نحو الخارج. وبناءً على هذه البيانات تمكَّن من حساب فقدان الشمس 4.47% من كتلتها منذ مغادرته. ولم يكن لذلك سوى استنتاج واحد، ارتجَّ له قلبه، وانكمشت روحه من الهلع:

حدث الأمر بالفعل.

في الواقع علمت البشرية بهذا الأمر قبل انطلاق رحلته بوقت طويل. عرفوه بعد إرسال آلاف مؤلفة من المجسَّات إلى الشمس،

(1) تحليل تباعد على مدار بلوتو: قارن المدار الحالي لبلوتو بمداره السابق أو المدار المتوقع، واكتشف أن هناك «تباعدًا» أو انزياحًا كبيرًا نحو الخارج.

مكّنت نتائجها علماء الفلك من التنبؤ بانبعاث وميض طاقة قصير الأمد من النجم، يُفقده نحو خمسة في المائة من كتلته.

لو أنَّ الشمس واعية ذات ذاكرة لما أزعجها ذلك الحدث إطلاقًا. عبر مليارات السنين من عمرها مرَّت بتحولات أعظم بكثير. يوم وُلدت من فوضى سديم[1] نجمي دوَّار شهدت تغيُّرات أعنف من هذا خلال أجزاء من الثانية. في تلك اللحظات المتألقة المجيدة أشعل الانهيار الثُقالي حرائق الاندماج النووي، مضيئًا فوضى الغبار النجمي القاتم.

تعلم الشمس أنَّ وجودها في ذاته مسار طويل من التغيُّر، ومع أنها تمر الآن بأكثر مراحله استقرارًا فإنَّ تغيرات طفيفة، مفاجئة أحيانًا، لا مفرَّ منها. تشبه الشمس سطح ماء ساكن، ربما يظل هكذا زمنًا، حتى تهزه فُقّاعة تنفجر فجأة. فقدان جزء من الطاقة والكتلة لا يعني لها شيئًا ذا بال، فالشمس ستظل شمسًا، نجمًا متوسط الحجم، لامعًا، قدره الظاهري[2] – 26.8.

لم يكن الوميض ليترك أثرًا كبيرًا في بقية النظام الشمسي. ربما تلاشى عطارد تمامًا، وتجرَّدت الزهرة من غلافها الجوي الكثيف، أما الكواكب الأبعد فسيكون تأثير الحدث فيها أضعف. ربما تنصهر قشرة المريخ ويتحوَّل لونه من الأحمر إلى الأسود، أما الأرض فلن تسخن إلا إلى سبعة آلاف درجة مئوية، ولعلَّ ذلك لا

---

(1) السدم: حاضنات النجوم، حيث تتشكل النجوم الجديدة بداخلها.

(2) القدر الظاهري (Apparent Magnitude): مقياس لمدى سطوع جسم سماوي (مثل نجم أو كوكب) كما يبدو من الأرض. كلما كان الرقم أصغر (أو أكثر سلبية)، كان الجسم أكثر سطوعًا.

يدوم أكثر من مائة ساعة. حينها ستتبخَّر المحيطات حتمًا، وتنصهر طبقات الصخور القارية، لكن هذا كل شيء.

ستعود الشمس سريعًا إلى حالتها السابقة، مع أنها ستفقد بعضًا من كتلتها. وهذا النقص سيؤدي إلى انزياح مدارات الكواكب كلها نحو الخارج، لكنه لن يكون أمرًا جللًا، فالأرض –مثلًا– لن يتغير مناخها إلا قليلًا، لتنخفض حرارتها إلى نحو 80- درجة مئوية. بل إنَّ هذا البرد سيسرِّع تجمُّد القشرة المنصهرة، ويساعد على احتفاظ الكوكب ببعض الماء والغلاف الجوي.

ثمَّة نكتة شاعت آنذاك، محادثة مع الإله كالتالي:

- يا إلهي، بالنسبة لقدرتك آلاف السنين لا تعني شيئًا؟

فيجيب الإله:

- نعم، مجرد ثانية بالنسبة لي.

- ويا إلهي، أليست كنوز الدنيا عندك تافهة؟

فيقول:

- مجرد فلس.

- فأعطني إذًا فلسًا، أرجوك!

فيجيب الإله:

- طبعًا.. انتظر ثانية فحسب!

الآن الشمس هي من تقول للبشرية «ثانية فحسب». قُدِّر أنَّ انبعاث وميض الطاقة ذاك لن يحدث إلا بعد ثمانية عشر ألف سنة.

لا تعدو سوى ثانية بالنسبة للشمس بكل تأكيد، بينما سرى بين البشر في مواجهة «ثانية» كاملة من الانتظار، نوع من اللا مبالاة.

ارتقى إلى مرتبة الفلسفة، ومع كل يوم صاروا أكثر سخرية، أكثر بلادة، أكثر تفاهة.

ومع ذلك بقي أمامهم ما لا يقل عن أربعمائة أو خمسمائة جيل لمحاولة النجاة.

وبعد قرنين اتخذت البشرية الخطوة الأولى: أطلقوا مركبة فضائية إلى ما وراء النجوم بحثًا عن كوكب صالح للحياة ضمن نطاق مائة سنة ضوئية. أُطلق على تلك المركبة اسم «يو إن إس آرك»، وعُرف طاقمها باسم الرواد.

اجتازت المركبة ستين نجمًا، أي ستين جحيمًا. ولم تجد سوى جِرم واحد يدور حوله قمر معدني، قُطره خمسة آلاف ميل، كقطرة من معدن منصهر، تتلوَّى في تغير مستمر طوال دورانه في المدار.

إنجاز المركبة الوحيد وأشد الأدلة صدقًا على وحدة الإنسان.

أبحرت الآرك ثلاثة وعشرين عامًا. لكن، وبينما بلغت سرعة تقارب سرعة الضوء، مرَّ على الأرض خمسة وعشرون ألف عام. لو اتبعت خطتها الأصلية لتوجَّب عليها العودة منذ زمن بعيد.

بسرعة قريبة جدًا من سرعة الضوء استحال التواصل مع الأرض، وليس بالإمكان تبادل الرسائل إلا إذا خفَّضت سرعتها إلى أقل من نصف سرعة الضوء، تستهلك تلك المناورة طاقة وزمنًا هائلين. بالتالي لم تحدث سوى مرة كل شهر، تبطئ لتتلقَّى أحدث رسالة من الأرض، أُرسلت بعد أكثر من مائة سنة من الرسالة السابقة، يُشبه الوقت النسبي في التواصل بين الآرك والأرض استهداف نقطة بتليسكوب عالي الطاقة، لو انحرف بأدنى درجة فسيخطئ الهدف بمسافة شاسعة.

في السنة الثالثة عشرة من زمن الآرك، وقد مضى على انطلاقها سبعة عشر ألف عام، تلقَّت السفينة آخر رسالة من الأرض. بعد شهر تباطأت مرَّة أخرى فلم تتلقَّ شيئًا. ساد الصمت.

ربما أخطأ التنبؤ الذي قيل منذ آلاف السنين قليلًا، لكنَّ «شهرًا» واحدًا على الآرك يعني أكثر من مائة عام على الأرض، فلا بد أنَّ المحتوم وقع. هكذا صارت الآرك سفينة نوح بكل ما في الاسم من معنى، وعلى متنها راكب واحد.

مات أربعة من الروَّاد بفعل إشعاع نجم نوفا[1] انفجر على بُعد أربع سنوات ضوئية، واستسلم اثنان آخران للمرض، وأطلق الأخير في لحظة تباطؤ صامت مشؤوم النار على نفسه.

ظلَّ الرائد الأخير يحافظ على سرعة التواصل طويلًا، ثم أعاد تسريع السفينة إلى أقصى حد، لكنَّ قبسًا صغيرًا من الأمل داخله ودفعه إلى التباطؤ مرَّة أخرى. أصغى باشتياق، فلم يسمع إلا الصمت. وكرَّر المحاولة مراتٍ ومرات، يسرِّع ثم يبطئ، مؤخرًا عودته باستمرار.

وفي كل مرَّة لم يكن هناك سوى الصمت.

عادت الآرك إلى النظام الشمسي بعد خمسة وعشرين ألف سنة من مغادرتها، متأخرة تسعة آلاف سنة عن موعدها الأصلي.

---

(1) نوفا (Nova) تشير إلى زيادة مفاجئة وقوية في سطوع نجم. تأتي الكلمة من اللاتينية بمعنى «نجم جديد»، لأن النجم الذي كان خافتًا جدًا لدرجة أنه لا يُرى بالعين المجردة قد يصبح واحدًا من أكثر الأجسام سطوعًا في السماء.

الفصل الثاني

النُّصب التذكاري

بعد تجاوز مدار بلوتو باتت المجموعة الشمسية أشبه بميناء هادئ لسفينة بين نجمية مثل «يو إن إس آرك». واصلت رحلتها في هدوء نحو الأعماق. سرعان ما ازداد سطوع الشمس، ولمَّا غمرتها اقتنص الرائد أول نظرة له على المشتري. وعبر تلسكوبه رصد تغير الكوكب الضخم إلى حدٍّ صعب معه التعرُّف عليه. لم تظهر البقعة الحمراء الشهيرة، وبدت الأحزمة العاصفة أكثر جنونًا من أي وقت مضى. لم يلتفت إلى الكواكب الأخرى، وتابع طريقه الهادئ في المرحلة الأخيرة من الرحلة قاصدًا الأرض.

ارتجفت يده وهو يضغط على الزر، لينفتح درع معدني ثقيل يغطي نافذتها ببطء.

قال الرائد مغمض العينين في خشوع: «آه.. يا كرتي الزرقاء، يا عين الكون الزرقاء، يا ملاكي الأزرق». بعد وقتٍ بدا طويلًا، جاهد ليفتح عينيه أخيرًا.

رأى كوكبًا بلونين: أسود وأبيض.

الأسود للصخر، انصهر ثم تيبَّس كشواهد القبور. والأبيض، ماء البحور، تبخَّرت ثم تجمَّدت، كأكفان الموتى.

حين دخلت «الآرك» مدار الأرض المنخفض، وجعلت تمر ببطء فوق اليابسة السوداء والبحار البيضاء، لم يرَ الرائد أثرًا للبشر.

كل شيء ذاب واندثر. ضاع في خيط دخان.

لكن لا بدَّ أنَّ شيئًا صمد. لا بدَّ من نُصبٍ تذكاري استطاع النجاة من حرارة بلغت سبعة آلاف درجة، حيث فني كل شيء سواه.

وما إن خطرت هذه الفكرة بباله حتى ظهر النصب. إشارة فيديو أُرسلت من سطح الكوكب إلى السفينة. بثَّ الحاسوب محتوى يعود إلى آلاف السنين على شاشته. صوَّرت تلك اللحظات كاميرات شديدة المقاومة للحرارة لا ريب. شاهد الكارثة التي حاقت بالأرض، وجاءت اللحظة التي ضرب فيها وميض الطاقة مختلفة تمامًا عما تخيله طوال الوقت.

لم تشتعل الشمس فجأة، معظم الإشعاع الكارثي الذي أطلقته بقي خارج الطيف المرئي. لكنه رأى، على الرغم من كل شيء، لحظة النهاية. تستحيل السماء الزرقاء فجأة إلى قرمزيٍّ من جهنم، ثم إلى أرجوان كابوسي.

رأى مدن ذاك العصر، بأبراجها الشاهقة المألوفة، تنفث دخانًا كثيفًا أسود، مع ارتفاع الحرارة بآلاف الدرجات. بدأت المباني تتوهج كجمر خافت، ثم ما لبثت أن ذابت كشموع لا تُحصى.

تدفقت قمم الجبال بحمم حمراء متوهجة، تستحيل شلالات من صخر منصهر. تلاقت لتُشكل نهر قرمزي ضخم، دفن الأرض تحت فيضانه البركاني، وارتفعت سحب هائلة من المحيطات على شكل فطر عملاق، بطونها تتوهج بلون العالم المنصهر، وقممها موشاة بقسوة الأرجوان السماوي.

توسَّعت الغيوم البخارية في جنون، وابتلعت كل شيء.

مرَّت سنوات قبل تبدُّد الضباب أخيرًا، كاشفًا أنَّ ثمَّة كوكبًا لا يزال موجودًا تحته. بدأ العالم المحترق والمنصهر في الأسفل يبرد. غطَّت الصخور السوداء المتموجة الكوكب بأسره. في أماكن متفرقة ما زالت الحمم تتلوَّى، ترسم شبكات نارية عبر سطح الأرض. لم يتبقَّ من البشر شيء. اختفت الحضارة كما لو كانت البشرية حلم صحت الأرض منه.

بعد أعوام قليلة بدأت المياه المتحللة تحت الحرارة الهائلة إلى أكسجين وهيدروجين تعيد اتحادها. سقطت في سيول غزيرة لتغطي الأرض المحترقة بالبخار مجددًا. بدا كأنَّ الكوكب صار في قِدر بخاري ضخم: مظلم، رطب، خانق. واستمرَّت السيول لعشرات السنين، والأرض تبرد رويدًا رويدًا، حتى بدأت المحيطات تتشكَّل من جديد.

ومضت قرون، تلاشت الغيوم السوداء من مياه البحر المتبخرة أخيرًا، واستعادت السماء زرقتها. عادت الشمس إلى الظهور في الأعالي، لكنَّ مدار الأرض الجديد، البعيد أكثر، أجبر الكوكب على انخفاض حاد في درجات الحرارة، جمَّد المحيطات. أصبحت السماء صافية دون سحابة، فيما الأرض تحتها صامتة، ميتة، ومغطاة بالجليد.

تغيَّرت الصورة مرَّة أخرى، وانكشفت أول الأمر عن مدينة. مبانٍ عالية نحيلة تملأ الأفق، ثم هبطت الكاميرا ببطء من علوٍّ مجهول، لتظهر ساحة واسعة غاصة بالجماهير. هبطت الكاميرا أكثر، فبانت للرائد وجوههم جميعًا مرفوعة نحو السماء، كأنهم ينظرون إليه. ثم توقفت الكاميرا أخيرًا، مُحلقة فوق منصة في قلب الساحة.

ثمَّة فتاة جميلة، في سنِّ المراهقة على الأرجح. وبينما تلوِّح نحوه عبر الشاشة، صاحت بصوت ناعم مبتهج:

- أجل، نراك! أتيت إلينا كالشهاب! هل أنت من آرك واحد؟

في السنوات الأخيرة من رحلته، قضى الرائد معظم وقته في لعبة واقع افتراضي. تتصل الحواسيب بإشارات دماغ اللاعب مباشرة، مُحوِّلةً أفكاره إلى صور ثلاثية الأبعاد. وكما هو واضح، شخوص وأشياء هذه الصور مقيَّدة من نواحٍ عدَّة بحدود خيال اللاعب.

ومع كثرة العوالم التي صنعها في وحدته، من بيت صغير إلى عوالم كاملة، أدرك أنَّ المدينة على شاشته الآن مجرد واقع افتراضي آخر، لكن رديء الصنع هذه المرة، نتاج ذهن شارد. الإسقاطات الافتراضية مثل هذه، المولودة من الخيال، عُرضة دائمًا للأخطاء. لكن ما يراه من صور الآن يبدو الخطأ فيها أكثر من الصواب.

كان أول الأشياء وأسوأها عندما مرت الكاميرا بناطحات السحاب، رأى أشخاصًا عدة يخرجون من المباني عبر نوافذ الطوابق العليا، هابطين مئات الأقدام إلى الأرض مباشرة، دون أن يمسهم ضر، أو يبدو عليهم أثر أي أذى على الإطلاق نتيجة السقوط من هذا الارتفاع الشاهق، وآخرين يقفزون في الهواء كأنهم مشدودون بخيوط خفية، تحملهم هذه القفزات الغريبة عدة طوابق إلى أعلى جانب ناطحة سحاب. ثم يصعدون إلى الأعلى، دافعين أنفسهم من مساند للأقدام تمتد على جانب كل مبنى، كما لو أنها وُضعت هناك خصيصًا لهذا الغرض.

وبهذه الطريقة يمكنهم الوصول إلى قمَّة أي مبنى أو الدخول إليه عبر أي من نوافذه التي لا تُحصى. بدا أن ناطحات السحاب

هذه لا تحتوي على مصاعد أو أبواب. على الأقل لم يرهم الرائد أبدًا يستخدمون أي شيء باستثناء النافذة لدخول المبنى أو مغادرته.

وعندما تحركت الكاميرا الافتراضية فوق تلك الساحة رأى الرائد خطأ آخر: كرات بلورية معلّقة بخيوط في الهواء، قُطر الواحدة ثلاثة أقدام تقريبًا. أمواج من الناس يمدون أيديهم ويأخذون أجزاء من مادتها البلورية بكل سهولة، بعدها تستعيد شكلها الكروي من جديد، والقطعة المستخرجة تفعل الشيء ذاته، ولا يضعها الشخص في فمه ويبتلعها حتى تصبح القطعة المستخرجة الصغيرة بكامل استدارتها.

إضافة إلى هذه الأخطاء الواضحة بان ارتباك وعدم عقلانية مُنشئ الصورة أكثر في الأشياء الغريبة الطافية في سماء المدينة، بعضها كبير، يتراوح طوله من خمسة إلى عشرة أقدام، والبعض الآخر أصغر، حوالي قدم واحدة أو نحو ذلك. بعضها يشبه الإسفنج المهشَّم، وبعضها يستدعي إلى الذهن فروع أشجار عملاقة ملتوية؛ وكلها تدور ببطء في السماء.

رأى غصنًا كبيرًا ينجرف نحو الفتاة على المنصة، دفعتْه بخفة فطاف بعيدًا. عندها فهم الرائد فجأة: في عالم على حافة الهلاك، من المستحيل أن يظل العقل سليمًا والفكر واضحًا.

المرجَّح أنَّ هذه الصور تأتي من منشأة آلية، دُفنت عميقًا في الأرض قبل الكارثة، وحُصِّنت من الحرارة والإشعاع. لا بد أنها ظلت مخبأة تنتظر، لتصعد تلقائيًا إلى السطح بمجرد أن أصبح آمنًا. هذه المنشأة، إذن، ربما حافظت على يقظة لا تنتهي، تراقب الفضاء، وتبث هذه الصور على أي من بقايا البشرية المتناثرة العائدة

إلى الأرض. من المحتمل أن هذه الصور الهزلية والمختلطة قد أُنشئت بنية حسنة، بهدف مواساة الناجين.

سأل الرائد آملًا في الحصول على شيء من هذا العرض الغريب:

- تقولين إنَّ ثمة مركبات أخرى غير الآرك؟

أجابت الفتاة بحماس:

- طبعًا! اثنتا عشرة أخرى!

على الرغم من سخافة عناصر الصورة الأخرى فإنَّ الفتاة لم تكن سيئة على الإطلاق. وجهها الجميل جمع بين أفضل سمات الثقافتين الشرقية والغربية في آن، يشعُّ ببراءة طاهرة. بدا الكون بأكمله، بالنسبة لها، ملعبًا كبيرًا. كأنما تغني عيناها الكبيرتان المستديرتان مع كل رفَّة من رموشها، بينما يرفرف شعرها الطويل حرًا، ذكرته بحورية تسبح في محيط خفي.

سأل يلهبه آخر أمل:

- هل بقي أحد حيًا؟

سألت الفتاة ببراءة في المقابل:

- ألستَ حيًا؟

قال بحنق خفيف:

- أنا إنسان حقيقي. لستُ مجرد صورة من الحاسوب.

قالت باهتمام كبير:

- وصلت آخر سفينة قبلك منذ سبعمائة وثلاثين عامًا. أنت آخر من عاد.. لكن، هل معك نساء؟

ردَّ بصوت أثقلته الذكرى:

- أنا وحدي.

سألت، وعيناها تتسعان من الصدمة:

- حقًا لا نساء معك؟

ردَّ:

- أنا الوحيد كما قلت.

ثم سأل في المقابل، يائسًا للحفاظ على شعلة الأمل حي:

- ألا يوجد أي مركب آخر لم يعُد بعد؟

هزَّت يديها النحيلتين الشبيهتين بأيدي الجنيات بأسى:

- لا أحد! إنه أمر محزن.. تعيس للغاية.. أنت الأخير.. إلا إذا..

تابعت وهي لا تستطيع كبح شهقاتها:

- عبر الاستنساخ.

انفجرت باكية، دون سيطرة، وابتلَّ وجهها الجميل بالدموع، وكل من في الساحة غرق في بكاء مرير.

لم يبكِ الرائد، لكنَّ قلبه غاص في أعمق هاوية. فناء الإنسان أصبح حقيقة لا تُنكر.

سألت الفتاة رافعة وجهها مرة أخرى، وقد استعادت سلوكها البريء، ونُسي حزنها الأخير -قبل ثوانٍ فقط- على ما يبدو:

- ألن تسألني من أكون؟

ردَّ ببرود:

لا يهمني.

صرخت باكية:

- لكنني زعيمة الأرض!

وهتف الحشد: «نعم! المستشارة العليا لحكومة وحدة الأرض!».

صرخ الناس في الساحة بصوت واحد. عكس تحوُّلهم السريع من الحزن إلى الإثارة عيوبًا واضحة في برمجتهم. كاد يدير ظهره، بعدما سئم هذا العبث، لكن صوتها استوقفه:

- كيف لا تهتم وكل عواصم الأرض اجتمعت هنا لاستقبالك؟ أيها الأب المؤسِّس! لا تتجاهلنا!

تذكَّر سؤاله الأساسي، فسألها أخيرًا:

- ما الذي تركه الإنسان خلفه؟

أجابت بمرح:

- اتبع منارة الهبوط، وستعرف بنفسك!

الفصل الثالث

العاصمة

صعد الرائد إلى وحدة الهبوط الخاصة به، تاركًا «يو إن إس آرك» في مدارها، بدأ النزول إلى الأرض، متبعًا إحداثيات منارة الهبوط. مرتديًا نظارات فيديو تنقل عدساتها صورًا حية من الكوكب بالأسفل.

تثرثر الفتاة التي تطلق على نفسها لقب زعيمة الأرض:

- أيها الرائد، عليك القدوم إلى عاصمة الأرض في الحال. صحيح أنها ليست أكبر مدن الكوكب، لكنها بلا شك الأجمل! ستحبها! لكن لاحظ أنَّ الإحداثيات التي زوَّدناك بها ستقودك إلى نقطة بعيدة عن المدينة بعض الشيء، رغبنا في تجنب أي ضرر محتمل.

عدَّل الرائد منظور نظاراته ليرى المنطقة الواقعة أسفل مركبة الهبوط مباشرة. الآن، على ارتفاع ثلاثين ألف قدم في الهواء فحسب، لا يرى سوى أرض سوداء قاحلة تمتد إلى ما لا نهاية.

ومع استمراره في الهبوط ازدادت الصورة الافتراضية أمامه ارتباكًا. ربما غرق صانعها قبل آلاف السنين في كآبة لا تُتصوَّر، أو لعلَّ الحاسوب الذي يعرضها، المستمر في العمل بنفسه آلافًا

مؤلفة من السنين يُظهر بعض علامات الشيخوخة. في كل الأحوال، ولسبب غامض، بدأت الفتاة الافتراضية تغني:

آه.. يا ملاكي العزيز! عدت من العصر الكبير!

آه.. أيها العصر الكبير المجيد!

أيها العصر الكبير الرائع!

أيها العصر الكبير الجميل!

أيتها الرؤيا الزائلة! احترق الحلم في اللهيب..

وما إن بدأت هذه المغنية الرائعة ترنيمتها حتى قفزت في الهواء ثلاثين قدمًا فوق المنصة، ثم نزلت عليها، ووثبت من جديد، عبرت الساحة كلها بقفزة واحدة هذه المرة. لتهبط فوق سطح مبنى، ومن هناك قفزت مجددًا، عابرة عرض الساحة بالكامل. بدت كبرغوث ساحر لطيف في قفزاتها الرشيقة تلك.

ثم قفزت مرة أخرى، وفي الهواء التقطت أحد الأجسام الغريبة الهائمة قربها. بطول بضعة أقدام بدا كجذع شجرة غريبة، دار بها في الهواء، فوق بحر الجماهير، حتى أثناء ارتفاعها ظلَّ جسدها الرشيق يتلوَّى بانسجام مع الإيقاع.

بدأ بحر الجماهير في الأسفل يضج بحماسة سرعان ما استحالت أغنية:

«أيها العصر الكبير! أيها العصر الكبير!»

ومع استمرار الغناء بدأ الجميع في القفز. بدا الحشد الآن كأنه رمل على طبل، يموج ويهبط مع كل نبضة خفية.

رفض الرائد ببساطة تحمُّل المزيد من هذا، أوقف الصورة والصوت معًا. بات واثقًا، الآن، أن الوضع أسوأ مما توقع. لا بد أنَّ

سكان الأرض، قبل وقوع الكارثة، قد امتلأت قلوبهم بالحقد تجاه الذين نجحوا في الفرار عبر الزمان والمكان، ونجوا من هلاكهم المحتوم. وبواعز من هذا الحقد صنعوا هذا التشويه المقيت ليعذبوا به العائدين.

ومع مواصلة الهبوط بدأت آثار الانزعاج الناتجة عن الصور تتلاشى تدريجيًا، واختفت تمامًا بحلول صدمة الهبوط تقريبًا، ولبرهة راوده الأمل: ربما هبط فعلًا قرب مدينة غير مرئية من الأعلى.

تبخَّرت كل آماله بخروجه من المركبة. وجد نفسه محاطًا بخراب أسود دون نهاية. وسرى في نفسه يأس يبَّس أوصاله.

فتح الرائد واقي خوذته ببطء وحذر، فاندفع -على الفور- تيار بارد من الهواء لامس وجهه. هواء رقيق للغاية[1]، لكنه كثيف بما يكفي لتنفسه. تقارب درجة الحرارة الأربعين تحت الصفر. فوقه السماء زرقاء داكنة، كما كانت عند الفجر والغروب في العصر السابق للكارثة، غير أنَّ الوقت لم يكن فجرًا ولا غروبًا، كما أكَّد قرص الشمس المعلَّق في كبد السماء.

خلع الرائد قفازيه، لكنه لم يشعر بدفء الشمس. أشعة الشمس في هذا الهواء الرقيق ضعيفة متفرقة. رأى النجوم تتلألأ في السماء أعلاه.

الأرض تحت قدميه متصلبة قبل نحو ألفي عام. من حوله رأى تموُّجات الحمم المتجمدة. ورغم بدء آثار التعرية بالظهور ظلَّ السطح صلبًا وذا حوافَّ حادَّة. لم يميِّز سوى آثار طفيفة من التربة

(1) غالبًا ما يكون الهواء رقيقًا في الأماكن التي تكون فيها الجاذبية أضعف أو حيث يكون الارتفاع عاليًا جدًا. كلما ارتفعت في الغلاف الجوي للأرض، قل ضغط الهواء و«رقَّ» الهواء.

مهما نظر عن كثب. أمامه امتدت الأرض المتماوجة حتى الأفق، تتناثر فيها بعض التلال الصغيرة. وخلفه، يلمع بياض المحيط المتجمّد في الأفق.

مسح الرائد محيطه بحثًا عن مصدر الإرسال، وأخيرًا رصد قبة شفافة مزروعة في الصخر. بقطر يبلغ ثلاثة أقدام تقريبًا، تغطي مجموعة من الهياكل المعقدة للغاية.

سرعان ما ميَّز العديد من القباب المشابهة متناثرة على مسافات تتراوح بين خمسين ومائة قدم. من مكانه بدت كأنها فقاعات تجمَّدت وهي تخترق سطح الأرض، والآن تلمع تحت ضوء الشمس.

فعَّل الرائد العدسة اليسرى من نظاراته مجددًا، ففتحت نافذة افتراضية على ذلك العالم العجيب المُصمم له. لا تزال «الزعيمة» الوقحة تطير في الهواء، تركب غصنها الغريب، تغني وتتلوَّى بجنون.

وأثناء طيرانها، راحت ترسل القُبَل إلى الكاميرا. فيما كانت الجماهير تهتف من الأسفل، حتى آخر رجل:

آه.. أيها العصر الكبير العظيم!

آه.. أيها العصر الكبير الرومانسي!

آه.. أيها العصر الكبير الحزين!

آه.. أيها العصر الكبير الهش..

جمَد الرائد في مكانه من الخدر. واقفًا تحت السماء الزرقاء العميقة، في ضوء الشمس الساطع، وتحت نجوم تتلألأ في وضح النهار، شعر بالكون كله يدور من حوله، هو، آخر إنسان.

اجتاحه سيل من الوحدة القاتمة، وغطى وجهه، فخرَّ راكعًا، ينتحب.

بينما يهوي في اليأس، توقف الغناء. حدَّق كل من في الصورة الافتراضية إليه مباشرة، بعيون لا تُحصى تفيض بالقلق العميق. أرسلت الفتاة، التي لا تزال تطير على غصنها، ابتسامة رقيقة له.

قالت وهي تغمز بعينيها:

- أما زال إيمانك بالبشرية ضئيلًا إلى هذا الحد؟

واصلت حديثها، ومع كل كلمة نطقتها شعر الرائد بقشعريرة تسري في جسده، توتَّرت حواسه. ثم، وهو يقف ببطء، لاحظ أمرًا غريبًا: ظلٌّ هائل يغطي المدينة في عدسة نظارته اليسرى. بدا كأنَّ غيمة سوداء ظهرت فجأة، فحجبت السماء في لحظة.

خطا خطوة جانبًا، فعاد النور إلى المدينة فورًا.

اقترب من القبة مدفوعًا بالفضول. انحنى أمامها يتفحَّصها عن كثب. داخلها تراءت له بُنى دقيقة بالغة التعقيد على نحو لا يُصدَّق، وعندها لاحظ شيئًا غريبًا ومهيبًا يملأ السماء في نظاراته، ذلك الشيء هو وجهه.

صرخت الفتاة بأعلى ما تستطيع:

- نراك! هل ترانا؟ استخدم المكبِّر!

وانفجرت الجماهير من جديد بهتاف صاخب.

أخيرًا فهم الرائد كل شيء: تذكَّر الناس الذين يقفزون من أعلى المباني. هذا منطقي، فالجاذبية لا تؤذيهم في بيئتهم المجهرية(1). وهذا يفسر أيضًا القفزات البهلوانية؛ ففي عالم كهذا، يمكنهم القفز إلى مبنى ارتفاعه ألف قدم، أو بالأحرى، ينبغي قول ألف

(1) الجاذبية هي قوة تعتمد على الكتلة، وعندما تكون الكتل صغيرة جدًا، فإن تأثيرها يصبح ضئيلًا.

ميكرون؟ وتلك الكرات البلورية الكبيرة لم تكن سوى قطرات ماء؛ في هذا الحجم تفرض التوترات السطحية[1] شكلها على السائل. وعندما يشعر هؤلاء البشر المجهريين بالعطش، يمكنهم ببساطة سحب قطرة صغيرة للشرب. أما الأجسام الطولية الغريبة الطافية في المدينة -والتي ركبت الفتاة إحداها- فأصبحت منطقية هي الأخرى، ليست سوى جزيئات من الغبار.

ليس عالمًا افتراضيًا، بل مدينة حقيقية بكل ما في الكلمة من معنى -كما كانت المدن قبل خمسة وعشرين ألف عام- لكنها مغطاة بقبة شفافة قطرها ثلاثة أقدام فقط.

البشرية لا تزال حية. والحضارة لا تزال قائمة.

وفي هذه المدينة المجهرية تطفو فتاة على غصن من الغبار - المستشارة العليا لحكومة وحدة الأرض - تمد يدها بثقة نحو الرجل الذي يملأ، في تلك اللحظة، عالمها كله:

- أيها الرائد، العصر المجهري يرحب بك!

(1) التوتر السطحي: ظاهرة فيزيائية تحدث على سطح السائل، حيث تعمل جزيئات السائل الموجودة على السطح بقوة جذب (تجاذب) فيما بينها أكثر من تلك الموجودة في عمق السائل.

الفصل الرابع

البشريـة المجهريـة

قالت الفتاة للرائد:

- على مدى السبعة عشر آلاف عام السابقة للكارثة لم تدع البشرية حجرًا دون البحث وراءه عن مخرج. تمثَّل أسهل حل في الهجرة إلى نجم آخر، لكن ولا سفينة، بما فيها سفينتكم، تمكَّنت من العثور على نجم واحد يضم كوكبًا صالحًا للسكنى. ولم يكن الأمر ليُحدث فارقًا كبيرًا؛ فحتى قبل الكارثة بقرن واحد، لم تكن تقنياتنا الفضائية قد تطوَّرت بما يكفي لنقل ولو واحد في الألف من البشر.

ثمَّة خطة أخرى: هجرة البشرية عميقًا تحت الأرض، يختبئون جيدًا من وميض طاقة الشمس، في انتظار انحساره كي تعود. خطة، في أفضل أحوالها، ليست سوى وسيلة لتأجيل موتٍ محتوم، فبعد الكارثة دُمِّر النظام البيئي للأرض بالكامل، ولم تكن البشرية لتنجو.

في لحظةٍ من اليأس الكامل بزغت فكرة في ذهن مهندس وراثي: ماذا لو صغَّرنا حجم الإنسان بمقدار تسع مراتب قدرية[1]؟

مرَّ على وجهها تعبير متأمل، وتابعت:

---

(1) مرتبة قدرية (Order of Magnitude): هي زيادة أو نقصان بمقدار عامل 10. الضرب في 10 حال الزيادة والقسمة على 10 حال النقصان للمرتبة الواحدة.

- كل ما في المجتمع البشري يمكن تصغيره بالمثل، وبذلك نخلق نظامًا بيئيًا مجهريًا لا يستهلك إلا موارد طبيعية ضئيلة، وسرعان ما توافقت البشرية كلها على أنَّ هذه هي الطريقة الوحيدة الممكنة لإنقاذ جنسنا.

أصغى الرائد باهتمام بالغ وهو يتأمل في تبعات هذه الخطة.

تابعت:

- قامت الخطة على نوعين من التكنولوجيا: أولًا، الهندسة الوراثية. بتعديل الجينوم البشري، يمكن تصغير الإنسان ليبلغ طوله نحو عشرة ميكرونات[1]، أي بحجم خلية بشرية واحدة. ومع ذلك تبقى البنية التشريحية كما هي. وكان هذا هدفًا واقعيًا تمامًا؛ فالفرق بين جينوم الإنسان وجينوم البكتيريا ضئيل جدًا في الجوهر.

تكنولوجيا النانو هي قطعة اللغز الأخرى، ظهرت منذ القرن العشرين. في ذلك الزمن أمكن للبشر تصنيع مولدات بسيطة بحجم البكتيريا، وانطلاقًا من هذه البدايات المتواضعة تعلَّمت البشرية بناء كل شيء: من صواريخ النانو إلى أفران ميكروويف نانوية؛ لكنَّ مهندسي النانو الأوائل لم يخطر ببالهم قط كيف ستُستخدم اختراعاتهم في نهاية المطاف.

تنشئة أول دفعة من البشر المجهريين تشابهت تمامًا مع عملية الاستنساخ: يُستخرج الجينوم الكامل من خلية بشرية، ثم يُزرع

(1) الميكرون (Micron)، ويُعرف أيضًا باسم ميكرومتر (Micrometer)، هو وحدة قياس للطول تساوي جزءًا من مليون جزء من المتر.

لتنشأ عنه نسخة مجهرية من الإنسان، تشبه الأصل في كل شيء سوى الحجم. أما الأجيال التالية، فقد وُلدت كالبشر الكبار. بالمناسبة.. نحن نُطلق عليكم أنتم اسم «الكبار»، ولعلَّك خمنت أن عصركم نُسميه «العصر الكبير».

أطلَّ أول جيل من البشر المجهريين على العالم بطريقة درامية للغاية.

ذات يوم، بعد نحو 12.500 عام من مغادرة سفينتكم، عُرض فصل دراسي على شاشات الأرض كلها. جلس ثلاثون تلميذًا في هذا الفصل. بدا كل شيء طبيعيًا: أطفال عاديون، في فصل عادي، لا شيء غريب على الإطلاق. ثم ابتعدت الكاميرا تدريجيًا، وإذا بالجميع يكتشف أنَّ ذلك الفصل قائمٌ فوق شريحة ميكروسكوب.

وكادت المستشارة العليا تواصل روايتها، لكنَّ الرائد قاطعها بعد ما استبدَّ به من فضول:

- هل يتمتع البشر المجهريون، بأدمغتهم المجهرية، بذكاء يماثل ذكاء الكبار؟

هزَّت الفتاة رأسها، ضاحكة بسخرية خفيفة، أكثر من كونها منزعجة:

- أتظنني غبية؟ الحيتان لا تفوقك ذكاءً! الذكاء لا يتحدد بحجم الدماغ. من حيث عدد الذرات والحالات الكمومية[1] في أدمغتنا يمكننا معالجة المعلومات بنفس قدرة أدمغة الضخام.

توقفت.. ثم قالت بفضول كبير:

---

(1) الحالات الكمومية (Quantum States) هي مفهوم أساسي في ميكانيكا الكم، وهو فرع من الفيزياء يصف سلوك المادة والطاقة على أصغر المقاييس (الذرية ودون الذرية).

- هل تُرينا سفينتك؟

ردَّ الرائد:

- بالطبع.. بكل سرور.

ثم ببعض التفكير:

- لكن كيف ستذهبون إليها؟

هتفت الفتاة بحماس:

- انتظر لحظة فقط!

ثم قفزت إلى الهواء، وامتطت آلة طائرة غريبة الهيئة، تشبه ريشة ضخمة تعمل بالمروحة. وسرعان ما بدأ الناس في الساحة يقفزون إلى الهواء، متنافسين على مقاعد تلك «الريشة». من الواضح أنَّ هذا المجتمع لا يعرف نظامًا للطبقات أو المناصب، فقد اندفع الجميع على نحو عشوائي، مواطنين عاديين تمامًا – كبارًا وصغارًا– إلى الآلة الطائرة بلا أي تمييز. يتصرفون جميعًا، بغضِّ النظر عن أعمارهم، بطفولة لا تليق بمستشارة عليا، والنتيجة كانت صخبًا حماسيًا وفوضى بهيجة.

اكتظَّت الريشة على الفور، لكن تيارًا من الريش الطائر ظهر في الأفق بلا انقطاع. وما إن تظهر واحدة، حتى يغطيها البشر المجهريون المتحمسون. وفي النهاية، امتلأت سماء المدينة بمئات الريشات، مثقلة كل واحدة منها بالبشر حتى آخر حد. وتقدمتهم ريشة المستشارة العليا، التي قادت هذا الأسطول الطائر الهائل عبر المدينة.

انحنى الرائد من جديد نحو القبة يراقب المدينة المجهرية بعناية. ميَّز هذه المرة ناطحات السحاب، وقد بدت له كغابة كثيفة من أعواد الثقاب. أجهد عينيه حتى استطاع أخيرًا رصد المركبات

الشبيهة بالريشة، بدت كحبيبات مسحوق صغيرة تطفو على سطح الماء. لولا عددها الهائل، لما أمكن رؤيتها بالعين المجردة.

ظلَّ البث المصوَّر في عدسة الفيديو اليسرى لنظارته واضحًا كالمعتاد. يبدو أنَّ مصوِّرًا مجهريًا، يحمل كاميرا ضئيلة لا تُصدَّق، قد صعد إلى إحدى تلك الريشات، وواصل من هناك بثًا مباشرًا مكَّن الرائد من رؤية حركة المرور داخل المدينة المجهرية.

دُهش على الفور: صدام شبه متواصل. الريشات الطائرة سريعة الاصطدام ببعضها البعض، وبجزيئات الغبار العالقة في الهواء باستمرار، بل وحتى بجدران ناطحات السحاب الشاهقة في كثير من الأحيان! لكن لا الآلات ولا الركاب بدوا متضررين، ولا يبدو أنَّ أحدًا يكترث.

ظاهرة، في الواقع، يمكن لأي طالب فيزياء في المرحلة الإعدادية شرحها: كلما صغر حجم الجسم، زادت متانته البنيوية. ثمَّة فرق شاسع بين تصادم دراجتين، واصطدام سفينتين تزن كل منهما عشرة آلاف طن، وإذا تصادمت ذرَّتا غبار فلن تتأثرا إطلاقًا. ولهذا بدت أجساد سكان العالم المجهري مصنوعة من فولاذ، يعيشون بلا خوف من الإصابة.

يقفز بعض الناس من نوافذ الأبراج، أثناء تحليق الريشات، محاولين اللحاق بإحداها في الجو. لم ينجحوا دائمًا، فيسقط بعضهم من ارتفاع بدا مئات الأمتار، أصيب الرائد بالدوار وهو يراقبهم. لكن المجهريين الساقطين هبطوا في رشاقة وثبات، حتى إنهم وجدوا وقتًا لتحية أصدقائهم عبر النوافذ إبان السقوط.

قالت المستشارة للرائد، وقد بلَّلت عينيها الدموع:

- عيناك سوداوان كالمحيط، عميقتان لأبعد حد.. مليئتان بالكآبة!

خيَّم حزنك على مدينتنا. ينبغي حفظهما في متحف! آه، آه، آه..

ثم بدأت تبكي، بوضوح شديد.

وسرعان ما بدأ الآخرون في البكاء أيضًا، وراحت الريشات ترتطم بجدران الأبراج من كل الجهات.

رأى الرائد انعكاس عينيه الضخمتين في عدسة الفيديو، واكتشف أن كآبته، المكبَّرة مليون مرة، صادمة حتى له هو نفسه. فسأل، مذهولًا:

- ولماذا تُحفظ في متحف؟

أجابت قائدة الأرض بصوتٍ عالٍ:

- لأن الكآبة مكانها المتاحف فقط. زمننا خالٍ من الهموم!

مع أن الدموع ما زالت تترقرق في عينيها، لم يكن ثمة أثر لأي حزن خلفها.

هتف الجميع بصوت واحد، بحماسة:

- نحن نعيش في زمنٍ بلا هموم!

بدا تبدُّل مشاعر المجهريين للرائد أسرع مئات المرات مما كان عليه إبان العصر الكبير. يتضح هذا التحوُّل في المشاعر السلبية كالحزن والكآبة بالخصوص. يتجاوزونها في لمح البصر.

لكن ما حيَّره أكثر هو أمر آخر: أن المشاعر السلبية نادرة جدًا في هذا العصر، نادرة إلى حدٍّ أنها بدت لسكان العصر المجهري كأنها تحف نادرة، وعندما ظهرت لهم، اقتنصوا الفرصة ليشعروا بها.

صاحت المستشارة، وهي الآن مليئة بالفرح:

- لا تُحبط كالطفل! سترى قريبًا أنه لا شيء يدعو للقلق في العصر المجهري!

عند سماع كلماتها، لم يسع الرائد سوى التحديق بدهشة. لاحظ من قبل الشبه بين حالة البشر المجهريين النفسية العامة وأطفال العصر الكبير، لكنه افترض ببساطة أن أطفالهم سيكونون أكثر طفولية. فسأل مذهولًا:

- أتقولين إن أُناس هذا العصر كلما تقدموا في السن صاروا؟

يكاد لا يصدق ما يسأله:

- أكثر طفولة؟

قهقهت المستشارة العليا وقالت:

- نصير أكثر سعادة مع التقدم في العمر!

وردَّد الجمع بصوت عالٍ:

«نعم! في العصر المجهري نصير أكثر سعادة مع التقدم في العمر!».

ثم تابعت الفتاة قائلة:

- لكن الكآبة قد تكون جميلة جدًّا، مثل انعكاس القمر على سطح بحيرة؛ إنها تُجسِّد رومانسية العصر الكبير. أوه، أوه، أوه.

وصدر عن قائدة الأرض أنين حزين وهي تفكر في الأمر.

وردَّد الآخرون من حولها، وعيونهم تلمع بالدموع:

«نعم! يا له من عصر جميل كان»

ضحك الرائد وقال:

- أنتم الصغار لا تفهمون الكآبة. الكآبة الحقيقية لا تستدعي الدموع.

صرخت المستشارة العليا بحماسة وقد عادت إلى حالتها

المرحة:

- أرِنا إذن!

تنهَّد الرائد وقال بلطف:

- آمل ألا أفعل.

ثم صاحت المستشارة العليا وهي تشير إلى ساحة جديدة مرَّت فوقها الريشات الطائرة:

- انظر! هذا نصب تذكاري للعصر الكبير!

رأى الرائد النصب عمودًا أسود ضخمًا، ذكَّره ببرج إرسال عملاق. غطى سطحه الخشن بلاطات لا تُحصى، كل واحدة منها بحجم عجلة، ارتصفت على نحوٍ يُشبه حراشف السمك.

ظلَّ الرائد يتأمل هذا البناء الشاهق وقتًا طويلًا قبل أن يفهم:

كان ذلك شعرة من إنسان كبير.

الفصل الخامس

الوليمة

صعدت الطائرات الشبيهة بالريشة إلى الأعلى، وخرجت من القبة الشفافة، عبر بعض الثقوب غير المرئية، وما إن تجاوزت غطاء مدينتها الأم حتى التفتت المستشارة العليا إلى الرائد عبر شاشة الفيديو في نظارته:

- صرنا الآن على بُعد مائة ميل تقريبًا من مركبتك الفضائية. إذا تمكَّنا من الهبوط على أصابعك، يمكنك حملنا معك. سيُسرِّع ذلك رحلتنا كثيرًا.

أدار الرائد رأسه نحو مركبة الهبوط الواقعة خلفه مباشرة. بدا من الواضح أنَّ وحدات القياس قد تقلَّصت أيضًا في العصر المجهري. فرد يده، فبدأت الطائرات الريشية الهبوط، كمسحوق أبيض ناعم تناثر على أصابعه.

في عدسة الفيديو بدأ يرى بصماته بوضوح، تبدو كأنها سلاسل جبلية نصف شفافة تبتلع تلك الريشات وهي تهبط في وديانها العميقة. المستشارة العليا أول من قفز من إحدى الطائرات، فسقطت فورًا، ملقاة على وجهها على إصبع الرائد.

قالت بصوت عالٍ وهي تخلع حذاءها:

- بشرتك الدهنية زلقة للغاية!

ثم رمت الحذاء بعيدًا بنفاد صبر، وراحت، حافية القدمين، تتلفَّت حولها بفضول، بينما يقفز الآخرون بدورهم إلى جلده. وسرعان ما تجمَّع بحر من الناس بين منحدرات أصابعه شبه الشفافة.

اجتمع على يده الآن أكثر من عشرة آلاف بشري مجهري. بحسب تقدير الرائد. رفع نفسه، وبدأ السير نحو مركبته بحذر وبطء شديد، محافظًا على يده ممدودة أمامه بثبات.

لم يدخل حتى مركبته بالكامل عندما تعالت صيحات المجهريين:

- واو! انظروا، سماء معدنية! شمس صناعية!

وبَّختهم المستشارة العليا قائلة:

- لا تبالغوا! تتصرفون كالأطفال! هذه مجرد مركبة صغيرة. أما السفينة التي تعلوها فأضخم بكثير!

غير أنها، هي الأخرى، تحدِّق بانبهار في كل الاتجاهات. وبينما تفعل، شرع الجمع من جديد ينشد أغنيته الغريبة:

أيها العصر الكبير المجيد

العصر الكبير العظيم

العصر الكبير الحزين

آه، أيتها الرؤية الزائلة!

احترق الحلم في اللهيب..

مكتبة
t.me/soramnqraa

وما إن أقلعت المركبة الصغيرة متجهة إلى «يو إن إس آرك» حتى تابعت المستشارة العليا سردها لتاريخ العصر المجهري:

- تزامن وجود المجتمعيْن المجهري والكبير لفترة من الزمن. في تلك المرحلة، استوعب البشر المجهريون الأوائل معرفة العالم الكبير استيعابًا كاملًا، وورثوا بذلك ثقافة البشر الكبار.. وفي الوقت نفسه، بدأ البشر المجهريون في تطوير مجتمع شديد التقدُّم، قائم على تقنيات النانو. لقد كان عصرًا انتقاليًا بين العصرَين، وامتدّ لحوالي.. إممم..

تقلَّص فمها الصغير قليلًا وهي تسترجع ذاكرتها:

- حوالي عشرين جيلًا أو نحو ذلك.

ثم، مع اقتراب الكارثة، توقَّف البشر الكبار عن إنجاب الأطفال، وتناقص عددهم يومًا بعد يوم. في الوقت ذاته، انفجرت أعداد البشر المجهريين، واتسع نطاق مجتمعهم تبعًا لذلك حتى فاق مجتمع الكبار. عند تلك اللحظة طالب المجهريون بتسلُّم مقاليد الحكم العالمي.

زلزل هذا الطلب المجتمع الكبير، وأدَّى إلى ردِّ فعل عنيف. إذ رفض بعض المتشبِّثين تسليم السلطة، مدَّعين أن ذلك أشبه بأن تحكم زمرة من البكتيريا البشرية! وانتهى الأمر بحرب عالمية بين البشر الكبار والبشر المجهريين!

شهق الرائد متأثرًا:

- يا لها من مأساة لشعبكم!

فأجابته المستشارة العليا:

- بل مأساة للبشر الكبار، هُزموا على الفور!

اعترض الرائد متعجبًا:

- لكن كيف؟ إنسان كبير واحد بمطرقة يمكنه تدمير مدينة مجهرية بأكملها!

أجابته:

- لكننا لم نقاتلهم في مدننا، كما أن ترسانة البشر الكبار لا تصلح لمواجهة عدو غير مرئي. سلاحهم الحقيقي الوحيد هو المُطهِّر. استخدموه طيلة حضارتهم لمكافحة الكائنات الدقيقة، ولم يحققوا به نصرًا حاسمًا قط، فكيف بعدوٍّ يضاهيهم ذكاءً؟ لم يتمكنوا حتى من تتبُّع تحرُّكات جيوشنا، فكنا نعطب شرائحهم الإلكترونية تحت أنوفهم.. وما قيمة إنسان بلا حاسوبه؟ القوة لا تأتي من الحجم.

أكَّدت المستشارة، وأومأ الرائد موافقًا.

تابعت المستشارة، وقد لمع بريق ناري في عينيها:

- الآن وقد فكَّرت بالأمر.. نال مجرمو الحرب عقابهم العادل.

أُلقيت قوات خاصَّة مكوَّنة من آلاف المجهريين، مسلّحين بمثاقب ليزر، بالمظلات على شبكية عيونهم.

ثم تركت خيال الرائد يكمل الباقي، قبل أن تتابع بنبرة هادئة:

- بعد الحرب، سيطر البشر المجهريون على الأرض. ومع نهاية العصر الكبير، بدأ العصر المجهري.

قال الرائد مبتهجًا:

- مشوق للغاية!

التحمت مركبة الهبوط بسفينة آرك في مدار الأرض المنخفض، وسرعان ما عاد البشر المجهريون إلى طائراتهم الريشية، لاستكشاف البيئة الجديدة. أذهلهم حجم السفينة الهائل.

في البداية ظنَّ الرائد أنهم يعبِّرون عن إعجابهم، لكن المستشارة العليا شرحت موقفها:

- الآن فهمنا. حتى من دون الوميض الشمسي، ما كان للعصر الكبير أن يستمر. أنتم تستهلكون موارد تفوقنا بمليارات المرات!

فردَّ الرائد مدافعًا:

- لكن تأمَّلي: هذه المركبة قادرة على السفر بسرعات تقترب من سرعة الضوء. إنها قادرة على بلوغ نجوم تبعد مئات السنين الضوئية. وهذا، أيتها الكائنات الصغيرة، شيء لا يُمكن أن تنتجه سوى عظمة العصر الكبير.

أقرَّت المستشارة:

- في الوقت الحالي، لا يمكننا صنع ما يماثلها. مركباتنا الفضائية لا تتجاوز سرعتها عُشر سرعة الضوء.

تلعثم الرائد مذهولًا، بوجه شاحب قال:

- لديكم القدرة على السفر في الفضاء؟!

أجابت دون الالتفات إلى صدمته:

- ليس مثلما كنتم، طبعًا. مركباتنا لم تصل لأبعد من كوكب الزهرة. في الواقع، وصلتنا تقارير منهم مؤخرًا تشير إلى أن الزهرة تبدو، في وضعها الحالي، أكثر قابلية للحياة من الأرض.

سأل الرائد، وقد استعاد هدوءه:

- وما حجم مركباتكم؟

تأمَّلت قليلًا ثم قالت:

- الكبيرة منها بحجم.. هممم.

توقفت للبحث عن التعبير الصحيح:

- كرة قدم.

قالت أخيرًا، ثم أوضحت:

- كرة قدم.. من عصركم، طبعًا. تستوعب مئات الآلاف من الركَّاب. أما الصغيرة، فبحجم كرة جولف.. من العصر الكبير أيضًا.

هذه الكلمات حطَّمت شعور الرائد بالتفوّق.

قالت المستشارة العليا، متحدِّثة باسم شعبها بينما تتجمع الطائرات الشبيهة بالريشة على لوحة تحكم السفينة:

- أيها الجد الكبير، هلَّا تفضَّلت بتقديم شيء نأكله؟ نحن نتضوَّر جوعًا!

نظر الرائد إلى لوحة القيادة فرأى عشرة آلاف من البشر المجهريين يحدِّقون فيه بلهفة.

أجاب بابتسامة:

- لم يخطر ببالي قط أن يُطلب مني دعوة هذا العدد الكبير إلى الغداء.

ردَّت الفتاة بغضب ظاهر في نبرتها:

- ونحن لا نطلب منك الكثير بالطبع!

أحضر الرائد علبة لحم معلَّب من المخزن، فتحها، وباستخدام سكين صغيرة حدَّد قطعة ضئيلة منها بعناية، ووضعها جانبًا قرب الحشد المتجمِّع على اللوحة.

ميَّز موقع الحشد بعينه المجرَّدة: مساحة دائرية بحجم قطعة نقدية، سطحها منمَّش عن المساحة حولها، كزجاج غُطِّي بأنفاس باردة.

صرخت زعيمة الأرض:

- كل هذا الكمّ؟ تبذير فادح!

تمكَّن الرائد باستخدام الشاشة الكبيرة الآن من رؤيتها، وخلفها جبل شاهق من اللحم، يندفع الناس نحوه في جموع. وعندما بلغوه، بدأوا يقتطعون منه أجزاء صغيرة ليأكلوها.

أعاد النظر إلى لوحة القيادة أمامه، فلم يلحظ تغيُّرًا يُذكر في حجم القطعة الموضوعة هناك. وعلى الشاشة، رأى الجموع تفرَّقت بسرعة، يتخلص بعضهم من قطع لحم نصف مأكولة في الطريق.

اختارت المستشارة العليا قطعة لنفسها وأخذت قضمة منها، تهز رأسها، وهي تمضغ، ثم علَّقت بعدما انتهت أخيرًا:

- طعمه ليس جيّدًا على الإطلاق.

قال الرائد معتذرًا:

- بالطبع. صُنعت في جهاز التدوير الحيوي. من المستحيل تحسين طعمها، قدراته على إنتاج النكهة محدودة جدًا.

أصدرت زعيمة الأرض طلبًا آخر على الفور:

- أعطنا بعض الكحول لمحو أثر هذا الطعم!

فانطلقت هتافات الفرح من البشر المجهريين المتجمّعين.

رفع الرائد حاجبه؛ بعد كل شيء، يعلم أنَّ الكحول يقتل الكائنات المجهرية. سأل بحذر:

- تشربون الجعة؟

فردَّت بتلذُّذ:

- لا، نشرب الويسكي أو الفودكا!

وصاح أحدهم:

- والماو تاي[1] يفي بالغرض أيضًا!

في الحقيقة، احتفظ الرائد بزجاجة ماو تاي منذ مغادرته الأرض، من أجل اليوم الذي يجد فيه كوكبًا صالحًا للسكن.

أحضرها، أمسك الزجاجة الخزف البيضاء بحنين، ورفع غطاءها، ثم صبَّ القليل من المشروب الروحي فيه، ووضعه بجانب الجموع.

على الشاشة رأي البشر المجهريين يتسلقون جرف صخري لا يُقهر، الغطاء. على المستوى المجهري، وفَّر سطح الغطاء على ما يبدو العديد من نقاط الشبُّث. وبفضل مهارات التسلُّق المطوَّرة فوق ناطحات سحاب مدينتهم، وصلوا حافة الغطاء بسرعة.

صرخت جوقة البشر المجهريين إعجابًا:

- يا لها من بحيرة رائعة!

على الشاشة رأى الرائد سطح بحيرة الكحول الشاسعة ينتفخ على هيئة قوس هائل بفعل التوتر السطحي. تابع المصوِّر المجهري المستشارة العليا وهي تحاول أولًا غرف بعض السائل بيدها، لكن ذراعيها القصيرتين لم تبلغاه.

جلست على حافة الغطاء، ومدَّت قدمها النحيلة لتلامس سطح الكحول، فغمرتها قطرة شفافة. رفعت ساقها، واستخرجت بأصابعها قطرة صغيرة من فقاعة الكحول وأسقطتها في فمها.

---

(1) ماو تاي: خمر صيني قوي مصنوع من الذرة الرفيعة.

قالت وهي تهزُّ رأسها بارتياح:

- رائع! كحول الحقبة الكبرى أفضل بكثير من مشروباتنا!

قال الرائد:

- يُسعدني أن شيئًا من عصرنا ما زال أفضل. لكن شربك بهذه الطريقة.. غير صحي.

نظرت إليه باستغراب وقالت:

- لا أفهم.

أوضح:

- مشيتِ حافية القدمين طويلًا، لا بد أنهما مليئتان بالجراثيم.

قالت زعيمة الأرض:

- آه، فهمت!

ثم صاحت بصوت عالٍ في استدعاء أحد مرافقيها، ناولها صندوقًا صغيرًا، فتحته، فخرج منه كائن غريب يشبه كرة القدم وله أرجل صغيرة ترتجف في فوضى.

رفعت الكائن من إحدى رجليه وقالت:

- انظُر، هذه إحدى هدايا مدينتنا لكم! دجاجة لاكتو!

أجهد الرائد عقله في محاولة تذكُّر ما تعلَّمه في الأحياء الدقيقة وسأل، غير مصدِّق:

- أتقصدين.. بكتيريا لاكتوباسيلس[1]؟

---

(1) جنس كبير ومتنوّع من البكتيريا العصوية الشكل (شكلها يشبه العصا). هي بكتيريا مفيدة جدًا وتُستخدم على نطاق واسع في صناعة العديد من الأطعمة المخمرة مثل الزبادي، الأجبان. حمض اللاكتيك الذي تنتجه يساعد في حفظ الطعام ويعطيه نكهة مميزة.

قالت المستشارة:

هذا اسمها في الحقبة الكبرى. إنها الكائن الذي يمنح الزبادي نكهته. حيوان مفيد جدًا!

صحَّح لها الرائد:

- باكتيريا مفيدة، وليست حيوانًا. لكنني أدرك الآن أن الكائنات الدقيقة لا تمثِّل خطرًا عليكم. المعايير الصحية لدينا لم تعد ذات معنى في الحقبة المجهرية.

هزَّت زعيمة الأرض رأسها وقالت:

- ليس دائمًا. بعض الكائنات - آه..

تداركت نفسها وتابعت:

- أقصد بعض البكتيريا، قد تكون خطيرة. مثلًا، ذئاب القولون[1] قوية جدًا، والانتصار عليها إنجاز عظيم. لكن معظم الكائنات، كخنازير الخميرة[2]، لطيفة حقًا.

وهي تتحدث أخذت قطرة أخرى من فقاعة الكحول على قدمها، ووضعتها في فمها. نفضت عن قدمها ما تبقَّى من القطرة، ووقفت مترنِّحة يظهر عليها آثار السكر، وبدأت في التلعثم إلى حد ما.

---

(1) تركيب وصفي من عند الكاتب استدعى فيه الاسم العلمي وأضاف عليه من عنده للبكتيريا الإشريكية. القولونية. نوع شائع من البكتيريا العصوية، تعيش بشكل طبيعي في أمعاء البشر والحيوانات. غالبية سلالات الإشريكية القولونية غير ضارة ومفيدة للجهاز الهضمي، حيث تساعد في هضم الطعام وإنتاج بعض الفيتامينات.

(2) تركيب الكاتب بنفس الطريقة تركيب وصفي يمزج بين كائن حي مجهري (الخميرة) وحيوان معروف (الخنزير) ليصف كائنًا حيًا يُربى ويُستفاد منه في العالم المجهري.

عبس الرائد في دهشةٍ صادقة:

- لم أتخيَّل أنَّ الكحول ما زال موجودًا!

قالت زعيمة الأرض، بكلام متعثر:

- نحن... نحن ورثنا كل ما هو جميل من الحضارة، حتى وإن ظنَّ أولئك الكبار أننا لا نستحق ذلك..

زلَّت قدمها.

.. نحن نحمل تراث الإنسانية.

تمتمت، ثم بدت كأنها تشعر بدوار خفيف، فجلست مكانها من جديد.

صرخ الحشد بصوت واحد:

«ورثنا كل فلسفة البشرية- الغربية والشرقية واليونانية والصينية!».

الآن وهي جالسة، مدَّت قائدة الأرض يديها نحو السماء وتلت:

- لا أحد يخطو في النهر ذاته مرتين[1]. التاو[2] أنجب الواحد، والواحد أنجب الاثنين، والاثنان أنجبا الثلاثة، والثلاثة..[3]

تلاشت كلماتها، لكنها سرعان ما أكملت بتلعثم:

---

(1) «لا تنزل النهر نفسه مرتين» تُنسب إلى الفيلسوف اليوناني القديم هيراقليطس.

(2) التاو/ الطاو: بمعنى الطريق. مفهوم فلسفي أساسي في الفلسفة الصينية القديمة، خصوصًا في مدرسة فكرية تُعرف باسم «التاوية».

(3) اقتباس شهير من تاو تي تشينغ، النص الأساسي للتاوية، الفصل 42. فلسفة بصعب شرحها في الهامش أول سطر في الكتاب يقول: «التاو الذي يمكن وصفه ليس التاو الأبدي».

- أنجبوا كل الخليقة! نحن نقدّر لوحات فان جوخ، نستمع إلى موسيقى بيتهوفن، نمثّل مسرحيات شكسبير! أن تكون أو لا تكون.. تلك هي..

توقفت مرة أخرى..

هي المسألة.

وقفت مترنّحة تؤدي مشهد هاملت بطريقتها الخاصة.

قال الرائد:

- في زماننا، لم نكن لنتخيَّل فتاة مثلك تقود العالم.

أجابت المستشارة:

- الحقبة الكبرى زمن كئيب، بسياساته الكئيبة. أما الحقبة المجهرية، فهي زمن دون هموم. نحن بحاجة إلى قادة سعداء.

ثم تابعت وقد استعادت بعض اتزانها:

- لم نكمل حديثنا عن التاريخ. آخر ما قلناه...

ثم توقفت مرة أخرى للتفكير:

- الحرب.. بعد حرب الكبار والمجهريين، اندلعت حرب عالمية بين البشر المجهريين أنفسهم.

قال الرائد مندهشًا:

- ماذا؟ لا بد أنها لم تكن بسبب الأرض؟

قالت المستشارة:

- بالطبع لا. المساحات في الحقبة المجهرية لا تنفد أبدًا. اندلعت الحرب لأسباب..

هنا توقفت مرة أخرى، هذه المرَّة لأسباب لا يعرفها إلا هي قبل أن تواصل:

- أسباب لا يمكن لإنسان كبير فهمها. لكن اعلم أننا ذات مرة خُضنا معركة ضخمة، امتدَّت جبهتها الهائلة..

توقفت مرة أخرى.. ثم تابعت:

- بحسب وحداتكم.. على أكثر من ثلاثمائة قدم! تخيَّل مساحة بهذه الضخامة!

قال الرائد بوقار:

- ورثتم من الحقبة الكبرى أكثر مما كنت أتخيَّل.

تابعت المستشارة:

- ثم انصبَّت طاقة البشرية المجهرية كلها في الاستعداد للكارثة القادمة. وعلى مدار خمسة قرون، بنينا آلاف المدن الفائقة في عمق قشرة الأرض. مدن تبدو لكم ككرات معدنية لا يزيد قطرها عن ستة أقدام، لكنها تتسع لعشرات الملايين. بنيناها على عمق خمسين ألف ميل تحت الأرض..

قاطعها الرائد:

- لحظة، نصف قطر الأرض لا يتجاوز أربعة آلاف ميل!

اعتذرت قائدة الأرض:

- آه، استخدمت وحداتنا من جديد، بوحداتكم.. سيكون حوالي..

حسبت في رأسها:

- نعم.. نصف ميل. وعندما رُصدت أول مؤشرات الوميض الشمسي، نزلت البشرية المجهرية كلها تحت الأرض. ثم وقعت الكارثة.

بعد أربعمائة عام، شقَّت أول مجموعة من البشر المجهريين طريقها إلى السطح عبر نفق هائل، بحجم أنبوب مياه في الحقبة الكبرى. استخدموا حفَّارة ليزر لاختراق الحمم المتصلِّبة.

أوضحت:

- لكن استغرق الأمر خمسة قرون أخرى قبل أن نتمكَّن من بناء عالم جديد فوق السطح، يضم عشرات الآلاف من المدن، وسكانه ثمانية عشر مليار نسمة.

حينها امتلأنا بالتفاؤل حول مستقبل البشرية. تفاؤل شامل، لا حدود له، لم يكن ممكنًا في الحقبة الكبرى. بسبب حجم مجتمعنا المجهري الصغير على وجه التحديد، عنى ذلك زيادة القدرة البشرية على البقاء في هذا الكون عدة ملايين من المرات. فمثلًا، محتويات تلك العلبة التي فتحتها لتوِّك يمكنها إطعام مدينتنا لعامين. والعلبة نفسها تكفي حاجتنا من المعدن لنفس المدة.

قال الرائد منبهرًا:

- كإنسان كبير، أفهم الآن مدى الامتيازات الهائلة للحقبة المجهرية. هذا كلُّه أسطوري، ملحمي بحق!

ابتسمت المستشارة وتابعت:

- التطور يميل إلى الصِغر. الحجم ليس مقياس العظمة. الكائنات الدقيقة تتعايش لوقت أطول بسهولة مع الطبيعة. عندما انقرضت الديناصورات العملاقة، بقي معاصروها النمل. وإذا حلَّت كارثة جديدة، يمكن لسفينة بحجم مركبة الهبوط إجلاء البشرية كلها. يمكننا بناء حضارة جديدة على كويكب صغير والعيش بسلام.

ساد صمت طويل. وأخيرًا، ركَّز الرائد نظره على بحر الإنسانية بحجم العملة أمامه، وقال بخشوع:

- حين رأيت الأرض من جديد، واعتقدت أنني آخر إنسان في الكون، تحطَّم قلبي ومات كل أمل. لم يعرف أحد مثل هذا العذاب المفجع من قبل. أمَّا الآن! فأنا أسعد إنسان حي؛ على الأقل، أسعد إنسان كبير على الإطلاق. لقد صمدت حضارتنا! بل وتجاوزت حدود البقاء. حضارتكم هي الذروة الإنسانية الحقة! نحن بشر، من أصل واحد. لذا، أتوسَّل إلى البشرية المجهرية قبولي مواطنًا في مجتمعكم.

قالت زعيمة الأرض بنفس الجديَّة:

- قبلناك منذ رصدنا السفينة. يمكنك العيش على الأرض. لن تواجه البشرية المجهرية أي مشكلة في إيواء إنسان كبير واحد.

أجابها الرائد، والسعادة تشعُّ من وجهه:

- سأعيش على الأرض، لكنني لن أحتاج لشيء منها. جهاز تدوير البيئة في السفينة يكفيني لبقية حياتي الطبيعية. لا داعي لأن يستهلك الإنسان الكبير موارد الأرض مجددًا.

قالت زعيمة الأرض:

- لكن وضعنا يتحسَّن. ليس مناخ الزهرة وحده هو الذي صار أكثر ملاءمة، بل إن حرارة الأرض ترتفع من جديد. وربما، في العام القادم، ستهطل الأمطار مجددًا في أماكن كثيرة، ويمكن للنباتات النمو من جديد.

سألها الرائد:

- هل سبق أن رأيتِ نباتًا؟

أجابت:

- نزرع الأشنة[1] داخل القبة الواقية. إنها نباتات ضخمة، كل خيط منها بطول مبنى من عشرة طوابق! وهناك أيضًا طحالب الكلوريلا[2] في الماء...

قاطعها الرائد:

- لكن هل سمعتِ يومًا عن العشب؟ عن الأشجار؟

قالت بابتسامة:

- هل تعني النباتات التي كانت تنمو بطول الجبال في الحقبة الكبرى؟ آه، إنها أساطير الزمن القديم.

ابتسم الرائد ابتسامة صغيرة وقال:

- أرغب فقط في فعل شيء واحدًا. حين أعود، سأُريكم الهدايا التي جلبتها للحقبة المجهرية. أظنكم ستُعجبون بها كثيرًا!

---

(1) الأشنة: كائن حي فريد من نوعه، وليست نباتًا واحدًا بحد ذاته، بل هي علاقة تكافلية بين كائنين مختلفين أو أكثر: فطر المكون الرئيسي الذي يعطي الأشنة شكلها العام وهيكلها. كائن يقوم بعملية البناء الضوئي يمكن أن يكون هذا الكائن طحالب خضراء وهي الأكثر شيوعًا. أو بكتيريا زرقاء خضراء وتُعرف أيضًا بالطحالب الخضراء المزرقة.

(2) الكلوريلا (Chlorella) هي جنس من الطحالب الخضراء وحيدة الخلية، مثل النباتات، تنتج غذاءها عن طريق عملية البناء الضوئي باستخدام ثاني أكسيد الكربون والماء وأشعة الشمس والحد الأدنى من المعادن.

الفصل السادس

ميلاد جديد

وحده من جديد، شقَّ الرائد طريقه إلى مخزن الآرك البارد، المكتظ بأرفُف طويلة مصطفة بعناية، تملأها آلاف وآلاف من الأنابيب محكمة الإغلاق. هذا بنك البذور، يحفظ بذور ملايين الأنواع النباتية من كوكب الأرض. صُمِّمت «الآرك» لحمل هذه البذور إلى العالم البعيد الذي ستتخذه البشرية موطنًا جديدًا في النهاية.

وثمة صفوف قليلة أيضًا تمثل مخزن الأجنَّة. هنا، حُفظت الخلايا الجنينية لملايين الأنواع الحيوانية من الأرض.

عندما ترتفع درجات الحرارة في العام التالي، سيزرع الرائد العشب على سطح الأرض. بين هذه الملايين من البذور، سلالات من العشب قادرة على النمو في الجليد والثلج. لا شكَّ أنها ستنجح في النمو على سطح الأرض كما هو عليه الآن.

إذا أمكن استعادة عُشر الغلاف الحيوي للكوكب فقط إلى ما كان عليه في العصر الكبير، فستتحول الحقبة الميكروية إلى جنَّة على الأرض. بل ربما يمكن استعادة أكثر من ذلك بكثير.

انغمس الرائد في دفء الخيال: تخيَّل فرحة البشر المجهريين الجامحة عندما يرون لأول مرة نصل عشب أخضر هائل يرتفع نحو السماء. وماذا عن مرج صغير؟ ما الذي سوف يعنيه المرج بالنسبة للبشر المجهريين؟

مرعى كامل! ماذا سيكون المرعى؟ كون أخضر للبشر المجهريين! وجداول صغيرة بين الحشائش؟ يا لها من معجزة باذخة أن يرى البشر المجهريون مياه الجدول الصافية تسري بين الأعشاب.

قالت قائدة الأرض إن المطر قد يهطل قريبًا. وإذا هطل المطر فربما يظهر المرج، وربما ينهض ذلك الجدول للحياة! وإذا حدث ذلك فلا شك أن الأشجار ستعود!

يا إلهي.. الأشجار!

تخيَّل الرائد الأول مجموعة مستكشفين مجهريين تنطلق من جذور شجرة، لتبدأ رحلتها العظيمة والعجيبة صعودًا. كل ورقة شجر ستكون سهلًا أخضر يمتد حتى الأفق.

حينها قد تعود الفراشات. أجنحتها بمثابة سُحب مضيئة تغطي السماء. وقد تعود الطيور، وكل نداء منها كأبواق ملائكية تصدح من السماوات.

في الواقع جزء واحد من التريليون من الموارد البيئية للأرض سيكون كافيًا لدعم تريليون من البشر المجهريين! الآن فقط فهم الرائد الأول المغزى الذي لطالما أكَّد عليه أولئك المجهريون: الحقبة المجهرية بلا هموم.

ليس ثمة ما يهدد هذا العالم الجديد... سوى...

فكرة مروِّعة أظلمت عقل الرائد وروحه، حينها أدرك ما عليه فعله؛ وكان لا بد من تنفيذه على الفور. لا وقت للتأجيل.

اتجه إلى أحد الرفوف وسحب مائة أنبوب محكم الإغلاق، تحتوي على الخلايا الجنينية لأبناء جيله، الخلايا الجنينية للبشر العاديين.

أخذ الرائد الأول هذه الأنابيب وأسقطها في محرقة الليزر المخصَّصة للنفايات.

ثم عاد إلى المخزن البارد، يمشي صعودًا وهبوطًا بين الصفوف عدة مرات، يتحقق بعناية من كل زاوية وركن. فقط عندما تأكد تمامًا من عدم ترك أي أنابيب بشرية كبيرة، عاد إلى المحرقة.

شعر بطمأنينة عميقة وهو يضغط على الزر.

أطلقت أشعة الليزر حرارة بعشرات الآلاف من الدرجات.

وفي ضوئها المتوهِّج، تبخَّرت الأنابيب والأجنَّة التي بداخلها في لمح البصر.

المُلتهم

الفصل الأول

البلورة من إريدانوس[1]

أمامه مباشرة.. ومع ذلك بالكاد ميَّز القائد هيكلها البلوري الشفاف. يطفو في فراغ الفضاء الأسود، تخفيه العتمة كقطعة زجاج غارقة في أعماق موحلة. لم يكن رصدها ممكنًا لولا تشتُّت طفيف في ضوء النجوم إثر عبورها مكَّن القائد من تحديد موقعها. وسرعان ما اختفى مجددًا، متلاشيًا في الفضاء بين النجوم.

فجأة تشوّشت صورة الشمس، تلوَّى ضوؤها المتلألئ الأبدي البعيد أمام عينيه. جفل القائد لحظة، لكنه حافظ على «برودة أعصابه الآسيوية» المعهودة. على عكس الجنود الاثني عشر الطافين بجواره، نجح في ألا يشهق مصدومًا. فهم القائد على الفور؛ البلورة، على بُعد ثلاثين قدمًا فقط، عبرت أمام الشمس التي تبعد ستين مليون ميل. طوال القرون الثلاثة التالية، ظلت هذه الرؤية الغريبة تطارد خياله، متسائلًا ما إذا كانت نذيرًا بمصير البشرية.

---

(1) إريدانوس (نهر إريدانوس) هو كوكبة نجمية (مجموعة نجوم تشكل نمطًا معينًا في السماء) تقع في نصف الكرة الجنوبي السماوي. إنها واحدة من أكبر الكوكبات في السماء.

بصفته أعلى قائد في «قوة حماية الأرض» التابعة للأمم المتحدة في الفضاء، كان مسؤولًا عن إدارة العمليات بين الكواكب. وحدة صغيرة، لكنها مزوَّدة بأقوى الأسلحة النووية التي ابتكرها البشر على الإطلاق.

أعداؤها كتل صخرية ميِّتة تنطلق عبر الفضاء: كويكبات ونيازك رصدتها أنظمة الإنذار المبكر واعتبرتها تهديدًا للأرض. ومهمة القوة هي إعادة توجيه هذه الأجسام أو تدميرها.

ظلوا في دوريات فضائية لأكثر من عقدين من الزمن، دون أن تُتاح لهم فرصة استخدام قنابلهم أبدًا. بدت الصخور الكبيرة بما يكفي لتبرير التدخل كأنها تتعمَّد تفادي الأرض، وكأنها تحرمهم عمدًا مجد المواجهة.

لكن مؤخرًا كشفت عملية مسح عن هذا الجسم البلوري على بُعد وحدتين فلكيتين[1]. عبر مسار حاد وغير طبيعي يتجه مباشرة نحو الأرض.

اقترب القائد ووحدته بحذر، خلَّف أثر نفاثات الدفع في بدلاتهم الفضائية خيوطًا التفَّت حول الجسم الغريب. ما إن بلغوا مسافة ثلاثين قدمًا حتى ومض ضوء ضبابي داخل البلورة، كاشفًا عن محيط منشوري طوله نحو عشرة أقدام. ومع اقتراب وحدة الدورية الفضائية، أصبح بإمكانهم تمييز الأنابيب البلورية الدقيقة لنظام الدفع

(1) الوحدة الفلكية الواحدة (AU 1) تُعرف على أنها متوسط المسافة بين مركز الأرض ومركز الشمس.

الخاص بها. يطفو القائد أمامها مباشرة. مدَّ يده اليمنى، المغلَّفة بالقفاز، نحو البلورة، ليبدأ أول اتصال للبشرية مع الذكاء الفضائي.

ما إن وصلها حتى عادت البلورة شفافة مجددًا، وفجأة ظهرت صورة ملوَّنة زاهية في داخلها لفتاة مانغا[1]، بعينين كبيرتين متقلبتين وشعر طويل ينسدل حتى قدميها. ترتدي تنورة متموِّجة وجميلة، وتبدو كأنها تطفو حالمة في مياه غير مرئية.

صرخت على الفور، وبدا على صوتها الهلع:

- تحذير! تنبيه! تحذير! المُلتهِم يقترب!

تُحدِّق عيناها الواسعتان في القائد وذراعها الرشيقة تشير بعيدًا عن الشمس بإنذار لا لبس فيه. ليس ثمَّة أدنى شك في اقتراب المجهول الذي يطاردها.

سألها القائد دون أن يبدو عليه أي اضطراب:

- من أين أتيتِ؟

أجابت:

- من إبسيلون إريداني[2]، كما تطلقون عليه، ووفقًا لحساباتكم الزمنية استغرقت رحلتي ستين ألف سنة.

ثم ما لبثت أن عادت إلى صراخها:

- المُلتهِم يقترب! المُلتهِم يقترب!

واصل القائد أسئلته:

- هل أنتِ كائن حي؟

---

(1) فتاة القصص أو الروايات اليابانية المصورة.

(2) يقع إبسيلون إريداني على بعد حوالي 10.5 سنة ضوئية من نظامنا الشمسي، مما يجعله من أقرب النجوم المعروفة إلينا.

- بالطبع لا. أنا مجرد رسالة.
لكن لم يطُل صمتُها.
- المُلتهم يقترب! المُلتهم يقترب!
قال القائد:
- وكيف تتحدثين الإنجليزية؟
أجابت دون تردد:
- تعلمت أثناء الرحلة.
ثم عادت تصرخ:
- المُلتهِم يقترب! المُلتهِم يقترب!
سأل القائد سؤالًا آخر، تاركًا عبارته مفتوحة:
- ومظهركِ هذا...؟
- رأيتُه في الطريق.
ثم صاحت، وبنبرة أشد هلعًا:
- المُلتهِم يقترب! المُلتهِم يقترب! لا بدَّ أن يثير هذا الرعب فيكم؟
سأل القائد أخيرًا:
ما هو المُلتهم؟
بدأت تشرح:
- يبدو.. في شكله.. همم.. كإطار عملاق. نعم، هذا أنسب تشبيه لكم.
قاطعها القائد، رافعًا حاجب خلف خوذته:
- أنتِ مطَّلعة جيدًا على شؤون عالمنا.
ردَّت:
- اكتسبت المعرفة أثناء الرحلة.

ثم عادت إلى صراخها:

- المُلتهِم يقترب!

ثم انطلقت في صراخها الأخير نحو طرف البلورة. وحيث مكانها السابق، ظهرت صورة لإطار، بالفعل يشبه الإطار، رغم توهج سطحه بضوء فسفوري.

سأل أحد الضباط:

- ما حجمه؟

- قُطره الكلي واحد وثلاثون ألف ميل. وعرض جسم «الإطار» ستة آلاف ميل، أما الفتحة في المنتصف فعرضها تسعة عشر ألف ميل.

سادت لحظة صمت قبل أن يسأل أحدهم السؤال الذي خطر في ذهن الجميع:

- هل الأميال التي تتحدثين عنها هي أميالنا؟

أجابت على الفور وبهدوء:

- بالطبع. إنه ضخم بما يكفي ليُطوِّق كوكبًا بأسره، تمامًا كما يُطبق أحد إطاراتكم على كرة قدم، وما أن يُحكم تطويقه يبدأ في نهب موارد الكوكب الطبيعية، ثم يبصق ما تبقَّى منه كما تُبصق نوى الكرز!

صمتٌ آخر، قبل أن يعود الضابط للسؤال، بصوت مرتجف:

- لكننا ما زلنا لا نفهم ما هو المُلتهِم حقًا.

قدَّمت الفتاة في البلورة مزيدًا من المعلومات دون تردد:

- إنه مركبة أجيال، مع أننا لا نعرف من أين جاء ولا إلى أين هو ذاهب، بل حتى الزواحف العملاقة التي تقوده لا تعلم في

الغالب. تجوَّل في مجرَّة درب التبانة لعشرات الملايين من السنين، حتى نسي صانعوه أصله وغايته. ما نعرفه هو الآتي: في الماضي البعيد، حين صُنع المُلتهِم، كان أصغر بكثير. يلتهم الكواكب كي ينمو، وقد التهم كوكبنا!

مع صمتها كبرت صورة المُلتهم داخل البلورة حتى ملأت السطح بأكمله، وأصبح من الواضح هبوطه ببطء على عالم مصوِّر الكاميرا غير المرئي. وبالنظر عبر عيون سكان الكوكب بدا عالمهم ليس سوى قاع بئر كونية تدور ببطء. تُرى هياكل مُعقدة تغطي جدران هذه البئر الجبارة بوضوح. بدت للقائد كدوائر إلكترونية دقيقة مُكبَّرة بلا حدود، ثم أدرك أنها سلسلة لا تنتهي من مدن متصلة تمتد بطول الحافة الداخلية للمُلتهم. بالنظر لأعلى، كشفت الصورة عن دائرة من النور الأزرق تتوهَّج فوق فوهة البئر، في السماء، تشكَّلت هالة نارية عملاقة تحيط بالنجوم.

قالت الفتاة إن ما يرونه هو عوادم المحرك الحلقي الخلفي للمُلتهم. وهي تتكلم تحوَّل جسدها كله إلى خصل متدفقة، حتى شعرها بدا كأنه أذرع لا تُحصى، تتلوَّى في الفراغ، وكل جزء يعبِّر عن رعب لا حد له.

قالت:

- ما تشاهدونه الآن هو التهام الكوكب الثالث في إبسيلون إريداني. أول ما يباغتكم، لو كنتم على عالمنا، هو خفة أجسادكم. جاذبية المُلتهِم قوية بما يكفي لمعادلة جاذبية كوكبنا. أحدث دمارًا كارثيًا لا يرحم. أولًا، اندفعت محيطاتنا لتلحق بالمُلتهم

وهو يمر فوق أحد قطبي الكوكب[1]. ثم، ومع تحركه لتطويق الكوكب بالكامل، اندفعت المياه نحو خط الاستواء. اجتاحت الأمواج الكوكب بأكمله، وبلغ ارتفاعها ما يكفي لابتلاع الغيوم.

قوى الجاذبية الهائلة مزَّقت قاراتنا وقطَّعتها كأنها مناديل ورقية. جدِرت اليابسة وقيعان البحار على حد سواء، على إثر انفجار براكين لا تُعد ولا تُحصى.

أوقفت حكيها لبرهة، رمشت ثم تابعت:

- عندما أكمل تطويق الكوكب، توقف، عند خط الاستواء، متزامنًا مع مدار كوكبنا حول شمسنا. أصبح عالمنا في فمه تمامًا.

مع بدء عملية النهب يُسقِط المُلتهِم كابلات لا حصر لها بطول آلاف الأميال من جدرانه الداخلية نحو سطح الكوكب كأنَّ العالم صار ذبابة علقت في نسيج عنكبوت كوني، ثم تنطلق وحدات نقل عملاقة بين الكوكب والمُلتهِم، حاملةً مياه المحيطات والغلاف الجوي. وأثناء نقل هذه الوحدات للموارد تبدأ آلات عملاقة أخرى في الحفر داخل القشرة الأرضية، تستخرج المعادن بجنون لإشباع جوع المُلتهم.

ثم صمتت من جديد، وحدَّقت بعيدًا، قبل أن تستأنف فجأة كما توقفت:

- تلغي جاذبية المُلتهِم والكوكب كل منهما الأخرى، مما يخلق منطقة انعدام جاذبية بين هذا الكيان الشبيه بالإطار والكوكب، يُسهِّل نقل الموارد. عملية نهب كفؤة للغاية.

---

(1) لكل كوكب (أو أي جسم يدور حول محور، مثل النجوم أو الأقمار) قطبان: شمالي وجنوبي. وخط استواء عند منتصف المسافة بين قطبيه.

- بحسابات زمن الأرض يحتاج المُلتهِم إلى قرن واحد فحسب لالتهام كوكب بأكمله. بعد ذلك ستكون مياه الكوكب وغلافه الجوي قد تبخّرَت تمامًا، ومع مواصلة النهب تعمد جاذبيته الهائلة في النهاية إلى تشويه شكل الكوكب، ومطّه ببطء على طول خط استوائه، ليغدو..

توقفت، تكافح لتجد الكلمة المناسبة، ثم أكملت:

- كيف تسمُّونه.. نعم، مسطَّحًا، على هيئة قرص. وبعد أن يمتص المُلتهِم الكوكب تمامًا يبصقه، فيعود إلى شكله الكروي تدريجيًا. ومع هذا التحوُّل الأخير تشهد الأرض كارثة نهائية، يغدو سطحها بحرًا من الحمم المنصهرة، كما كان يوم ولادتها قبل بلايين السنين، ولن ينجو أي أثر للحياة من الجحيم على سطحها بعد ذلك.

سأل القائد مباشرة بعد أن انتهت:

- ما المسافة بين المُلتهم ونظامنا الشمسي؟

أجابت وهي تصرخ:

- إنه خلفي مباشرة! وبحساباتكم سيصل خلال قرن واحد فقط! تحذير! المُلتهم يقترب! المُلتهم يقترب!

الفصل الثاني

المبعوث «ناب»

أثناء النقاش المحتدم حول مدى مصداقية البلورة دخلت أول مركبة صغيرة تابعة للملتهِم النظامَ الشمسي متجهة نحو الأرض مباشرة.

تولَّت دورية الفضاء بقيادة القبطان مرَّة أخرى مهمة الاتصال الأول، غير أن أجواء هذا اللقاء اختلفت عن سابقتها تمامًا، ليس اختلاف الأجواء وحدها السبب، إنما بنية بلورة إريدانوس بالغة الدقة ذات البصمات التكنولوجية الأثيرية[1] المطوَّرة من قبَل حضارة متقدمة، أمام مركبة الملتهم، صورة على النقيض منها تمامًا.

بدت من الخارج فظَّة وبدائية، أشبه بمقلاة صدئة نُسيت في البرية قرنًا من الزمان، فور رؤيتها ذكَّرت الحاضرين بآلة ضخمة من عصر البخار.

مبعوث إمبراطورية الملتهِم صورة طبق الأصل من مركبته: سحلية عملاقة بشعة، يغطيها درع صخري من الحراشف المتراكبة. انتصب ليقارب طوله واقفًا الثلاثين قدمًا. قدَّم نفسه باسم «نبوي»،

---

(1) «التكنولوجيا الأثيرية» (Ethereal Technology) هي مصطلح يُستخدم غالبًا في الخيال العلمي والفانتازيا لوصف نوع من التكنولوجيا يبدو خفيفًا، شبه شفاف، غير مادي، أو متجاوزًا لحدود فهمنا الحالي.

لكن هيئته وسلوكه لاحقًا حملا الناس على مناداته «ناب»[1].

حين هبط «ناب» أمام مبنى الأمم المتحدة أحدثت محركات مركبته حفرة هائلة، وتناثرت الخرسانة في كل اتجاه، مُخلفة آثارًا واضحة من الدمار على المباني المجاورة.

وبما أن حجم المبعوث حال دون دخوله قاعة الجمعية العامة للأمم المتحدة، خرج المجتمعون إلى الساحة أمامها لملاقاته. يضغط بعضهم على جبينه بمناديل دامية بعد إصابته بشظايا من الزجاج والخرسانة المتناثرة.

ترتج الأرض مع كل خطوة لـ«ناب» نحوهم، وعندما تكلَّم جاء صوته كزئير مدوٍّ، أشبه بأبواق عشرات القاطرات تصرخ معًا في آنٍ، فيقف شعر من سمعه من شدة الرعب. ومع أنه تعلَّم الإنجليزية أثناء رحلته فقد تحدَّثها عبر مترجم آلي ثقيل يتدلَّى من عنقه، يعيد كلماته بصوت مذكَّر خشن، أخفض من صوته الحقيقي، لكنه مع ذلك يقشعر له المستمعون.

قال ناب بمرح:

- هاه! هاه! يا أيتها الديدان البيض الطرية، أيتها الديدان الصغيرة المذهلة!

في كل مكان غطَّى الناس آذانهم حتى انتهى الزئير المدوِّي، ولم يرفعوا أيديهم إلا قليلًا لسماع الترجمة.

وتابع يقول:

- سنعيش معًا قرنًا من الزمن، وأعتقد أننا سنتآلف.

---

(1) اسمه Faingsh في النص الإنجليزي، وأنياب تعني «Fangs» حوَّلتها في العربية إلى نبوي وناب لخلق الجناس.

رفع الأمين العام رأسه لمخاطبته، ومع صراخه بكل ما أوتي من عزم لم يتجاوز صوته طنين بعوضة، وقال:

- يا صاحب السعادة، لا بد أن تعلم أننا قلقون للغاية بشأن الغرض من قدوم مركبتكم الأم العظيمة إلى نظامنا الشمسي!

اتخذ «ناب» وضعية تشبه البشر، واقفًا على ساقيه الخلفيتين، وهو يغير ثقله ارتجَّت الأرض تحته، ثم أعلن بصوت جهوري:

- إمبراطورية المُلتهِم العظمى ستلتهم الأرض لتواصل رحلتها الملحمية! هذا أمر محتوم!

سأله الأمين العام وصوته يرتجف قليلًا:

- وماذا عن مصير البشرية؟

أجاب «ناب»:

- هذا ما جئتُ لأقرَّره اليوم.

ساد الصمت، وتبادل قادة الدول نظرات ذات مغزى. ثم أومأ الأمين العام برأسه وقال:

- من الضروري مناقشة الأمر بالكامل فيما بيننا.

لكن «ناب» هزَّ رأسه الهائل مقاطعًا حتى لا يُكثروا من الكلام:

- الأمر بسيط للغاية: أحتاج فقط أن أتذوَّق.

ثم مدَّ مخلبه العملاق إلى الحشد المُجتمع، وانتشل منه رئيس دولة أوروبيَّة، وألقاه برشاقة من مسافة عشرين قدمًا إلى فمه مباشرة. وبدأ يمضغه ببطء وعناية. ومن أول قرمشة حتى آخر قضمة ظلَّ الضحية صامتًا تمامًا، واستحال معرفة إن كان ذلك نابعًا من الكرامة أم أنه شلل من الرعب.

في اللحظات المفزعة التالية لم يُسمع سوى صوت العظام وهي تتحطم تحت أضراس ناب الحادة كالسكاكين. وبعد نحو نصف دقيقة بصق بدلة الرجل وحذاءه كما يبصق الإنسان بذور البطيخ. كانت ثيابه مغطاة بالدماء، لكنها بقيت سليمة على نحو مرعب.

ساد صمت ثقيل كالموت، حتى قطعه صوت بشري. قال القبطان من وسط الحشد:

- كيف استطعت، يا سيدي، أن تلتقطه وتأكله ببساطة؟

تقدَّم ناب نحوه بخطواته المدوِّية، فتفرَّق الناس من طريقه. وقف أمام القبطان، وخفض رأسه الضخم بعينيه السوداوين بحجم كرتي سلة حتى واجهه مباشرة، وسأله:

- هل كان ينبغي ألا أفعل؟

ردَّ القبطان بنبرة خالية من الانفعال:

- يا سيدي، كيف عرفتَ أنه يصلح للأكل؟ فمن منظور الكيمياء الحيوية، من شبه المستحيل أن يصلح كائن من عالم بعيد جدًا كغذاء.

أومأ ناب، كأنَّ فمه العريض يبتسم، وقال:

- كنت أراقبك. تنظر إليَّ ببرود، شاردًا في أفكارك. ما الذي تفكر فيه؟

ابتسم القبطان بدوره وقال:

- يا سيدي، أنت تتنفس هواءنا، وتتكلم بموجات صوتية، ولديك عينان، وأنف، وفم، وأربعة أطراف متناظرة على جانبي الجسد...

ثم ترك عبارته معلَّقة.

قال ناب، وهو يقرّب رأسه الضخم حتى لامس وجه القبطان مع هسهسة أخرج معها نفسًا مقززًا تفوح منه رائحة الدم والأحشاء:

- ولا تفهم لماذا؟

ردَّ القبطان بثبات دون أي علامات خوف أو اشمئزاز:

- هذا صحيح، أفهم المبادئ جيدًا لدرجة تجعلني أجد التشابه بيننا ضربًا من اللا عقل.

قال ناب وقد بدا عليه الاستغراب:

- ثمَّة شيء لا أفهمه أنا.. لماذا أنت هادئ هكذا؟ هل أنت جندي؟

قال القبطان:

- أنا محارب يحمي الأرض.

ضحك ناب بسخرية وقال:

لكن هل دفع الحجارة الصغيرة يجعلك محاربًا؟

فردَّ القبطان برصانة، رافعًا ذقنه:

- أنا مستعد لاختبارات أكبر.

ضحك ناب وقال مكرّرًا:

- دودة مذهلة.

ثم اعتدل واقفًا بطوله الهائل، واستدار نحو قادة الدول، وقال:

- لكن دعونا نعود إلى لُبِّ الموضوع: مصير البشرية. أنتم لذيذون. فيكم نعومة ونكهة خفيفة تُذكِّرني بتوتٍ أزرق عثرنا عليه في كوكب إريدانوس. لذلك أهنئكم. نوعكم سيستمر. سنربِّيكم كقطعان في إمبراطورية الملتهم. ونسمح لكم بحياة طيبة تمتد لستين عامًا، قبل أن تُساقوا إلى السوق.

ضحك القبطان ببرود وسأله:

- يا سيدي، ألا تعتقد أن لحمنا سيكون قاسيًا في ذلك العمر؟

فضحك ناب ضحكة عظيمة مدوِّية كبركان ينفجر، وقال:

- هاه، هاه، هاه، هاه! يحب الملتهمون الوجبات الخفيفة التي تحتاج إلى المضغ!

الفصل الثالث

نمل

عقدت الأمم المتحدة عدة اجتماعات إضافية مع ناب، ومع أنَّ أحدًا لم يُؤكل بعدها، فإنَّ الحكم على مصير البشرية لم يتغير.

تقرَّر عقد اجتماع في موقع تنقيب أثري في أفريقيا أُعد بعناية بالغة. هبطت سفينة ناب في الموعد المحدَّد تمامًا، على مسافة خمسين قدمًا من موقع الحفر. الانفجار المدوِّي وعاصفة الحطام المرافقة لوصول المركبة باتا مشهدًا مألوفًا للغاية في هذه المرحلة.

أخبرتهم فتاة إريدانوس بأنَّ محرِّك المركبة يعمل بمفاعل اندماجي[1] مصغَّر. وكان هذا المفهوم، كسائر ما قالته عن تكنولوجيا الملتهمين، في متناول فهم العلماء البشريين؛ أما ما قالته عن تكنولوجيا سكان إريدانوس، من ناحية أخرى، فلم يتوقف قط عن إدهاش سكَّان الأرض وأعجزهم استيعابه. على سبيل المثال، بدأت بلورتها تذوب مع دخولها الغلاف الجوي للأرض، وفي النهاية تلاشى الجزء الذي يضم نظام الدفع بالكامل، لم يترك سوى شريحة رقيقة من البلور تطفو بانسيابية في الهواء.

وعندما وصل ناب إلى موقع الحفر قدَّم له موظفان من الأمم المتحدة ألبومًا كبير الحجم، مساحته ياردة مربعة، صُمِّم بعناية

---

(1) المفاعل الاندماجي: جهاز مصمم لإنتاج الطاقة عن طريق الاندماج النووي، نفس العملية التي تُشغِّل الشمس والنجوم.

لينا سب ضخامة جسده. كشفت المئات من صفحاته المصمَّمة بشكل جميل عن جميع جوانب الثقافة الإنسانية بتفاصيل ملوَّنة زاهية. بدا في بعض النواحي كتمهيد فاخر ومبهر للأطفال.

داخل الحفرة في موقع التنقيب نفسه أسهب أحد علماء الآثار في الحديث عن تاريخ حضارات الأرض المجيد. صبَّ كل شغفه في محاولته المستميتة لجعل هذا الكائن الغريب يفهم أنَّ ثمَّة أشياء كثيرة تستحق الحفظ على هذا الكوكب الأزرق، ومع احتدام انفعاله اغرورقت عيناه بالدموع. كان مشهدًا مؤلمًا يستدرُّ الشفقة.

وفي الختام أشار إلى الحفريات وقال بنبرة مؤثرة:

- أيها المبعوث الجليل، ما تراه هنا هو بقايا مدينة عُثر عليها حديثًا. هذا الموقع الذي يعود إلى خمسين ألف عام هو أقدم مستوطنة بشرية اكتُشف حتى اليوم، فهل قلوب قومك قاسية إلى الحد الذي يجعلهم يدمّرون حضارة مجيدة كهذه؟ حضارة تطوَّرت ببطء، خطوة فخطوة، عبر خمسين ألف سنة؟

يتصفَّح ناب الألبوم بفضول طفولي ظاهر، وحين أنهى العالِم حديثه رفع ناب رأسه عن الألبوم وألقى نظرة على الحفرة، ثم قال مشيرًا إلى كومة كبيرة من التراب:

- آه، أيتها الدودة الأثرية، لا يهمّني حُفرك ولا مدينتك المدفونة، لكنني أرغب بشدة في رؤية التراب الخارج من هذه الحفرة.

انتقل العالِم من شعوره بالحيرة إلى الذهول التام مع انتهاء المترجم الآلي بصوته الخشن من نقل طلب ناب. قال متلعثمًا:

- التراب؟

سأل، يبحث عن تتمة..

- لكن لا يوجد شيء في ذاك التراب!

ردَّ ناب:

- هذا رأيك.

ثم اقترب من كومة التراب، وانحنى بجسده الهائل، وصل بمخلبين عملاقين إلى الكومة وبدأ بالحفر. سرعان ما تجمَّع حشد حوله، مندهشين من خفة حركة مخالبه على الرغم من مظهرها الثقيل. يهمز الأرض الناعمة، فيستخرج مرارًا بقع غبار دقيقة من التربة، ليضعها على الألبوم. بدا مستغرقًا تمامًا في هذا العمل الغريب لمدة عشر دقائق كاملة. بعدما انتهى رفع الألبوم بكلا مخلبيه بحذر وعدل جسده. ثم توجَّه به نحو الحشد البشري.

اقترب الناس، ولولا نظرهم بمزيد من الحرص لما ميَّزوا المئات من النمل، متجمِّعين في كتل مُحكمة: بعضها حي، والبعض الآخر ميت.

قال ناب بصوته الجهوري وهو يفحص البشر النمل:

- أريد إخباركم بقصَّة. حكاية مملكة تنحدر من إمبراطورية عظيمة. يُمكن تتبُّع نسبها حتى أواخر العصر الطباشيري، حين بنى مؤسسوها مدينة مهيبة تحت ظل عظام ديناصور شاهق..

توقف لحظة يستجمع ذاكرته، ثم تابع:

- لكن هذا تاريخ سحيق طواه النسيان. ولمَّا حلَّ الشتاء فجأة، لم يتبقَّ من عارفي أمجاد ذلك الزمان سوى آخر ملكة في سلالة طويلة من ملكات توارثنه. كان شتاءً طويلًا بحق، إذ غطَّت الأنهار الجليدية الأرض، وضاعت عشرات ملايين السنين من الحياة الصاخبة، وغدا البقاء مسألة محفوفة بالمستحيل..

بعدما استيقظت من سُباتها الأخير لم تستطع الملكة أن توقظ سوى فرد واحد من كل مائة. وجمَّدت البرودة الباقين، حتى صار بعضهم مجرد قشريات شفَّافة فارغة. عندما مسَّت جدران مدينتها، وجدتها باردة كالثلج، صلبة كالفولاذ، فعلمت أن الأرض لا تزال متجمِّدة. حتى في مواسم الصيف لم تذُب، فقررت مغادرة وطن أسلافها والبحث عن أرض لم يمسسها الجليد، لتؤسِّس فيها مملكة جديدة.

قادت الملكة رعاياها الناجين نحو السطح، في رحلة طويلة تحت رحمة كتل الجليد الكاسح.

مات أكثرهم في الطريق جرَّاء البرد القاتل، لكنَّ الملكة، ومعها قلَّة من الناجين، وجدوا أخيرًا بقعة من الأرض ظلَّت دافئة، غمرها النشاط الحراري الجوفي. لم تعرف الملكة، بالطبع، شيئًا عن هذا. لم تفهم كيف تكون ثمة تربة رطبة وناعمة في أي مكان في هذا العالم المتجمِّد، لكنها لم تتفاجأ قط بأنها وجدتها: عرق صمد عبر ستين مليون سنة لن ينقرض أبدًا!

في مواجهة أرض مغطاة بالجليد وشمس باهتة وقفت الملكة تحت قمة جبل أبيض، مُعلنة تأسيس مملكة جديدة، خالدة.

قال بعظمة:

- وستُعرف تلك الأرض بـ«مملكة الجبل الأبيض».

صمت قليلًا، ثم قال:

- في الحقيقة ذلك الجبل لم يكن إلا جمجمة ماموث. وكان ذلك في ذروة العصر الجليدي المتأخر، حين كنتم، أيها الديدان البشرية، لا تزالون حيوانات غبية، ترتجفون في كهوفكم المبعثرة. وسيستغرق الأمر تسعين ألف سنة أخرى قبل أن تومض أول

شرارة لحضارتكم، في قارة بعيدة في سهول بلاد ما بين النهرين.

صمدت المملكة الجديدة عشرة آلاف عام، تعيش على بقايا الماموث المتجمِّدة. وحين انقشع الجليد وعاد الربيع وازدهرت الأرض من جديد دخلت مملكة الجبل الأبيض عصرها الذهبي، وبلغت أعداد سكانها حدًا لا يُعد، وسادت أراضي شاسعة. تعاقبت عليها سلالات لا تُحصى، وخُلِّد تاريخها في ملاحم بلا نهاية.

وأشار ناب إلى كومة التراب الضخمة:

- تلك هي الأرض التي احتضنت مملكة الجبل الأبيض. وحين كنتم، أيها الديدان الأثريون، تفتِّشون عن مدينة بشرية ميتة عمرها خمسون ألف عام لم تدركوا أن التربة أعلاها عجَّت بمدينة حية نابضة. تضاهي نيويورك بسهولة، بل تفوقها اتساعًا وتعقيدًا. في حين كان للأخيرة بُعدان كانت تلك مدينة عالمية ثلاثية الأبعاد، ذات طبقات متداخلة، تكتظ كل واحدة بشوارع تشبه المتاهات، غير الساحات الفسيحة والقصور الرائعة، وأنظمة صرف ومكافحة حرائق، كلها تتفوَّق على أعظم مدنكم.

أخبر جمهوره المأسور:

- مملكة تُدار بنظام دقيق، وانضباط صارم. هيكل اجتماعي معقَّد وتقسيم صارم للعمل. لا جريمة، لا مخدرات، ومن ثم لا انحلال، ولا ارتباك. ومع ذلك لم يكن سكَّانها بلا عاطفة، بل يذرفون الدموع على موتاهم، ويدفنونهم في مقابر سطحية خاصة عند أطراف المدينة، بوصة واحدة تحت الأرض.

ومع كل ذلك تمثَّل مجد مملكتهم في مكتبة عظيمة في طبقة المدينة السفلية، تحتوي على أوعية بيضاوية، كل منها كتاب مليء

بالفيرمونات[1] تحفظ الكيمياء المعقدة لها المعرفة. في تلك المكتبة سُجِّلت ملاحم المملكة: هنا بإمكانك تعلُّم أنه في حريق غابة كبير احتضن جميع رعايا المملكة بعضهم البعض لتشكيل عدد لا يُحصى من الكرات، وأنهم، بجهد بطولي، تمكَّنوا من الهروب من بحر من النار عن طريق الطفو في مجرى مائي. بإمكانك تعلُّم تاريخ حرب المائة عام ضد إمبراطورية النمل الأبيض أو عن المرة الأولى التي رأت فيها بعثة من المملكة المحيط العظيم.

ترك ناب صوت مترجمه يتلاشى، ثم دوَّى صوته مجددًا:

– لكن كل ذلك دُمِّر في ثلاث ساعات فقط حين جاءت الحفارات تصرخ وتزأر وتعتم السماء. أذرعها الفولاذية نبشت الأرض، حطَّمت المدينة وسكَّانها جميعًا، حتى الطبقة التي ترقد فيها جميع أطفال المدينة وعشرات الآلاف من البيض الأبيض الثلجي الذي لم يصبح أطفالًا بعد دمَّرتها.

ساد الصمت مجددًا أعمق حتى من ذلك الذي أعقب مأدبة ناب البشعة. وها هي البشرية، ولأول مرة، تقف أمام المبعوث الغريب عاجزة عن الكلام.

قال ناب أخيرًا:

– أمامنا وقت طويل كي نعيش معًا وأحاديث كثيرة في انتظارنا، لكن دعونا لا نتحدث عن الأخلاق، ففي هذا الكون لا مكان لمثل هذه الأشياء.

---

(1) الفيرمونات: مواد كيميائية تفرزها الكائنات الحية خارج أجسامها لتؤثر على سلوك أو فسيولوجيا أفراد آخرين من نفس النوع. إنها تعمل كـ«رسائل كيميائية». والصورة ابتكار خيالي يصور وسيلة متطورة وغير تقليدية لتخزين المعرفة ونقلها باستخدام المواد الكيميائية التي تفرزها الكائنات الحية.

الفصل الرابع

التـسـارع

غادر ناب موقع الحفر تاركًا الجميع في حالة من الصدمة العميقة واليأس. مرَّة أخرى كان القبطان أول من قطع الصمت. التفت إلى سادة مختلف الدول المحيطين به وقال:

- أعلم أنني لست سوى شخصٍ مغمور، والسبب الوحيد لوجودي في مثل هذه المناسبات هو أنني أوَّل من تواصل مع الذكاءين الفضائيين. ومع ذلك أودُّ قول أمرين: أولًا، ناب محق. ثانيًا، السبيل الوحيد أمام البشرية هو القتال.

هزَّ الأمين العام رأسه بابتسامة مريرة:

- قتال؟ أوه، أيها القبطان... قتال...

فصاحت فتاة إريدانوس من خلف لوحها الكريستال وهي تُحلق على ارتفاع بضعة أقدام فوق رؤوس الحضور:

- نعم! قتال! قتال! قتال!

في بلورتها المغمورة بأشعة الشمس، بدأ جسد الفتاة ذات الشعر الطويل يتلوَّى ويندفع بالكامل.

فصاح أحدهم:

- أنتم أهل إريدانوس قاتلتموهم. كيف انتهى بكم الحال؟ على البشرية أن تفكر في بقائها كنوع، لا في إرضاء رغباتكم

المشوَّهة للثأر.

فأجابه القبطان، وقد استدار ليواجه الجموع:

- لا يا سيدي... خاض سكان إريدانوس حربًا دفاعية ضد عدوٍّ لم يعرفوا عنه شيئًا، وهم بطبيعتهم مجتمع لم يعرف الحروب عبر تاريخه، وبالنظر إلى تلك الظروف فليس من المستغرب هزيمتهم. ومع ذلك فقد اكتسبوا خلال قرنٍ من الحرب المريرة فهمًا دقيقًا وعميقًا للمُلتهم، وهذا الفهم الهائل أصبح بين أيدينا الآن، منحنا إياه هذا المركب الفضائي، وهذه هي ميزتنا.

تابع قائلًا:

- تشير الدراسات الأوَّلية الدقيقة إلى أن المُلتهم ليس مرعبًا بالقدر الذي ظنَّاه أول الأمر. أهم ما ينبغي إدراكه أنه، باستثناء حجمه غير المعقول، لا شيء فيه يتجاوز إدراكنا العلمي. كائناته الحيَّة، البالغة أكثر من عشرة مليارات، كربونية البنية مثلنا، بل وتشبهنا على المستوى الجزيئي. وبما أننا نتشارك الأساس البيولوجي ذاته فلن يبقى شيء فيهم عصيًّا على فهمنا. يجب اعتبار أنفسنا محظوظين؛ تصوَّروا أنَّ بالإمكان، بنفس الاحتمال، مواجهة غزاة مكوَّنين من حقول طاقة أو من مادة النجوم النيوترونية[1].

وهناك ما هو أكثر مدعاةً للأمل: لا يمتلك المُلتهِم سوى القليل مما يمكن لنا تسميته بـ«التكنولوجيا الخارقة». نعم تقنياته متقدمة كثيرًا مقارنة بتقنياتنا، لكن الفارق هنا في الحجم، لا في المبدأ أو

(1) لتقريب مدى كثافتها، يقول العلماء إنَّ ملعقة شاي واحدة من مادة نجم نيوتروني يمكن أن تزن حوالي مليار طن على الأرض (أي أكثر من وزن جبل إيفرست!).

النظرية. مصدر الطاقة الأساسي في نظام دفع الملتهم هو الاندماج النووي. والهدف الأساسي من نهب المياه من الكواكب -إلى جانب دعم الحياة- هو استخدامها كوقود لهذا النظام. ويستند نظام الدفع لديهم إلى مبدأ الارتداد[1] وقانون حفظ الزخم[2]؛ وليس شيئًا من ذاك الهراء المشوش للزمكان.

توقف القبطان لحظة وهو يتأمل وجوه الحاضرين، ثم قال:

- قد يصيب هذا الكلام علماءنا بالإحباط؛ إذ يحدد لنا المُلتهِم، بعد عشرات الملايين من السنين من التطور المستمر، سقفَ العلم والتقنية. لكنه يُثبت في الوقت نفسه أنّ عدوَّنا ليس إلهًا لا يُقهر.

تأمَّل الأمين العام كلمات القبطان، ثم سأله:

- لكن، هل هذا كافٍ ليضمن نصر البشرية؟

ردَّ القبطان:

- لدينا، بطبيعة الحال، معلومات أكثر تحديدًا. معلومات يمكن أن تسمح لنا بوضع استراتيجية تُعطينا فرصة واقعية للفوز. على سبيل المثال.

صرخت فتاة إريدانوس من فوقهم مقاطعة:

- التسارع! التسارع!

فشرح القبطان صرختها للوجوه المتحيِّرة من حوله:

---

(1) مبدأ فيزيائي بسيط مثل ارتداد البندقية نتيجة إطلاق الرصاصة.

(2) قانون فيزيائي أساسي ينص على أن الزخم الكلي لنظام معزول يظل ثابتًا ما لم تؤثر عليه قوة خارجية.

- علمنا من بيانات إريدانوس أن قدرة مركبة المُلتهم على التسارع محدودة. لقد راقبوها على مدار قرنين كاملين، ولم يروها تتجاوز هذا الحد مطلقًا. ولتأكيد ذلك، استخدمنا البيانات الواردة من مركبة إريدانوس لإنشاء نموذج رياضي يأخذ في الحسبان بنية المُلتهم وقوة المواد المكونة لهيكله. وأكَّدت الحسابات صحَّة ما رصده أهل إريدانوس. ثمة حدّ حاسمٌ للسرعة التي يمكن أن يتسارع بها المُلتهم، ويتحدد هذا الحدُّ بمتانة بنيته. ولو تجاوز هذا الحدَّ، فإن الجبَّار سيتفتَّت.

فقال رئيس إحدى الدول العظمى بلا اكتراث:

- ثم ماذا؟

فأجاب القبطان ضاحكًا:

- علينا البقاء هادئين، والتفكير مليًّا.

الفصل الخامس

ملجأ على القمر

أحرزت مفاوضات البشر مع المبعوث الفضائي تقدمًا طفيفًا أخيرًا، إذ رضخ ناب لمطلب تخصيص ملاذ على سطح القمر.

قال الأمين العام في أحد الاجتماعات والدموع تترقرق في عينيه:

- البشر كائنات تنزع إلى الحنين.

أجابه ناب، وهو يومئ برأسه الضخم في تعاطف:

- وكذلك المُلتهمون، مع أننا لم نعد نملك وطنًا.

تابع الأمين العام:

- فهل تسمحون لعددٍ قليلٍ منا بالبقاء؟ إن سمحتم فسوف ينتظرون أن تلفظ إمبراطورية المُلتهم الأرض بعد الفراغ من التهامها، وما أن تستقر جيولوجيا الكوكب المتحوِّلة سيعودون لإعادة بناء حضارتنا.

هزَّ ناب رأسه العملاق نافيًا:

- حين تستهلك إمبراطورية المُلتهم شيئًا فهي تستهلكه بالكامل. وحين نفرغ ستكون الأرض موحشة كالمريخ. تقنيتكم الدودية لن تكفي لإعادة بناء حضارة.

لكن الأمين العام لم يتراجع:

- علينا المحاولة، فذلك يُسكِّن أرواحنا، وسيكون أمرًا جوهريًا

لمن سيُرَبُّون في إمبراطورية المُلتهم كقطعان. من المؤكد أن التفكير في وطنهم البعيد في هذا النظام الشمسي سيجعلهم يسمنون، حتى لو لم يعد موجودًا بالضرورة.

هزَّ ناب رأسه موافقًا هذه المرة:

- لكن إلى أين سيذهب هؤلاء ونحن نلتهم الأرض؟ إلى جانب الأرض، سنلتهم الزهرة أيضًا. أما المشتري ونبتون فهما أكبر من أن نستهلكهما، لكننا سنلتهم أقمارهما، فالإمبراطورية بحاجة إلى الهيدروكربونات والماء. وسنأخذ قضمات من المريخ وعطارد القاحلين، إذ نهتم بثاني أكسيد الكربون والمعادن فيهما. ستغدو أسطح هذه العوالم بحارًا من النار.

ردَّ الأمين العام وهو مستعد:

- بوسعنا الاحتماء على سطح القمر. نعلم أنَّ إمبراطورية المُلتهم تخطط لدفع القمر خارج مداره قبل التهام الأرض.

أومأ ناب:

- صحيح، فالقوى الجاذبية المشتركة للأرض والمُلتهم ستكون هائلة. قد تتسبَّب في ارتطام القمر بسفينتنا. واصطدام كهذا كفيل بالقضاء على إمبراطوريتنا.

ابتسم الأمين العام ابتسامة خفيفة وقال:

- إذن دع بعضنا يعيش هناك. لن تخسروا شيئًا.

سأله ناب:

- كم عدد من تنوون تركهم؟

فأجابه الأمين العام بنبرة ثابتة:

- الحد الأدنى لحفظ حضارتنا: مائة ألف.

قال ناب خاتمًا:

- إذن، عليكم البدء في العمل.

قال الأمين العام في حيرة:

- عمل؟ أي عمل؟

فردَّ ناب بلهجة عابثة:

- دفع القمر خارج مداره، فهذا دومًا مصدر إزعاج لنا.

قال الأمين العام، ممسكًا برأسه في يأس:

- يا سيدي، هذا لا يختلف عن رفض مطلبنا البسيط والبائس. أنتم تعلمون أننا لا نملك هذه القدرة التقنية!

ضحك ناب ساخرًا وقال:

- هاه، أيتها الدودة! ولمَ أبال؟ ثم... أليس أمامكم قرنٌ كامل؟

الفصل السادس

زرع القنابـل

على السهول البيضاء المتلألئة للقمر وقف فريق يرتدي بزَّات الفضاء بجوار برجٍ حفرٍ شاهق[1]. وقف مبعوث المُلتهم على مسافةٍ قصيرة، تُشكِّل هيئته الضخمة ظلًا آخر شامخًا على الأفق. تركَّزت الأنظار جميعها على أسطوانة معدنية تُنزَل ببطء من أعلى البرج إلى البئر المحفورة في الأسفل.

سرعان ما اندفع السلك بسرعة نحو عمق البئر. على الأرض، على بُعد 240 ألف ميل، يتابع عالمٌ بأسره ما يحدث بشغف. ثم وردت الإشارة: وصلت الحمولة قاع البئر. اندلعت التصفيقات من جميع الحاضرين، بمن فيهم ناب، احتفالًا بهذه اللحظة التاريخية.

وُضعت القنبلة النووية الأخيرة التي ستدفع القمر خارج مداره. مر قرنٌ كامل منذ وصول بلورة إريدانوس ومبعوث إمبراطورية المُلتهم إلى الأرض. قرنٌ من يأس البشرية، مائة عام من الكفاح المرير.

في النصف الأول من ذلك القرن انخرط كوكب الأرض بأسره بحماسةٍ في مهمة بناء محرك قادر على دفع القمر، لكن التكنولوجيا اللازمة لتشييد مثل هذا المحرك لم تنجح قط، وكل ما تحقَّق اكتساب

(1) هيكل معدني طويل يُستخدم في عمليات الحفر، خاصة في حفر آبار عميقة جدًا.

سطح القمر بضعة جبال من الخردة المعدنية، بقايا النماذج الأوَّلية الفاشلة، ثم بحيرات من المعدن أيضًا في مواقع تجارب انصهرت فيها المحركات التجريبية بفعل حرارة الاندماج النووي.

طلب البشر من ناب بعض المساعدة التقنية، فمحركات القمر، في النهاية، لن تحتاج حتى إلى عُشر حجم المحركات الكوكبية العملاقة التي تمتلكها إمبراطورية المُلتهم.

غير أنَّ ناب رفض، وقال ساخرًا:

- لا تفترضوا أنَّ بإمكانكم بناء محرك كوكبي لمجرد أنكم تفهمون الاندماج النووي. المسافة بين المفرقعات النارية والصواريخ شاسعة. الحق أقول لكم، أن لا سبب يُحتّم عليكم هذا العناء. في درب التبانة، من الطبيعي تمامًا أن تصبح الحضارة الأضعف سائرة للحضارة الأقوى. ستكتشفون أن تسمين الإنسان كطعام حياة فاخرة بحق، بلا حاجات، وتنعمون فيها بالسعادة حتى النهاية. بعض الحضارات سعت لتكون ماشية، لكنها لم تُقبل. انزعاجكم من هذه الفكرة مجرد أثر مبتذل لمركزية الإنسان.

علَّق البشر آمالهم على بلورة إريدانوس، لكنها خابت مرةً أخرى. تطورت تكنولوجيا حضارة إريدانوس في مسارٍ مغاير تمامًا عن مسار الأرض أو المُلتهم. اعتمدت بالكامل على كائنات كوكبهم الحيَّة. البلورة، على سبيل المثال، كائن تكافلي يعيش مع نوع من العوالق الطافية في محيطات عالمهم. ركَّب أهل إريدانوس ببساطة القدرات غير العادية لأشكال الحياة في كوكبهم واستخدموها دون أن يفهموا أسرارها حقًا. ولهذا، ودون تلك الكائنات، تصبح تلك التكنولوجيا عديمة الجدوى تمامًا.

بعد ضياع أكثر من خمسين عامًا ثمينة في الفشل، وفي لحظة يأس، طرحت البشرية خطة غريبة الأطوار لدفع القمر. القبطان هو أول من ابتكرها. بحلول ذلك الوقت أصبح قائدًا بارزًا في برنامج دفع القمر ونال رتبة مشير. على الرغم من أنَّ خطته بدت بلا منطق فإنَّ متطلباتها التقنية متواضعة، ويمكن للتكنولوجيا المتاحة تنفيذها بالكامل لدرجة أدهشت كثيرين، أنَّ أحدًا لم يفكر بها من قبل.

الخطة الجديدة بسيطة للغاية: تثبيت مصفوفة هائلة من القنابل النووية على جانب واحد من القمر. تُدفن معظم هذه القنابل على عمق ميلين تقريبًا تحت السطح، ويُراعى في توزيعها ألّا يُدمِّر تفجير إحداها الأخرى.

بحسب الخطة سيُثبَّت ما مجموعه خمسة ملايين قنبلة نووية على «جانب الدفع» من القمر. مقارنة بهذه القنابل كانت أقوى قنابل البشرية النووية من عصر الحرب الباردة مجرد ألعاب نارية.

عند تفجير هذه القنابل الفائقة تحت سطح القمر لن تخنق أعماق التربة قوة الانفجارات مثل الاختبارات النووية في العصور السابقة، إنما ستُطيح بطبقةٍ كاملة من مادة القمر. وفي ظلِّ جاذبية القمر المنخفضة ستصل الصخور والغبار الناتج إلى سرعة الإفلات من الجاذبية، ومع انطلاقها في الفضاء ستُولِّد قوة دفع هائلة تؤثر مباشرة على القمر نفسه.

إذا حدث تفجير عدد معين من القنابل على نحو متتالٍ وسريع فستُصبح هذه الدفعة المتولدة قوة دفع مستمرة، كأنَّ القمر قد زُوِّد بمحركٍ فعَّال. ومن خلال تنويع مواقع التفجير، يمكن توجيه مسار القمر.

تنحو الخطة خطوة أخرى للأمام، إذ تدعو إلى وضع طبقتين من القنابل داخل السطح القمري، لا طبقة واحدة. تُدفن الطبقة الثانية على عمق نحو أربعة أميال، وبعد استنفاد الطبقة العليا تُزال تلقائيًا طبقتان من التربة من جانب الدفع، لتستأنف التفجيرات العمل بسلاسة من الطبقة الثانية، مضاعِفةً بذلك فترة عمل «المحرِّك».

عندما سمعت فتاة إريدانوس بهذه الخطة أعلنت أن البشرية قد جُنَّت فعلًا:

- الآن فهمت، لو امتلكتم تكنولوجيا تعادل المُلتهم لكنتم أشدَّ توحشًا!

أشاد ناب من ناحيته بالفكرة للغاية:

- هاه! يا لها من فكرة رائعة خطرت لعقولكم أيتها الديدان. أعجبتني! أعجبني ابتذالكم! لأنه أسمى درجات الجمال!

صرخت فتاة إريدانوس محتجَّة:

- سخيف! كيف يكون الابتذال جميلًا؟

ردَّ ناب بحماس:

- الابتذال جميلٌ بطبيعته، ولا شيء أشدُّ ابتذالًا من الكون! النجوم تحترق بجنون في برودة الظلمة المطلقة للفضاء... أليس هذا ابتذالًا؟ أفهمتِ؟ الكون مذكَّر! أما الحضارات المؤنَّثة، كحضارتكم، فهي هشة، دقيقة، رقيقة... شذوذ سقيم في ركن صغير من الكون. وهذه هي الحقيقة!

قرنٌ مرَّ وما زال جسد ناب الضخم مفعمًا بالحيوية، ولا تزال فتاة إريدانوس متقدة ولامعة، أما القبطان فقد أنهكه الزمن، شيخ كبير، بلغ المائة وثلاثين.

بحلول تلك اللحظة تجاوزت سفينة المُلتهم مدار بلوتو. بدأت تستيقظ من سُباتها الطويل بعد رحلة امتدَّت ستين ألف ميل من النجم إبسيلون إريداني. في ظلمة الفضاء أُضيئت حلقتها الهائلة، واستُنفر مجتمعها العملاق استعدادًا لنهب النظام الشمسي. وبعد نهب الكواكب الخارجية اندفع المُلتهم في مسار متهور نحو الأرض.

الفصل السابع

الحرب الفضائية الأولى والأخيرة للبشرية

بدأ تسارُع القمر مبتعدًا عن الأرض. كان معلّقًا في سماء وجه الأرض النهاري حين انفجرت القنابل النووية الأولى. أضاء وميض كل تفجير سطح القمر لفترة وجيزة في السماء الزرقاء، ليمنحه مظهر عين فضِّية عملاقة ترمش في الأعلى بجنون. وعندما أقبل الليل على الأرض ظلت ومضات متقطعة لتفجيرات أحد جانبَي سطح القمر ترسل وميض العمل البشري إلى سطح الكوكب الواقع على بُعد خمسة وعشرين ألف ميل.

صار ذيل فضي شاحب، ممتد خلف جانب القمر المظلم، مرئيًا الآن. مؤلَّف من الصخور التي قُذفت إلى الفضاء من سطحه. أظهرت الكاميرات المثبتة على الجانب الدافع للقمر طبقات من الصخور تُقذف إلى الخارج كطوفان هادر. سرعان ما تلاشت موجات الصخور في المسافة، تاركة خيوطًا رفيعة تتبع أثر القمر، ثم بدأ القمر، وهو يدور نحو الجانب الآخر من الأرض، برسم مدار متسارع.

لكنَّ اهتمام البشرية انصبَّ حينها على الحلقة العظيمة الرهيبة التي ظهرت في السماء: لاح الملتهم فوق الأرض. المدُّ الهائل الذي أحدثته جاذبيته دمَّر المدن الساحلية للكوكب. ومضت محركاته الخلفية في دائرة من الضوء الأزرق، بينما يُجري تعديلاته المدارية

الأخيرة في طريق اقترابه. وبعد مطابقته التامة لمدار الأرض حول الشمس، ومحاذاة محور دورانه لمحورها، بدأ في التحرك ببطء شديد نحو الأرض، مستعدًا لإحاطتها بجسمه الحلقي الهائل.

استمر تسارُع القمر مدة شهرين. في غضون هذه الفترة تنفجر داخله قنبلة نووية كل ثانيتين أو ثلاث لتبلغ الحصيلة ما يقارب 2.5 مليون انفجار نووي، رقم يكاد لا يُصدَّق. ومع دخول مداره الثاني حول الأرض أجبر تسارعه المدارَ على التحوُّل من شكل دائري إلى شكل بيضاوي واضح، ومع بلوغ القمر أقصى نقطة في هذا المدار، وصل ناب والقائد إلى جانبه الأمامي، بعيدًا عن موقع التفجيرات.

دعا القائد مبعوث الفضائيين لهذه المناسبة خصيصًا. ووقف الاثنان على سهل قمري تغطيه الفوهات، بينما تصل ارتجاجات التفجيرات على الجانب الآخر حتى أقدامهم من أعماق القمر، كما لو أنهم يحسون بنبضه العنيف، وفي السماء الحالكة الشاسعة خلفهما تلألأ الملتهم بضوئه الباهر، مستحوذًا بجسمه الحلقي الضخم على نصف السماء.

قال ناب، بصوتٍ مفعم بالإعجاب الصادق:

- رائع، أيها القائد-الدودة، رائع بحق! لكن عليكم الإسراع. ما زال أمامكم مدار آخر للتسارع. لم تعتد إمبراطورية الملتهم انتظار الآخرين. ولديَّ سؤال آخر: المدن التي بنيتموها تحت السطح قبل عقد من الزمن لا تزال فارغة، متى سيصل سكانها؟ كيف ستنقل سفنكم مائة ألف إنسان من الأرض إلى هنا خلال شهر واحد فقط؟

ردَّ القائد بهدوء:

- لن ننقل أحدًا. نحن آخر من سيقف على سطح القمر.

أدارت المفاجأة جسد ناب، قال القائد: «نحن»، قاصدًا الخمسة آلاف جندي وضابط من قوات الفضاء الأرضية، الذين شكَّلوا رتلًا محكمًا على السهل المغطى بالفوهات، وفي مقدمتهم جندي يلوِّح بعلم أزرق.

قال القائد متحديًا:

- انظر! هذه راية كوكبنا. نعلن الحرب على إمبراطورية الملتهم!

تجمَّد ناب حيرة أكثر منها دهشة. ثم ترنّح فجأة إلى الوراء بفعل الاندفاع الجانبي المفاجئ للقمر. سقط أرضًا مذهولًا، لا يقوى على التحرك. وبينما بدأ الغبار القمري المتطاير بسبب سقوطه الهائل في التهادي على الأرض، تطاير من جديد نتيجة لموجات الصدمة العنيفة القادمة من الجانب الآخر. سرعان ما غطَّت هذه الصدمات السهل بأكمله بطبقة من الغبار الأبيض.

أدرك ناب أنَّ وتيرة التفجيرات النووية قد ارتفعت لعدة أضعاف، وبناءً على هذا التسارع في الجاذبية، استنتج أنَّ سرعة القمر لا بد أنها ارتفعت بدرجة كبيرة أيضًا. تدحرج وأخرج حاسوبًا كبيرًا من جيب بزَّته الفضائية، ثم عرض عليه مسار القمر الحالي، وفي الحال اكتشف أنَّ القمر خرج من مداره الأرضي وأنه سينفلت من جاذبية الأرض ليشقَّ طريقه في الفضاء.

ظهرت أمامه سلسلة وامضة من النقاط الحمراء: مسار القمر الجديد... وكان في مسار تصادمي مع الملتهم.

رمى ناب الحاسوب جانبًا دون تفكير ونهض ببطء. يصلب طوله بجهد واضح لمقاومة التسارع المتصاعد، نظر من خلال سحب الغبار، فشاهد قوات الأرض لا تزال واقفة، صامدة، كأعمدة حجرية.

قال هامسًا:

- قرن من التآمر والخداع.

أومأ القائد برأسه وأشار بجدية:

- أدركتَ الآن... أنه فات الأوان.

تحدَّث ناب بعد تنهيدة طويلة:

- توجَّب إدراك أنَّ بشر الأرض سلالة مختلفة تمامًا عن أهل إريدانوس. تطوَّرت الحياة في عالمهم بشكل تعايشي، بلا انتقاء طبيعي أو صراع بقاء. لم يعرفوا الحرب حتى..

توقف لاستيعاب ما يحدث، وتابع:

- استندنا إلى ذلك في تقييمنا لشعب الأرض، لكنكم ذبحتم بعضكم البعض دون هوادة منذ لحظة نزولكم من على الأشجار. كيف كنتم لتُغلبوا بسهولة؟ أنا..

توقف مرة أخرى.

- لقد كان ذلك تقصيرًا لا يُغتفر.

قال القائد بنبرة متزنة يشرح ما أدركه ناب:

- زوَّدنا سكان إريدانوس بكمٍّ هائل من المعلومات الحيوية، من بينها الحد الأقصى لقدرة الملتهم على التسارع. وبُنيت خطتنا الحربية على هذا الأساس. عندما نُفجِّر القنابل لتغيير مسار القمر سيبلغ تسارُعه ثلاثة أضعاف الحد الأقصى للملتهم...

بمعنى آخر سيكون القمر أسرع بثلاث مرات، ولن يكون بمقدوركم تجنُّب الاصطدام.

قال ناب:

- في الحقيقة لم نكن غافلين تمامًا. حين بدأت الأرض بإنتاج أعداد هائلة من القنابل النووية بدأنا بتعقُّب مواقعها، وحرصنا على أن تُركَّب داخل القمر، لكننا لم نظن أبدًا أن..

وتوقف. ابتسم القائد ابتسامة خافتة خلف زجاج خوذته، وقال:

- لسنا سُذجًا إلى درجة مهاجمة الملتهم مباشرة بقنابل نووية. نحن نعلم أنكم خضتم مئات الحروب، وصواريخ الأرض البدائية ستُعترض وتُدمَّر بسهولة. لكن لا يمكنكم اعتراض جسم بحجم القمر. وربما كان بمقدور الملتهم، بقدراته الهائلة، تدمير القمر أو إزاحته من طريقه، لكنه بات قريبًا جدًا الآن. فات الأوان.

زأر ناب:

- ديدان ماكرة! ديدان خائنة! ديدان غادرة!

هزَّ رأسه باضطراب وهو يتابع:

- حضارة المُلتهِم نزيهة... نحن نضع كل شيء في العراء، ومع ذلك خُدعنا من دود الأرض.

جزَّ على أسنانه الضخمة وهو يُنهي حديثه، وغضبه يكاد يدفعه إلى إحكام مخالبه العملاقة حول القبطان، لكنَّ بنادق الجنود المصوَّبة نحوه أوقفته. يدرك أنَّ جسده، رغم ضخامته، من لحم ودم، وأن وابلًا واحدًا من الرصاص كفيل بإنهائه.

صرَّح القائد بنظرة ثابتة على ناب:

- سنغادر، وعليك مغادرة القمر كذلك، وإلا فسوف تُقتل بقنابل الملتهم النووية.

وكان محقًا تمامًا، فبمجرد مغادرة قوات الفضاء الأرضية وناب سطح القمر ضربته صواريخ الملتهم الاعتراضية. تألق وجها القمر كلاهما بانفجارات هائلة، انفجر الجانب الأمامي من القمر واندفعت موجات هائلة من الصخور إلى الفضاء، وفي جميع أنحاء القمر تناثرت المواد القمرية بعنف في كل اتجاه يمكن تصوره، ومن الأرض بدا القمر كأنه محارب بشعر مشتعل، يتَّقد غضبًا منطلقًا إلى حتفه المحتوم أو إلى نصر غير متوقع.

في كل مكان على الأرض شوهد فيه هذا المشهد اندفعت الجماهير تهتف بجنون.

لكنَّ هجوم الملتهم لم يدُم طويلًا، وسرعان ما توقف، فقد أدرك عبثية ما يفعل، وأنه في الوقت المتبقي قبل الاصطدام لن يستطيع تغيير مسار القمر أو تدميره.

توقفت التفجيرات على القمر أيضًا، إذ بلغ السرعة المطلوبة، وقرَّر المدافعون عن الأرض الاحتفاظ بما تبقَّى من قنابل لمناورات اللحظة الأخيرة، وساد صمت تام.

في برودة الفضاء يقترب القمر والملتهم من بعضهما البعض في صمت مطبق. تقلَّصت المسافة بينهما بسرعة، حتى أنه عند وصولها إلى ثلاثين ألف ميل كان بإمكان سفينة الأرض القيادية العليا رؤية القمر وقد بدأ يتداخل مع حلقة الملتهم شيئًا فشيئًا. بدا كأنه كرة فولاذية تسير نحو مضمار دائري.

حتى هذه اللحظة لم يغيِّر الملتهم مساره. وهذا متوقَّع، فالقمر قادر على مجاراة أي مناورة مبكرة. على الملتهم المناورة في اللحظة الأخيرة كأنَّ الاثنين فارسان قديمان في مبارزة، يتجهان نحو بعضهما بكل ما أوتيا من قوة، والحسم في اللحظة الأخيرة.

احتبست أنفاس حضارتين عظيمتين في درب التبانة، في انتظار تلك اللحظة الحاسمة.

عند مسافة عشرين ألف ميل، بدأ الجانبان مناوراتهما. اشتعلت محركات الملتهم أولًا، مطلقةً ألسنة لهب زرقاء امتدت لأكثر من خمسة آلاف ميل في الفضاء. بدأ في تنفيذ مناورات لتجنبه. على سطح القمر عادت القنابل النووية للاشتعال، تنفجر بعنف غير مسبوق من حيث الشدة والتواتر. يُجري القمر تعديلاته ليطابق مساره بما يضمن حدوث الاصطدام. الذيل المقوَّس للحطام المنبعث رسم تغيير مساره بوضوح. اندمج الضوء الأزرق لمحرك الملتهم الممتد لخمسة آلاف ميل مع الومضات الفضية لانفجارات القمر النووية؛ فجاء أبهى مشهد شهده النظام الشمسي.

استمرَّت هذه المناورات المتبادلة ثلاث ساعات. وكانت المسافة بينهما قد تقلَّصت إلى ثلاثة آلاف ميل، حين أظهرت شاشات الحواسيب أمرًا لم يكن ليصدِّقه أحد على متن سفينة القيادة: يغيِّر الملتهم مساره بتسارُع يزيد أربع مرات عن الحد الأقصى الذي أكَّده سكان إريدانوس!

وثقوا بحد التسارع دون أدنى شك، وبنوا عليه استراتيجيتهم لنصر الأرض. والآن لم تعد القنابل النووية المتبقية على القمر

تملك القدرة على تعديل المسار ومواصلة المطاردة. أظهرت الحسابات أنه، خلال ثلاث ساعات فقط وبذل أقصى الجهد، لن يقترب القمر أكثر من 250 ميلًا من نقطة الاصطدام بالملتهم.

اندفعت آخر رشقة ومضات مذهلة فوق سفينة القيادة، معلنة نفاد جميع قنابل الأرض النووية، وفي اللحظة ذاتها تقريبًا خمدت محركات الملتهم. في صمت الموت سردت قوانين القصور الذاتي الفصول الأخيرة من هذه الملحمة العظيمة: انزلق القمر على مقربة من جانب الملتهم، بالكاد لامسه، وبسرعة لم تُمكِّن جاذبية الملتهم من الإمساك به، لوت مساره قليلًا فحسب، وهو يندفع مبتعدًا. وبعد مروره، اتجه القمر صامتًا مبتعدًا عن الشمس.

داخل سفينة القيادة ساد صمت تام بين أعضاء القيادة العليا. مرَّت دقائق.

همس أحد القادة أخيرًا، مصعوقًا:

- خاننا سكان إريدانوس.

صرخ ضباط أركان:

- البلورة، على الأرجح، مجرَّد فخ نصبه إمبراطور الملتهم!

وفي لحظة غرق مقر القيادة في فوضى عارمة. بدأ الجميع بالصراخ، بعضهم تنفيسًا عن يأسه، والبعض الآخر لإخفائه. جميعهم على حافة الهستيريا. بعض المدنيين بكوا، وبعضهم اقتلعوا شعر رؤوسهم. تتمايل الأرواح على حافة هاوية لا قرار لها.

وحده القبطان ظلَّ هادئًا، واقفًا أمام الشاشة الضخمة بصمت. استدار ببطء، وسؤال واحد بسيط بدَّد الفوضى:

- أرجو من الجميع التركيز على نقطة واحدة: لماذا أطفأ الملتهم محركاته؟

حلَّ التأمل العميق محلَّ الهرج. حقًا، بعدما أطلق القمر آخر قنابله النووية لم يكن لدى العدو سبب لإيقاف محركاته. وليس بوسعه معرفة إن كانت هناك قنابل متبقية أم لا، بل ثمَّة خطر في شد جاذبية الملتهم القمر إليه. ولو واصل التسارع لكان قد وسَّع المسافة عن مسار القمر، بل لربما –وعلى الأرجح توجَّب– أن يبتعد بأكثر من تلك الـ250 ميلًا الهزيلة.

قال القبطان:

- أعطوني صورة مقرَّبة لسطح الملتهم.

ظهرت صورة ثلاثية الأبعاد على الشاشة، مرسَلة من مسبار استطلاع مُصغَّر فائق السرعة يُحلق على ارتفاع ثلاثمائة ميل فوق سطح الملتهم. بانبهار، رأوا القمم الفولاذية العملاقة والوديان في هيكل التروس الضخمة تدور ببطء أمامهم على السطح المعدني المتلألئ بوضوح. لفت انتباه القبطان شقٌّ أسود طويل. قضى القرن الماضي في دراسة تفاصيل سطح الملتهم، وهو على يقين أنَّ هذا الشق لم يكن موجودًا من قبل، وسرعان ما لاحظه الآخرون أيضًا.

سأل أحدهم:

- ما هذا؟ أهو... تصدُّع؟

أجاب القبطان وهو يومئ برأسه:

- نعم، تصدُّع بطول ثلاثة آلاف ميل. لم يخدعنا أهل إريدانوس. البيانات الموجودة في البلورة كانت دقيقة. حدُّ التسارع

حقيقي، لكن حين اقترب القمر لجأ الملتهم اليائس إلى تجاوز الحد بمقدار أربعة أضعاف هربًا من الاصطدام، لكنه دفع الثمن: لقد تصدَّع.

ثم سرعان ما ظهرت تصدُّعات أخرى. صاح أحدهم:

- انظروا! ما الذي يحدث الآن؟

ومع دوران المُلتهِم ظهر ضوء ساطع يشع على طرف سطحه المعدني كأنَّ الفجر يزحف على أفقه الشاسع.

قال أحد الضباط:

- إنه المحرك الدوَّار!

شرح القبطان:

- نعم إنه المحرك الدوار الاستوائي[1] النادر الاستخدام. اشتغل بكامل طاقته لمحاولة إيقاف دوران الملتهم!

قال آخر:

- قبطان... كنت على حق، وهذا يثبت ما قلته!

قال القبطان:

- علينا التحرُّك فورًا. استخدموا كل الوسائل المتاحة لجمع البيانات الدقيقة لتشغيل المحاكاة!

وهو يتحدث شرعت القيادة العليا بأكملها في تنفيذ المهمة بالفعل. بُني نموذج رياضي خلال القرن الماضي لوصف البنية الفيزيائية لـ«المُلتهِم» بدقة. جُمعت البيانات المطلوبة بسرعة

(1) محرك دوران استوائي يشير إلى جهاز أو منظومة ضخمة تُبنى على امتداد خط الاستواء بهدف تحفيز أو تعديل دوران جسم سماوي، غالبًا كوكب مثل الأرض.. خيال علمي.

وكفاءة، وسرعان ما ظهرت النتائج: سيستغرق الأمر أربعين ساعة تقريبًا ليُبطئ المحرك الدوَّار دوران الملتهم إلى الحد الذي يُجنِّبه الانهيار، لكنَّ قوى الطرد المركزي ستمزقه بالكامل خلال ثماني عشرة ساعة فقط.

انطلقت هتافات الفرح في مقر القيادة العليا. ظهرت صورة ثلاثية الأبعاد لـ«المُلتهم» على الشاشة، تُظهر اقتراب موته: عملية التفكك ستكون بطيئة، تشبه الحلم. في ظلمة الفضاء الحالكة، ستتفتت هذه البنية العملاقة كما ينحل الحليب في القهوة، حوافها تتكسَّر تدريجيًا، ثم تبتلعها الظلمة. سيبدو المُلتهم كأنه يذوب في الفراغ، فقط ومضات انفجار متقطعة تكشف عن انهياره التدريجي.

لم يشارك القبطان في تأمُّل هذا المشهد المريح. وقف منفصلًا، يراقب شاشة أخرى، يتابع «المُلتهم» الحقيقي عن كثب. لم يظهر على وجهه أي أثر للانتصار. وحين عادت السكينة إلى منصَّة الربان لاحظ الآخرون صمته فاقتربوا منه، واحدًا تلو الآخر، لينظروا إلى الشاشة ذاتها... وهناك رأوا الضوء الأزرق يظهر مجددًا خلف «المُلتهم».

لقد أعاد تشغيل محركه.

خطوة محيِّرة في ظل هشاشة هيكل الحلقة. أيُّ تسارُع، مهما كان طفيفًا، قد يؤدي إلى انهيار كارثي. لكن ما أربكهم أكثر هو مسار الملتهم: يعود ببطء شديد إلى موقعه السابق قبل المناورة، يعيد تموضعه في المدار المتزامن، ويضبط محور دورانه ليتطابق مع الأرض.

صاح أحد الضباط بدهشة وذعر:

- ماذا؟ أما زال ينوي التهام الأرض؟

ضحك بعضهم ضحكات مبعثرة، لكنها سرعان ما خمدت حين لاحظوا وجه القبطان. لم يعد ينظر إلى الشاشة. عيناه مغلقتان، ووجهه شاحب كأنه ميت.

عاش الضباط وكل شخص جعل من الملتهم عمل حياته مائة عام يقرأون ملامحه ولم يروه هكذا قط. ساد صمت ثقيل في مقر القيادة. التفت الجميع نحو الشاشة. فهموا خطورة الموقف أخيرًا.

ما زال لدى الملتهم مخرج.

بدأت رحلته نحو الأرض. طابق الأرض في سرعة المدار والدوران، واقترب من القطب الجنوبي.

إذا أبطأ كثيرًا مزَّقته قوى الطرد المركزي، وإذا أسرع أكثر مزَّقته قوة الدفع. معلق على خيط رفيع. التوازن بين السرعة والتوقيت مسألة حياة أو موت.

قبل أن تبتلع حلقة المُلتهِم العملاقة القطب الجنوبي شاهدت القيادة العليا القارة المتجمِّدة تتقلص بسرعة، كما لو أنها زبدة تذوب في مقلاة ساخنة. سُحبت محيطات العالم نحو القطب الجنوبي تحت وطأة جاذبية المُلتهم، والآن يبتلع رأس الأرض الأبيض مياهها الهائجة.

وفي الوقت ذاته يتغير الملتهم أيضًا. تشققات جديدة لا تُحصى غطت جسده، تتسع وتطول بلا توقف. لم تعد مجرد شقوق سوداء، بل فجوات تتوهج بضوء قرمزي، كأنها بوابات إلى الجحيم، بطول آلاف الأميال.

ومن قلب هذا الدمار بدأت خيوط بيضاء رفيعة ترتفع من جسده الهائل. ثم تزايد عددها، حتى بدا كأنَّ السفينة العملاقة قد نبت لها شعر أبيض خفيف. لكنها لم تكن سوى آثار محركات السفن

المنطلقة من جسد الحلقة. يفر سكان الملتهم من عالمهم المتهالك.

كانت حلقة الملتهم تطوّق نصف الأرض بالفعل حين حدث التحوُّل الكبير، جاذبية الأرض أصبحت أشبه بأسلاك غير مرئية لعجلة كونية، تُمسك بالملتهم المتفكك في موضعه. توقفت التشققات عن الظهور، وتوقفت الفتحات عن الاتساع. وبعد أربعين ساعة ابتلع الملتهم الأرض بالكامل، وأصبحت جاذبية الكوكب أقوى، وبدأت الشقوق في الانغلاق. وبعد خمس ساعات أخرى أُغلقت بالكامل.

في سفينة القيادة انطفأت جميع الشاشات، وغرقت الأضواء في العتمة. لم يبقَ سوى أشعة الشمس الشاحبة الميتة تتسلل عبر نوافذ الرصد. لا يزال الجزء الأوسط من السفينة يدور ببطء لتوليد الجاذبية الاصطناعية، فتشرق الشمس وتغيب من نافذة إلى أخرى. الضوء والظل يتواليان، كما لو أنَّ الزمن يعرض علينا أيام البشر ولياليهم الماضية.

قال القبطان:

- شكرًا لكم على قرن من الخدمة المخلصة. شكرًا لكم جميعًا.

ثم أدَّى التحية للقيادة العليا، وتحت أنظار الضباط والأفراد طوى بزته العسكرية بهدوء. تبعه الجميع.

هُزمت البشرية.

لكنَّ المدافعين عن الأرض أدَّوا واجبهم بكل ما أوتوا من طاقة، وبكل مجد. استحقوا وسامهم غير المرئي، وارتضوا مصيرهم بضمير صافٍ. ومن حقهم الاستمتاع بهذه اللحظة.

الفصل الثامن

خـاتمة: العـودة

- ثمة ماءٌ بالفعل!

صاح ملازم شاب بفرح مشوب بالدهشة. وكان محقًا؛ سطحٌ مائي شاسع امتد أمامهم. تومضُ أمواجه المتلألئة تحت سماء غائمة.

خلع القبطان قفَّازَي بذلته الفضائية، واغترف بعض الماء بكلتا يديه، ثم فتح حاجب خوذته وتذوَّقه قبل إغلاق الحاجب على الفور. قال:

- ليس مالحًا جدًا.

ولما رأى الملازم يهم بفتح حاجبه، أوقفه قائلًا:

- ستصاب بانخفاض الضغط. المشكلة ليست في الغلاف الجوي؛ المكوِّنات الكبريتية السامة قد تلاشت تقريبًا، لكنَّ الضغط الجوي لا يزال منخفضًا جدًا. دون الحاجب الأمر أشبه بالتحليق على ارتفاع ثلاثين ألف قدم، كما كان قبل الحرب.

حفر جنرال في الرمال عند قدميه وقال مبتسمًا وهو يرفع رأسه نحو القبطان:

- لعلنا نعثر على بذور عشب هنا.

هزَّ القبطان رأسه:

- قبل الحرب، كان هذا قاع المحيط.

قال الملازم:

- بإمكاننا تفقُّد الأرض الجديدة رقم إحدى عشرة، فهي قريبة من هنا، قد نعثر على شيء هناك.

علَّق أحدهم متنهِّدًا:

- كل ما فيها احترق منذ زمن بعيد.

مسح الجميع بنظراتهم الأفق المحيط، محاطين بسلسلة جبال تلفهم بلا انقطاع، وليدة الحركات التكتونية الأخيرة للأرض، كتل من الصخور العارية زرقاء داكنة، تتفجَّر من قممها أنهار حمم الحمراء، أشبه بدمٍ يسيل من جسد ماردٍ حجري قُتل توًا.

خمدت أنهار الحمم في باطن الأرض.

هذه هي الأرض بعد الحرب بمائتين وثلاثين عامًا.

عقب انتهاء الحرب دخل أكثر من مائة شخص على متن سفينة القيادة في حجرات السُبات. هناك انتظروا المُلتهِم ليبصق الأرض، ويعودوا إلى ديارهم. وهم في الانتظار تحوَّلت السفينة إلى قمر صناعي يدور في مدار واسع حول الكوكب الجديد المُركَّب من الأرض والمُلتهِم. وطوال تلك المدة لم تتعرَّض السفينة لأي مضايقة من إمبراطورية الملتهم.

بعد مرور 125 سنة على الحرب رصدت أجهزة السفينة إشارات تدل على أنَّ المُلتهم بدأ في مغادرة الأرض، فأُوقظ بعض من في السُبات، لكن حين استيقظوا كان الملتهم قد ارتحل بالفعل، متجهًا إلى الزهرة. أما الأرض فغدت عالمًا غريبًا بالكامل، كوكبًا متفحمًا أشبه بقطعة فحم خارجة من فرن. اختفت محيطاتها، وغطَّت سطحها شبكة من أنهار الحمم.

لم يكن أمام أفراد طاقم سفينة القيادة سوى العودة إلى السُبات مجددًا، مع ضبط أجهزة الاستشعار لانتظار برودة الكوكب، واستمرَّ الانتظار قرنًا آخر.

***

حين استيقظوا مرَّة أخرى، وجدوا كوكبًا باردًا، خمدت حركته الجيولوجية العنيفة، لكنَّ الأرض الآن صحراء صفراء مقفرة. الحياة بأسرها اندثرت، ولو أنَّ ثمَّة غلافًا جويًا متفرق في الأفق، بل اكتشفوا بقايا محيطات قديمة.

وهكذا نزلوا عند ضفة إحدى تلك البقايا، لم تكن سوى بحيرة بحجم قارة من زمن ما قبل الحرب.

دوَّى فوقهم صوت برق عارم في هذا الهواء الخفيف، إذ هبطت بالقرب منهم سفينة تابعة لإمبراطورية المُلتهِم، بهيئتها الخشنة المعهودة. فُتحت أبوابها العملاقة، وخرج منها ناب متعثرًا في خطواته الأولى، مستندًا إلى عصا بحجم عمود كهرباء.

حيَّاه القبطان:

- آه... أما زلت حيًّا بعد، يا سيدي؟ لا بد أنك بلغت المائة الخامسة!

ردَّ ناب:

- كيف لي أن أعيش هذا العمر؟ أنا أيضًا دخلت السُبات بعد ثلاثين سنة من الحرب. دخلته كي أراك مجددًا فحسب.

سأله القبطان:

- وأين المُلتهِم الآن؟

أشار ناب إلى السماء:

- ما زال بوسعكم رؤيته ليلًا؛ صار الآن نجمًا خافتًا، وقد تجاوز للتو مدار المشتري.

- هل هو في طريقه لمغادرة النظام الشمسي؟

أومأ ناب برأسه:

سأنطلق اليوم للحاق به.

قال القبطان بعد لحظة صمت:

- شاخ كلانا.

هزَّ ناب رأسه الضخم بأسى:

- شِخنا..

وارتجفت عصاه بين يديه. ثم أشار إلى السماء والأرض معًا:

- العالم اليوم..

سأل القبطان بهدوء:

- هل نعدُّ ما تبقى بالفعل من ماء وهواء لفتة رحيمة من إمبراطورية الملتهم؟

هزَّ ناب رأسه:

لا علاقة للأمر بالرحمة؛ أنتم السبب.

حدَّق الجنود في ناب بدهشة.

قال:

- تلقَّت إمبراطوريتنا في هذه الحرب جرحًا غير مسبوق. خسرنا مئات الملايين في تلك الشقوق... أُنهك نظامنا البيئي. استغرقنا خمسين سنة أرضية لإجراء إصلاحات أوَّلية. بعدها فقط بدأنا

التهام الأرض، لكن عرفنا أنَّ وقتنا في النظام الشمسي محدود.

إذا لم نغادر في الوقت المناسب ستطفو سحابة غبار بين النجوم في مسار رحلتنا. ولو أخذنا طريقًا أطول لتجنُّبها سنفقد سبعة عشر ألف سنة في الطريق إلى النجم التالي. بحلول ذلك الوقت يكون وضع النجم قد تغيَّر بالفعل، وأحرق كواكبه التي نرغب في التهامها، لذا توجَّب علينا التهام كواكب الشمس على عجل، ولم نتمكَّن من التهامها بالكامل.

قال القبطان ناظرًا إلى جنوده:

- يُشرِّفنا أن نكون سببًا لهذا.

ردَّ ناب:

- وأنتم تستحقون الشرف. لقد كانت حربًا نجمية عظيمة. في سجلاتنا تُعد معركة الأرض من أروع معاركنا. لا يزال شعراؤنا في أنحاء الإمبراطورية ينشدون مآثركم.

قال القبطان:

- كنا نأمل أن يتذكر البشر تلك الحرب أيضًا. كيف حالهم؟

أجاب ناب وهو يفتح شاشة حاسوبه المحمول:

- بعد الحرب نُقل نحو مليارَي إنسان إلى إمبراطوريتنا، أي نحو نصف البشر.

ظهرت على الشاشة صور لسهول خضراء تحت سماء زرقاء، يرقص فيها بشر سعداء، يرتدون ملابس شفافة مزخرفة، وعلى رؤوسهم أكاليل زهور. بدا من الصعب تمييز جنسهم، إذ كانوا جميعًا ذوي بشرة بيضاء ناعمة. وفي الخلفية قلعة فخمة بألوان زاهية كأنها مصنوعة من الكريمة والشيكولاتة، وكأنها حقًا من

قصص الجنيات الأرضية.

اقتربت العدسة من الوجوه، فتأمَّلها القبطان بإمعان، واقتنع بأنهم سعداء حقًا. سعادة خالصة، نقية كالبلور، ذكَّرته بأيام الطفولة القليلة التي عاشها البشر قبل الحرب.

قال ناب:

- لا بدَّ من ضمان سعادتهم المطلقة... في الحد الأدنى لمتطلبات تربيتهم. إذا لم نفعل ذلك لا نضمن جودة لحومهم. ويجب القول إنَّ سكان الأرض يُعتبرون أعلى مستويات الغذاء؛ لا يتحمَّل تكلفتهم سوى الطبقة العليا من مجتمع امبراطورية الملتهم. نحن لا نعتبر مثل هذه الأطعمة الشهية أمرًا مسلَّمًا به.

ثم صمت لحظة..

- آه، يا قبطان.. وجدنا حفيدك الأكبر يا سيدي، سجلنا منه شيئًا لك. هل تود رؤيته؟

حدَّق القبطان في ناب بدهشة، ثم أومأ. ظهر على الشاشة فتى جميل، ذو بشرة ناصعة البياض. وجهه لطفل في العاشرة، لكنَّ قامته قامة شخص بالغ. أمسك بإكليل من الزهور بيديه الرقيقتين، وقد بدا أنه قُطع توًا عن رقصته.

غمز بعينين لامعتين قائلًا:

- سمعت أنَّ جدِّي الأكبر لا يزال حيًا. أطلب منك شيئًا واحدًا: لا تأتِ لرؤيتي. أنا أشعر بالغثيان! حين نفكر في حياة البشر قبل الحرب يغمرنا الغثيان. أي حياة همجية كانت! حياة كالصراصير! أنت وجنودك من الأرض أردتم الحفاظ على تلك الحياة. كدتم تمنعون البشرية من دخول هذا الفردوس الجميل. أي شذوذ! باه!

يا للعار! أتعلم أي خزي ومهانة أشعر بسببك! وكم من الإحراج سببت لي؟ باه! ابتعد عني! متْ!

ثم ركض عائدًا إلى الرقص على العشب.

كسر ناب الصمت المحرج أولًا:

- سيعيش إلى ما بعد الستين. عمرٌ طويل، ولن يُذبح.

ابتسم القبطان ابتسامة بائسة:

- إن كان بفضلي، فأنا ممتن.

ردَّ ناب:

- ليس كذلك. بعدما عرف نسبه أصيب باكتئاب وكراهية شديدة تجاهك، هذه المشاعر منعت لحمه من تلبية معاييرنا.

حدَّق ناب في آخر من تبقّى من البشر أمامه وغام في عينيه العملاقتين الحنين. ببزّات فضائية قديمة ومهترئة، والأعوام التي خاضوها محفورة على وجوههم. بدوا تحت شمس الأرض الصفراء مثل تماثيل صدئة.

أغلق ناب حاسوبه وقال بأسى:

- في البداية لم أُرد أن أريكم هذا، لكنكم محاربون حقيقيون، وتستحقون الحقيقة، ومستعدون للاعتراف بـ ..

توقف لحظة بدت طويلة..

- أنَّ الحضارة البشرية قد انتهت.

مكتبة
t.me/soramnqraa

قال القبطان وهو يُحدِّق في البعيد:

- دمَّرتم حضارتنا. جريمتكم عظيمة!

ضحك ناب، وقال بابتسامة عريضة:

- ها قد عدنا لنتحدث عن الأخلاق!

ردَّ القبطان ببرود:

- بعدما غزوتم كوكبنا وابتلعتم كل شيء فيه بوحشية فقدتم كل حق في الحديث عن الأخلاق.

لم يعد الآخرون يصغون؛ تجاوزت قسوة حضارة الملتهم الفهم البشري، أما الأخلاق فلم يعد لها معنى عند الحديث مع جنس كهذا.

قال ناب، مصرًا:

- بل لنا الحق. وأودُّ فعلًا إجراء مناقشة مع البشرية حول الأخلاق..

ثم توقف برهة، وأكمل بصوته، ليس عبر المترجم:

- «كيف استطعت، يا سيدي، أن تلتقطه وتأكله ببساطة؟».

اقتبس كلام القبطان على نحو أرعب الجميع. ومع أنَّ صوته يصم الآذان تمكَّن ناب بطريقة ما من تقليد تلك الكلمات التي يبلغ عمرها ثلاثمائة عام بإتقان، ثم عاد إلى استخدام المترجم:

- قبطان، لم يخدعك حدسك قبل ثلاثمائة عام: حين تلتقي حضارتان تفصل بينهما مسافات نجمية يجب أن تُدهشنا أوجه الشبه، لا الاختلاف. لكنَّ الأمر بيننا مختلف تمامًا.

شعر الجميع أنَّ ناب على وشك كشف سر يهزُّ الوجود.

اعتدل في وقفته، وسند جسده الضخم على عصاه، ثم قال:

- يا أصدقاء... نحن أبناء الشمس معًا، والأرض وطننا المشترك، لكن لشعبي الحق الأكبر فيها بأسبقية عليها بمائة وأربعين مليون سنة. عشنا على هذا الكوكب الجميل أولًا، وشيَّدنا عليه حضارتنا العظيمة..

حدَّق الجنود فيه بدهشة متحيرين، ترقص الشمس الصفراء

في البحيرة الباقية. ومن جبال البراكين البعيدة تسيل الحمم ببطء. بطول ستين مليون سنة من نهر الزمن التقى جنسان، حكم كلٌّ منهما الأرض في عصره، على أرضٍ محطَّمة، في نهاية الزمن.

قال أحدهم هامسًا بصدمة:

دينا... صور!

هزَّ ناب رأسه:

- نشأت حضارة الديناصورات في العصر الطباشيري الأوسط، قبل مائة مليون عام، وبلغت أوجها في نهايته. كنا جنسًا ضخمًا، واحتياجاتنا البيولوجية هائلة. في أعقاب الزيادة السكانية امتد النظام البيئي إلى أقصى حدوده، ووصلت الأرض إلى حافتها وهي تكافح لدعم مجتمعنا. للبقاء على قيد الحياة، استهلكنا بالكامل النظام البيئي الأوَّلي للمريخ.

استمرَّت حضارتنا عشرين ألف سنة على الأرض، لكنَّ توسعها الحقيقي لم يتجاوز بضعة آلاف من السنين، ومن منظور جيولوجي لا يمكن تمييز آثاره عن كارثة كوكبية: ما تسمونه انقراض «العصر الكريتاسي- الباليوجيني»[1].

وفي النهاية صعدنا على متن عشر سفن أجيالٍ عملاقة، وأبحرنا نحو نجوم المجرَّة. وبعد ستين مليون سنة أصبحت هذه السفن العشر جسمًا واحدًا، ثم، كلما وصلت هذه السفينة الموحدة حديثًا

(1) العصر الكريتاسي- الباليوجيني: عصر لانقراض جماعي ضخم، قبل حوالي 66 مليون سنة. وهو يُعد أحد أهم الأحداث في تاريخ الحياة على الأرض، لأنه أدى إلى نهاية عصر الديناصورات (غير الطائرة) وبداية عصر جديد تهيمن فيه الثدييات.

إلى كوكب نجم آخر توسعت. بعد ستين مليون سنة أصبحت ما تسمونه اليوم إمبراطورية الملتهم.

سأله أحدهم:

- ولماذا تلتهمون موطنكم؟ أما لدي الديناصورات أية مشاعر؟

أجاب ناب شارد البصر:

- الفضاء واسع نعم، لكنه لا يفيض بالخيارات. أماكن الحياة المناسبة للكائنات الكربونية نادرة. على بُعد ألفي سنة ضوئية فقط هناك سحابة غبارية تسد الطريق نحو مركز المجرَّة، لا توجد طريقة لنا للمرور عبرها ولا طريقة لنا للبقاء فيها، يليها منطقة إشعاعية كثيفة ومجموعة من الثقوب السوداء المارقة.

واصل حديثه يكلم نفسه أكثر مما يكلم البشر أمامه:

- أما في الاتجاه الآخر فسنصل إلى نهاية الذراع الحلزونية للمجرَّة، وبعدها فراغ لا نهائي. التهمت الإمبراطورية معظم الكواكب القابلة للسكن بين هذين الحاجزين. لم يعد أمامنا سوى السفر إلى ذراع آخر من المجرة، ليس لدينا أي فكرة عما ينتظرنا هناك، ولكن إذا بقينا هنا فسوف نهلك لا محالة، رحلة تستغرق خمس عشرة مليون سنة، عبر الفراغ. للنجاة منها، نحتاج إلى تخزين كل ما يسعنا تخزينه.

ثم نظر إليهم من مستوى أعينهم:

- الآن إمبراطوريتنا أشبه بسمكة في مجرى يجف. عليها أن تقفز قفزة يائسة قبل جفاف البحيرة. ندرك أن النهاية الأكثر احتمالًا هي الوصول إلى أرض جافة والاستسلام للموت تحت الشمس الحارقة، ولكن ثمة فرصة ضئيلة للسقوط في حفرة مياه مجاورة، وبالتالي تنجو.

صمت لحظة، ثم قال:

- فيما يتعلق بالمشاعر.. عشنا عشرات الملايين من السنين وخُضنا حروبًا نجمية لا تُحصى. وقست قلوبنا منذ زمن بعيد. الآن يجب على إمبراطورية الملتهم استهلاك ما يسعها استعدادًا لرحلة المليون عام.

توقف مرة أخرى غارقًا في التفكير:

- ما هي الحضارة؟ افتراس دائم، وتوسع لا ينتهي. كل ما سواها.. ثانوي.

سأل القبطان:

- هل يكون صراع البقاء هو قانون الكون الوحيد للتطور البيولوجي والثقافي؟ ألا يمكن بناء حضارة تكافلية، مكتفية، تعيش في تناغم مع الحياة؟ مثل حضارة أهل إريدانوس؟

ردَّ ناب فورًا:

- لستُ فيلسوفًا؛ ربما يمكن فعل ذلك. النقطة الجوهرية هي: مَن يخطو الخطوة الأولى؟ إذا كان بقاء المرء يعتمد على إخضاع واستهلاك الآخرين، وإذا كان ذلك هو قانون الكون والحياة والحضارة الحديدي، فإن من يرفضه أولًا ليغرق في التأمل سيهلك لا ريب.

ثم عاد إلى سفينته، وخرج منها حاملًا صندوقًا مسطحًا رفيعًا بكلتا مخلبيه. طوله نحو ثلاثة أمتار، وثقله كبير كأنه يحتاج أربعة رجال لحمله. وضعه على الأرض، وفتح غطاءه.

فإذا بالصندوق مملوء بتربة، نبت فيها عشب أخضر. وعلى هذا العالم الميت، لم يكن ثمة ما يحرك القلوب أكثر من تلك الخضرة.

قال ناب وهو يفتحه:

- هذه تربة ما قبل الحرب.. بعد الحرب، وضعت جميع نباتات كوكبنا وجميع حشراته في حالة سُبات. الآن، بعد أكثر من قرنين من الزمان، استيقظت. في الأصل، أردت أخذ هذه التربة معي كتذكار. للأسف، فكرت في الأمر أكثر وغيَّرت رأيي، وقررت إعادتها حيث تنتمي. لقد أخذنا أكثر من اللازم من عالمنا الأصلي.

وهم يحدقون في قطعة الأرض الصغيرة، المفعمة بالحياة، رطَّب الندى عيونهم. الآن فقط أدركوا أنَّ للديناصورات قلوبًا لم تتحجَّر. خلف تلك الحراشف، الأبرد والأقسى من الفولاذ والصخر، تنبض مشتاقة إلى وطن.

نفض ناب مخالبه، كأنه يريد التخلص من المشاعر التي اجتاحته. وبنبرة مرتجفة قليلًا قال:

- حسنًا، يا أصدقائي، سنعود معًا.. إلى إمبراطورية الملتهم.

وعندما رأى التعبير على وجوه البشر، رفع مخلبه قبل أن يُكمل:

- وبالطبع لن تكونوا طعامًا هناك. أنتم محاربون عظماء، وستُمنحون صفة المواطنة في الإمبراطورية. وهناك عمل ما زال ينتظركم.. يجب إنشاء متحف لحضارة البشر.

عندها التفتت أعين جنود الأرض جميعًا نحو القائد. غاص في تفكير عميق، ثم أومأ برأسه ببطء.

واحدًا تلو الآخر صعد جنود الأرض إلى سفينة ناب. صُمِّم سُلَّم السفينة للديناصورات، لذا اضطر الجنود إلى تسلُّق الدرجات وهم يرفعون أجسادهم بكاملها فوق كل درجة.

وكان القائد آخر من صعد. أمسك بأدنى درجة، ورفع جسده عن الأرض. وفي تلك اللحظة بالذات، شدَّ شيء ما تحت قدميه انتباهه. توقف في منتصف الحركة، وألقى نظرة إلى الأسفل. ظلَّ معلقًا هناك بلا حراك لوقت طويل.

رأى.. نملة.

خرجت من صندوق التربة. دون أن يرفع عينيه عنها، ترك القائد السلم وجثا على ركبتيه. مدَّ يده لتتسلق النملة إلى قفازه. رفعها إلى مستوى وجهه، وراح يتأمل هذا الكائن الصغير بعناية، وجسده الأبنوس يلمع تحت أشعة الشمس. ثم، وهو لا يزال يحملها، عاد إلى الصندوق، وأعاد النملة بحرص إلى حيث العشب الصغير. وبينما يخفض يده لاحظ وجود نمل آخر يتحرك فوق التربة أسفل العشب.

وقف القائد، واستدار نحو ناب، الواقف إلى جواره مباشرة، وقال:

- عندما نغادر، سيكون هذا العشب والنمل الكائنات المسيطرة على الأرض.

لم يجد ناب ما يقوله.

قال القائد وهو ينحني من جديد:

- يبدو أنَّ الحياة المتحضِّرة على الأرض تتقلَّص شيئًا فشيئًا... ديناصورات، ثم بشر، والآن.. ربما النمل.

ثم راح يراقب هذه الكائنات الصغيرة تعيش في العشب، وعيناه تغمرانها بالحب والإعجاب.

- حان دورها.

أثناء حديثه خرج جنود الأرض من السفينة من جديد، وهبطوا إلى الأرض، وعادوا إلى صندوق التربة الحية. وقفوا حوله، ممتلئة قلوبهم بحب عميق.

هزَّ ناب رأسه وقال:

- العشب لن يصمد. ربما تمطر السماء هنا على الشاطئ في نهاية المطاف، ولكنه لن يكفي للنمل.

قال أحدهم:

- هل الغلاف الجوي رقيق كفاية؟ يبدون بحال جيدة الآن.

أجاب ناب:

- لا، الهواء ليس المشكلة. فهم ليسوا كبني البشر، ويمكنهم التكيف جيدًا مع هذا الغلاف الجوي. المشكلة الحقيقية أنهم لن يجدوا ما يأكلونه.

سأل آخر:

- ألا يمكنهم أكل العشب؟

ردَّ ناب:

- ثم ماذا؟ كيف سيستمرون؟ في هذا الهواء الرقيق، سينمو العشب ببطء شديد. وحين يأكل النمل كل تلك الشجيرات الصغيرة، سيموت جوعًا. وضعهم هذا يشبه مصير حضارة الملتهم إلى حد بعيد.

قال أحد الجنود، بتوسل شبه صريح:

- ألا يمكنكم ترك شيء من طعامكم في السفينة لهم؟

هزَّ ناب رأسه الضخم مجددًا وقال:

- ليس على متن سفينتي شيء سوى الماء ونظام السُبات. وبالمناسبة نحن سندخل في سبات حتى نلتحق بإمبراطورية الملتهم. وماذا عن سفينتكم، هل بها طعام؟

هزَّ القائد رأسه بدوره وقال:

- لا شيء سوى بعض جرعات التغذية المركزة. لا فائدة منها.

وأشار ناب إلى السفينة مقاطعًا النقاش:

- علينا العجلة. الإمبراطورية تزداد تسارعًا، وإن تأخرنا لن نستطيع اللحاق بها.

ساد صمت طويل.

كسره الضابط الشاب:

- قائدنا، سنبقى هنا.

أومأ القائد بقوة.

حدَّق ناب فيهم، من واحد إلى الآخر، مذهولًا، وقال:

- ستبقون؟ وعلامَ تنوون؟ معدات السُبات في سفينتكم شبه مستنفدة، ولا تملكون طعامًا. أتنوون البقاء في انتظار الموت؟

أجابه القائد بهدوء:

- البقاء.. خطوتنا الأولى.

قال ناب، وقد ازداد حيرة:

- ماذا؟

قال القائد:

- ذكرت بنفسك أن هذه هي الخطوة الأولى نحو حضارة جديدة.

حدَّق ناب فيه، وقال وهو لا يكاد يصدق الكلمات التي تخرج من فمه:

- أنتم.. تنوون أن تكونوا طعامًا للنمل؟

أومأ الجنود جميعًا دون أن ينطقوا بكلمة. ظلَّ ناب يحدق فيهم طويلًا، ثم استدار، وعاد ببطء إلى سفينته، يتكئ على عصاه الثقيلة.

ناداه القائد:

- وداعًا، يا صديق.

ردَّ ناب بتنهيدة طويلة ممدودة:

- الظلام الأبدي ينتظرني وينتظر نسلي.. ظلام الحرب التي لا تنتهي، والكون الشاسع. أين نجد لنا فيه وطنًا؟

وهو يتحدث لاحظ البشر أن الأرض تحت قدميه قد أصبحت رطبة، لكن لم يكن واضحًا هل بكى بالفعل.. وهل يمكنه أصلًا البكاء.

ثم، بزئير هائل، انطلقت سفينة الديناصور نحو السماء، واختفت بسرعة. وفي الموضع الذي اختفت فيه، كانت الشمس تغرب.

جلس آخر جنود الأرض في صمت حول التربة الحية. ثم بدءًا بالقائد، فتحوا خوذاتهم واحدًا تلو الآخر، واستلقوا على الرمال.

ومع مرور الوقت، غربت الشمس. غمر شفقها الأرض المنهوبة بلون أحمر جميل. ومع انحسار الضوء، بدأت بعض النجوم تلمع في السماء.

فوجئ القائد بزرقة السماء الرائعة بعد الغروب. وما إن بدأ الهواء الرقيق يُفقده وعيه، حتى شعر بحركة صغيرة لنملة على صدغه، فغمره إحساس عميق بالرضا. وعندما كانت النملة تتسلَّق جبينه عاد بذاكرته إلى طفولته البعيدة.. كان على الشاطئ، مستلقيًا في أرجوحة صغيرة مشدودة بين نخلتين، يُحدِّق في بحر النجوم الرائع أعلاه.. ويد أمه تمسح على جبينه برقَّة.

حلَّ الظلام. واستوى ما تبقَّى من المحيط كمرآة تعكس مجرة درب التبانة فوقه بنقاء تام.

الليلة الأكثر هدوءًا في تاريخ الكوكب

وفي هذا السكون.. وُلدت الأرض من جديد.

العناية بالإله

الفصل الأول

مرَّةً أخرى أفسد الإله يومَ عائلة تشيوشنج. ذات صباح اتَّسم ببداية طيبة للغاية، غيمة بيضاء رقيقة تطفو على ارتفاع قامة رجل فوق الحقول المحيطة بقرية شي تسِن، كأنها ورقة أرز بيضاء[1] انزلق رسمها، فتهادى الريف الهادئ من سطحها إلى الأرض.

انسلَّت أوائل أشعة الصباح إلى المشهد، ودخلَت قطرات الندى الأولى لهذا العام أبهى مراحل حياتها القصيرة.. لكن الإله أفسد هذا الصباح الجميل.

استيقظ الإله مبكرًا على غير العادة، ودخل المطبخ ليسخِّن بعض الحليب لنفسه. منذ بدأ عصر الإعالة انتعش سوق الحليب. اشترت عائلة تشيوشنج بقرة حلوبًا بأكثر من عشرة آلاف يوان، وبدأت -مثل غيرها- تخلط الحليب بالماء لبيعه، لكنَّ الحليب غير المغشوش صار أيضًا من أغذية العائلة الأساسية.

---

(1) ورق يُصنع غالبًا من ألياف نباتية مثل لحاء التوت، القنب، أو خيزران، وقد لا يحتوي على الأرز إطلاقًا. يُستخدم في الرسم التقليدي الصيني والياباني والكوري، والخط، والطباعة الخشبية.

وبعدما سخَّن الحليب، أخذ الوعاء إلى غرفة المعيشة ليشاهد التلفاز، لكنه نسي إطفاء موقد الغاز. عندما عادت زوجة تشيوشنج، يُوليان، من تنظيف زريبة الأبقار والخنازير، شمَّت رائحة الغاز تملأ البيت. غطَّت أنفها بمنشفة واندفعت نحو المطبخ لتُطفئ الموقد، وفتحت النافذة وشغَّلت المروحة.

صرخت نحو غرفة المعيشة:

- أيها العجوز الأبله! ستقضي على العائلة كلها!

لم تستخدم العائلة غاز البوتاجاز في الطهي إلا بعدما بدأت إعالة الإله.

كان والد تشيوشنج دائم الاعتراض على ذلك، مُصرًّا على أنَّ الفحم المضغوط أفضل، والآن حصل على ذخيرة لحجته.

وكعادته وقف الإله مُنكِّس الرأس من الندم، لحيته البيضاء الكثيفة تتدلَّى حتى ما بعد ركبتيه، مبتسمًا كطفل يعرف خطأه:

- أنا.. رفعت الإناء بعدما سخن الحليب. لماذا لم ينطفئ الموقد من تلقاء نفسه؟

قال تشيوشنج وهو يهبط الدرج:

- أتظنُّ نفسك ما زلتَ على مركبتك الفضائية؟ هنا كل شيء غبي. لسنا مثلك تدللنا الآلات الذكية. علينا العمل بأدوات غبية، هكذا نملأ أوعيتنا بالأرز!

قال الإله بحذر:

- ونحن أيضًا عملنا بكدٍّ، وإلا كيف جئت إلى الوجود؟

صرخت يُوليان:

– كفى من «لولا ذلك لما وُجدت»! تعبتُ من سماعها! إن كنتَ بهذه القوة، فاذهب واخلق أولادًا آخرين يُعيلونك!

ثم رمت منشفتها على الأرض.

قال تشيوشنج محاولًا إحلال السلام كعادته:

– انسي الأمر. انتهينا.. لنأكل.

نهض بينج بينج يتثاءب وهو ينزل الدرج:

– ماما، بابا، الإله يسعل طوال الليل، ولم أستطع النوم.

قالت يُوليان:

– أنت لا تعرف قيمة النعمة التي تغمرك. أبوك وأنا في الغرفة الملاصقة له، ولم تسمع منا شكوى، أليس كذلك؟

وكما لو أنها إشارة، ليبدأ الإله السُعال مجددًا، كأنما يمارس رياضته المفضَّلة بكل تركيز.

حدَّقت يُوليان فيه لبضع ثوانٍ، ثم تنهَّدت:

– لا بُد أنَّ حظي هو الأسوأ بين ثمانية أجيال!

ثم خرجت غاضبة إلى المطبخ لتحضِّر الفطور.

جلس الإله على المائدة بصمت مع باقي أفراد العائلة. أكل وعاءً من العصيدة مع خضراوات مخللة ونصف رغيف مانتو[1]. توجَّب عليه تحمُّل، نظرات يُوليان المليئة بالازدراء طوال الوقت، ربما لا تزال غاضبة بسبب الغاز، أو ربما اعتقدت أنه أكل أكثر من اللازم.

وكالعادة نهض الإله بعد الفطور بسرعة ليُنظِّف الطاولة ويغسل الصحون في المطبخ. ومن خارجه، صاحت يُوليان:

---

(1) خبز مانتو: نوع من أنواع الخبز المطهو على البخار، وهو عنصر غذائي أساسي في شمال الصين.

- لا تستخدم المُنظِّف إذا لم يكن ثمَّة دهون على الوعاء! كل شيء يُكلِّف مالًا! ويدفعون لإعالتك الفُتات! هه؟

تمتم الإله بلا توقف ليظهر أنه فهم.

خرج تشيوشنج ويُوليان إلى الحقل، وذهب بينج بينج إلى المدرسة. عندها فقط استيقظ والد تشيوشنج. نعسان لا يزال، نزل الدرج، أكل وعاءين من العصيدة، وملأ غليونه بالتبغ. وأخيرًا تذكَّر وجود الإله.

صاح في اتجاه المطبخ:

- أيها العجوز الخرف، اترك الغسيل وتعالَ نلعب معًا!

خرج الإله من المطبخ يمسح يديه بمريلة، وانحنى لوالد تشيوشنج بابتسامة متزلِّفة. لعبُ الشطرنج مع العجوز مهمة شاقة على الإله، فالنتيجة غير سارة في الفوز كما في الخسارة.

إن فاز يُجن والد تشيوشنج: «أيها العجوز الأحمق اللعين.. تستعرض عليَّ؟ اللعنة! أنت الإله! هزيمتي ليست إنجازًا عظيمًا على الإطلاق. لماذا لا تتعلم بعض الآداب؟ عشتَ تحت هذا السقف طويلًا بما فيه الكفاية!».

وإن خسر يغضب أيضًا: «أيها الأحمق العجوز اللعين! أنا أفضل لاعب شطرنج لمسافة خمسين كيلومترًا. هزيمتك أسهل من دهس برغوث. هل تظن أنني بحاجة إليك لتسمح لي بالفوز؟ أنت.. بعبارة مهذبة، تهينني!»، وفي الحالتين، النتيجة واحدة: يقلب العجوز الرقعة وتتطاير القطع في كل مكان.

معروف بسوء طباعه، وجد في الإله أخيرًا كيس ملاكمة لضرباته. غير أنَّ العجوز ليس حقودًا، فكلما التقط الإله الرقعة وأعاد رصَّ

القطع بهدوء، جلس يلعب معه من جديد، وتتكرر القصة.

بعد عدة جولات تعب الاثنان، واقترب وقت الظهر. نهض الإله ليغسل الخضراوات. لم تسمح يُوليان له بالطهي قط، لطالما قالت إنه طباخ فاشل. لكنه ما زال مضطرًا لغسل الخضار، فإن لم يفعل ناله وابل جديد من توبيخ يوليان اللاذع حين تعود مع تشيوشنج من الحقل. مكتبة سُر مَن قرأ

أثناء غسله الخضراوات خرج والد تشيوشنج لزيارة الجيران. هنا يجيء أكثر أوقات الإله سكينة في اليوم. تملأ شمس الظهيرة كل شق في الفناء المرصوف بالطوب، وتُضيء الشقوق العميقة في ذاكرته.

وفي مثل هذه اللحظات، كثيرًا ما ينسى الإله عمله ويقف صامتًا، غارقًا في التفكير، ولا يفيق إلا على صخب الفلاحين العائدين من الحقول، فيُسارع بإكمال الغسيل.

تنهَّد: «كيف آلت الحياة إلى هذا الحال؟».

ليست تنهيدة الإله وحده، بل تشيوشنج ويُوليان ووالد تشيوشنج أيضًا، وأكثر من خمسة مليارات إنسان ومليارَي إله على كوكب الأرض.

الفصل الثاني

بدأ كل شيء ذات مساء خريفي قبل ثلاث سنوات.

صاح بينج بينج من الفناء:

- تعالوا بسرعة! ثمَّة ألعاب في السماء!

ركض تشيوشنج ويُوليان خارج المنزل، ونظرا للأعلى، فرأيا السماء مليئة بالألعاب، أو بأشياء لا يمكن أن تكون سوى ذلك.

توزَّعت الأجسام بالتساوي في قُبَّة السماء. وفي ضوء الشفق عكس كل منها أشعة الشمس الغاربة -التي غيَّبها الأفق- وتوهَّج بسطوع قمر في تمامه.

سطع الضوء على سطح الأرض فكأنها في الظهيرة، ضوء أتى من كل اتجاه، فلم يترك ظلالًا، كأنَّ العالم كله تحت مصباح جراحة عملاق.

في البداية ظنَّها الجميع أجسامًا داخل الغلاف الجوي[1] لشدَّة وضوحها، لكن في آخر الأمر أدرك البشر أنها، ببساطة، ضخمة جدًا. تحوم على ارتفاع نحو ثلاثين ألف كيلومتر، في مدارات ثابتة حول الأرض.

---

(1) على بُعد أقل من 100 كيلومتر. تحت خط كارمان الافتراضي الفاصل بين الغلاف الجوي والفضاء الخارجي.

عدد 21,530 سفينة فضائية توزَّعت بالتساوي في السماء، مكوِّنةً غلافًا رقيقًا حول الكوكب نتيجة سلسلة معقدة من المناورات أوصلت كل السفن إلى مواقعها النهائية في اللحظة نفسها.

وبهذه الطريقة تجنَّب الأسطول الفضائي التسبُّب في مدٍّ بحريٍّ كارثي يسببه اختلال الكتلة. طمأن هذا التصرف البشر، واعتُبر دلالة -ولو ضعيفة- على أن الكائنات الفضائية لا تُضمر للأرض نيَّة العداء.

على مدى الأيام التالية فشلت جميع محاولات التواصل مع الفضائيين. التزموا الصمت التام على الرغم من تكرار النداءات المتواصلة. وفي الوقت نفسه استحالت الأرض كوكبًا بلا ليل.

عكست آلاف السفن الفضائية من ضوء الشمس ما يكفي لإنارة نصف الأرض الليلي كأنه في وضح النهار، وألقت ظلالًا عملاقة على النصف النهاري.

دفع هذا المنظر المروِّع قدرة البشر النفسية إلى أقصى حدودها، فأغفل معظمهم ظاهرة غريبة أخرى تحدث على سطح الكوكب، ولم يربطوها بتلك السفن الفضائية. بدأت فجأة أفواج من الشيوخ التائهين في الظهور بمدن العالم الكبرى.

يتشابهون جميعًا: شيخوخة طاعنة، شعر ولحى وأردية بيضاء طويلة. في البداية، قبل اتساخ أرديتهم ولحاهم وشعورهم، بدوا كأنهم رجال ثلج.

لم يبدُ عليهم الانتماء لعرق معين، كأنَّ كل الأعراق قد امتزجت فيهم، وليس بحوزتهم أوراق ثبوتية، ولا يعرفون شيئًا عن ماضيهم. كل ما يفعلونه هو ترديد عبارة واحدة بلغة محلية ذات لكنة ثقيلة على كل المارين بهم:

- نحن الآلهة. رجاءً، مقابل خلقنا هذا العالم هلا منحتمونا قليلًا من الطعام؟

لو قال هذه العبارة شخص أو اثنان، لنُقلوا إلى مأوى أو دار مُسنين مثل أي شخص يعاني الخرف. لكن ملايين العجائز، رجالًا ونساءً، يرددون الشيء نفسه أمر مختلف تمامًا.

وفي غضون أسبوعين تجاوز عددهم ثلاثين مليونًا. انتشروا في شوارع نيويورك، بكين، لندن، موسكو.. وفي كل مكان. يسيرون في جماعات تعيق حركة المرور، حتى خُيِّل للناس أحيانًا أنهم صاروا أكثر من سكان المدن الأصليين، لكن الأمر الأكثر رعبًا هو أن الجميع كان يردد الشيء ذاته:

- نحن الآلهة. رجاءً، مقابل خلقنا هذا العالم، هلا منحتمونا قليلًا من الطعام؟

ها قد بدأ البشر، أخيرًا، في تحويل أنظارهم عن السفن الفضائية إلى الضيوف غير المدعوِّين. في الآونة الأخيرة تساقطت زخَّات من الشهب على نطاق واسع فوق كل القارات، وبعد كل عرض مدهش للشهب المتوهجة يزداد عدد الهائمين المُسنِّين في المنطقة المقابلة كثيرًا. بعد مراقبة دقيقة تبيَّن ما بدا حقيقة مذهلة: جاء الهائمون من السماء، من تلك السفن الفضائية الغريبة.

هبطوا إلى الغلاف الجوي واحدًا تلو الآخر، كما لو أنهم يقفزون في مسبح، يرتدون بدلات مصنوعة من غشاء خاص، يحترق سطحها من الخارج بالاحتكاك مع الغلاف الجوي، لكن يظل الغشاء يحمي الجسد في الداخل من الحرارة ويبطئ الهبوط.

يضمن التصميم الدقيق ألّا يتجاوز تسارُع التباطؤ 4G [1]، وهي قيمة تقع ضمن حدود تحمُّل جسد هؤلاء الشيوخ. وعند لحظة وصولهم إلى السطح، أخيرًا، تقترب سرعتهم من الصفر، كما لو أنهم قفزوا لتوِّهم من على مقعد. ومع ذلك تعرَّض كثير منهم لالتواء في الكاحل في الوقت الذي يحترق الغشاء المحيط به بالكامل دون ترك أي أثر.

استمرَّت زخَّات النيازك بلا انقطاع، وسقط المزيد من الهائمين على الأرض، حتى اقترب عددهم من مائة مليون.

حاولت حكومات الدول اختيار ممثل أو أكثر من بين الهائمين، لكنهم قالوا إن «الآلهة» متساوون تمامًا، وإن أيًّا منهم يمكنه تمثيلهم جميعًا. وهكذا في جلسة طارئة للجمعية العامة للأمم المتحدة، دخل شيخ عشوائي -عُثر عليه في ميدان التايمز ويبدو أنه تعلم إنجليزية لا بأس بها- قاعة الجمعية العامة.

واضح أنه من أوائل الواصلين: رداؤه متَّسخ مليء بالثقوب، ولحيته البيضاء مغطاة بالتراب كأنها ممسحة. لا هالة فوق رأسه، لكن أسرابًا قليلة من الذباب المخلص تحوم هناك. وبمساعدة عصا خيزران بالية، ترنَّح نحو الطاولة المستديرة وجلس ببطء تحت أنظار القادة. رفع رأسه نحو الأمين العام، وعلى وجهه ارتسمت تلك الابتسامة الطفولية التي اشتُهر بها كل الهائمين.

قال: «أنا... ها... لم أتناول الفطور بعد».

---

(١) أربعة أضعاف الجاذبية الأرضية. (G) هي وحدة لقياس التسارع الناتج عن الجاذبية الأرضية.

فأُحضِر له الإفطار. شاهده الناس حول العالم يلتهم الطعام بنهم، يكاد يختنق في بعض الأحيان. أكل الخبز المحمَّص والنقانق والسلطة بسرعة، ثم شرب كوبًا كبيرًا من الحليب. وبعدها أدار وجهه نحو الأمين العام، مجددًا تلك الابتسامة البريئة.

قال: «ها.. ها.. هل يوجد نبيذ؟ فنجان صغير يفي بالغرض».

أُحضِر له نبيذ. ارتشف وهو يومئ برضًا: «الليلة الماضية استولى مجموعة من الوافدين الجدد على فتحة التهوية التي تنفث هواءً دافئًا في المترو وكنت أنام بجوارها، واضطررت إلى النوم في مكان جديد، في الساحة. والآن، مع رشفة النبيذ، بدأت مفاصلي تعود للحياة.. أنت، أيمكنك تدليك ظهري قليلًا؟ قليلًا فحسب».

فبدأ الأمين العام في تدليك ظهره. عندها هزَّ الهائم رأسه، وزفر قائلًا: «آسف لإزعاجكم».

سأل ممثل الولايات المتحدة:

- من أين جئتم؟

هزَّ الهائم رأسه قائلًا:

- ليس للحضارة موطن ثابت إلا في طفولتها. الكواكب والنجوم غير مستقرة وتتغير، وعليه لا بد للحضارات من الرحيل. بحلول شبابها تكون جرَّبت المغادرة أكثر من مرَّة. ثم تكتشف شيئًا مهمًّا: لا بيئة كوكبية يمكنها أن تكون مستقرة بقدر سفينة فضاء محكمة الإغلاق. عندها تصبح السفينة هي البيت، والكواكب مجرد محطات عابرة. وهكذا فإن أي حضارة تبلغ الرشد لا بد أن تكون حضارة جوَّالة بين النجوم، تتخذ من

السفينة موطنًا لها. من أين جئنا؟ نحن من السفن.

وأشار بأصبعه المتَّسخ نحو السماء.

- وكم عددكم؟

- مليارا فرد.

سأله الأمين العام عن حق:

- من أنتم حقًا؟

فالهائمون يبدون بشرًا تمامًا.

لوَّح الشيخ بيده بانزعاج:

- قلنا لكم ألف مرة. نحن الآلهه.

- هل يمكنكم الشرح؟

- حضارتنا -لنسمِّها حضارة الآلهة- وُجدت قبل ميلاد الأرض بزمن طويل. وعندما دخلت مرحلة الشيخوخة زرعنا بذور الحياة في الأرض حديثة التكوين، ثم عبرت حضارتنا الزمن بالسفر بسرعات تقارب سرعة الضوء. وحين بلغت الحياة على الأرض مرحلة مناسبة عدنا إليها، وقدَّمنا نوعًا جديدًا من الكائنات مبنيًا على جيناتنا الأصلية، وأزلنا أعداءه، ووجَّهنا تطوُّره بعناية، حتى أصبحت الأرض مأهولة بكائن حضاري يشبهنا.

- وكيف تتوقع منا تصديقك؟

- هذا سهل.

وهكذا بدأت رحلة استغرقت نصف عام للتحقق من هذه الادعاءات. شاهد البشر، مذهولين، السفن الفضائية وهي تبث

المخططات الأصلية للحياة على الأرض، وصورًا لكوكب الأرض البدائي. وبناءً على إرشادات الشيخ، حفر البشر في أعماق القشرة الأرضية، فعثروا على آلات مذهلة كانت تراقب النظام البيولوجي وتحركه على هذا الكوكب منذ عصور غابرة.

وأخيرًا اضطر البشر إلى التصديق، على الأقل، فيما يخص الحياة على الأرض.

الفصل الثالث

في الجلسة الطارئة للجمعية العامة للأمم المتحدة، طرح الأمين العام، نيابةً عن الجنس البشري، أخيرًا السؤال الجوهري على الإله: «لماذا أتيتم إلى الأرض؟».

قال الإله -هو نفسه الإله الذي حضر الجلسة الطارئة الأولى قبل نصف عام- وهو يمرّر يده على لحيته الطويلة:

- قبل الإجابة عن هذا السؤال عليكم فهم معنى «الحضارة» على نحو صحيح. كيف تظنون تطوُّر الحضارات مع الزمن؟

قال الأمين العام:

- حضارة الأرض حاليًا في مرحلة تطوُّر سريع، وإذا لم تضربنا كوارث طبيعية تفوق قدرتنا على التحمُّل، أعتقد أننا سنستمر في التطور إلى ما لا نهاية.

- خطأ. فكِّر في الأمر: كل إنسان يمر بمرحلة الطفولة، فالشباب، فمنتصف العمر، فالشيخوخة، ثم أخيرًا الموت. والنجوم تمر بنفس المراحل. في الواقع كل شيء في الكون يمر بنفس الدورة، حتى الكون ذاته سيفنى في نهاية المطاف، فلماذا تكون الحضارة استثناءً؟ لا، تشيخ الحضارات أيضًا وتموت.

- وكيف يحدث ذلك بالضبط؟

- كل حضارة تموت بطريقتها الخاصة، تمامًا كما يموت الناس بأمراض مختلفة أو بمجرد التقدم في العمر وحده. بالنسبة

لحضارة الآلهة جاء أول مؤشر على شيخوختها في إطالة أعمار أفرادها المفرطة. في تلك المرحلة توقع كل فرد في حضارتنا أن يعيش أربعة آلاف سنة أرضية. وبحلول العام الألفين تتصلَّب أفكارهم بالكامل ويفقدون كل إبداع.

ولأنَّ أفرادًا كهؤلاء يتولون زمام السلطة صارت ولادة حياة جديدة ونموها أمرًا بالغ الصعوبة. عندها أدركنا شيخوخة حضارتنا.

- ثم ماذا حدث؟

- مؤشر شيخوخة الحضارة الثاني هو عصر مهد الآلة.

- ماذا تعني؟

- في تلك المرحلة لم تعد آلاتنا بحاجة إلى صانعيها. تعمل وتُصلح نفسها وتتطوَّر ذاتيًا. منحتنا الآلات الذكية كل ما نحتاجه، ليس من المواد فحسب، بل احتياجاتنا النفسية أيضًا. لم نعد مضطرين لبذل أي مجهود من أجل البقاء. صرنا نعيش في حضن الآلات، كمن يرقد في مهاد مريح.

فكِّر بالأمر: لو كانت أدغال الأرض البدائية تعجُّ بفاكهة لا تنضب وكائنات أليفة تتهافت لتؤكَل، هل كانت القردة ستتطوَّر إلى بشر؟ مثَّل مهد الآلة تلك الأدغال المريحة. ومع الوقت نسينا العلوم والتكنولوجيا وصرنا حضارة خاملة فارغة، بلا طموح أو إبداع، وهذا ما عجَّل بشيخوختنا. ما تراه الآن هو حضارة الآلهة في رمقها الأخير.

- والآن.. هلا أخبرتنا الهدف وراء مجيئكم إلى الأرض؟

- لم يعد لنا وطن.

أشار الأمين العام إلى السماء:

- لكن..
- السفن الفضائية شاخت. صحيح أن البيئة الاصطناعية في تلك السفن أكثر استقرارًا من أي بيئة طبيعية، بما في ذلك الأرض، لكن السفن قديمة على نحو يفوق قدرتكم على التصوُّر. مكوِّنات كثيرة تعطلت، وتراكمت آثار الكمّ[1] على البرمجيات مع مرور الدهور، مما أدى إلى تزايد أخطاء التشغيل. وظائف الصيانة الذاتية والإصلاح الذاتي تواجه صعوبات لا يمكن تجاوزها. بيئة المعيشة على السفن تتدهور يومًا بعد يوم. والاحتياجات الأساسية التي يمكن توفيرها للأفراد تتناقص باستمرار. بالكاد نبقى على قيد الحياة. في المدن العشرين ألفًا الموزعة على تلك السفن، الهواء مشبع بالتلوث واليأس.
- ألا توجد حلول؟ مكوِّنات جديدة؟ ترقية للبرمجيات؟

هزَّ الإله رأسه:

- تعيش حضارة الإله سنواتها الأخيرة. مليارات من الرجال والنساء يحتضرون، تجاوز كل واحد منا الثلاثة آلاف عام. لكن قبلنا، عاشت مئات الأجيال في كنف مهد الآلة. نسينا، منذ زمن بعيد، تقنيتنا. ولم نعد نعرف كيف نُصلح هذه السفن التي استمرت بالعمل من تلقاء نفسها لعشرات الملايين من السنين. بل، من حيث القدرة على الفهم والدراسة التكنولوجية، نحن

---

(١) آثار الكمّ: يشير إلى الظواهر والسلوكيات التي تحدث على المستوى الكمي (Quantum Level)، أي على مستوى الجسيمات دون الذرية (مثل الإلكترونات والفوتونات) والذرات والجزيئات الصغيرة. في هذا المستوى، تختلف قوانين الفيزياء اختلافًا كبيرًا عن القوانين التي نختبرها في عالمنا اليومي (الفيزياء الكلاسيكية).

أدنى منكم. لا نعرف كيف نوصل دائرة كهربائية لمصباح، ولا كيف نحل معادلة تربيعية.

ذات يوم أبلغتنا السفن أنها على وشك الانهيار التام. لم تعد أنظمة الدفع قادرة على إيصالنا إلى السرعات القريبة من سرعة الضوء. لم يعد باستطاعة حضارة الإله سوى الانجراف بسرعة لا تبلغ عُشر سرعة الضوء. واقتربت أنظمة الدعم البيئي من الانهيار. لم تعد الآلات قادرة على إبقاء المليارين على قيد الحياة. وتوجَّب علينا البحث عن مخرج آخر.

- هل خطر لكم يومًا أن هذا سيحدث؟
- بالطبع. قبل ألفي عام، حذَّرتنا السفن. وساعتها بذرنا الحياة على الأرض حتى نجد من يُعيلنا في شيخوختنا.
- ألفا عام؟
- نعم. أقصد وفق زمن السفن. أما حسب إطاركم المرجعي فقد كان ذلك قبل 3.5 مليار سنة، حين بدأت الأرض تبرد.
- لدينا سؤال: تقولون إنكم فقدتم تقنيتكم. لكن أليس زرع الحياة بحاجة إلى تكنولوجيا؟
- أوه.. إطلاق عملية تطوُّر الحياة على كوكب ما عملية بسيطة نسبيًا. نثرٌ لبعض البذور فحسب، والحياة تتكاثر وتنمو وحدها. نمتلك هذا النوع من البرمجيات حتى قبل دخولنا عصر مهد الآلة. كل ما علينا فعله هو تشغيل البرنامج، والآلات تتكفل بالباقي. لتكوين كوكب مكتظ بالحياة، قابلٍ لتطوير حضارة، الشرط الأساسي هو الوقت، بضعة مليارات من السنين.

بفضل قدرتنا على السفر بسرعات قريبة من الضوء، امتلكنا

زمنًا غير محدود تقريبًا. لكن الآن، لم تعد سفن حضارة الإله قادرة على بلوغ تلك السرعات. ولو كانت تقدر لأمكننا خلق حضارات جديدة، وحياة جديدة، ولتنوَّعت الخيارات المتاحة أمامنا. أما الآن فقد أسرنا البطء، ولم تعد تلك الأحلام ممكنة.

- إذن، أنتم تريدون قضاء سنوات شيخوختكم على الأرض.

- نعم.. نعم. نأمل أن تشعروا ببعض برِّ الأبناء تجاه خالقيكم، وأن ترعونا.

انحنى الإله مستندًا إلى عصاه المرتجفة، وكاد يهوي أرضًا وهو يحاول الانحناء أمام قادة جميع الأمم.

- ولكن كيف تخططون للعيش هنا؟

- لو أننا اجتمعنا في مكان واحد بأنفسنا، لكان الأولى أن نظل في الفضاء ونموت هناك. نرغب الاندماج في مجتمعاتكم، في عائلاتكم. في مهد حضارة الإله كانت لنا عائلات أيضًا. تعرفون أن الطفولة هي الزمن الثمين. وبما أن حضارتكم ما زالت في طور الطفولة، فلو استطعنا العودة إلى هذا الزمن، وقضاء ما تبقَّى من حياتنا في دفء العائلة، فتلك أقصى سعادتنا.

قال الأمين العام:

- أنتم مليارات. هذا يعني أن على كل أسرة في الأرض إعالة فرد أو اثنين منكم.

ثم ساد الصمت في القاعة بعد كلمته.

- نعم، نعم، آسفون على كل هذا العناء.

استمر الإله في الانحناء، وهو يرمق الأمين العام وقادة الدول بنظرات خاطفة.

- بالطبع، نحن مستعدون لتعويضكم.

لوَّح بعصاه، فدخل قاعتَهم إلهان آخران بلحيتيهما البيضاوين، يرزحان تحت ثقل صندوق معدني فضّي حملاه بينهما.

- انظروا: هذه أجهزة تخزين معلومات عالية الكثافة، تحتفظ بنظام بكل ما جمعته حضارة الإله من معرفة في مجالات العلوم والتكنولوجيا كافة، بها ستقفزون بحضارتكم قفزات هائلة. أعتقد أنكم ستحبون هذا.

نظر الأمين العام، ومعه قادة الدول، إلى الصندوق المعدني، محاولين إخفاء نشوة داخلية.

- رعاية الإله مسؤولية بشرية. بالطبع سيتطلب هذا بعض التشاور بين الدول، لكن أظن أن المبدأ.

- آسفون على كل هذا العناء.. آسفون على كل هذا العناء.

اغرورقت عينا الإله بالدموع، وظلَّ ينحني.

وحين غادر الأمين العام وقادة الدول قاعة الاجتماع رأوا عشرات الآلاف من الآلهة قد تجمَّعوا خارج مبنى الأمم المتحدة.

بحر أبيض من الرؤوس المكلَّلة بالشيب يملأ الأجواء بهمسٍ متكرر. أصغى الأمين العام بانتباه، ففهم أنهم جميعًا يرددون بلغات الأرض المختلفة نفس الجملة:

- آسفون على كل هذا العناء.. آسفون على كل هذا العناء.

الفصل الرابع

وصل إلى الأرض مليارا إله مُغلَّفين في بذلات مصنوعة من غشاء خاص بهم، وسقطوا عبر الغلاف الجوي. بوسع المرء، خلال تلك الفترة، رؤية خطوط لامعة ملوَّنة تُمزِّق السماء حتى في وضح النهار. وبعد هبوطهم توزعوا على مليار ونصف مليار عائلة.

بعدما تلقَّى البشر معارف الآلهة في العلوم والتكنولوجيا امتلأت قلوب الجميع بالآمال والأحلام، وكأنَّ البشرية على وشك الخطو نحو الفردوس في ليلة وضحاها.

وتحت تأثير هذه البهجة رحَّبت كل أسرة بمقدم إلهها.

***

في ذلك الصباح وقف تشيوشنج وعائلته، ومعهم بقية أهالي القرية، عند مدخل قريتهم لاستقبال الآلهة المُخصصين لـ«شي تْسِن».

قالت يوليان:

- يا له من يوم جميل!

ولم يكن تعليقها نابعًا من إحساسها فحسب، اختفت السفن الفضائية خلال الليل، وعاد إلى السماء اتساعها اللا متناهي.

لم يُسمح للبشر قط بالصعود إلى أي من تلك السفن. ليس

معارضة من الآلهة لطلب البشر، إنما رفضت السفن نفسها منح الإذن. لم تستجب للمجسات البشرية البدائية المُرسلة، فأحكمت إغلاق أبوابها.

وبعد أن قفزت آخر مجموعة من الآلهة عبر الغلاف الجوي، غادرت جميع السفن، وعددها يزيد على عشرين ألفًا، مداراتها في آنٍ واحد. لكنها لم تذهب بعيدًا، بل انجرفت إلى حزام الكويكبات.

مع أن تلك السفن عتيقة فإن الإجراءات القديمة ظلَّت تعمل. مهمتها الوحيدة خدمة الآلهة. لذا لم تبتعد كثيرًا، حتى عندما يحتاجها الآلهة مجددًا تعود.

وصلت حافلتان من مقر المقاطعة، تحملان 106 آلهة خُصصوا لمنطقة شي تْسِن. التقى تشيوشنج ويوليان بالإله المُخصَّص لعائلتهم. وقف الزوجان عن جانبيه، وأمسكا ذراعيه بمودَّة، وسارا برفق معه نحو المنزل تحت شمس الظهيرة الساطعة.

تبعهما بينج بينج ووالد تشيوشنج مبتسمين.

قالت يوليان وهي تسند وجهها إلى كتف الإله وتبتسم كالشمس:

- جدي.. أم جدي الإله؟ سمعت أن التكنولوجيا التي منحتمونا إياها ستُمكننا قريبًا من تحقيق الشيوعية الحقيقية! وعندها سيحصل كل فرد على ما يحتاجه، ولن تُكلف الأشياء مالًا، بل نأخذها من المتجر مباشرة!

ابتسم الإله وأومأ لها، وشعره الأبيض يتمايل، قال بلكنة صينية ثقيلة:

- نعم. في الواقع، «لكلٍّ حسب حاجته»[1] يُلبي فقط الاحتياجات الأساسية لأي حضارة. التكنولوجيا التي وهبناكم إياها ستمنحكم حياةً من الرفاهية والراحة تفوق خيالكم.

ضحكت يوليان حتى تفتَّح وجهها كزهرة:

- لا.. لا! «لكلٍّ حسب حاجته» تكفيني وزيادة!

أومأ والد تشيوشنج قائلًا بتأكيد:

- آه.. أينعم.

سأل تشيوشنج:

- هل يمكننا الحياة إلى الأبد مثلكم دون شيخوخة؟

أجاب الإله:

- لا يمكننا العيش إلى الأبد دون شيخوخة. نعيش أطول منكم فحسب. انظر إليَّ، كم أبدو مُسنًا! من وجهة نظري، إن عاش المرء أكثر من ثلاثة آلاف عام فذلك أشبه بالموت. بالنسبة لأي حضارة، طول عمر الأفراد قد يكون مميتًا لها.

ضحك والد تشيوشنغ وقال:

- أنا لا أريد ثلاثة آلاف، يكفيني ثلاثمائة سنة. وقتها سأُعدّ شابًا في مثل سني هذا، وربما أستطيع.. هاها.. هاها..

***

تعاملت القرية مع هذا اليوم كما لو كان رأس السنة الصينية. نظَّمت كل أسرة وليمة كبيرة ترحيبًا بإلههها، وعائلة تشيوشنج ليست استثناء.

---

(1) إحدى مراحل الشيوعية.

سكر والد تشيوشنج قليلًا من أكواب من نبيذ هوانجيو[1] المعتَّق، وأعطى للإله علامة الإعجاب بإبهامه:

- أنت مذهل حقًا! تخلق كل هذه الكائنات الحية.. هذا سحر حقيقي!

شرب الإله أيضًا، لكن ذهنه ظل صافيًا. لوَّح بيده قائلًا:

- لا، ليس سحرًا. كل ما في الأمر أنه علم. فعندما يبلغ علم الأحياء مستوى معينًا، يصبح خلق الحياة أشبه ببناء الآلات.

قال والد تشيوشنج:

- مهما قلت.. بالنسبة لنا أنتم لا تختلفون عن الخالدين[2] الذين نزلوا ليعيشوا بيننا.

هزَّ الإله رأسه:

- الخالدون لا يخطئون. أما نحن فقد ارتكبنا خطأ تلو الآخر أثناء خلقكم.

اتسعت عينا يوليان دهشةً:

- أخطأتم في خلقنا؟

كانت تتخيَّل أنَّ خلق كل تلك الكائنات يشبه ولادتها لبينج بينج قبل ثماني سنوات. أمر لا يحتمل الخطأ.

---

(1) هوانجيو (Huangjiu) نوع نبيذ صيني تقليدي مخمَّر، يُصنع عادةً من الحبوب مثل الأرز، الدخن، أو القمح. يُعرف أيضًا باسم «نبيذ الأرز الأصفر»، وهو أحد أقدم المشروبات الكحولية في الصين، وله تاريخ يمتد لآلاف السنين.

(2) يقصد في الغالب أسطورة الأباطرة الثلاثة والملوك الخمسة: هؤلاء شخصيات أسطورية حكمت الصين في عصور ما قبل التاريخ، ويُعتقد أنهم أسسوا الحضارة الصينية وقدَّموا للبشرية اختراعات حيوية. يُنظر إليهم على أنهم كائنات ذات قوى شبه إلهية أو خارقة للطبيعة، وكانوا يعيشون لفترات طويلة جدًا.

قال الإله:

- كثيرة هي الأخطاء. سأذكر مثالًا حديثًا نسبيًا: برنامج خلق العالم أخطأ في تحليل بيئة الأرض، فنتجت عنه كائنات مثل الديناصورات: أجسام ضخمة وقدرة منخفضة على التكيُّف. وفي النهاية، كان لا بد من القضاء عليها لتسهيل تطوركم.

أما في أحداث أقرب، اندثار حضارات بحر إيجة القديمة[1]، اعتقد برنامج الخلق أنَّ حضارة البشرية ترسَّخت، فتوقف عن المراقبة وإجراء التعديلات الدقيقة، كأنك تترك ساعة مملوءة لتعمل وحدها. وقد ترتَّب على هذا أخطاء لاحقة.

مثلًا: كان عليه ترك حضارة اليونان القديمة لتنمو بشكل طبيعي، ويمنع غزوها من قبَل المقدونيين ثم الرومان. صحيح أنَّ الاثنين ورثا حضارة الإغريق، لكن اتجاه تطورها تغير.

لم يفهم أحد في عائلة تشيوشنج تلك المحاضرة، لكنهم أنصتوا باحترام.

تابع الإله:

- ثم ظهرت قوتان عظيمتان على الأرض: الصين الهانية[2]

(1) حضارات بحر إيجه: يشير إلى مجموعة من الحضارات القديمة التي ازدهرت في منطقة بحر إيجه، الواقعة بين اليونان وتركيا اليوم، خلال العصرين الحجري والبرونزي (7000-1000) ق.م. هذه الحضارات كانت متواصلة ومتفاعلة مع بعضها البعض، وشكلت أساسًا للحضارة اليونانية اللاحقة. انهارت تلك الحضارات بشكل غامض وما زالت مثار بحث وتساؤل من المؤرخين حتى الآن.

(2) الصين الهانية: تشير إلى سلالة هان الحاكمة التي تُعتبر واحدة من أهم وأطول السلالات الإمبراطورية في تاريخ الصين. حكمت هذه السلالة الصين لفترة طويلة ومؤثرة، مما ترك بصمة عميقة في الثقافة، السياسة، والتكنولوجيا الصينية.

والإمبراطورية الرومانية. وعلى عكس ما حدث مع اليونان، لم يكن من الصواب ترك القوتين معزولتين. توجَّب السماح لهما بالاتصال الكامل.

قاطعه والد تشيوشنج بحماس. أخيرًا، سمع والد تشيوشنج شيئًا يعرفه:

- الصين الهانية؟ تقصد سلالة ليو بانغ وشيانغ يو[1]؟ ومن الرومان أولئك؟

قال تشيوشنج محاولًا التوضيح:

- أعتقد أنهم كانوا دولة أجنبية في ذلك الوقت. وكانت كبيرة جدًا.

قال والده متحيرًا:

- لماذا؟ عندما ظهر الأجانب أخيرًا خلال عهد أسرة تشينغ[2]، انظر كيف ضربونا بشدة. هل تريد منهم الظهور في وقت أبكر؟ خلال عهد أسرة هان؟

ضحك الإله:

- لا، لا. في تلك الأيام كانت الصين الهانية قوية مثل الإمبراطورية الرومانية.

قال والد تشيوشنج معترضًا:

---

(1) قاد شيانغ يو تمردًا للإطاحة بحكم سلالة تشين، وانضم ليو بانج لتمرده وانتصرا. بعد تقسيم شيانغ يو للإمبراطورية، بدأ ليو بانغ صراعه ضد شيانغ يو حتى استطاع هزيمته وأسس حكم أسرة هان العظيم.

(2) تُشير إلى فترة حساسة ومؤلمة في التاريخ الصيني، حيث بدأت القوى الغربية في فرض نفوذها وتأثيرها على الصين بشكل مباشر وعنيف خلال فترة حكم سلالة تشينغ.

- ولو.. لا يزال سيئًا. لو التقت هاتان القوتان العظميان، لجرت حرب عظيمة وتدفقت الدماء كالنهر.

أومأ الرب برأسه. مدَّ عيدان الأكل لقطعة لحم بقر مطهوة ببطء في صلصة الصويا، وقال:

- صحيح، قد يحدث.. لكن لو التقت هاتان الحضارتان العظيمتان، الشرقية والغربية، لربما أطلق هذا اللقاء شرارات من الازدهار، ودفع بتقدم البشرية إلى الأمام كثيرًا.

لو تفادينا تلك الأخطاء لاستعمرت الأرض المريخ، وتخطَّت مسابيركم نجم الشِّعرى اليمانية[1].

رفع والد تشيوشنج كأس هوانجيو وقال بإعجاب:

- يقول الناس إنَّ الآلهة مُعالون لنسيانهم العلم، لكنك لا تزال متعلمًا جدًا.

ردَّ الإله:

- لترتاح في فترة كتلك لا بد من معرفة القليل من الفلسفة، والفن، والتاريخ.. مجرد معارف عامة، لا علم حقيقي. العديد من العلماء على الأرض الآن أعمق منا فكرًا.

***

بالنسبة للآلهة كانت الأشهر الأولى بعد دخولهم المجتمع البشري أشبه بـالعصر الذهبي؛ عاشوا بتناغم تام مع الأسر البشرية،

(1) الشعري اليمانية: اسم عربي لواحد من أشهر وألمع النجوم في سماء الليل. يُعرف في الفلك الحديث باسم سيريوس (Sirius)، أو ألفا الكلب الأكبر، لأنه ألمع نجم في كوكبة الكلب الأكبر.

كأنهم عادوا إلى طفولة حضارة الإله، غارقين في دفء الحياة العائلية الذي نسوه منذ زمن بعيد. مثّل هذا في نظرهم أفضل ختام لسنواتهم الطويلة الممتدة.

استمتع إله عائلة تشيوشنج بالحياة الهادئة في تلك القرية الجميلة بجنوب الصين. يذهب يوميًا إلى البركة المحاطة بأشجار الخيزران، يصطاد السمك، ويتحدث مع كبار السن، ويلعب الشطرنج، ويستمتع بوقته. لكن حضور عروض الأوبرا الشعبية كان هوايته الأثيرة.

كلما جاءت فرقة إلى القرية أو البلدة، حرص على حضور كل العروض. أوبراه المفضلة «عشاق الفراشة[1]». لم يكن عرض واحد يكفيه. تبع إحدى الفرق لأكثر من خمسين كيلومترًا، وحضر عدة عروض متتالية. وأخيرًا، ذهب تشيوشنج إلى المدينة واشترى له أسطوانة VCD للأوبرا. يشغلها مرارًا حتى أصبح يُدندن بعض مقاطع أوبرا هوانجمي[2] بصوت جميل نسبيًا.

في أحد الأيام، اكتشفت يوليان سرًا، فقالت همسًا لتشيوشنج ووالده:

- هل تعرفان أن جدّو الإله في كل مرة ينتهي من مشاهدة الأوبرا، يُخرج بطاقة صغيرة من جيبه؟ وأثناء دندنة الأغنية، يُحدِّق

(1) أوبرا «عشاق الفراشة»: هي أوبرا صينية شهيرة جدًا! بل إنها واحدة من أشهر وأكثر القصص الرومانسية المأساوية المحبوبة في الصين، وغالبًا ما يُشار إليها باسم «روميو وجولييت الصينية».

(2) أوبرا هوانجمي: أحد أشكال الأوبرا الصينية التقليدية. تُعد واحدة من الأوبرات الصينية الخمس الكبرى، وهي معروفة بشكل خاص بأسلوبها الغنائي المميز. وعشاق الفراشة واحدة من أشهر الأعمال التي تُقدمها.

في البطاقة. قبل قليل، نظرت خلسةً، فوجدت صورة لامرأة شابة جميلة حقًا.

في تلك الليلة، شغَّل الإله «عشاق الفراشة» مجددًا. أخرج صورة الشابة وأخذ يُدندن. اقترب منه والد تشيوشنج وقال بهدوء:

- جدّو الإله.. هل هذه حبيبتك من زمان بعيد؟

ارتبك الإله، وسرعان ما خبَّأ الصورة، وابتسم كطفل:

- هاها... نعم، نعم، أحببتها منذ ألفي عام.

يوليان، التي كانت تتنصَّت، عبست: «ألفي سنة! بالنظر إلى سِنِّه المتقدمة، أليس هذا مقززًا بعض الشيء».

أراد والد تشيوشنج النظر إلى الصورة، لكن الإله كان حريصًا عليها بشدة فلم يجرؤ على طلب ذلك، فاكتفى بالاستماع إلى ذكرياته. قال الإله:

- كنا جميعًا صغارًا حينها.. واحدة من القلائل الذين لم يستهوهم العيش في مهد الآلة. أطلقت رحلة استكشافية كبرى لتصل إلى نهاية الكون. آه، لا تتعبوا أنفسكم بمحاولة الفهم، هذا أمر معقد. على أي حال، أمَّلت في إيقاظ حضارتنا الإلهية الغافية في مهد الآلة بهذه الرحلة. بالطبع، لم يكن سوى حلم جميل. طلبت مني مرافقتها، ولم أمتلك الشجاعة.

صحراء الكون اللانهائية أخافتني. رحلة تفوق عشرين مليار سنة ضوئية. فانطلقت وحدها. غير أنني، طوال ألفي عام، لم أكفَّ عن التوق إليها.

قال والد تشيوشنج مذهولًا:

- عشرون مليار سنة ضوئية؟ يعني، كما شرحت لي، المسافة التي يقطعها الضوء في عشرين مليار سنة؟ يا إلهي! هذه مسافة لا عودة منها. جدّو الإله، عليك نسيانها. لن تراها مجددًا.

أومأ الإله وتنهَّد.. قال والد تشيوشنج:

- لكن.. ألا يُفترض أن عمرها مثل عمرك الآن؟

أفاق الإله من شروده، فهزَّ رأسه:

- لا. فمثل تلك الرحلة تتطلب أن تسير مركبة الاستكشاف بسرعة قريبة من سرعة الضوء. وهذا يعني أنها لا تزال شابة. الوحيد الذي شاخ هو أنا. أنتم لا تُدركون كم هو شاسع الكون. ما تعتبرونه «أبدية» لا يزيد عن حبة رمل في الزمكان.. لكن عدم فهمكم أو شعوركم بهذا قد يكون نعمة أحيانًا.

الفصل الخامس

سُرعان ما انتهى شهر العسل بين الآلهة والبشر. في البداية غمر الناس الفرح بتلقّي المادة العلمية من الآلهة، متخيلين أحلام البشرية ستتحقق بين ليلة وضحاها. وبفضل أدوات الواجهة[1] التي وفَّرها الآلهة، أمكن استخراج كمية معلومات هائلة من وحدات التخزين. تُرجمت إلى اللغة الإنجليزية، ومنعًا للنزاعات، وُزعت نسخة منها على كل دولة في العالم.

لكن الناس اكتشفوا على الفور أن الاستفادة من هذه التقنيات الإلهية مستحيل، على الأقل في هذا القرن. تخيَّل عبثية سفر شخص عبر الزمن ليمنح قدماء المصريين مخططات تكنولوجية حديثة، وستدرك حجم المأزق الذي واجهته البشرية.

ومع اقتراب نضوب موارد النفط جاءت تقنيات الطاقة في صدارة اهتمام الجميع. غير أنَّ العلماء والمهندسين اكتشفوا أن تكنولوجيا الطاقة لدى حضارة الآلهة لا تصلح للبشر حاليًا.

يستند مصدر الطاقة لديهم إلى إفناء المادة والمادة المضادة[2].

---

(1) أدوات الواجهة: يُشير إلى أي جهاز أو نظام يسمح لكيانين أو نظامين مختلفين بالتفاعل وتبادل المعلومات أو الوظائف. مثل كابل الـusb ومحركاته مثلًا.

(2) إفناء المادة والمادة المضادة ظاهرة فيزيائية تحدث عندما يلتقي جسيم بمضاد جسيمه (antiparticle) ويتفاعلان معًا. عندما يحدث هذا، فإنهما يُفنيان بعضهما البعض ويتحولان كليًا إلى طاقة. هو التفاعل الأكثر كفاءة لتحويل الكتلة إلى طاقة.

وحتى إن استطاع البشر فهم المواد اللازمة وصنعوا في النهاية محرك ومولد إفناء -وهو أمر شبه مستحيل في هذا الجيل- فلن يُجدي ذلك نفعًا، فالوقود المطلوب لتشغيل هذه المحركات، أي المادة المضادة، لا يمكن الحصول عليه إلا من أعماق الفضاء. ووفقًا لبيانات الآلهة، يقع أقرب مصدر لخام المادة المضادة بين مجرَّة درب التبانة ومجرَّة أندروميدا، على بُعد نحو 550 ألف سنة ضوئية.

وتطلَّبت تقنيات السفر بين النجوم بسرعة تقارب سرعة الضوء إلمامًا بكل فروع المعرفة العلمية. والجزء الأكبر من النظريات والتقنيات التي كشفت عنها الآلهة فاقت الفهم البشري. مجرد محاولة فهم المبادئ الأساسية سيتطلب من العلماء عقودًا من البحث- ربما نصف قرن على الأقل.

بحث العلماء، الممتلئون بأمل البدايات، في المادة المقدِّمة عن أي إشارة لتقنية الانشطار النووي المُتحكَّم فيه، لكن دون جدوى. وكان هذا متوقعًا: فلا تتضمن أدبياتنا الحالية في علوم الطاقة تعليمات حول كيفية إشعال النار بالعصي.

الوضع نفسه تقريبًا في كافة الفروع العلمية الأخرى، مثل علوم نُظم المعلومات وعلوم الحياة (بما في ذلك سرُّ طول العمر). حتى أكثر العلماء تقدمًا عجزوا عن فك شفرة معارف الآلهة. بينها وبين علم البشر فجوة استحال ردمها.

أما الآلهة الذين وصلوا إلى الأرض، فلم يستطيعوا تقديم أية مساعدة للعلماء. كما قال الإله الذي تحدّث أمام الأمم المتحدة: لم يبقَ بين الآلهة اليوم من يستطيع حلّ معادلة تربيعية.

والسفن الفضائية التائهة بين الكويكبات، تجاهلت كل نداءات البشر. الذين بدوا كطلاب جُدد في المرحلة الابتدائية طُلب منهم فجأة فهم مقررات الدكتوراه، دون معلّم.

في الوقت نفسه، ازداد عدد سكان الأرض فجأة بمليارَي نسمة. جميعهم طاعنون في السن، غير قادرين على الإنتاج. وكثير منهم يعاني من أمراض مزمنة، مما فرض ضغطًا غير مسبوق على المجتمعات البشرية.

نتيجة لذلك اضطرت كل حكومة دفع مخصصات دعم لكل أسرة تستضيف إلهًا. ومع تزايد الضغط على أنظمة الرعاية الصحية والخدمات العامة اقترب الاقتصاد العالمي من حافة الانهيار.

انتهت العلاقة الودية بين الإله وأسرة تشيوشنج. تدريجيًا، بدأوا يرونه عبئًا سقط عليهم من السماء. ازدرَوه، وإن اختلفت أسبابهم.

لدى يوليان السبب الأكثر واقعية والأقرب إلى لُبِّ المشكلة: الإله جعل أسرتها فقيرة. ومن بين جميع أفراد العائلة، خشيها الإله أكثر؛ بلسانها الحاد كسكين، أخافته أكثر من الثقوب السوداء والمستعرات العظمى.

وبعدما مات حلم الشيوعية الحقيقية داخلها، صارت لا تكفُّ عن توبيخه:

- قبل مجيئك، عشنا حياة مريحة ومزدهرة. وكل شيء كان على ما يرام. والآن ساءت الأمور بسببك. أن تُثقل بعجوز أحمق مثلك شؤم ما بعده شؤم!

لا تترك فرصة إلا وأسمعته ذلك. كل يوم.

يعاني الإله أيضًا من التهاب الشعب الهوائية المزمن. مرض علاجه غير مكلف، لكنه يتطلب رعاية منتظمة ونفقات لا تتوقف. وأخيرًا، في أحد الأيام، منعت يوليان تشيوشنج من اصطحاب الإله إلى مستشفى البلدة، وأوقفت شراء الأدوية له.

حين علم سكرتير فرع الحزب الشيوعي في القرية زار بيت تشيوشنج.

قال السكرتير ليوليان:

- عليكم تحمُّل نفقات علاج الإله. الطبيب قال لي إن مرضه قد يتطور إلى انتفاخ رئوي إن لم يُعالج.

فصاحت يوليان في وجه السكرتير:

- إذا أردتم علاجه فليدفع المجلس القروي أو الحكومة. لسنا بنكًا!

قال السكرتير:

- يوليان، حسب قانون دعم الآلهة، الأسرة تتحمَّل هذه النفقات البسيطة. بدل الدعم الحكومي يشمل هذا النوع من المصروفات.

ردَّت:

- البدل التافه كعدمه!

قال السكرتير:

- لا يصح حديثك هذا. بعد حصولك على الدعم، اشتريت بقرة حلوبًا، واستبدلت الغاز بالحطب. والتلفاز الكبير الملون الجديد! والآن، تدَّعين ألا مال من أجل الإله ليراه الطبيب؟

يعلم الجميع أن كلمتك هي القانون في عائلتك. سأقولها لك بوضوح: أنا الآن أساعدك على حفظ ماء وجهك، لكن لا تختبري حظك. في المرة القادمة، لن أكون أنا من يقف هنا محاولًا إقناعك، بل ستكون لجنة دعم الإله بالمقاطعة، وحينها ستقعين في ورطة حقيقية.

اضطرت يوليان إلى استئناف الإنفاق على علاج الإله، لكنها صارت أشد قسوة عليه بعد ذلك.

ذات مرة قال لها الإله:

- لا تقلقي إلى هذا الحد. البشر أذكياء جدًا ويتعلمون بسرعة. خلال قرن واحد فحسب أو نحو ذلك، ستصبح أسهل جوانب علومنا قابلة للتطبيق في مجتمعكم. وستتحسن حياتكم.

ردَّت دون النظر إليه وهي تغسل الصحون:

- اللعنة.. قرن كامل! وتقول لي «فحسب»؟! هل تسمع نفسك حتى؟

ردَّ:

- هذا وقت قصير جدًا.

- بالنسبة لك! هل تعتقد أننا نستطيع العيش مثلك؟ في قرن آخر لن تتمكن حتى من العثور على عظامي! لكن أريد سؤالك: كم تتوقع العيش بعد الآن؟

- أنا مثل شمعة في مهبّ الريح. لو عشت ثلاث أو أربع مائة سنة أخرى، سأكون راضيًا جدًا.

صرخت يوليان ورمت كومة صحون على الأرض:

- ليست طريقة «رعاية» تلك! آه، إذن، لا تكفي حياتي أكرسها كلها للعناية بك، بل تريد من ابني، وحفيدي، وعائلتي لِعشرة أجيال أن يفعلوا الأمر نفسه! لماذا لا تموت؟!

***

بالنسبة لوالد تشيوشنج، فالإله محتال. هذا ما يعتقد، وتلك نظرة شائعة، ما دام العلماء عاجزين عن فهم أوراق الآلهة العلمية، فلا سبيل للتحقق من صحتها. ربما الآلهة يلعبون بالبشر جميعًا وتلك خديعة كبرى. لدى والد تشيوشنج إذن أدلة كافية تدعم رأيه.

قال للإله يومًا:

- أيها المحتال العجوز، تجاوزت كل الحدود.. وأنا كسول جدًا لأفضحك. حيلك لا تستحق عنائي. بحق الجحيم، إنها لا تستحق حتى عناء حفيدي.

فسأله الإله عمَّ اكتشف.

- نبدأ من أبسط شيء: علماؤنا يقولون إن الإنسان تطور من القرد، صح؟

هزَّ الإله رأسه:

- تطورتم من الرئيسيات المبكرة. بدقة أكثر.

- إذن، كيف تزعم أنك خلقتنا؟ ما دمت نويت على خلق البشر، فلماذا لم تخلقنا مباشرة على صورتنا الحالية؟ لماذا تكلفون أنفسكم عناء خلق القردة العليا المبكرة أولًا ثم تمرون بمشقة التطور؟ هذا لا معنى له.

قال الإله:

- الإنسان يبدأ كطفل، ثم ينمو. الحضارة كذلك، لا بد من المرور بمراحل التطور. طريق التجربة لا يمكن تجنبه. في الواقع، بدأ البشر بإدخال أنواع أكثر بدائية بكثير. حتى القردة كانت متطورة حينها.

قال الرجل:

- لا أصدق هذه التبريرات المفبركة. حسنًا، هناك أمر أوضح من هذا، لاحظه حفيدي أولًا. علماؤنا يقولون إن الحياة على الأرض موجودة منذ ثلاثة مليارات سنة. هل تعترف بهذا؟

أومأ الإله برأسه:

- هذا التقدير دقيق في المجمل.

- وهل عمرك ثلاثة مليارات سنة؟

ردَّ الإله:

- بحسب إطاركم المرجعي، نعم. لكن وفقًا لإطار سفننا المرجعي، فإن عمري لا يتجاوز 3500 سنة. لقد كانت سفننا تسير بسرعة قريبة من سرعة الضوء، والزمن يمر لدينا ببطء شديد مقارنة بكم. بالطبع، بين الحين والآخر، كانت بعض السفن تبطئ وتهبط على الأرض لإجراء تعديلات على تطور الحياة، لكن ذلك لم يكن يستغرق وقتًا طويلًا. ثم تعود لتسرع من جديد، متجاوزة الزمن الأرضي.

قال والد تشيوشنج بازدراء:

- هراء.

تدخَّل تشيوشنج قائلًا:

- أبي، هذه نظرية النسبية. علماؤنا أثبتوها بالفعل.

قال الأب ساخرًا:

- نسبية خراء! تحتال عليَّ أنت أيضًا. هذا مستحيل! كيف يمكن للزمن التدفق بسرعات مختلفة، أهو زيت سمسم؟! أنا لست عجوزًا لدرجة فقدان عقلي. أما أنت، فقراءة كل تلك الكتب جعلتك غبيًا!

قال الإله، وعيناه تلمعان بالغموض:

أستطيع أن أثبت لك أن الزمن فعلًا يمر بسرعات مختلفة..

ثم أخرج تلك الصورة لحبيبته منذ ألفي عام، وناولها لتشيوشنج..

- تأملها جيدًا واحفظ كل تفصيلة فيها..

بمجرد أن نظر تشيوشنج إلى الصورة، عرف أنه لن ينسى أي تفصيلة منها أبدًا. حُفرت في ذهنه. امرأة، مثل سائر الآلهة، تحمل سمات كل الأعراق البشرية، ببشرة كالعاج الدافئ، وعيناها حيّتان كأنهما تغنيان، أسر سحرها روحه على الفور. امرأة بين الآلهة، وإلهة بين النساء. جمال الآلهة شمس ثانية، لم يعرفها البشر ولا يحتملونها.

صرخت يوليان:

- انظر لنفسك! يكاد لعابك يسيل!

خطفت الصورة من زوجها المتجمّد، لكن والده انتزعها منها على الفور، وقبل أن تراها. قال الأب:

- دعوني أراها..

وقرَّب الصورة من عينيه العجوزتين إلى أقصى حد. ظلَّ ساكنًا طويلًا، كأن الصورة تغذّيه.

سألته يوليان بازدراء:

- لماذا تُحدِّق هكذا؟

ردَّ دون أن يرفع رأسه:

- اصمتي، لا أرتدي نظارتي.

نظرت إليه يوليان باشمئزاز لبضع ثوانٍ، ثم زمَّت شفتيها وعادت إلى المطبخ.

أخذ الإله الصورة من بين يدي والد تشيوشنج، اللتين ظلَّتا متشبثتين بها للحظة، رافضتين الإفلات. قال الإله:

- تذكَّر كل التفاصيل. سأدعك ترى الصورة مجددًا في مثل هذا الوقت غدًا.

في اليوم التالي، لم يقُل الأب ولا الابن شيئًا لبعضهما البعض. شُغلت أفكارهما بالمرأة، حتى لم يتبقَّ ما يُقال. وكان مزاج يوليان في أسوأ حالاته.

وأخيرًا حان الوقت. ونسي الإله الموعد، واضطر والد تشيوشنج لتذكيره. فأخرج الصورة التي شغلتهما طوال اليوم، وناولها أولًا لتشيوشنج.

قال:

- انظر بدقة. هل ترى أي تغيير؟

أجاب تشيوشنج بانتباه كامل:

- لا شيء حقًا..

وبعد برهة، لاحظ شيئًا أخيرًا:

- آه! انفراجة شفتيها تبدو أضيق قليلًا. ليس كثيرًا، مجرد تغيُّر بسيط. انظر إلى زاوية الفم هنا.

صرخت يوليان:

- ألا تخجل؟ تُحدِّق هكذا في امرأة غيري؟!

خطفت الصورة مجددًا، لكن والد زوجها شدَّها مرة أخرى على الفور.

قال واضعًا نظارته وفاحصًا إياها بعناية:

- دعني أراها.. نعم، الفتحة أضيق فعلًا. لكن هناك تغيُّر أوضح لم تلحظه. انظر إلى خصلة الشعر هذه، انزاحت نحو اليمين مقارنة بالأمس.

أخذ الإله الصورة وقال:

- هذه ليست صورة فوتوغرافية، بل بث تلفزيوني.

- تلفاز؟!

- نعم، يبث الآن صورة حيَّة من سفينة استكشافية تتجه نحو نهاية الكون.

- بث حي؟ مثل مباريات كرة القدم؟

- نعم.

قال تشيوشنج مذهولًا:

- إذن.. المرأة في الصورة، حيّة!

حتى يوليان اتَّسعت عيناها كحبتَي جوز كبيرتين.

قال الإله:

- نعم، حيَّة. لكن على عكس البث الحي في الأرض، هذا البث فيه تأخير. السفينة الآن تبعد حوالي ثمانين مليون سنة ضوئية، لذا فالتأخير يعادل ثمانين مليون سنة. ما نراه الآن صورتها كما كانت قبل ثمانين مليون سنة.

سأل والد تشيوشنج:

- ويمكن لشيء صغير كهذا تلقّي إشارة من مسافة كتلك؟!

قال الإله:

- هذا النوع من الاتصال عبر المسافات الهائلة يتطلب استخدام النيوترينوات[1] أو الموجات الثقالية. سفننا تتلقى الإشارة، تُكبِّرها، ثم تعيد بثها لهذا التلفاز.

قال والد تشيوشنج بإعجاب صادق:

- كنز، كنز حقيقي!

ولم يُعرف إن كان يقصد التلفاز أم المرأة فيه. لكن بعد أن عرف أنها لا تزال «حيَّة»، شعر كل من تشيوشنج ووالده بارتباط أعمق بها. حاول تشيوشنج أخذ التلفاز الصغير مجددًا، لكن الإله رفض.

سأله:

لماذا تتحرك ببطء شديد في الصورة؟

أجاب الإله:

- بسبب اختلاف تدفق الزمن. من إطارنا المرجعي، الزمن على متن سفينة تسير بسرعة قريبة من الضوء يمر ببطء شديد.

سألته يوليان:

- هل ما زالت تستطيع التحدث إليك؟

---

(1) النيوترينوات: جسيمات دون ذرية أساسية، أي إنها من أصغر المكونات المعروفة للمادة. تُعتبر من أكثر الجسيمات وفرة في الكون، ولكنها أيضًا من أكثرها غموضًا وصعوبة في الكشف عنها بسبب خصائصها الفريدة. بقدرتها على اختراق المادة والانتقال لمسافات هائلة دون عوائق، تُعتبر وسيلة مثالية لنقل المعلومات عبر الفضاء الشاسع، حتى من سفينة تبعد ملايين السنين الضوئية، هكذا عمل الخيال.

أومأ الإله برأسه، وقلب مفتاحًا خلف التلفاز، فانبعث منه صوت امرأة. صوت ساكن، كأنها تمسك على نغمة بثبات في نهاية أغنية. رمق الإله الشاشة بنظرات مفعمة بالحب. وقال:

- تتحدث الآن. تُكمل ثلاث كلمات: «أنا أحبك أنت». كل كلمة تستغرق أكثر من عام. مرَّ الآن ثلاثة أعوام ونصف، وها هي توشك على إنهاء كلمة «أنت». تحتاج إلى ثلاثة أشهر أخرى لتتم الجملة كاملة.

ثم رفع عينيه من الشاشة إلى قبة السماء فوق فناء البيت.

- لا تزال لديها أمور أخرى لتقولها. سأقضي بقية حياتي مصغيًا إليها.

***

في البداية، استطاع بينج بينج المحافظة على علاقة طيبة مع الإله. فالآلهة، رغم عظمتها، تحمل شيئًا من الطفولة، تحب التحدث واللعب مع الأطفال. لكن في أحد الأيام طلب بينج بينج من الإله إعطاءه ساعته الكبيرة، ورفض الإله رفضًا قاطعًا، موضحًا أنها أداة للتواصل مع حضارة الآلهة، ومن دونها لن يستطيع الاتصال بأبناء قومه.

قالت يوليان غاضبة:

- ها أنت ذا، لا تزال تفكر في حضارتك وعرقك. لم تعتبرنا عائلتك الحقيقية قط!

ومنذ ذلك اليوم، لم يعد بينج بينج لطيفًا مع الإله، بل صار كثيرًا ما يخدعه بألعاب طفولية.

***

تشيوشنج هو الوحيد في الأسرة الذي ظلَّ يُكِنُّ احترامًا ومشاعر بَرٍّ تجاه الإله. رجل أنهى دراسته الثانوية، ويحب القراءة. وباستثناء قلة من الذين اجتازوا امتحان القبول الجامعي وسافروا للدراسة، يُعتبر أكثر أهل القرية علمًا.

لكن في البيت، ليس له أي سلطة. ينصاع دائمًا لتوجيهات زوجته، وينفذ أوامر والده. وإذا تضاربت أوامرهما، لا يكون أمامه سوى الجلوس في زاوية والبكاء. وبطيبة كتلك، لم يكن قادرًا على حماية الإله داخل منزله.

الفصل السادس

تدهورت العلاقة بين الآلهة والبشر إلى حدٍّ لا رجعة فيه. حدث الانهيار التام بين الإله وعائلة تشيوشنج عقب حادثة الشعيرية سريعة التحضير. في أحد الأيام، قبيل وقت الغداء، خرجت يوليان من المطبخ تحمل علبة كرتون، وتسأل عن سبب اختفاء نصف صندوق الشعيرية الذي اشترته في اليوم السابق.

فقال الإله بصوت خافت:

- أخذتها.. أعطيتها لأولئك الذين يعيشون قرب النهر.. أوشك طعامهم على النفاد.

يشير إلى مكان تجمُّع الآلهة الذين غادروا عائلاتهم. تكررت، في الآونة الأخيرة، حوادث إساءة إلى الآلهة في القرية. وبرزت حالة لزوجين قاسيين، دأبا على ضرب إلههما وسبِّه، بل وامتنعوا عن إطعامه. وفي نهاية المطاف، حاول ذلك الإله الانتحار بإغراق نفسه في النهر المار أمام القرية، لكن لحسن الحظ تمكَّن آخرون من إيقافه.

أثار الحادث ضجة واسعة، تجاوز صداها حدود المقاطعة، ووصل إلى المدينة، فحضرت الشرطة بصحبة طاقم من مراسلي التلفزيون المركزي الصيني وتلفزيون المقاطعة، واقتيد الزوجان مكبلَين بالأصفاد. طبقًا لقانون دعم الآلهة، ارتكبا جريمة «إساءة إلى الإله»، المُعاقب عليها بالسجن عشر سنوات على الأقل. ويُعد هذا القانون الوحيد المُتفق عليه بين جميع دول العالم، بفترة عقوبة موحدة.

بعد تلك الواقعة، أصبح سكان القرية أكثر حذرًا، وامتنعوا عن الإساءة إلى الآلهة أمام آخرين. بيد أن العلاقة بينهما تفاقمت سوءًا، في الوقت نفسه. وبمرور الوقت، غادر بعض الآلهة عائلاتهم، وتبعهم آخرون، حتى بلغ عدد الآلهة الذين غادروا منازلهم في شي تسِن نحو الثلث. وأقاموا معسكرًا في الحقل المقابل للنهر، وعاشوا حياة شاقة متقشفة.

الحال نفسه في سائر أنحاء البلاد وفي العالم، عادت شوارع المدن الكبرى تكتظ مجددًا بالآلهة المتشردين، وتزايد عددهم سريعًا، كأنَّ كابوس السنوات الثلاث الماضية يعيد نفسه. وهكذا، وجد العالم، المثقل بالآلهة والبشر، نفسه، في مواجهة أزمة هائلة.

صاحت يوليان غاضبة ولاعنة:

- ها أنت ذا، كريمٌ حدَّ البلاهة! تجرؤ على التهام طعامنا ثم تهبه لغيرك؟

صفع والد تشيوشنج الطاولة ونهض غاضبًا:

- أيها الأحمق! اخرج من هنا! تحب أولئك الآلهة القاطنين عند النهر؟ فلتذهب إليهم إذن!

جلس الإله صامتًا برهة، شاردًا في تفكيره. ثم نهض، ودخل حجرته الصغيرة، وجمع ما تبقَّى له من أمتعة، واتكأ على عصاه المصنوعة من الخيزران، ومضى خارجًا من المنزل ببطء، متجهًا صوب النهر.

لم يشارك تشيوشنج عائلته الطعام، بل جلس القرفصاء في إحدى الزوايا، مطأطئ الرأس، صامتًا.

صرخت يوليان:

- أيها الأخرق! تعال وتناول طعامك! علينا الذهاب إلى البلدة بعد الظهر لشراء العلف!

ولَمَّا لم يتحرك، اقتربت منه وجذبت أذنه.

فقال تشيوشنج:

- اتركيني.

لم يكن صوته عاليًا، لكن يوليان تركته كأنما صُعقت، إذ لم ترَ على وجه زوجها مثل هذا التعبير الكئيب من قبل.

قال الأب باستهانة:

دعيه وشأنه. إن رفض الطعام فهو أحمق.

تشير يوليان بإصبعها إلى رأس تشيوشنج لتستفزه، وتضيف ساخرة:

- ها.. أتشتاق إلى إلهك؟ ما رأيك في اللحاق به والعيش معه ومع أصدقائه في الحقل عند النهر؟

نهض تشيوشنج وصعد إلى غرفته. وكما فعل الإله، جمع حاجياته القليلة، ووضعها في حقيبة كان يستخدمها وقت العمل في المدينة، ثم خرج حاملًا الحقيبة على ظهره.

صرخت يوليان:

- إلى أين أنت ذاهب؟

لكنه تجاهلها، صرخت مجددًا، وهذه المرة بدا الخوف في صوتها:

- كم من الوقت ستغيب؟

فأجاب دون التفات:

- لن أعود.

- ماذا؟ عُد إلى هنا! هل فقدت عقلك؟!

خرج الأب في إثره قائلًا:

- ما الذي أصابك؟ حتى إن كنت لا تبالي بزوجتك وطفلك، كيف تجرؤ على هجر والدك؟

توقف تشيوشنج، لكنه لم يلتفت أيضًا:

- ولمَ أبال لأمرك؟

- كيف تتحدث بهذا الشكل؟ أنا والدك! أنا من ربّاك! أمك توفيت باكرًا، أتظن أن تربيتك أنت وأختك كانت سهلة؟ هل فقدت صوابك؟

عندها التفت تشيوشنج أخيرًا ونظر إلى والده، وقال:

- إذا كنتم قد طردتم الكائن الذي أوجد أجداد أجداد أجدادنا من البيت، فلا ذنب أراه في ألا أعولك في شيخوختك.

ثم غادر، وبقيت يوليان ووالده واقفَين مشدوهَين.

***

عبر تشيوشنج الجسر الحجري القديم المقوَّس، وسار نحو خيام الآلهة. رأى بعضهم وقد نصبوا قدرًا لطبخ شيء ما في ساحة عشبية متناثرة فوقها أوراق ذهبية اللون. لحاهم البيضاء، وبخار القدر المتصاعد ينعكس في ضوء الشمس، مشكِّلًا مشهدًا أشبه بأسطورة من زمن سحيق.

عثر تشيوشنج على إلهه، وقال بعزم:

- جدِّي الإله، لنذهب.

فأجابه الإله:

- لن أعود إلى ذلك المنزل.

قال تشيوشنج:

- ولا أنا. سنذهب إلى بيت أختي في المدينة ونمكث هناك لبعض الوقت. ثم أبحث عن عمل، ونستأجر مسكنًا معًا، وسأتولى إعالتك مدى الحياة.

ربت الإله على كتفه برفق وقال:

- أنت فتى طيب.. لكن آن أوان الرحيل.

وأشار إلى ساعته. لاحظ تشيوشنج أن ساعات جميع الآلهة تومض بأضواء حمراء. قال:

- الرحيل؟ إلى أين؟

فأشار الإله إلى السماء وقال:

- العودة إلى السفن.

رفع تشيوشنج رأسه، فرأى سفينتين فضائيتين تحومان في السماء، تبرزان بوضوح في صفحة الزُرقة. إحداهما أقرب، ضخمة وواضحة المعالم، وبدت الأخرى أبعد وأصغر حجمًا.

لكن المشهد الأكثر إدهاشًا كان خيطًا رفيعًا، كخيط العنكبوت، يتدلَّى من السفينة الأقرب، ممتدًّا من الفضاء إلى الأرض. وكانت الشمس تنعكس على أجزائه المتذبذبة في ومضات تُشبه البرق في وضح النهار.

قال الإله شارحًا:

- هذا مصعد فضائي. نُصب منه أكثر من مائةٍ على مختلف قارات الأرض. سنصعد به عائدين إلى السفن.

لاحقًا، علم تشيوشنج أن السفينة حين تُسقط مصعدًا فضائيًا من مدار ثابت حول الأرض، فإنها تحتاج إلى كتلة ضخمة على الجانب المقابل في أعماق الفضاء كي تعمل كوزنٍ مضاد،وكانت تلك هي مهمة السفينة الثانية التي رآها.

وحين اعتادت عيناه سطوع السماء، لمح عددًا هائلًا من النجوم الفضية البعيدة، مصطفَّة في نظام هندسي دقيق، كأنها مصفوفة كونية هائلة.

عندها أدرك تشيوشنج أن عشرين ألف سفينة من سفن حضارة الآلهة عائدة من حزام الكويكبات إلى الأرض.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل السابع

عادت عشرون ألف مركبة فضائية تملأ سماء الأرض. وعلى مدى الشهرين التاليين، راحت الكبسولات الفضائية تصعد وتهبط بامتداد المصاعد الفضائية المختلفة، حاملةً معها مليارَي إله عاشوا لفترة وجيزة على الأرض. الكبسولات الفضائية كرات فضية، تبدو من البعيد قطرات ندى معلَّقة في خيوط عنكبوت.

يوم مغادرة آلهة شي تْسِن، حضر جميع سكان القرية لتوديعهم. قلوبهم ممتلئة بالود تجاه الآلهة، ذَكّر الجميع بيوم وصولهم إلى القرية قبل عام، وكأن لا علاقة لهم بكل ما لاقاه الآلهة من الإساءات والاحتقار خلال إقامتهم.

توقفت حافلتان كبيرتان عند مدخل القرية، نفس الحافلتين اللتين جاءتا بالآلهة قبل عام. وكان أكثر من مائة إله على وشك التوجُّه إلى أقرب مصعد فضائي، حيث يستقلون كبسولاتهم الفضائية. يبتعد الخيط الفضي البادي في الأفق، الذي لم يكن في الحقيقة سوى المصعد نفسه، مئات الكيلومترات.

ذهبت أسرة تشيوشنج بكاملها لتوديع إلههم. لم ينطق أحد بكلمة طوال الطريق. وعندما اقتربوا من مدخل القرية، توقف الإله، اتكأ على عصاه، وانحنى أمام الأسرة قائلًا:

– توقفوا هنا من فضلكم. شكرًا على رعايتكم لي هذا العام.. شكرًا حقًا. أينما كنت في هذا الكون، سأظل أذكر أسرتكم.

ثم نزع الساعة الكبيرة من معصمه وناولها لبينج بينج:

- هدية..

قال بينج بينج:

- لكن.. كيف ستتواصل مع بقية الآلهة بعد الآن؟

ضحك الإله وقال:

- سنكون جميعًا على متن السفن الفضائية. لم أعد بحاجة إليها.

قال والد تشيوشنج، بوجه حزين:

- جدّي الإله، سفنكم كلها قديمة. لن تصمد طويلًا. إلى أين ستذهبون إذن؟

مسح الإله لحيته وقال بهدوء:

- لا بأس. الفضاء لا نهاية له. الموت في أي موضع منه سواء.

بكت يوليان فجأة وقالت:

- جدّي الإله.. أنا.. لم أكن إنسانة طيبة. ما توجَّب عليَّ جعلك محور كل تذمُّري الذي كتمته طوال عمري. تشيوشنج كان محقًا: تصرَّفتُ كأنني بلا ضمير.

ودفعت إلى يديه سلَّة خيزران.

- سَلَقتُ هذا الصباح بعض البيض. خُذه معك في رحلتك.

أخذ الإله السلَّة.

- شكرًا.

ثم أخرج بيضة، قشَّرها وبدأ يأكلها بتأنٍّ. سرعان ما تناثرت رقائق الصفار على لحيته البيضاء. تابع حديثه وهو يمضغ:

- في الحقيقة، لم نأتِ إلى الأرض من أجل البقاء فحسب. عشنا

بالفعل ألفين أو ثلاثة آلاف عام، ولم نعد نخشى الموت. أردنا فقط أن نكون بينكم. أحببنا فيكم شغفكم بالحياة، وخيالكم، وإبداعكم. هذه أشياء اندثرت من حضارة الآلهة منذ زمن بعيد. رأينا فيكم طفولة حضارتنا. لكننا لم ندرك أننا سنُسبِّب لكم هذا الكم من المتاعب. نحن آسفون حقًا.

قال بينج بينج، وهو يبكي:

- ابقَ معنا يا جَدّ. سأكون أفضل في المستقبل.

هزَّ الإله رأسه ببطء:

- لم نغادر بسبب طريقة معاملتكم. يكفينا أنكم استقبلتمونا وأعطيتُمونا مكانًا. لكن ثمة أمر واحد جعلنا غير قادرين على البقاء: في أعينكم، الآلهة مثيرة للشفقة. أنتم تشفقون علينا.. نعم، تشفقون.

رمى قشور البيض. رفع رأسه ولحيته البيضاء بالكامل، وحدَّق في السماء، كأنه يرى عبر زُرقتها بحر النجوم الساطعة.

- كيف يمكن للبشر الإشفاق على حضارة الآلهة؟ ليست لديكم فكرة عن عظم حضارتنا، ولا تدرون كم من الملاحم المجيدة صنعت، ولا كم من الأعمال العظيمة أنجزت..

في عام 1857 من عصر درب التبانة، اكتشف الفلكيون تسارع عدد هائل من النجوم نحو مركز المجرة، وبمجرد التهام الثقب الأسود الشاسع الموجود هناك هذا الطوفان من النجوم، ستقضي الإشعاعات الناتجة على كافة أشكال الحياة في المجرة.

حينها، بنى أسلافنا العظام درعًا سديميًا حول مركز المجرة، بقطر عشرة آلاف سنة ضوئية، كي تستمر الحياة والحضارة. يا له

من مشروع هندسي مهيب! استغرق بناؤه أكثر من 1400 عام.

وبعده مباشرة اتَّحدت مجرتا أندروميدا وسحابة ماجلان الكبرى[1] لغزو مجرتنا. فاندفعت أساطيل الآلهة العابرة للنجوم، قاطعة مئات آلاف السنوات الضوئية، لاعتراض الغزاة عند نقطة التوازن الجاذبي بين أندروميدا ودرب التبانة. ولَمَّا بلغت المعركة ذروتها، اختلطت سفن الجانبين، مكوِّنة سديمًا حلزونيًا بحجم النظام الشمسي.

وفي المرحلة الأخيرة من المعركة، اتَّخذت حضارة الآلهة قرارًا جريئًا: إرسال كل سفنها الحربية، وحتى المدنية، إلى داخل ذلك السديم. فتزايدت الكتلة إلى حدٍّ تجاوزت فيه الجاذبية[2] قوة الطرد المركزي، فانهار السديم، وتكوَّن نجم![3] ولأن نسبة العناصر الثقيلة فيه كانت هائلة، تحوَّل النجم إلى مُستعر أعظم وأضاء الظلام العميق بين أندروميدا ودرب التبانة! وبتلك التضحية، دمَّر أسلافنا الغزاة، وتركوا مجرتنا مأوى للحياة تتطور فيه بسلام.

نعم، حضارتنا اليوم شاخت. لكن هذا ليس ذنبنا. مهما بلغ السعي، لا بد لكل حضارة أن تشيخ يومًا ما. حتى أنتم.. حقًا، لا نحتاج شفقة منكم.

---

(1) سحابة ماجلان الكبرى: مجرة قزمة غير منتظمة الشكل (أي ليس لها شكل حلزوني أو بيضاوي واضح مثل درب التبانة). تابعة لمجرتنا درب التبانة، وهي واحدة مِن أقرب المجرات إلينا. تقع على بُعد حوالي 160 ألف سنة ضوئية

(2) قوة الجاذبية تتناسب طرديًا مع الكتلة.

(3) العملية هي محاكاة مكبرة لما يحدث في الفضاء عندما تنهار سحابة ضخمة من الغاز والغبار تحت جاذبيتها الذاتية لتُشكل نجمًا. الآلهة هنا استخدموا سفنهم (التي تحتوي على كتلة كبيرة) لتسريع هذه العملية بشكل مصطنع وخلق نجم.

قال تشيوشنج، مبهورًا:

- بالمقارنة بكم، نحن البشر لا شيء.

ردَّ الإله:

- لا تتحدث هكذا. حضارتكم لا تزال طفلة. نرجو نضوجها سريعًا، لتَرِث وتُكمِل مجد خالقيها.

ثم ألقى عصاه. ووضع يديه على كتفي بينج بينج وتشيوشنج:

- لديَّ كلمات أخيرة لكم.

قال تشيوشنج:

- ربما لن نفهم كل ما ستقوله، لكننا سنُنصت.. أرجوك تكلم.

بسط الإله ذراعيه نحو السماء، ورداؤه الأبيض يرفرف في رياح الخريف كأشرعة، وقال:

- أولًا، عليكم مغادرة هذا الكوكب!

سأل والد تشيوشنج بدهشة:

- وإلى أين نذهب؟

- ابدأوا بالكواكب الأخرى في النظام الشمسي، ثم إلى النجوم الأخرى. لا تسألوا عن السبب. فقط اجعلوا هدفكم الطيران بعيدًا، بقدر ما تستطيعون. في طريقكم، ستنفقون أموالًا طائلة، وسيموت كثيرون، لكن عليكم الرحيل. أي حضارة تبقى في كوكب مولدها إنما تنتحر. عليكم التوغُّل في الكون، والبحث عن عوالم جديدة، وبيوت جديدة، انثروا نسلَكم في المجرة كقطرات المطر في الربيع.

قال تشيوشنج، وهو يهزُّ رأسه:

- سنتذكَّر..

مع أنه لم يفهم، ولم تفهم أسرته، ما عناه الإله بالضبط.

قال الإله، متنهدًا بارتياح:

- جيد. والآن سأبوح لكم بسرٍّ عظيم.

نظر إلى كل أفراد الأسرة بعينيه الزرقاوين. نظرة كريح باردة هبَّت على قلوبهم وجعلتها ترتجف.

- لكم إخوة.

نظرت الأسرة إليه متحيِّرة تمامًا. لكن تشيوشنج فهم ما يقصد.

- تعني أنك خلقتَ أراضي أخرى؟

هزَّ الإله رأسه ببطء.

- نعم، أراضٍ أخرى، حضارات بشرية أخرى. غيركم، هناك ثلاث حضارات بشرية أخرى. جميعها قريبة منكم، في حدود مائتي سنة ضوئية. أنتم الأرض الرابعة، الأصغر سنًّا.

سأله بينج بينج:

- وهل زُرْتَ تلك الأراضي؟

أومأ الإله:

- قبل القدوم إليكم ذهبنا إلى تلك الأراضِي أولًا وطلبنا اللجوء. الأرض الأولى كانت الأفضل. أخذت موادنا العلمية، ثم طردتنا ببساطة.

الأرض الثانية احتجزت مليونًا منَّا رهائن، وطالبت بفدية سفن فضائية. وبعدما سلَّمناهم ألف سفينة، أدركوا أنهم لا يعرفون تشغيلها. أجبروا الرهائن على تعليمهم، لكن الرهائن لا يعرفون أيضًا، فالسفن ذاتية القيادة، فقتلوهم جميعًا.

أما الأرض الثالثة فاحتجزت ثلاثة ملايين، وطالبت بأن نصدم

الأرضين الأولى والثانية بعدة سفن، إذ كانت في حرب طويلة معهما. وبالطبع، نعلم أن ضربة واحدة بسفينة تعمل بالضدّ مادة تكفي لإفناء كوكب كامل. رفضنا، فقتلتهم جميعًا.

صرخ والد تشيوشنج:

- أبناء عاقون! عليكم معاقبتهم!

هزَّ الإله رأسه:

- لن نهاجم حضارات خلقناها أبدًا. أنتم الأفضل من بين الأشقاء الأربعة، ولهذا نُحدِّثكم بالتفاصيل. إخوتكم الثلاثة شغوفون بالغزو. لا يعرفون الحب، ولا الأخلاق. قسوتهم ودمويتهم لا يمكنكم تخيُّلها.

في البداية، أنشأنا ست أراضٍ. اثنتان منها كانتا في نفس النظام الشمسي مع الأرضين الأولى والثالثة، وقد دُمِّرتا على يد إخوتها. إن لم يُدمِّر الثلاث بعضهم بعد، فذلك بسبب المسافات الشاسعة بين أنظمتهم الشمسية فحسب.

لكنهم الآن يعلمون بوجود الأرض الرابعة، ويملكون إحداثياتها الدقيقة. لذا، عليكم المبادرة بتدميرهم قبل أن يدمِّروكم.

قالت يوليان، مرتجفة:

- هذا مرعب جدًا!

أجاب الإله:

- وقت الرعب لم يأتِ بعد. إخوتكم الثلاثة أكثر تقدمًا منكم، لكنهم لا يزالون غير قادرين على تجاوز عُشر سرعة الضوء، ولا

يمكنهم الطيران لأبعد من ثلاثين سنة ضوئية من أوطانهم. هو سباق حياة أو موت. من منكم سيصل أولًا إلى السفر القريب من سرعة الضوء؟ هذا هو السبيل الوحيد لاختراق سجن الزمان والمكان. من يبلغ هذه التقنية أولًا سينجو، ومن يتأخر سيفنى. هذا هو صراع البقاء في الكون. أيها الأطفال، لم يبقَ لديكم وقت. اجتهدوا!

سأل والد تشيوشنج مرتعدًا:

- هل يعرف أعلم وأقوى من في عالمنا هذا الكلام؟

أجاب الإله:

- نعم. لكن لا تعتمدوا عليهم. بقاء الحضارة يعتمد على كل فرد. حتى البسطاء مثلكم لهم دور.

قال تشيوشنج لابنه:

- هل سمعتَ يا بينج بينج؟ عليك الدراسة بجد.

قال الإله:

- حين تسافرون بسرعة تقارب سرعة الضوء لتواجهوا تهديد إخوتكم عليكم كذلك تأدية مهمة عاجلة أخرى: ابحثوا عن كواكب صالحة للحياة، وازرعوا فيها حياة بدائية من هنا، مثل البكتيريا والطحالب، لتتطوَّر فيما بعد.

أراد تشيوشنج طرح المزيد من الأسئلة، لكن الإله التقط عصاه وبدأ السير نحو الحافلة، وباقي الآلهة على متنها بالفعل.

توقَّف الإله متذكرًا:

- آه، تشيوشنج.. أخذتُ معي بعض كتبك. أرجو ألا تمانع.

فتح حقيبته وأراه:

- بعض كتبك المدرسية في الرياضيات والفيزياء والكيمياء من المرحلة الثانوية.

قال تشيوشنج:

- لا بأس، خذها. لكن لماذا؟

ربط الإله الحقيبة وقال:

- لأدرس. سأبدأ بالمعادلات التربيعية. أمامي سنوات طويلة، ولا بد من وسيلة لأقضي بها وقتي. من يدري؟ ربما يومًا ما أُصلِح محرّكات سفننا المضادة للمادة، وأجعلها تطير مجددًا بسرعة قريبة من الضوء!

قال تشيوشنج بحماس:

- صحيح! حينها، ستقفز عبر الزمن، وتجد كوكبًا آخر، وتبني حضارة جديدة لتعينكم في شيخوختكم!

هزَّ الإله رأسه:

- لا، لا، لم نعد نرغب في دعم لشيخوختنا. إن حان الموت، فليكن. أريد الدراسة لأن لديَّ أمنية أخيرة.

أخرج التلفاز الصغير من جيبه. على الشاشة، ما زالت حبيبته منذ ألفي عام تنطق الكلمة الأخيرة من جملتها ذات الثلاث كلمات.

قال:

- أريد رؤيتها مجددًا.

قال والد تشيوشنج:

- أمنية جميلة، لكنها مجرد خيال. رحلت قبل ألفي عام بسرعة الضوء. من يدري أين صارت؟ حتى إن أصلحت سفينتك، كيف تلحق بها؟ أخبرتنا ألا شيء يفوق سرعة الضوء.

أشار الإله إلى السماء بعصاه:

- في هذا الكون، ما دمت صبورًا، يمكن لأي أمنية التحقق. حتى لو ضئيلة الاحتمال، تظل قائمة.

قلتُ لكم إن الكون وُلد من انفجار عظيم. والآن تباطأ تمدُّده بفعل الجاذبية، وسيتوقف يومًا، ثم يبدأ في الانكماش. وإن استطعنا السفر بسرعة تقارب سرعة الضوء، فسوف نستمر في التسارع، ونقارب تلك السرعة أكثر فأكثر، حتى نتجاوز الزمن بأسره ونصل إلى نهاية الكون.

حينها، سينكمش الكون حتى يصير نقطة، أصغر من كرة بينج بينج. وسيتجمَّع فيه كل شيء. أنا وهي سنجتمع أيضًا هناك.

ذرف الإله دمعة لامعة سقطت على لحيته، وأضاءت تحت شمس الصباح.

قال:

- يضحى الكون القبر الأخير في عشاق الفراشة[1]. ونصير الفراشتين الخارجتين من الضريح.

(1) أوبرا صينية شهيرة سبق ذكرها، يشير هنا لقصتها التي تدور حول شاب وفتاة يقعان في الحب، لكن عائلتيهما تمنعان زواجهما. يموت الشاب حزنًا، وتُدفن الفتاة في قبره. في نهاية القصة، ينفتح القبر ويخرج منها زوجان من الفراشات، ترمزان إلى روحيهما المتحررتين والمجتمعتين أخيرًا في الحياة الأخرى.

الفصل الثامن

بعد أسبوع غادرت آخر مركبة فضاء الأرض. غادر الإله، وعادت قرية شي تسن إلى هدوئها المعتاد. في تلك الأمسية جلست عائلة تشيوشنج في الفناء تتأمل السماء المليئة بالنجوم.

في منتصف الخريف توقفت أصوات الحشرات في الحقول، ونسيم خفيف حرَّك الأوراق المتساقطة عند أقدامهم، والهواء بارد قليلًا.

همست يوليان لنفسها:

- إنهم يطيرون عاليًا جدًا.. لا بدَّ أن الرياح هناك عاتية، والبرد قارس.

قال تشيوشنج:

- لا رياح هناك. هم في الفضاء حيث لا وجود للهواء حتى، لكنه بالفعل بارد جدًا. بارد إلى درجة يسمُّونها في الكتب «الصفر المطلق». حالك الظلمة بأفق لا نهائي. مكان لا يمكنك رؤيته حتى في أسوأ كوابيسك.

بدأت يوليان تبكي مجددًا، لكنها حاولت إخفاء بكائها بالكلام. قالت:

- هل تذكر آخر شيئين قالهما الإله لنا؟ أنا فهمت الجزء المتعلق بإخوتنا الثلاثة. لكن حين قال إن علينا نشر البكتيريا على

كواكب أخرى وما إلى ذلك... لم أفهم المقصود.

قال والد تشيوشنج:

- أنا فهمته.

تحت سماء متلألئة بالنجوم، انفتح رأسه -الممتلئ بحماقات عمرٍ بأكمله- على بصيرة مفاجئة. نظر إلى النجوم في الأعلى. عاشَ عمره كله تحتها، ولم يكتشف شكلها الحقيقي إلا اليوم. إحساس جديد اجتاحه، وكأنَّ شيئًا أعظم قد مسَّه. ليس جزءًا منه، لكن هزَّه من الأعماق. تنهَّد وهو يحدِّق في بحر النجوم، وقال:

- على الجنس البشري أن يبدأ بالتفكير: من سيعتني بنا حين نهرم؟

مع عينيها

مقدمة

عملٌ متواصل لشهرين تركني منهكًا، طلبت من مديري إجازة يومين لرحلة قصيرة أصفّي بها ذهني. وافق، لكن بشرط أن آخذ زوجين من العيون معي. قبلت، ورافقني إلى مركز التحكم لتسلمهما.

تُحفظ العيون في غرفة صغيرة في نهاية ممر طويل. عددتُ ما يقارب اثني عشر زوجًا. أشار المدير إلى الشاشة الكبيرة أمامنا وهو يناولني زوجين ليعرّفني بصاحبتهما: شابة تبدو كأنها تخرَّجت من الجامعة حديثًا، تُحدِّق بي بنظرة خاوية.

بدت أصغر حجمًا في بدلتها الفضائية المنتفخة مما هي عليه فعلًا، وبائسة لأكون صادقًا. لا بد أنها حلمت في دفء مكتبة جامعتها برومانسية الفضاء، ثم صدمها جحيم الفراغ اللامتناهي.

قالت بصوت خفيض وهي تنحني اعتذارًا:

- آسفة حقًا على الإزعاج.

لم أسمع صوتًا بمثل هذه الرقة في حياتي من قبل. تهادت كلماتها الناعمة من الفضاء كنسيم رقيق يُحيل الهياكل المدارية الفولاذية الخشنة إلى حرير.

قلت بإخلاص:

- لا عليكِ. أنا سعيد بالرفقة. إلى أين تريدين الذهاب؟

سُرَّت بسؤالي وقالت:

- حقًا؟ لم تحدِّد وجهتك بعد؟

وهي تتحدث لاحظت أمرين غريبين. أولًا، أي إشارة مُرسلة من الفضاء لا بد أن تصل وجهتها متأخرة قليلًا، ثانيتين على الأقل لو كانت من القمر، ومن حزام الكويكبات أطول بكثير. لكنَّ ردودها جاءت دون تأخير يُذكر، ما يعني أنها في مدار أرضي منخفض (LEO) ولا حاجة لرحلة انتقالية وسيطة، مما يجعل العودة إلى الأرض سهلة ورخيصة نسبيًا، فلماذا تريد حمل عينيها في إجازة؟

خصَّت الملاحظة الثانية بدلتها الفضائية، وبحكم عملي كمهندس فلكي مختص في المعدات الشخصية بدت بدلتها غريبة من ناحيتين: تفتقر لأي نظام حماية من الإشعاع، وخوذتها المتدلية بجانبها دون درع واقٍ من الوهج. لكن في المقابل بدا عزلها الحراري ونظام التبريد فيها متقدمين على نحو لا يُصدَّق.

نظرت إلى المدير وسألته:

- من أي محطة تتواصل؟

أجاب بوجه متجهِّم:

- لا تسأل.

ردَّت الشابة من الشاشة بتضرُّع يمس القلب:

- دعك من ذلك أرجوك.

فمازحتها:

- هل أنتِ محتجزة؟

عرضت الشاشة غرفة ضيقة للغاية، بدت كأنها قمرة قيادة

ممتلئة بأنظمة ملاحة معقَّدة تومض وتنبض حولها، لكن بلا نوافذ ولا حتى شاشة مراقبة خارجية. دوران القلم الرصاص قرب رأسها هو الدليل الوحيد على أنها في الفضاء فعلًا.

تصلَّب كل من المدير والفتاة على أثر كلماتي. تابعت على عجل:

- حسنًا، لن أسأل عن أمور لا تعنيني. أين سنذهب إذن؟ القرار لك.

تردَّدت طويلًا كأنما تخوض صراعًا حقيقيًا، عاقدةً يديها المغلفتين بالقفاز أمام صدرها، ثم أغمضت عينيها كأنها تتّخذ قرارًا مصيريًا، وكأنَّ العالم سينفجر بعد نزهتنا القصيرة. ضحكتُ لا إراديًا.

قالت:

- الأمر ليس سهلًا بالنسبة لي. هل قرأت كتاب هيلين كيلر «ثلاثة أيام لأرى»[1]؟ إن كنت قد قرأته، ستفهم ما أعنيه!

قلت:

- لكن ليس لدينا ثلاثة أيام، يومان فحسب. عندما يتعلَّق الأمر بالوقت فأُناس العصر الحديث في فقر مدقع، لكن على الأقل نحن أوفر حظًا من هيلين كيلر، خلال ثلاث ساعات يمكنني

(1) مقال «ثلاثة أيام لأرى» لهيلين كيلر نُشر لأول مرة في مجلة Reader's Digest في عام 1933. ضُمِّن في العديد من المجموعات والكتب، وأصبح مقالًا كلاسيكيًا يُعاد نشره باستمرار حول العالم. دعوة قوية لتقدير حاسة البصر والاستفادة منها بشكل كامل. يأخذ كثير من الناس حواسهم كأمر مسلَّم به، بينما ثمة من يحلم ولو بلحظة واحدة من القدرة على الرؤية.

حمل عينيكِ لأي مكان على سطح الأرض.
قالت:
- إذن خذني إلى آخر مكان زُرته قبل مغادرتي.
قالت لي الاسم، فانطلقت وعيناها في يدي.

الفصل الأول

المرج

التقت الجبال الشاهقة مع السهول والمروج والغابات عند هذه النقطة بالذات. على بُعد أكثر من ألفي كيلومتر من مركز الفضاء حيث أعمل؛ استغرقت الرحلة خمس عشرة دقيقة بالطائرة الأيونوسفير[1] فقط.

أمامي صحراء تاكلاماكان[2]، بعدما حوّلتها أجيال من العمل الشاق إلى مرجٍ أخضر، وبعد عقود من الضبط السكاني الصارم عادت مرّة أخرى خاوية من البشر.

أمامي امتدَّ المرج حتى الأفق، ومن خلفي كست غابات خضراء داكنة جبال تيان شان المتلألئة قممها بالثلوج الفضية.. أخرجتُ عينيها وارتديتهما.

هاتان «العينان» ليستا في الحقيقة سوى نظّارتين متعددتي الحواس[3]. عند ارتدائهما تُرسل كلُّ صورة يراها لابسهما عبر

(1) مفهوم يقع حاليًا في نطاق الخيال العلمي أو الأبحاث المتقدمة جدًا: طائرة متقدمة للغاية قادرة على الطيران في طبقة الأيونوسفير من الغلاف الجوي للأرض.

(2) تاكلاماكان: واحدة من أكبر الصحاري الرملية في العالم، تقع في شمال غرب الصين، تحديدًا في حوض تاريم بمنطقة شينجيانج (Xinjiang) ذاتية الحكم.

(3) مفهوم يذهب أبعد من مجرد الرؤية، ويهدف إلى محاكاة أو نقل تجارب حسية متعددة (مثل اللمس والشم والصوت) بالإضافة إلى الرؤية.

إشارات لاسلكية ذات تردد فائق UHF، يُمكِّن شخصًا آخر، يرتدي نظَّارةً مطابقة، من تلقِّي هذه الإشارات ومشاهدة كل ما تراه عينا الشخص الأول، كأنه يضع عينَي المتلقي.

يعمل الملايين على مدار العام على سطح القمر وفي حزام الكويكبات. وكلفة قضاء عطلة على الأرض فلكية -عفوًا على التورية- ولهذا صمَّمت إدارة الفضاء، ببخلها المعهود، هذه الأداة الصغيرة. لكل رائد فضاء يعيش في المدار نظَّارة على سطح الأرض مطابقة لنظارته، يرتديها الموجودون على الأرض محظوظين بما يكفي لنيل عطلةً حقيقية، ليُتيحوا لزملائهم المتلهِّفين في الفضاء مشاركة متعة الرحلة.

في البداية سخر الناس من هذه الأجهزة، لكنَّ من ارتداها من المسافرين نال دعمًا ماليًا سخيًا، فتزايد إقبال الناس عليها. وبفضل أحدث ما توصَّلت إليه التقنية باتت الموديلات الحالية تنقل حتى الإحساس باللمس والشمّ عبر تحليل إشارات الدماغ. صار اصطحاب زوجين من العيون معك في عطلة يُعد خدمةً عامَّة للعاملين الأرضيين في قطاع الفضاء. لم يكن الجميع على استعداد لأخذ زوجين إضافيين من العيون معهم في إجازة، ورفض بعضهم ذلك بدافع الحفاظ على خصوصيته، أمّا أنا فلم أجد فيها أي مشكلة.

تنهَّدت بعمق وأنا أُطلُّ على المشهد أمامي. لكن، من خلال عينيها، جاءني صوت بكاءٍ خافت:

- منذ زيارتي الأخيرة وأنا أحلم بهذا المكان. وها أنا أعود إليه في الحلم.

استطرد صوت رقيق يطفو عبر عينيها:

- أشعر كأنني أخرج من أعماق المحيط، أحصل على أول نفَسٍ من الهواء. لا أحتمل البقاء محبوسة.

سمعت أنفاسها الطويلة العميقة.

قلتُ:

- لكنكِ لستِ محبوسة. مقارنةً بفراغ الفضاء من حولك يبدو هذا المرج خزانة صغيرة.

صمتت، حتى أنفاسها انقطعت.

واصلت الكلام لأكسر الصمت:

- الناس في الفضاء ما زالوا محاصرين. كما وصف تشاك ييجر[1] روّاد مركبة ميركوري[2] ذات مرة..

قالت مقاطعة:

- «لحم في علبة سبام»[3].

أنهت الفكرة التي بدأتها، فضحكنا معًا. ثم صاحت فجأةً بدهشة:

---

(1) تشاك ييجر: طيار اختباري أسطوري في القوات الجوية الأمريكية. اشتهر بكونه أول طيار يؤكد كسر حاجز الصوت في رحلة أفقية عام 1947 على متن طائرة Bell X-1. يُعتبر من أمهر الطيارين في عصره.

(2) برنامج ميركوري: أول برنامج لرحلات الفضاء المأهولة تابع لوكالة ناسا في الولايات المتحدة.

(3) في معرض تعليقه كطيار محترف يعتمد على مهاراته في قيادة الطائرة والتحكم فيها بشكل كامل. مقابل، كبسولات ميركوري المصمَّمة في بداياتها لتكون آلية إلى حد كبير، يقتصر دور رائد الفضاء فيها على ما هو أقرب إلى الراكب أو المسافر الذي يجري إطلاقه إلى الفضاء ثم إعادته. وصف الكبسولة كعلبة سبام (لحم خنزير معلب أمريكي شهير).

- أوه! زهور! أرى زهورًا! لم تكن هنا في المرة السابقة!

يكسو المرج بالفعل زهور صغيرة لا تُحصى. قالت:

- هل يمكنك النظر إلى الزهرة التي بجانبك؟

انحنيت ونظرت للأسفل.

- آه، كم هي جميلة! هل يمكنك شمُّها؟ لا.. لا تقطفها!

لم يكن لديَّ خيار سوى الاستواء شبه مُستلقٍ على بطني لاستنشاق عبيرها الخفيف.

- آه، أشمُّها أنا أيضًا! كأنها تعزف لنا سوناتا رقيقة.

هززت رأسي ضاحكًا. في هذا العصر، من الصيحات المتبذِّلة والمطاردات المجنونة، معظم الفتيات قلقات ومندفعات. أمَّا برقَّة كتلك، مَن كادت تبكي عند رؤية زهرة، فكنَّ نادرات.

قالت:

- دعنا نُعطِ اسمًا لهذه الزهرة الصغيرة. همم.. لنسمِّها «حالمة». وماذا عن تلك؟ ماذا نسميها؟ همم.. «قطرة مطر» يبدو جيدًا. الآن انتقل إلى تلك هناك.. شكرًا. بتلاتها زرقاء فاتحة، لا بد أنَّ اسمها سيكون «شعاع القمر».

وعلى هذا النحو انتقلنا من زهرة إلى زهرة، نراها، نشمُّها، ونمنحها اسمًا. مأخوذة تمامًا، مسحورة، لا تكفُّ، ونسيت كل شيء آخر. أما أنا فسئمت هذا اللعب السخيف حتى الموت. لكن بحلول وقت إصراري على التوقف كنا قد أطلقنا أسماءً على أكثر من مائة زهرة.

رفعت بصري فوجدت أننا قد ابتعدنا كثيرًا. عدت لألتقط حقيبتي، وعندما انحنيت سمعت صرخةً في أذني:

- لا! سحقتَ ندفة الثلج!

رفعتُ الزهرة البرية الصغيرة الشاحبة بحذر. بدا المشهد كله عبثيًا فجأة. غطيت زهرة بكلتا يدي، وسألتها:

- ما اسمها؟ وكيف شكلها؟

قالت:

- تلك على اليسار تُدعى «كريستالة». هي بيضاء أيضًا، ولها ثلاث أوراق على الساق، والتي على اليمين «لهب»، لونها وردي ولها أربع أوراق. الورقتان العلويتان منفصلتان، والسفليتان متصلتان.

أجابت بدقة، وشعرتُ بشيء داخلي يتحرك.

قالت:

- أرأيت؟ نعرف بعضنا الآن.. سأفكّر فيهن مرارًا في الأيام الطويلة المقبلة. كأنني أعيد حكاية خرافية جميلة. عالمك هذا رائع!

- عالمي؟ إنه عالمك أيضًا! وإذا واصلتِ التصرُّف كطفلة مدللة فسيضمن أطباء النفس الفضائيون المتزمّتون إبقاءكِ في هذا العالم للأبد!

سرتُ دون هدف عبر المرج، وسرعان ما عثرتُ على جدول صغير مخفيٍّ وسط الحشائش. أردت عبوره، لكنها نادتني:

- أرغب بشدة في مدِّ يدي إلى هذا الجدول.

انحنيت وغمرتُ يديَّ في الماء. اجتاحني شعور منعش، وكنت أعلم أنها تشعر به كذلك عبر موجات التردد العالي. تنهَّدت مجددًا.

سألتني:

- هل الجوُّ حار عندك؟

كنت أفكر في مقصورتها الضيقة وبدلتها الفضائية ذات العزل الحراري المفرط.

قالت: «حار»، كررت: «حار كالجحيم». ثم تغيرت نبرة صوتها: «ما هذا؟ نسيم بري؟». كنت قد أخرجت يديَّ من الماء، والنسيم الناعس لامس جلدي المبلل. قالت: «لا، لا تتحرك. هذا نسيم من الجنة!».

رفعت يديَّ في الهواء وتركتهما حتى جفَّتا. ثم، بناءً على طلبها، غمرتهما من جديد ورفعتهما للنسيم. مرةً أخرى شعرتُ بمسٍّ إلهي، مرَّة أخرى تشاركنا الشعور معًا. قضينا وقتًا طويلًا هكذا، في صمت.

ثم واصلت السير بصمت، سمعتُ همسها:

- عالمك هذا ساحر حقًا.

قلت:

- لا أدري حقًا.. رمادية حياتي أخمدت كل شيء.

قالت:

- كيف تقول ذلك؟ هذا العالم يفيض بالمشاعر والتجارب! حاول وصفها لتجد نفسك كمن يعُد قطرات المطر في عاصفة. انظر إلى تلك الغيوم في الأفق بلونها الأبيض الفضِّي. تبدو من مكاني صلبة كجبال من اليشم المضيء، بينما يبدو المرج تحتها رقيقًا كما لو أنَّ كل العشب قرر الطيران بعيدًا عن الأرض ليستحيل بحرًا من السحاب الأخضر. انظر! انظر إلى

الغيوم تمر أمام الشمس! شاهد كيف ترقص الأضواء والظلال بشكل مهيب فوق العشب! صدقًا.. لا تشعر بأي شيء؟!

مرتديًا عينيها جُبتُ المرج طَوال اليوم. توقٌ في صوتها وهي تتأمل كل زهرة، وكل عُشبة، وكل شعاع شمسٍ يتراقص فوق المروج، وهي تُصغي إلى كل أصوات السهل المتباينة.

تذوب في نوبات من الإثارة عند ظهور جدول مفاجئ، أو رؤية أسماك صغيرة تسبح فيه. نسمة غير متوقعة تحمل عبير العشب الطازج كفيلة بجعلها تبكي.. غامرة مشاعرها تجاه هذا العالم حتى أنني تساءلت هل بعقلها شيء من الخلل.

قبل الغروب وصلتُ إلى كوخ أبيض وحيد ينتصب مهجورًا وسط السهول مُعد كنُزلٍ للمسافرين، لكن -وعلى ما يبدو- كنتُ أول نزيلٍ يحلُّ به منذ وقت طويل.

لم يكن في الكوخ سواي غير آليٍّ معطوب عفا عليه الزمن يعتني بالمكان كله. جائع بقدر ما كنت مرهقًا، ولم أكد أفرغ من عشائي، حتى طلبتْ مني رفيقتي الخروج فورًا لنُشاهد الغروب.

قالت بانبهار:

- مشاهدة سماء المساء بينما يخفت توهجها بالتدريج فيما يكتنف الليل الغابة.. كأنك تصغي إلى أعذب سيمفونية في الكون.

يفيض صوتها نشوة، وأنا أجرُّ قدميَّ المثقلتين إلى الخارج وألعن حظي في صمت.

***

في طريق عودتنا إلى الكوخ، بعدما حلَّ الليل وتلألأت نجوم السماءَ، قلتُ لها:

- تُقدِّرين حقًا هذه الأشياء العادية.

فسألتني:

- ولِمَ لا تُقدِّرها أنت؟ أليس هذا ما يعنيه أن تكون على قيد الحياة حقًا.

أجبتُها:

- لا أستشعر الرضا في أي من تلك الأشياء، ولا أغلب الناس يفعلون. صار كل شيء سهل المنال. ولا أقصد المادية منها فقط. حتى السماء الزرقاء والمياه الصافية تستطيعين إحاطة نفسك بهما ببساطة. ولو أردتِ هدوءَ الريف أو عزلة جزيرة نائية فالأمر لا يحتاج سوى نقرة أصبع.

حتى الحب.. فكِّري كم عانت الاجيال السابقة لنيله، وكيف طاردوه بجنون، واليوم يمكنهم عيشه عبر الواقع الافتراضي، ولو للحظات في كل مرة.

لم يَعُد الناس يُقدِّرون شيئًا. يرون طبقًا من الفاكهة على بُعد ذراع، فيتذوَّقون قضمة من كل ثمرة، ويرمون الباقي.

قالت بهدوء:

- لكنَّ تلك الفاكهة ليست في متناول الجميع.

شعرتُ أنَّ كلامي آلمها، ولم أفهم السبب. أمضينا بقية طريق العودة في صمت.

رأيتُها في منامي تلك الليلة. داخل بزَّتها الفضائية، حبيسة قُمرة القيادة الصغيرة. تملأ عينيها الدموع، تمدُّ يدها إليَّ وتنادي: «أخرجني من هنا! لا أريد البقاء محبوسة!».

استيقظتُ فزعًا لأجدها تناديني بالفعل. أحدِّق في السقف، وما زلت أرتدي عينيها.

- أرجوك، خذني إلى الخارج. هيا نُشاهد القمر. لا بدَّ أنه ظهر الآن!

مثقلٌ رأسي كأنَّ به رملًا، لكنني نهضتُ متثاقلًا. وحين خرجت وجدت القمر قد ارتفع فعلًا، يغمره ضباب الليل بمسحة حمراء. تغط البراري الفسيحة في سُبات. وتوهجات صغيرة بحجم رأس الدبوس من عدد لا يُحصى من اليراعات تطفو عبر محيط ضبابي من العشب، كأنَّ أحلام صحراء تاكلاماكان نفسها تنساب إلى الواقع.

تمطَّيتُ وحدَّثتُ سماء الليل:

- مرحبًا، هل ترين من موقعك في المدار أين يسطع القمر؟ ما هو موضع سفينتك الآن؟ أخبريني، قد أستطيع حتى رؤيتك. أنا متأكد أنَّ سفينتك في المدار الأرضي المنخفض.

بديلًا عن الإجابة دندنت لحنًا، ثم توقَّفت بعد عدة مقاطع وقالت:

- ضوء القمر لديبوسي[1].

ثم تابعت الدندنة كأنها نسيت أنني ما زلت أُصغي إليها، أو كأنني لم أعد موجودًا أصلًا. ومن المدار انسكب اللحن وضوء القمر على السهول في انسجام. تخيَّلتُ تلك الفتاة الرقيقة في الفضاء: القمر الفضِّي فوقها، والأرض الزرقاء تحتها. تُحلِّق بين الاثنين، أصغر من رأس دبوس، تذوب أغنيتها في نور القمر.

---

(1) ضوء القمر: (Clair de Lune1905) هي واحدة من أشهر وأجمل المقطوعات الموسيقية للمؤلف الموسيقي الانطباعي الفرنسي كلود ديبوسي (Claude Debussy).

عندما عدتُ إلى الفراش بعد ساعة كانت لا تزال ترنم. ليست لديَّ فكرة إن كان ما تُغنيه ما زال لديبوسي، لكن لا يهم. انساب اللحن الرقيق في أحلامي.

بعد فترة -لا أدري كم مضى- تحوَّلت ترنيمتها إلى صياح. صراخها أيقظني من نومي. أرادت الخروج مجددًا.

قلتُ غاضبًا:

- ألَم تكوني تنظرين إلى القمر توًا؟

- لكنه تغيَّر الآن! تذكُر الغيوم في الغرب؟ ربما وصلت فوقنا الآن. سينجرف القمر إليها، يظهر ويختفي بينها. أريد رؤية الضوء والظل وهما يرقصان فوق المروج! لا بدَّ أنَّ المنظر رائع.. إنه نوع آخر من الموسيقى. أرجوك خذ عينيَّ إلى الخارج!

ينبض رأسي غضبًا، لكنني خرجت. تنزاح الغيوم، ويسطع القمر في إثرها. يتسرَّب ضوؤه كالهلام فوق العشب كأنَّ الأرض تتأمل في ذكريات قديمة، وعميقة.

قلتُ لها وأنا أحدِّق في السماء:

- أنتِ مثل شاعر رومانسي من القرن الثامن عشر. لا تصلحين لهذا العصر أبدًا، ولا كرائدة فضاء كذلك.

ثم خلعتُ عينيها وعلَّقتهما على غصن شجرة أَثل قريبة.

- لو أردتِ رؤية القمر فافعلي ذلك بنفسك. أنا بحاجة إلى النوم. غدًا عليَّ العودة إلى مركز الفضاء ومواصلة حياتي النثرية المملة.

همست تلك النبرة الناعمة من عينيها، لكنني لم أعد أطيق سماع ما قالت. عدتُ إلى الكوخ دون كلمة أخرى.

وجدت النهار عندما استيقظتُ، وغيوم داكنة تغطّي السماء، وتاكلاماكان مغمورة برذاذ خفيف. لا تزال العينان معلّقتان على الغصن، تغطّيهما قطرات الضباب. مسحتهما بلطف وارتديتهما.

ظننتُ أنها، بعدما قضت الليل بأكمله تُشاهد القمر، تغط الآن في نوم عميق. غير أنني سمعتُها تبكي بهدوء. فجرفني شعور بالشفقة. قلت:

- آسف حقًا.. كنتُ مُرهقًا البارحة للغاية.

قالت وهي تنتحب:

- لا.. ليست غلطتك. كست الغيوم السماء في الثالثة والنصف.. وبعد الخامسة بدأ المطر يهطل.

صرختُ تقريبًا:

- ألم تنامي إطلاقًا؟!

قالت بصوت مخنوق:

- بدأت تُمطر ولم.. أستطع رؤية الشمس وهي تشرق. رغبت حقًا في رؤية شروق الشمس فوق السهول.. أكثر من أي شيء آخر.

شيء ما أذاب قلبي. تسلّلت دموعها إلى أفكاري، وتخيّلت أنفها الصغير يرتجف وهي تشهق. شعرتُ فعلًا بعينيَّ تدمعان. عليَّ الاعتراف أنها علّمتني شيئًا خلال الساعات الأربع والعشرين الماضية. على الرغم من أنني لا أستطيع وصفه بدقة، لكنه أشبه بأضواء وظلال تتحرك فوق الأعشاب. صرتُ أرى العالم بعينين مختلفتين.

قلت:

- سيكون هناك دومًا شروق آخر. أعدك أنني سأخرج بعينيك مجددًا لنُشاهده. أو ربما.. نشاهده معًا، وجهًا لوجه. ما رأيك؟

توقفت عن البكاء. ثم همست فجأة:

- أصغِ..

لم أسمع شيئًا، لكنني توترت. قالت بصوت خاشع، كأنها تُصغي لجرس نهاية عصر:

- إنه أول طائر يُغرِّد هذا الصباح.. ما زالت هناك طيور، حتى تحت المطر.

الفصل الثاني

صـن ست 6

تلاشت ذكرياتي عن تلك التجربة بمجرد العودة إلى وجودي الباهت وعملي المُنهك. ولمَّا خطر على بالي غسل ملابس الرحلة -بعدها بفترة- ساعتها فقط وجدت بعض بذور العشب عالقة في أطراف سروالي.

وفي الوقت نفسه بذرة ضئيلة أخرى انزرعت في أعماق عقلي الباطن. بدأت الإنبات في صحراء روحي القاحلة، وإن كانت براعمها الدقيقة بالكاد تُرى.

ربما حدث ذلك دون وعي مني، لكن شعرت في نهاية كل يوم عمل شاق بنسيم المساء الطبيعي يلامس وجهي كأنه قصيدة، وغناء الطيور قادرًا على اجتذاب انتباهي، بل وأقف على الجسر العلوي عند الغسق أراقب الليل يبتلع المدينة.. ما زال العالم كئيبًا في عينيَّ، لكنَّه الآن منقوش بنقاط من خضرة يانعة، يتزايد عددها يومًا بعد يوم. وما إن بدأت أعي هذا التحول عادت هي إلى ذاكرتي.

بدأت تطفو على سطح أفكاري في لحظات الشرود، وحتى في أحلامي. مرارًا وتكرارًا أرى تلك القمرة الضيقة، وبدلة الفضاء الغريبة العازلة.. ثم تلاشت هذه الصور من وعيي، ولم يتبقَّ سوى شيء واحد يطفو من الفراغ: قلم رصاص يسبح في انعدام الجاذبية

حول رأسها. لا أعرف السبب، لكن كلما أغمضت عيني أراه يطفو أمامي.

ذات يوم، وأنا أسير في بهو مركز الفضاء الفسيح، لفتت نظري جدارية ضخمة مررت بها من قبل مرات لا تُحصى. تمثل الجدارية الأرض كما تُرى من الفضاء: جوهرة عميقة الزرقة. مرَّة أخرى طفا القلم الرصاص في ذهني، لكن هذه المرة بدا كأنه مدمج فوق صورة الجدارية، وسمعت صوتها من جديد: «لا أريد البقاء محبوسة».

كأنَّ ومضة برق نفذت إلى عقلي. الجاذبية ليست منعدمة على الفضاء فحسب!

ركضت إلى الطابق العلوي كالمجنون وقرعت باب المدير بعنف. لم يكن موجودًا. مدفوعًا بشعور يشبه الحدس هرعت إلى الغرفة الصغيرة حيث تُخزَّن العيون. المدير هناك، يُحدِّق في الفتاة على شاشة المراقبة الكبيرة. لا تزال داخل تلك القُمرة المغلقة، لا تزال ترتدي تلك البدلة الفضائية. صورة متجمِّدة؛ مجرد تسجيل على الأرجح.

قال وهو ما زال يُحدِّق في الصورة:

- أظنك جئت من أجلها.

جلجل صوتي في الغرفة الصغيرة:

- أين هي؟

قال:

- ربما حزرت الحقيقة بالفعل. إنها الملاحة على متن صن ست 6.

انهارت قواي وسقطت على السجادة. كل شيء يبدو منطقيًا الآن.

صُمِّم مشروع صن ست لإطلاق عشر مركبات، من صن ست1 إلى صن ست 10، لكن بعد كارثة صن ست 6، توقف المشروع.

بعثة استكشافية مثل عديد من البعثات السابقة، تبعت نفس الإجراءات الأساسية المعتادة لمهام مركز الفضاء، لكن بفرقٍ جوهري واحد: سفن صن ست ليست موجَّهة إلى الفضاء الخارجي، بل إلى أعماق كوكب الأرض.

بعد قرن ونصف من أول رحلة فضاء بدأت البشرية الاستكشاف في الاتجاه المعاكس، وسفن صن ست أول محاولة في هذا المسار.

قبل أربع سنوات شاهدتُ إطلاق صن ست1 على شاشة التلفاز. في وقت متأخر من الليل أضاءت كرة نارية ساطعة قلب منخفض تورفان[1]، لدرجة توهجت معها الغيوم في سماء شينجيانج بألوان الفجر الزاهية. وبمجرد تلاشي تلك النار اختفت صن ست1 تحت الأرض تاركة موقع الإطلاق أرضًا حمراء محروقة تتوسطها بحيرة حمم منصهرة، تغلي وتفور، تقذف أعمدة الصهارة البيضاء المشتعلة في السماء.. يمكن الشعور بالهزات الأرضية حتى أورومتشي[2] بينما تشق المركبة طريقها عبر الطبقات الداخلية للكوكب.

نجحت أول خمس بعثات من مشروع «صن ست» في إتمام رحلاتها والعودة إلى سطح الأرض. وسجَّلت صن ست 5 رقمًا قياسيًا كأعمق نقطة بلغها إنسان تحت سطح الأرض: 3100 كيلومتر. لم يكن من المقرر لصن ست 6 تجاوز هذا العمق،

---

(1) منخفض تورفان: منطقة جغرافية فريدة ومهمة للغاية تقع في شينجيانج، الصين، وهو منخفض أرضي طبيعي يُعتبر من أخفض الأماكن على سطح الأرض.

(2) أورومتشي عاصمة إقليم شينجيانج على مسافة حوالي 180كَ من منخفض تورفان.

ولسبب وجيه: استخلصت الجيوفيزياء الحديثة أنَّ الحد الفاصل بين الوشاح[1] ونواة الأرض يقع بين 3400 و3500 كيلومتر، ويُعرف علميًا باسم «فاصل جوتنبرج»[2]. اجتياز هذا الحد يعني الدخول إلى نواة الكوكب المكوَّنة من الحديد والنيكل، ومع دخول النواة تزداد كثافة المادة المحيطة فجأة وبدرجة كبيرة، متجاوزة قدرات صن ست 6 المُصمَّمة على أساسها.

بدأت رحلة صن ست 6 بسلاسة. استغرقت المركبة ساعتين لاجتياز «موهو»[3] الحد الفاصل بين القشرة والوشاح الأرضي. وبعدما استقرت على سطح الصفيحة الأوراسية[4] المنزلق لخمس ساعات شرعت المركبة في رحلتها البطيئة الممتدة لأكثر من ثلاثة آلاف كيلومتر عبر الوشاح.

ربما رحلات الفضاء موحشة، لكنها على الأقل تُمكِّن روَّادها من التأمل في لا نهائية الكون وبهاء النجوم. أما الرواد الأرضيون

---

(1) الوشاح: هو الطبقة الثانية والرئيسية من طبقات الأرض، ويقع مباشرة تحت القشرة الأرضية (التي نعيش عليها). يُعتبر الوشاح أكبر طبقة من حيث الحجم والكتلة في كوكب الأرض.

(2) اكتشفه عالم الزلازل الألماني بينو جوتنبرج في 1914 من خلال دراسة كيفية تغير سلوك الموجات الزلزالية عند وصولها إلى هذا العمق.

(3) موهو: اختصار شائع لمصطلح فاصل موهوروفيشيك الفاصل بين القشرة والوشاح الأرضي، على اسم عالم الزلازل الكرواتي أندريا موهوروفيشيك الذي اكتشفه عام 1909.

(4) الصفيحة الأوراسية: واحدة من الصفائح التكتونية الرئيسية السبع التي تشكل الغلاف الصخري للأرض. هذه الصفائح عبارة عن قطع ضخمة وصلبة من قشرة الأرض والوشاح العلوي، وهي تطفو وتتحرك ببطء شديد فوق الوشاح المائع (الأسينوسفير).

فليس أمامهم سوى الشعور بكثافة المادة المتزايدة باستمرار لإرشادهم. كل ما يمكنهم استخلاصه من التحديق في شاشات الرؤية الخلفية الهولوجرافية للمركبة الأرضية هو الوهج الأعمى للصهارة المتأججة التابعة لسفينتهم تُطبق خلف المركبة وتغلق الطريق الذي شقته للتو.

وصف أحد الرواد التجربة قائلًا: كلما أغمضت هي وزملاؤها أعينهم رأوا الحمم تندفع خلفهم، تغلق الممر وتحبسهم من جديد. طاردهم ذلك المشهد كشبح يذكّرهم بضخامة المادة الهائلة المتزايدة باستمرار التي تحاصرهم. شعور بالاختناق لا يمكن لمن في السطح تصوُّره يُعذِّب كل رائد فيهم.

أنجزت صن ست 6 مهامها البحثية بامتياز. سافرت بسرعة تقارب 15 كيلومترًا في الساعة، مما يعني أنها تحتاج إلى 20 ساعة للوصول إلى العمق المستهدف. لكن بعد 15 ساعة و40 دقيقة تلقّى الطاقم إنذارًا: التقط الرادار الجوفي قفزة مفاجئة في الكثافة من 6.3 إلى 9.5 جرام لكل سنتيمتر مكعَّب. لم تعُد المادة المحيطة مكوَّنة من السيليكات[1]، بل من سبيكة الحديد والنيكل، سائلة وليست صلبة. ومع أنَّ العمق الذي بلغته المركبة لم يتجاوز 2500 كيلومتر فإنَّ كل المؤشرات دلَّت على دخولها بالفعل نواة الأرض.

سيعلم الطاقم لاحقًا أنهم صادفوا شقًّا في وشاح الأرض يؤدِّي مباشرة إلى النواة، وممتلئ بسبيكة الحديد والنيكل السائلة عالية

(1) السيليكات: مجموعة واسعة جدًا من المعادن والمركبات الكيميائية التي تشكل غالبية القشرة الأرضية ومعظم باطن الأرض. هي العمود الفقري لعلوم الجيولوجيا وعلم المعادن.

الضغط. وقد قرَّب هذا الشقُّ فاصل جوتنبرج إلى مسار المركبة بمقدار ألف كيلومتر. اتخذت السفينة على الفور إجراءات طارئة لتغيير مسارها، وخلال محاولة الهروب هذه وقعت الكارثة حقًا.

هيكلها المدعَّم بالنيوترينوات قوي بما فيه الكفاية لتحمُّل الضغط الهائل والمفاجئ حتى 1600 طن لكل سنتيمتر مكعَّب، غير أنَّ تصميم المركبة مكوَّن من ثلاثة أجزاء: محرك اندماجي في المقدمة، وكابينة مركزية، ومحرك دفع خلفي. ولمَّا حاولت تغيير الاتجاه انكسر الجزء الرابط بين المحرك الاندماجي والكابينة الرئيسية بسبب كثافة وضغط سبيكة الحديد والنيكل السائلة المتجاوزة لمعايير تشغيل السفينة بكثير. أظهرت الصور المُرسلة عبر النيوترينو انفصال المحرك الأمامي قبل أن تبتلعه على الفور سبيكة الحديد والنيكل المتوهجة. ومع فقدانه لم يقدر المحرك الخلفي على دفع المركبة سوى لمسافة شبه معدومة عبر الطبقات الداخلية للكوكب الصلب.

لكن على الرغم من هول كثافة نواة الأرض فإنَّ هيكل المركبة النيوتروني أكثر كثافة، ونتيجة لعدم كفاية طفو السائل المحيط لمعادلة وزن المركبة بدأت صن ست 6 بالغرق نحو النواة[1].

بعد قرن ونصف من هبوط الإنسان على القمر أصبحت البشرية قادرة على بلوغ عطارد، وأمَّلت أن تسافر من الوشاح إلى النواة في وقت مماثل. لكن ها هي مركبة تهبط عرضًا في النواة

(1) يغرق الجسم في السائل لو كثافته أكبر من كثافة السائل.

كأنَّ مركبة من عصر أبوللو[1] ضلَّت طريقها في الفضاء.. احتمال إنقاذها مستحيل لا ريب.

لحُسن الحظ كان هيكل الكابينة الرئيسية متينًا، ونظام الاتصالات النيوترونية ظلَّ متصلًا بمركز التحكم على السطح. وعلى مدار عام كامل واصل طاقم صن ست 6 إرسال سيل من البيانات العلمية القيِّمة من قلب الأرض.

محاطين بآلاف الكيلومترات من الصخور لم يمثل لا الماء ولا الهواء همهم الأكبر، بل المساحة أكثر ما افتقروا إليه. تجاوزت الحرارة خمسة آلاف درجة مئوية، والضغط يمكنه سحق الكربون وتحويله إلى ألماس في ثوانٍ. وحدها النيوترينوات هي القادرة على الهروب من الكثافة المذهلة للمادة المنصهرة التي دُفنت فيها من هذا الجحيم المعدني.

بالنسبة إلى طاقمها بدا جحيم دانتي جنة، فما معنى الحياة في مثل هذا المكان؟ وهل هناك كلمة غير «الهشاشة» لوصفها؟

الضغط النفسي الهائل مزَّق أعصاب الطاقم. في أحد الأيام استيقظ مهندس الجيولوجيا فجأة، قفز من سريره وفتح باب عزل مقصورته الحراري. ومع أنه الباب الأول فقط من أربعة أبواب مماثلة فإنَّ موجة الحرارة المندفعة عبر الأبواب الثلاثة المتبقية

---

(1) عصر أبوللو: يشير إلى حقبة زمنية محددة في تاريخ استكشاف الفضاء، وتحديدًا برنامج أبوللو الأمريكي الهادف لإرسال البشر إلى القمر (من أواخر الستينيات لأوائل السبعينيات). كانت رحلات أبولو إنجازات تكنولوجية ضخمة في وقتها. في ذلك العصر لم تكن هناك أي تكنولوجيا أو قدرة على اللحاق بسفينة خرجت عن مسارها بهذا الشكل في الفضاء أو إنقاذ طاقمها.

فحَّمته على الفور. هرع القائد لإغلاق الباب ونجح، لكنه أُصيب بحروق قاتلة. قبل موته كتب آخر سطر في سجل الرحلة.

مع بقاء راكبة واحدة تواصل صن ست 6 رحلتها في أحلك أعماق الكوكب.

بحلول هذا الوقت أصبح كل شيء داخل المركبة بلا وزن. وصلت إلى عمق 6800 كيلومتر، أعمق نقطة في الكوكب. صارت تلك الرائدة أول إنسان يبلغ نواة الأرض.

انكمش عالمها إلى قمرة ضيقة خانقة لا تتجاوز مساحتها عشرة أمتار مربعة. سمحت لها النظارات النيوترونية الموجودة على متن السفينة بقدر بسيط من التواصل الحسي مع السطح، لكن هذه الوسيلة كانت على وشك الانقطاع، إذ أوشك نظام الاتصالات النيوترينو الخاص بالمركبة على نفاد الطاقة. بحلول هذا الوقت انخفضت للغاية مستويات الطاقة اللازمة لدعم ترحيل البيانات فائق السرعة الذي تعتمد عليه هذه النظارات الحسية. في الواقع فقدت النظارات الاتصال منذ ثلاثة أشهر، تمامًا حين عدت من رحلتي إلى السهول، بحلول الوقت الذي استقرت فيه عيناها في حقيبة سفري.

ذاك الصباح المُعتم دون شمس في السهول هو آخر ما رأته من عالم السطح.

ومنذ ذلك الحين لم يبقَ سوى قناة الصوت والبيانات. وفي إحدى الليالي انقطع هذا الاتصال أيضًا، فانعزلت تمامًا في نواة الأرض الوحيدة.

هيكل صن ست 6 النيتروني قوي بما يكفي لتحمُّل ضغط النواة الهائل، ونظام الحياة الدائري يمكنه الاستمرار من خمسين

إلى ثمانين عامًا أخرى. وهكذا ستبقى حيَّة، في مركز الأرض داخل غرفة صغيرة يمكن عبورها في أقل من دقيقة.

لم أجرؤ على تخيُّل وداعها الأخير لعالم السطح، لكن حين عرض المدير التسجيل صُدمت. بدأت طاقة الإشارة النيوترونية في الضعف، وصوتها ينقطع أحيانًا، لكنها بدت هادئة.

«... تلقّيت توجيهاتكم الأخيرة. سأبذل قصارى جهدي لتنفيذ كامل خطة البحث خلال الأيام القادمة. ذات يوم، وربما بعد أجيال، تجد مركبة أخرى صن ست 6 وتتصل بها. إذا دخل أحدهم هنا فلا يسعني سوى الرجاء بأن تفيده البيانات التي أتركها خلفي. لا تقلقوا عليَّ؛ صنعت لي حياة هنا، وتأقلمت مع هذا المكان. لم أعد أشعر بالحصار أو الاختناق. العالم بأسره يحيطني. حين أغمض عينيَّ أرى السهول الشاسعة على السطح. ما زلت أذكر كل زهرة سميتها.

وداعًا».

خاتمة

عـــالم شـــفـــاف

مضت سنوات طويلة، وزرت أماكن كثيرة، وفي كل مكان أتمدَّد على الأرض.

استلقيت على شواطئ هاينان، فوق ثلوج ألاسكا، بين أشجار البتولا البيضاء في روسيا، وعلى رمال الصحراء الكبرى الملتهبة.

وفي كل مرَّة يصبح العالم شفافًا في بصيرتي. أرى المركبة الغارقة على عمق أكثر من ستة آلاف كيلومتر في مركز الكرة الشفافة، حاملةً اسم صن ست 6 وأشعر بخفقان قلبها يصعد إليَّ عبر آلاف الكيلومترات.

أتصوَّر ضوء الشمس الذهبي وضوء القمر الفضِّي يخترقان الكوكب حتى يصلا إليها، وأسمعها تدندن أشعة القمر بصوت هادئ:

«يا له من منظر جميل. إنه نوع مختلف من الموسيقى».

فكرة واحدة طمأنتني: حتى وإن بلغت أبعد بقعة على وجه الأرض فلن أبعد أكثر أبدًا عنها.

قـــذيـــفـة

مقدمة

منذ استنزاف البشر موارد الأرض الطبيعية توجَّهت أنظار العالم نحو القارة البكر الأخيرة: أنتاركتيكا. ذلك بدوره أدى إلى تغيير مركز الثقل السياسي للأرض، وأُهملت معاهدة القطب الجنوبي[1].

بفضل قربهما الجغرافي من القارة برزت دولتان في أمريكا الجنوبية فجأة كقوتين عالميتين، نالتا مكانة جيوسياسية تضاهي مكانتهما على ملاعب كرة القدم. في الوقت نفسه دخلت البشرية المرحلة الأخيرة من عملية القضاء التام على الأسلحة النووية.

مثَّل هذا انتصارًا للعقل المستنير على الهمجية، جعل نضال البشرية من أجل أنتاركتيكا خاليًا من شبح الهلاك النووي.

---

(1) معاهدة القارة القطبية الجنوبية هي اتفاقية دولية وُقّعت في 1959 ودخلت حيّز التنفيذ 1961، وتهدف إلى تنظيم استخدام القارة القطبية الجنوبية لأغراض سلمية فقط، مع حظر الأنشطة العسكرية، وتشجيع البحث العلمي والتعاون الدولي في المنطقة.

الفصل الأول

الحالة صلبة جديدة

في الكهف الشاسع شعر شِن هوا باي كأنه يمشي فوق سهل مظلم تحت سماء بلا نجوم. بردت تحت قدميه الصخور المنصهرة بفعل حرارة الانفجار النووي وتصلَّبت. مع ذلك ظلَّ حرُّها القوي يخترق عزل حذائه الحراري، ويُعرِّق باطن قدميه.

في عمق الكهف تتوهَّج بلون أحمر خافت في الظلام قطعة من الجدار لم تبرد بعد مثل فجر ضبابي.

سارت تشاو ونجيا، زوجته، إلى يساره، وابنهما ذو الثمانية أعوام شِن يوان أمامهما، يقفز كما لو أنَّ بدلة الحماية من الإشعاع الثقيلة لا تقيِّد حركته. يرافقهم فريق من مفتشي الأسلحة النووية التابعين للأمم المتحدة، ترسل مصابيح خوذاتهم حزمًا طويلة من الضوء تخترق الظلمة.

استُخدمت وسيلتان لتدمير الأسلحة النووية: التفكيك، والتفجير تحت الأرض. وهذا أحد مواقع التفجير تحت الأرض في الصين.

لحق البروفيسور كافينسكي، قائد فريق التفتيش، بشِن هوا باي، وألقى مصباح خوذته ضوءًا على الثلاثة السائرين أمامه، فامتدَّت ظلالهم طويلة متمايلة على أرض الكهف:

- دكتور شِن، لماذا أحضرت عائلتك؟ هذا ليس مكانًا للتنزه.

توقف شِن هوا باي قليلًا ليسمح للفيزيائي الروسي باللحاق بهم، وقال:

- زوجتي مهندسة جيولوجيا تعمل مع القيادة المركزية لعملية الإزالة، أما ابني فأعتقد أنه يحب هذا المكان.

أومأت ونجيا برأسها وقالت، موجِّهة كلامها لزوجها أكثر منه ردًا على قائد الفريق:

- ابننا مولع دائمًا بالغريب والمتطرف.

وعلى الرغم من إخفاء حاجب خوذة بدلة الإشعاع جزءًا من وجهها فإنَّ هوا باي لمح بوضوح القلق في عينيها.

يكاد الطفل يرقص أمامهم ويقول:

- لمَّا بدأوا بدت هذه الحفرة في مثل حجم قبو بيتنا. بعد انفجارين فقط صارت عملاقة! تخيَّلوا حجم كرات اللهب التي خلَّفت هذه الانفجارات، أشبه بعمالقة رُضَّع تحت الأرض في نوبات غضبهم، يصرخون ويركلون. لا بد أنه مذهل!

تبادل هوا باي وزوجته النظرات. ابتسم هو بخفَّة، بينما ازداد القلق على وجهها.

ضحك كافينسكي وقال للصبي:

- يا فتى، ثمة ثمانية رُضَّع!

ثم نظر إلى شِن هوا باي:

- دكتور شِن، هذا ما وددتُ مناقشته معك. في التفجير الأخير فجَّرتم رؤوسًا حربية لثمانية صواريخ بالستية أُطلقت من غواصات من طراز الموجة العملاقة، كل واحدة بقدرة تفجيرية تبلغ مائة كيلوطن، مرتبة الرؤوس في حامل مكعب الشكل.

- ما المشكلة؟
- قبل التفجير رأيت بوضوح على شاشة المراقبة كرةً بيضاء في مركز المكعب.

توقف شِن هوا باي، ونظر إليه بثبات:

- أستاذ، تُلزمنا اتفاقية التدمير بتفجير حصَّة معينة، لكنها لا تمنعنا من تفجير أكثر منها. ثمَّة خمس ملحوظات مستقلة وثَّقت شدة الانفجار. أي شيء آخر غير ذي صلة.

أومأ كافينسكي برأسه:

- لذلك انتظرت لما بعد التفجير لطرح الموضوع. أشعر بالفضول فحسب.

رد شِن ببرود:

- أتخيَّل أنك سمعت عن «الطبقة السكرية».

نزلت كلماته على المكان كاللعنة. ساد الصمت، وتوقف الجميع عن السير، وجمدت حزم الضوء الخارجة من رؤوسهم في كل اتجاه. سمع الجميع عبر نظام اتصال لاسلكي داخل بدلاتهم، حتى أولئك المتقدمون في المسير، كلماته.

انتهى الصمت مع تجمُّع أعضاء الفريق حول شِن هوا باي. كل فرد في هذه المجموعة المختارة، بغضِّ النظر عن الجزء الذي أتى منه في العالم، منارة في مجال أبحاث الأسلحة النووية، وقد فهم الجميع بوضوح.

سأل أحد الأمريكيين بدهشة:

- هل هي حقيقية؟

أومأ شِن بصمت.

وفقًا لقصة متداولة فإنَّ السؤال الأول الذي طرحه ماو تسي تونج[1] حين وصله خبر أول اختبار نووي صيني في منتصف القرن الماضي كان:

- هل وقع انفجار نووي؟

سواء عرف هذا أم لا، كان السؤال غاية في الذكاء.

مفتاح تصميم الأسلحة الانشطارية يكمن في القدرة على إحداث الضغط، عند انفجار قنبلة نووية تنفجر حزمة متفجرات تقليدية حول كتلة من مواد انشطارية تضغطها إلى كرة كثيفة. مع وصولها إلى كثافة حرجة تبدأ تفاعلات تسلسلية عنيفة تؤدي إلى انفجار نووي. كل هذا يحدث في غضون أجزاء من المليون من الثانية. لذا وجب معايرة الضغط على النواة الانشطارية بدقة فائقة، أي خلل بسيط قد يمنع النواة من الوصول إلى الكثافة الحرجة وبالتالي الانفجار النووي، ويؤدي إلى تفجير كيميائي عادي فقط.

منذ نشأة الأسلحة النووية استخدم الباحثون نماذج رياضية معقَّدة لتصميم مجموعة متنوعة من مصفوفات شحنات الضغط. مكَّنت التقنيات الجديدة المطوَّرة في السنوات الأخيرة الباحثين من تصميم آليات ضغط بدقة رائدة، والطبقة السكرية إحدى التقنيات التي سمحت لهم بتحقيق ذلك.

الطبقة السكرية نوع من مادة نانوية تُغلَّف بها نواة القنبلة، ثم

(1) ماو تسي تونج: قاد الحزب الشيوعي الصيني إلى النصر في الحرب الأهلية الصينية ضد الحزب القومي، وأعلن تأسيس جمهورية الصين الشعبية في أكتوبر 1949 وحكم البلاد منذ ذلك الحين حتى وفاته عام 1976.

توضع فوقها الشحنات المتفجرة التقليدية. وتعمل هذه الطبقة على موازنة توزيع الإجهاد الانضغاطي[1] الناتج عن الانفجار تلقائيًا، حتى لو جاء غير منتظم من طبقة المتفجرات الخارجية، تضمن إجهادًا انضغاطيًا متوازنًا ومركّزًا يؤدي إلى الضغط الدقيق اللازم لجعل المواد الانشطارية تصل إلى الكثافة الحرجة.

قال شِن هوا باي:

- الكرة البيضاء التي رأيتها بين الرؤوس الحربية هي سبيكة مغلفة بالطبقة السكرية. من المفترض أنها تعرَّضت لإجهاد انضغاطي عالي الشدة في التفجير. هذا جزء من مشروع بحث نخطط لمواصلته طوال عملية تدمير الأسلحة. حين تُفجَّر آخر قنبلة نووية لن يعود بإمكاننا توليد إجهاد انضغاطي لحظي بمثل هذا الحجم، على الأقل لفترة من الزمن. نريد رؤية ما ستتحوَّل إليه المادة التجريبية تحت هذا الضغط لعلنا نجد لاحقًا استخدامات مدنية واعدة للطبقة السكرية.

قال أحد مسؤولي الأمم المتحدة متأملًا:

- ربما توجَّب عليكم تغليف الجرافيت بها لصنع ألماسة كبيرة مع كل تفجير، قد يحقق مشروع تدمير الأسلحة النووية المكلف هذا ربحًا!

انفجرت الضحكات في سماعاتهم. كثيرًا ما كان المسؤولون الذين

---

(1) الإجهاد الانضغاطي مفهوم أساسي في علم المواد والميكانيكا والهندسة، ويُشير إلى القوة الداخلية التي تتطور داخل مادة معينة لكل وحدة مساحة، عندما تتعرَّض هذه المادة لقوة خارجية تحاول ضغطها أو تقصيرها أو دفعها نحو الداخل.

لا يتمتعون بخلفيات تقنية مسار سخريتهم في المواقف المشابهة.

تساءل أحدهم:

- لنرَ.. ثمانمائة كيلوطن.. كم مرتبة عشرية يفوق ذلك الضغطَ المطلوب لتحويل الجرافيت إلى ألماس؟

أشرق صوت شِن يوان في سماعاتهم:

- بالطبع لن يصنع ماسة! أراهن أنه صنع ثقبًا أسود! ثقبًا أسود صغيرًا! سوف يمتصُّنا، ويمتصُّ العالم كله، وينتهي بنا في كون أجمل على الجانب الآخر!

ضحك كافينسكي:

- الانفجار لم يكن بذلك الحجم يا فتى. دكتور شِن، ابنك يملك خيالًا رائعًا! لكن أخبرني، ما نتائج التجربة؟ وإلامَ تحوَّلت السبيكة؟ أفترض أنكم لم تجدوا معظمها.

قال شِن:

- لا أدري بعد. تعالوا نرَ.

وأشار برأسه للأمام نحو مقدمة تجويف كروي هائل خلَّفه الانفجار. شكَّل قاعه المنحني حوضًا صغيرًا، في مركزه تومض بعض مصابيح الرأس وتتحرك.

- هؤلاء أعضاء فريق أبحاث الطبقة السكرية.

تابعوا السير نزولًا على المنحدر البسيط نحو قاع التجويف. فجأة توقف كافينسكي، ووضع يديه على الأرض.

- ثمة اهتزاز!

شعر به الآخرون أيضًا.

قال أحدهم:

- ليس من المعقول أنه نتج عن الانفجار، أليس كذلك؟

هزَّت تشاو ونجيا رأسها:

- أجرينا عدة مسوح جيولوجية للمنطقة المحيطة بموقع التدمير، ولا يمكن للانفجار التسبُّب في زلزال هنا. الاهتزاز بدأ بعد التفجير، واستمر منذ ذلك الحين. قال الدكتور دينج يوان: «إنه مرتبط بتجربة الطبقة السكرية، لكن لا أعرف التفاصيل».

كلما اقتربوا من المركز ازداد الاهتزاز، ينبع من عمق الأرض. سرعان ما أصبح قويًا بما يكفي ليشعروا بالوخز في أرجلهم، كما لو أنَّ قطارًا عملاقًا يزمجر بعنف في الأرض تحتهم. عند القاع نهض رجل يرتدي بدلة واقية لاستقبالهم. كان هو الدكتور دينج يوان، المسؤول عن تجارب ضغط المواد عبر التفجيرات النووية.

سأله شِن مشيرًا إلى كرة بيضاء ضخمة في يده:

- ما الذي بيدك؟

أجاب:

- خيط صنارة.

من حوله جثا عدد من الباحثين محدِّقين في ثقب صغير أحدثه الانفجار في صخر انصهر وتكثَّف مرة أخرى. ثقب دائري بالتمام تقريبًا بقُطر يقارب عشرة سنتيمترات، وحافته ملساء كأنها ثُقبت بحفار آلي.

الخيط في يد الدكتور ينساب داخل الحفرة بلا توقف.

- أدخلنا بالفعل أكثر من عشرة آلاف متر من الخيط، وما نزال بعيدين عن القاع. الرادارات تشير إلى أنه تجاوز الثلاثين ألف

متر.. وما زال يتوغل.

سأل أحدهم:

- كيف تكوَّن هذا الثقب؟

أجاب الدكتور دينج:

- السبيكة التجريبية المضغوطة غاصت في الأرض كأنها حجر في البحر. هذا ما صنع الثقب. ولا تزال تمر عبر طبقات الصخور الكثيفة ونحن نتكلم، مُسببةً هذا الاهتزاز.

دهش كافينسكي:

- يا إلهي.. هذا مذهل. ظننت أن المادة تبخَّرت بفعل حرارة الانفجار.

وافق دكتور دينج:

- لولا تغليفها بالطبقة السكرية لكان هذا ما حدث، لكن بما أنَّ الوقت غير كافٍ للتبخُّر، إذ أعادت الطبقة توزيع ضغط الانفجار وضغطت السبيكة إلى حالة جديدة من المادة.. أردنا تسميتها بالحالة فائقة الصلابة، لكن الاسم مقتبس[1]، لذا نسميها الآن الحالة الصلبة الجديدة.

سأله كافينسكي وهو ما زال غير مُصدِّق إلى حدٍّ ما:

- هل تقصد أنَّ كثافتها، مقارنةً بكثافة الأرض، تشبه كثافة حجر يسقط في الماء؟

قال دينج:

---

(1) المواد التي تتميز بصلابة استثنائية، تتجاوز صلابة المواد التقليدية المعروفة. الماس هو أشهر مثال على المواد فائقة الصلابة. وهو أصلب مادة طبيعية معروفة.

- بل تتخطاها بكثير. السبب في غرق الحجارة في الماء ليس الكثافة فقط، بل طبيعة الماء كسائل. الجليد مثل الماء من حيث الكثافة، لكنَّ الحجر لا يغوص فيه، أما المادة الجديدة فتغرق بالفعل عبر الصخور الصلبة، ولا يسعنا سوى تخيُّل مدى كثافتها فحسب.

سأله آخر:

- هل تقصد تحوُّلها إلى شيء يُشبه مادة النجم النيوتروني؟

هزّ دينج رأسه:

- لم نحدِّد كثافتها الدقيقة، لكن من سرعة سقوطها يمكن القول إنها ليست بمثل كثافة المادة المتدهورة[1] لنجم نيوتروني. وإلا لسقطت بسرعة نيزك مُسبِّبةً براكين وزلازل كبرى. إنها حالة للمادة تقع في منطقة بين المادة الصلبة العادية والمادة المتدهورة.

سأل شِن يوان:

- هل ستصل إلى نواة الأرض؟

قال دينج:

- ممكن. بعد عمق معين تتوقف طبقات القشرة والوشاح، ويبدأ اللب السائل، ساعتها سيكون سقوطها أسهل.

قال الطفل بذهول:

- رائع!

في حين انشغل الجميع بالنظر إلى الثقب انسحب شِن هوا

---

(1) المادة المتدهورة هي حالة من حالات المادة الغريبة جدًا، توجد في ظروف قاسية للغاية من الضغط والكثافة، مثل تلك الموجودة في النجوم الميتة.

باي مع أسرته بصمت وتوغلوا في العتمة. باستثناء صوت الاهتزاز الخافت خيَّم الصمت على الحفرة. أكل الظلام الشاسع حولهم ضوء مصابيحهم، واستحالوا أشباحًا في الفراغ.

حوَّلوا الاتصال إلى قناة خاصة. شِن يوان على وشك اتخاذ قرار سيغيِّر مجرى حياته: هل يتبع والده، أم يبقى مع والدته؟

المشكلة التي تواجه والداه أسوأ من الطلاق: أصيب شِن هوا باي بسرطان الدم في مرحلته النهائية، ولا يعرف إن كانت أبحاثه النووية السبب أم لا، كل ما يعرفه أنَّ أمامه ستة أشهر فقط.

لحُسن الحظ وصلت التكنولوجيا للثبات الاصطناعي. سيدخل شِن هوا باي في سُبات طويل حتى يُكتشف علاج. وعلى شِن يوان الاختيار: هل يدخل معه، أم يبقى مع والدته؟ الخيار الثاني بدا أكثر عقلانية، لكن من الصعب على طفل مقاومة فكرة مرافقة والده إلى المستقبل.

حاول كلا الوالدين إقناعه بخياره لمرَّة أخيرة.

قال الطفل فجأة:

- ماما.. سوف أبقى معك، لن أنام مع أبي.

سألت أمه فرحة:

- غيَّرت رأيك؟

ردَّ وهو يضحك:

- نعم! لا أحتاج للذهاب إلى المستقبل للاستمتاع. ثمَّة كثير من الأشياء الممتعة الآن، مثل ذلك الشيء الذي يغرق في الأرض. أريد أن أكون موجودًا لأرى ذلك!

سأله والده:

- أهذا قرارك؟

نظرت الأم إليه بقلق، خائفة من تغيُّر رأي ابنها.

قال:

- نعم.. سأذهب لأحاول رؤية الشيء في تلك الحفرة.

انطلق يركض نحو الحوض، حيث تومض مصابيح الرؤوس.

نظرت تشاو ونجيا إلى ابنها وهو يبتعد، وقالت:

- أخشى ألا أقدر على منحه ما يحتاج. إنه يشبهك.. غارق في أحلامه. ربما يناسبه المستقبل أكثر.

وضع شِن هوا باي يديه على كتفيها وقال:

- لا أحد يعرف شكل المستقبل، ثم ما الخطأ في أن يشبهني؟ حتى الحاضر يحتاج إلى الحالمين.

قالت بحزن:

- لا خطأ في كونه حالمًا، لهذا أحببتك. لكن لا بد أن تعرف أنه يملك جانبًا آخر.. اختير رئيسًا لفصلين دراسيين!

قال شِن بدهشة:

- سمعت بهذا. لا أعرف كيف فعلها.

قالت:

- يعشق السلطة، ويعرف كيف يصل إليها، وفي هذا هو لا يشبهك أبدًا.

قال:

- كيف سيوفِّق بين هذا وبين خيالاته؟

قالت:

- تُقلقني اللحظة التي ينجح فيها في التوفيق بينهما أكثر.

وصل شِن يوان إلى مركز الحفرة، واندمج ضوء مصباحه مع بقية الأضواء. توقف والداه عن مراقبته، وأطفآ مصباحيهما، وغرقا في الظلام.

قال شِن:

- الحياة ستستمر مهما حدث. قد يُكتشف علاج في العام المقبل، أو بعد قرن.. أو لا يُكتشف أبدًا. لكنك ستعيشين على الأقل أربعين عامًا أخرى. أريدك أن تعديني بشيء: إن لم يظهر علاج خلال أربعين سنة أرجوكِ أيقظيني. أريد رؤيتك ورؤيته مجددًا. لا يمكن لهذا أن يكون وداعنا الأخير.

قالت بابتسامة بائسة في العتمة:

- تريد رؤية امرأة عجوز ورجلًا يكبرك بعشر سنوات؟ لكن كما قلت، الحياة تستمر.

في الكهف الهائل الذي حفَّرته الانفجارات النووية، أمضيا لحظاتهما الأخيرة معًا في صمت. وفي اليوم التالي دخل شِن هوا باي في نوم بلا أحلام.

أما تشاو ونجيا فواصلت الطريق مع ابنها الحالم في درب الحياة الغادر نحو مستقبل مجهول.

الفصل الثاني

الصحو

استغرق شِن هوا باي يومًا كاملًا حتى يستفيق تمامًا. لمَّا فتح عينيه لأول مرَّة لم يرَ سوى ضباب أبيض ظهرت منه بالتدريج، وعلى مدار عشر ساعات، أشباح غائمة بيضاء. وبعد عشر ساعات أخرى تمكَّن من تمييزهم كأطباء وممرضات.

لا يدرك الأشخاص في السُبات مرور الوقت، لذا ظنَّ شِن هوا باي في البداية أنَّ وعيه المترنِّح جزء من عملية الدخول في السُبات، وأنَّ نظام السُبات ربما تعرَّض لخلل أثناء استغراقه في النوم.

ومع تحسُّن رؤيته تدريجيًا راح يتأمل غرفة المستشفى المضاءة بنور خافت ينبعث من مصابيح مثبَّتة على الجدران البيضاء. بدا له المكان مألوفًا، ما عزَّز لديه الظنَّ بأنه لم يدخل السُبات بعد.

في اللحظة التالية أصبح من الواضح أنه مخطئ، إذ بدأ لون أزرق يتوهج في سقف الغرفة الأبيض، كان كخلفية لكلمات بيضاء حادة تظهر عليه:

«تحية طيبة!

شركة «الأرض الحيَّة للتبريد الفائق»، مقدمة خدمات السُبات الخاصة بك، أعلنت إفلاسها عام 2089. وحوَّلت مسؤولية رعايتك

إلى شركة «سحاب اليشم». رقم تسلسل السُبات الخاص بك هو: WS368200402-118.

ما زلت تحتفظ بكافة الحقوق والامتيازات المنصوص عليها في عقدك مع «الأرض الحية للتبريد الفائق». خضعت لعلاج طبي قبل استيقاظك، وشُفيت تمامًا من جميع الأمراض.

نرجو قبول تهانينا بحياتك الجديدة.

قضيت في السُبات 74 عامًا، و5 أشهر، و7 أيام، و13 ساعة. حسابك مُسدَّد بالكامل.

التاريخ الحالي: 16 أبريل 2125. مرحبًا بك في المستقبل».

عاد سمعه بالتدريج، ثم ثلاث ساعات أخرى واستطاع الكلام. بعد 74 عامًا من النوم العميق جاءت أولى كلماته:

- أين زوجتي وابني؟

بجواره طبيبة طويلة ونحيلة، ناولته ورقة مطوية:

- دكتور شِن، هذه رسالة من زوجتك.

رمقها شِن هوا باي بنظرة غريبة. «حتى قبل دخولي في السُبات نادرًا ما كتب الناس رسائل ورقية!». تمكَّن من فتح الرسالة على الرغم من يديه شبه المخدَّرتين، ووجدها دليلًا آخر على انتقاله إلى المستقبل فعلًا: الورقة، التي بدت فارغة في البداية، تُصدر وهجًا أزرق يكوِّن كلمات تسير على امتداد الصفحة حتى امتلأت بالنص.

لطالما تخيَّل قبل السبات، مئات المرات، ما قد تكون أولى كلمات زوجته له بعد استيقاظه. لكنه لم يتصوَّرها أبدًا كالتي يقرأ الآن:

«هوا باي، حبيبي.. أنت في خطر داهم!

بحلول الوقت الذي تقرأ فيه هذه الرسالة أكون قد فارقت الحياة. من أعطتك الرسالة هي الطبيبة قو، يمكنك الوثوق بها؛ بل ربما هي الشخص الوحيد المتبقي على الأرض الذي يمكنك الوثوق به.

اتبع تعليماتها مهما كانت.

اغفر لي أنني أخلفت عهدي. لم أوقظك بعد أربعين عامًا. لا يمكنك تخيُّل الشخص الذي أصبح عليه يوان.. ولا ما فعله. كأُمّه لا أقدر على النظر في عينيك. قلبي مكسور. حياتي ضاعت سُدى.

أرجوك.. اعتنِ بنفسك».

صرخ هوا باي محاولًا رفع جسده المرهق على مرفقيه:

- ابني.. أين شِن يوان؟!

- توفي قبل خمس سنوات.

ردُّ الطبيبة بارد وغير مبالٍ تمامًا بالأسى الذي أحدثته هذه الرسالة، وكأنها أدركت ذلك فخفَّفت من لهجتها وأضافت:

- بلغ من العمر 87 عامًا.

أخرجت الطبيبة بطاقة من جيب معطفها وسلَّمتها له:

- هذه بطاقتك الشخصية الجديدة. تفاصيلها مذكورة في رسالة زوجتك.

فحص هوا باي الورقة، قلبها على الوجهين. ليس عليها شيء سوى ملاحظة ونجيا القصيرة. بدت طياتها وهو يفتحها كأنها تموُّج، تمامًا مثل شاشات LCD المعتادة في زمانه. مدَّت الطبيبة يدها وضغطت على أسفل زاوية الورقة اليمنى، فاستحالت جدول بيانات.

- آسفة، الورق كما تعرفه لم يعد موجودًا.

نظر إليها هوا باي باستغراب.

- لم تعد ثمَّة غابات؟!

أوضحت وهي ترفع كتفيها. ثم أشارت إلى الجدول:

- اسمك الجديد هو «وانغ رُو». وُلدت عام 2079. والداك متوفيان، ولا عائلة لك. مكان ميلادك: هوهوت، منغوليا الداخلية، ومكان إقامتك الحالي هنا..

قالت وهي تشير إلى خلية في جدول البيانات:

- قرية نائية في جبال نينغشيا. هذا أفضل ما استطعنا ترتيبه لك بالنظر إلى الظروف. لن تثير الانتباه هناك.

ستحتاج لجراحة تجميل قبل مغادرتك، ولا تتحدث عن ابنك بأي حال من الأحوال، بل لا تُبدِ حتى اهتمامًا إذا جاء أحد على ذكره.

- لكنني والد شِن يوان! وُلدت في بكين!

عادت البرودة إلى صوت الطبيبة:

- إن أعلنت ذلك على الملأ سيضحى كل ما فعلناه لك من سُبات وعلاج بلا قيمة وتُقتل خلال ساعة.

- ماذا حدث؟

احتاج هوا باي أن يعرف.. الآن.

ابتسمت الطبيبة ببرود كما بدأت:

- هناك أشياء كثيرة في هذا العالم لا تعرفها.

ثم هزَّت رأسها بخفة، وتابعت:

- علينا الإسراع. عليك النهوض من السرير أولًا وتعلُّم المشي من جديد، ثم الخروج من هنا بأسرع وقت.

قبل أن يتمكن من طرح سؤال آخر دوَّى طرق عنيف خلف الباب، ثم انفتح بعنف واقتحم الغرفة ستة أو سبعة أشخاص أحاطوا سريره. من أعمار مختلفة، يرتدون ملابس متنوعة، لكنَّ نوعًا غريبًا من القبعات جمع بينهم؛ يلبسها البعض ويحملها الآخر. قبَّعات ذات حواف واسعة بما يكفي لتغطية أكتاف من يرتديها، تشبه قبعات القش التي كان الفلاحون يستخدمونها. ولكل منهم أيضًا قناع أكسجين شفاف، أزاله بعضهم فور دخولهم الغرفة. يرمقه الجميع بنظرات عدائية.

- هل هذا والد شِن يوان؟

سأل أحدهم، وكان أكبرهم سنًا، في الثمانين تقريبًا، وله لحية بيضاء طويلة. لم ينتظر إجابة الطبيبة، بل أدار وجهه إلى الباقين وهزَّ رأسه:

- يشبه ابنه تمامًا. أحسنتِ، دكتورة. أنهيتِ مهمتك. تسلَّمنا مسؤوليته الآن.

سألت الطبيبة قو ببرود:

- كيف عرفت أنه هنا؟

وقبل إجابته تكلمت ممرضة من زاوية الغرفة:

- أنا التي أخبرتهم.

استدارت الطبيبة قو وحدَّقت فيها بغضب:

- خنتِ سرية مريض؟

ردَّت الممرضة بابتسامة شابت وجهها الجميل بقبح مفاجئ:

- عن طيب خاطر.

أمسك شاب برداء هوا باي وجرَّه من السرير، فتمدَّد على الأرض عاجزًا. لا يزال ضعيفًا جدًا لا يقدر على الحركة. ركلته فتاة

في بطنه بقوة، لدرجة كادت معها مقدمة حذائها الحادَّة تغوص في أحشائه. كان الألم لا يُحتمل، فظلَّ يتلوَّى على الأرض كسمكة. أمسك الرجل العجوز بياقة قميصه، ورفعه واقفًا بقوة غير متوقعة، محاولًا إبقاءه واقفًا عبثًا أفلت قبضته وتركه يسقط على قفاه، فارتطم رأسه بالأرض بقوة، وتشوَّش بصره من الألم. قال أحدهم:

- عظيم.. ربما يغطي جزءًا صغيرًا من دين هذا الوغد تجاه المجتمع.

قال هوا باي بصوت واهن:

- من أنتم؟

خُيِّل خاطفوه إليه من موضعه على الأرض بين أقدامهم كمجموعة عمالقة مُرعبين. قال الرجل العجوز بسخرية مريرة:

- المفترض أنك تعرف من أنا على الأقل.

كان وجهه، كما بدا من الأسفل، مشوَّهًا كقناع مريع. ارتعش هوا باي.

- أنا دينج يانج، ابن دينج يوان.

تقلَّب شيء في أحشاء هوا باي عند سماع الاسم. استدار وتشبَّث بطرف بنطال الرجل العجوز.

- والدك كان زميلي وصديقي المقرَّب! وكنتَ زميل ابني في الصف! ألا تتذكر؟ يا إلهي، أنت ابن يوان؟ لا أصدق! في ذلك الحين، كنتَ..

صرخ دينج يانج:

- ابعد يديك القذرتين عني!

انحنى الشاب الذي سحب هوا باي من السرير ناحيته، واقترب من وجهه بعينين مليئتين بالحقد، وقال بنبرة ساخرة:

- اسمع، لم تعُد كبيرًا منذ نمت.. أصبح هذا الرجل أكبر منك، وعليك احترامه.

قال دينج يانج بصوت عالٍ:

- لو أنَّ شِن يوان حيٌّ الآن لكان في عمر والدك.

فأثار موجة من الضحك. ثم أشار إلى أحد رفاقه:

- حين كان هذا الشاب في الرابعة من عمره مات والداه في كارثة الاختراق المركزي.

ثم أشار إلى الفتاة التي ركلته:

- وهذه الفتاة فقدت والديها في كارثة المسمار الساقط ولم تكن أتمَّت عامها الثاني حتى..

وأشار إلى اثنين آخرين من مجموعته:

- هذان استثمرا مدَّخرات حياتهما كلها في المشروع. عندما عرف هذا الرجل بخسارته حاول الانتحار، أما هذا فبساطة فقد عقله تمامًا.

ثم أضاف بنبرة ثقيلة:

- وأما أنا فقد خدعني ابنك الوغد. رميت شبابي وموهبتي في تلك الحفرة اللعينة، والعالم كلُّه يكرهني بسببه.

ظلَّ هوا باي ممددًا على الأرض، يهز رأسه في حيرة.

قال له دينج يانج:

- شِن هوا باي، هذه محكمة، ونحن-ضحايا مشروع عتبة أنتاركتيكا- القضاة وهيئة المحلفين. صحيح أنَّ البلد كله ضحية، لكننا نمتلك امتياز تنفيذ العدالة بحقك.

توجَّب علينا إرسالك إلى محكمة حقيقية، لكنَّ نظام العدالة الآن أعقد مما كان في زمنك. سيقضي المحامون عامًا في الثرثرة عن

أي هراء حول قضيتك، وفي النهاية ستُبرَّأ في الغالب، تمامًا كما بُرِّئ ابنك. أما نحن فلن نستغرق أكثر من ساعة لإصدار حكمنا العادل، وصدِّقني: بعده ستتمنَّى لو أنَّ اللوكيميا قتلتك قبل سبعين عامًا.

تعالت الضحكات الساخرة من هوا باي. ورفعه اثنان من ذراعيه وجرَّاه نحو الباب، كان أضعف من أن يمقاوم، يجرُّ ساقيه على الأرض.

قالت الطبيبة قو عندما مرَّ بجوارها:

- سيد شِن، فعلت ما بوسعي.

أراد الالتفات ليراها، المرأة الوحيدة التي وثقت بها زوجته في هذا الزمن الوحشي، وفقًا لرسالتها، لكن بوضعية كالتي فيها بدا الأمر مستحيلًا.

قالت من خلفه:

- لا تُفرط في اليأس. العيش في هذه الأوقات ليس بالسهل أيضًا.

وهو يُجر إلى الخارج سمع صوتها: «أغلقوا الباب وشغِّلوا مرشَّات تنقية الهواء! هل تريدون الاختناق؟».

نبرتها مُلحَّة، بدا جليًا أنها لم تعد تكترث لمصيره.

بمجرد خروجه من عنبر المستشفى، فهم مغزى كلمات الطبيبة قو الأخيرة: الهواء في الخارج لاذع وصعب تنفسه. جرُّوه عبر رواق المستشفى الرئيسي، وبعد مغادرة المبنى، وضع الاثنان اللذان يجرَّانه ذراعيه على أكتافهما، وبدآ حمله.

أخذ شهيقًا عميقًا، مرتاحًا لكونه في الخارج، لكن ما استنشق لم يكن هواء الخارج النقي الذي توقعه، بل أكثر سمِّية من هواء

الداخل. اشتعلت رئتاه ألمًا، وأخذ يسعل بعنف دون توقف، وبينما كاد يختنق سمع أحدهم يقول: «أعطه جهاز تنفس. لا نرغب في موته قبل أن نتمكن من إنفاذ العدالة». وضع أحدهم جهازًا على فمه وأنفه، ضخَّ هواءً غريب المذاق، لكنه على الأقل جعله قادرًا على التنفس.

قال آخر: «لا حاجة لقبَّعة الحماية. لن يعيش طويلًا ليتعرَّض للأشعة فوق البنفسجية وتعود له اللوكيميا». وانفجر ضحك وحشي من الجميع. استعاد هوا باي بعض انتظام أنفاسه، وجفَّت دموع السعال من عينيه، فعاد إليه بصره. رفع رأسه وألقى نظرة أولى على المستقبل.

أول ما رآه الناس في الشارع. يرتدون جميعًا أقنعة تنفس شفافة، وعلى رؤوسهم قبَّعات كبيرة من القش، مثل تلك التي سمَّاها خاطفوه «قبَّعات الحماية». لاحظ أيضًا أن الجميع، وعلى الرغم من الطقس الدافئ، ملفوفون بملابس لا تكشف شبرًا من الجلد، والشوارع محاطة بناطحات سحاب شاهقة من الجانبين، حتى بدا كأنه في وادٍ عميق. «ناطحة سحاب» هو الوصف الدقيق، فكل المباني وصلت حرفيًا حتى الغيوم الرمادية.

في فرجة السماء الضيقة بين البنايات بدا قرص الشمس باهتًا خلف السحب، تمر أمامه خيوط من الدخان، وسرعان ما أدرك أنَّ تلك السحب ما هي إلا نفثات من التلوث.

قال دينج يانج بسخرية:

– وقت رائع لنحيا فيه، أليس كذلك؟

وضحك رفاقه ضحكة طويلة، كأنهم لم يضحكوا منذ زمن.

اقتادوه نحو مركبة قريبة، بحجم سيارة صالون عادية تقريبًا، تتسع لأربعة أو خمسة ركاب. وبينما يقتربون منها مرَّ بهم شخصان يسيران بتركيز في اتجاه آخر. يرتديان خوذات، وعلى الرغم من أنَّ زيهما لم يكن مألوفًا لهوا باي فإنه استطاع تخمين وظيفتهما. استغاث بهما:

- النجدة! أنا مخطوف! ساعدوني!

توقَّف الشرطيان، استدارا نحوه على الفور، وركضا إليه. تفحَّصاه بنظرة سريعة، ولاحظا بالخصوص رداء المستشفى وقدميه الحافيتين.

قال أحدهم:

- أنت مستيقظ للتوِّ من التجميد، أليس كذلك؟

هزّ هوا باي رأسه:

- إنهم يختطفونني.

أومأ الآخر برأسه في تفهُّم:

- سيدي، هذا شائع. يخرج كثير من السُبات مؤخرًا، ودمجهم في المجتمع يتطلب موارد ضخمة. الناس غاضبون، وغالبًا ما يُفرغون غضبهم بهذه الطريقة.

قال هوا باي:

- لكن هذا ليس ما يحدث..

قاطعه الشرطي بإشارة من يده:

- سيدي، أنت آمن الآن.

ثم استدار نحو دينج يانج ورفاقه:

- لا يزال هذا الرجل بحاجة واضحة إلى رعاية طبية. اثنان منكم سيعيدانه إلى المستشفى، وسنحقق في الأمر لاحقًا، وحتى ذلك الحين أنتم السبعة متهمون بالخطف.

رفع الشرطي جهاز الاتصال في معصمه طلبًا للدعم، فاندفع دينج يانج إليه وقال:

- أيها الضابط! انتظر، لسنا مناهضين للمجمَّدين! انظر جيدًا إلى وجه هذا الرجل. ألا يبدو مألوفًا؟

أمعن الشرطيان النظر في وجه هوا باي. رفع أحدهما عنه قناع التنفس للحظة ليرى بصورة أوضح. صرخ:

- إنه مي شيشي!

وقال آخر:

- لا، إنه والد شِن يوان!

بأفواه مفتوحة قلبا نظراتهما بين هوا باي ودينج يانج، ثم اقترب الشاب الذي يتَّمته كارثة الاختراق المركزي وجذبهما جانبًا، وهمس لهما بشيء. وهو يتكلم يرمق الشرطيان هوا باي على نحو عرَضي، وكل مرة تزداد نظراتهما قسوة. وفي آخر مرَّة نظرا إليه فيها غاص قلبه. بات لدينج يانج متواطئان جديدان.

تقدَّم الشرطيان.. تجنَّبا النظر إليه. وقف أحدهما للحراسة، واقترب الآخر من دينج يانج، وهمس له بلهجة متوترة:

- لم نرَ شيئًا. مهما فعلتم، لا تدعوا أحدًا يكتشف من هو، وإلا ستكون ثمَّة أعمال شغب.

ما أخاف هوا باي ليس كلمات الشرطي فحسب، بل الطريقة التي قيلت بها؛ تحدَّث دون اعتبار لسمعه كأنه غير موجود أصلًا،

جزء من الخلفية لا أكثر. سرعان ما دفعه أفراد عصابة دينج يانج داخل السيارة ودخلوا خلفه.

وما أن انطلق المحرك حتى اسودَّت نوافذها تلقائيًا، فلم يعُد بإمكان الشمس الدخول، ولا بإمكان هوا باي النظر. سيارة ذاتية القيادة بالكامل، بلا مقود أو أدوات تحكم مرئية. ولم ينطق أحد بكلمة طوال الرحلة.

أخيرًا، تجرأ هوا باي على طرح سؤال، فقط لكسر الصمت المشؤوم:

- من هو مي شيشي؟

ردَّت الجالسة بجانبه، اليتيمة من كارثة المسمار الساقط:

- نجم سينمائي. اشتهر بدور ابنك في الأفلام. شِن يوان والوحوش الفضائية أشرار الإعلام المفضَّلين في الوقت الحالي.

تلوَّى هوا باي في مقعده مبتعدًا عنها، بيد أنه ضغط دون قصد منه على زر أسفل النافذة، فعاد الزجاج شفافًا. رأى أنهم يسيرون على جسر علوي سريع وضخم ومعقَّد، ممتلئ بسيارات لا يفصل بينها سوى مترين تقريبًا. المثير للقلق أنَّ تلك السيارات ليست في ازدحام مروري، كما يوحي قربها – بل تتحرك جميعها بأقصى سرعة، على الأقل مائة كيلومتر في الساعة. بدا الجسر العلوي بأكمله كأنه لعبة غير آمنة في مدينة للملاهي.

انطلقت سيارتهم إلى الأمام نحو مفترق طرق، وبينما يقتربون منه انحرفت لتغيير المسار، فلمَّا بدا الاصطدام لا مفرَّ منه انفرجت فجأة فجوة في الحارة المقابلة سمحت لها بالدخول. في الواقع

كل مركبة تدخل حارتها بحركة سريعة وسلسة لدرجة أنَّ المسارين بدوا كأنهما يذوبان في واحد.

فهم هوا باي أنَّ الذكاء الصناعي هو الذي يتحكم بالسيارة، وتمكَّن من استخدام الطريق بكفاءة مذهلة.

مدَّ شخص في المقعد الخلفي يده وضغط الزر، فعادت النافذة معتمة من جديد.

قال هوا باي:

- لا أفهم شيئًا مما يجري.. ومع ذلك أأنتم عازمون على قتلي؟

استدار دينج يانج من مقعده الأمامي، وتطلَّع إليه لبرهة، ثم قال دون حماس:

- إذن، سأُضطر لإخبارك.

الفصل الثالث

عتبة أنتاركتيكا

أصحاب الخيال الخصب غالبًا ضعفاء، أما الأقوياء صانعو التاريخ فيفتقر غالبيتهم إلى الخيال. مثَّل ابنك استثناءً نادرًا: جمع بين الخيال وقوة إرادة مكَّنته من تحويل رؤاه إلى واقع.

بالنسبة له لم تكن الحقيقة سوى جزيرة صغيرة ومعزولة في محيط واسع من الخيال، لكنه حين يشاء يعكس المعادلة ويجعل الخيال جزيرته والواقع محيطًا حولها، ويُبحر في كليهما ببراعة مذهلة..

قاطعه هوا باي:

- أعرف ابني جيدًا، لا تهدر وقتي.

قال دينج يانج:

- بغضِّ النظر عن مدى معرفتك به لن تتخيَّل المكانة التي بلغها شِن يوان، ولا النفوذ الذي حظي به. وصل إلى موقع مكَّنه من تحويل أحلك رؤاه إلى واقع، وللأسف لم يُدرك العالم مدى خطورة ذلك إلا بعد فوات الأوان.

ربما ظهر في التاريخ أشخاص مثله، لكنهم كويكبات حلَّقت بالقرب من الأرض دون الاصطدام بها وتابعت طريقها في الفراغ الشاسع، أما شِن يوان فقد منحه التاريخ الوسيلة ليُحقق رؤيته المشوَّهة. ارتطم كويكبه بنا، ويا له من اصطدام.

في عام سُباتك الخامس اتخذ العالم خطوة أوَّلية نحو حلِّ مسألة من يملك حق السيادة على القارة القطبية الجنوبية. أُعلنت القارة منطقة مشتركة للتنمية الاقتصادية العالمية، لكن الدول القوية تحايلت على هذا الإعلان وقطَّعت القارة إلى مناطق واسعة لمصالحها الخاصة والحصرية.

أرادت كل دولة استغلال موارد منطقتها بأسرع ما يمكن كأمل وحيد للخروج من الكساد الاقتصادي الذي سبَّبه نضوب الموارد والتلوث. ثمَّة مقولة شاعت حينها: «المستقبل في قاع العالم».

في تلك المرحلة طرح ابنك فكرته المجنونة. زعم أنَّ تطبيقها سيحوِّل القارة القطبية الجنوبية إلى فناء خلفي للصين، بل قال إنَّ الوصول إليها من بكين سيكون أسهل من الوصول إلى تيانجين.

لم يكن مجازًا.. أضحى الوصول إلى القارة بالفعل أسرع وأقل استهلاكًا للموارد وأخف ضررًا بالبيئة من الذهاب إلى تيانجين. حين أعلن خطته في مؤتمر صحفي متلفز ضحك الشعب كله، كأنهم يشاهدون مسرحية هزلية، لكن قبل أن ينتهي المؤتمر توقف الجميع عن الضحك.

أدركنا أنَّ ذلك ممكن فعلًا، وهكذا بدأت كارثة مشروع عتبة القارة القطبية الجنوبية (أنتاركتيكا).

توقف دينج يانج فجأة. سأل هوا باي ليستحثه على المتابعة:

- وما هو مشروع عتبة أنتاركتيكا؟

ردَّ دينج يانج ببرود:

- ستعرف قريبًا.

قال هوا باي:

- هلا شرحت لي على الأقل ما علاقتي بكل هذا؟

أجابه:

- أنت والد شِن يوان، وماذا تريد أكثر من ذلك؟

قال هوا باي:

- وهكذا عدنا إلى الحتمية الوراثية؟

قال دينج يانج:

- بالطبع لا. لكن، بحسب اعتراف ابنك، سلالته ذات صلة بالأمر. بعدما ذاع صيته عالميًا صرَّح في مقابلات لا تُحصى بأنَّ طريقة تفكيره وشخصيته قد تشكَّلتا إلى حدٍّ كبير وهو في الثامنة من عمره، وأنَّ والده هو من صاغهما. قال إنَّ كل ما فعله بعد ذلك لا يتعدَّى تطويرًا للمعرفة التي أعطاها له والده. بل صرَّح علنًا بأنَّ والده هو المُبدع الأصلي لفكرة مشروع عتبة أنتاركتيكا.

قال هوا باي مذهولًا:

- ماذا؟ أنا؟ القارة القطبية؟ هذا محض..

قاطعه دينج يانج:

- دعني أُكمل. أنت أيضًا مَن وضعت الأساس التكنولوجي للمشروع.

- ما الذي تتحدث عنه؟

- المادة الصلبة الجديدة. لولاها لبقي مشروع عتبة أنتاركتيكا مجرد حلم مشوَّه. وحدها جلبت هذا الخيال الملتوي إلى الواقع..

هزَّ شن هوا باي رأسه في حيرة تامة. لم يستطع تخيُّل كيف يمكن لمادة صلبة فائقة الكثافة إتاحة هذا الوصول السريع إلى القارة القطبية الجنوبية.

في تلك اللحظة توقفت السيارة.

الفصل الرابع

بوابـة الجحـيم

نزلوا من السيارة، ورأى هوا باي تلَّة صغيرة غريبة أمامهم بلون الصدأ، وقاحلة تمامًا، ولا عُشبة واحدة على سطحها. أشار دينج يانج نحو المنحدر وقال:

- تلك تلة حديدية.

وحين رأى الدهشة على وجه هوا باي أضاف:

- قطعة معدن واحدة ضخمة.

نظر هوا باي حوله فرأى عدة «تلال حديدية» أخرى منتشرة في المكان، تبرز من الأرض بفواصل غير منتظمة، ألوانها شاذة وسط السهل الواسع الذي تتناثر فيه. بدا المشهد كأنه من كوكب غريب.

بحلول ذلك الوقت استطاع هوا باي المشي مجددًا، وإنْ مترنّحًا خلف آسريه، باتجاه بناء ضخم في البعيد. عبارة عن هيكل أسطواني مثالي، يزيد ارتفاعه عن مائة متر، وسطحه أملس بالكامل دون مدخل ظاهر. وحين اقتربوا، انزلق لوح حديدي ثقيل في جانب الهيكل مفسحًا لهم للدخول، ثم أُغلق بإحكام خلفهم.

وجد هوا باي نفسه داخل غرفة خافتة الإضاءة، تُشبه حجرة معادلة الضغط. على الجدار الأبيض الأملس تدلَّى صف طويلة مما بدا كأنه بدلات فضاء. أخذ كل شخص واحدة وشرع في ارتدائها، وساعد اثنان منهم هوا باي على ارتداء واحدة.

تلفَّت حوله فرأى بابًا منزلقًا آخر في جدار مقابل بعيد، تعلوه إشارة ضوئية حمراء، وبجانبها شاشة رقمية تعرض الضغط الجوي داخل الغرفة، وحين أُحكم تثبيت خوذته الثقيلة ظهرت على زاوية حاجب خوذته اليمنى شاشة عرض بلورية شفافة تبث سلسلة سريعة من الأرقام والبيانات. عرف أنَّ هذه الشاشة جزء من نظام التشخيص الداخلي للبدلة.

ثم دوَّى صوت عميق لآلات تبدأ في العمل. بدأ الرقم المعروض على شاشة الضغط الجوي فوق الباب يتناقص بسرعة، وفي أقل من ثلاث دقائق بلغ الصفر. تحوَّلت الإشارة الحمراء إلى خضراء، وانزلق الباب مفتوحًا كاشفًا عن ظلام الأسطوانة محكمة الإغلاق من الداخل.

تخمين هوا باي صحيح: الغرفة التي دخلوا منها غرفة معادلة ضغط، تفصل بين بيئة ذات غلاف جوي وأخرى معدومة الهواء. داخل الأسطوانة العملاقة مفرغ من الهواء تمامًا.

دخلوا من الباب، الذي أُغلق خلفهم، غارقين في ظلام دامس. اشتعلت أضواء خوذ بعضهم، ترسل خيوط ضوء باهتة في الفراغ. انتاب هوا باي ديجا فو[1]، وارتجف من الخوف. اخترق صوت دينج يانج خوذته عبر السماعات:

- تابِع السير إلى الأمام.

---

(1) ديجا فو: (Déjà vu) هي عبارة فرنسية تعني حرفيًا «شوهد من قبل». في علم النفس تشير إلى الشعور الغريب، والمفاجئ بأنك قد عشت أو رأيت موقفًا أو حدثًا معينًا من قبل.

أنار ضوء خوذته جسرًا ضيقًا أمامهم، لا يتجاوز عرضه ثلاث أقدام. لم يستطع أن يحزر طوله أو يرى نهايته وقد حجبها الظلام. وتحته لا شيء سوى السواد.

بخطوات مرتجفة سار هوا باي. يصدر حذاؤه الثقيل صوتًا مجوَّفًا كلما لامس سطح الجسر المعدني. مشى مسافة قصيرة، ثم التفت ليرى إن كان أحد قد تبعه. بينما يفعل انطفأت مصابيح جميع الخوذ فجأة، وغرق كل شيء في الظلمة.

بعد ثوانٍ بدأ ضوء أزرق يشع من تحت الجسر الضيق. نظر هوا باي خلفه، فرأى أنه على الجسر وحده، بينما وقف الآخرون عند بدايته يراقبونه. بدوا والأزرق يضيئهم من الأسفل كأشباح تحدّق به.

قبض على درابزين الجسر بقوة، ونظر إلى الأسفل، وما رآه جمَّد الدم في عروقه.

يقف فوق بئر عميقة. يبلغ قطرها حوالي ثلاثين قدمًا. وحلقات من الضوء متباعدة بالتساوي على طول جداره الداخلي؛ تمكَّن بفضل توهُّجها فحسب من تمييز وجود بئر. امتد الجسر فوق فوهته، ويقف هو في مركزها تمامًا.

لم يستطع رؤية قاع البئر، فقط حلقات لا حصر لها من الضوء تتضاءل عبر المنظور في البعد حتى تنتهي في نقطة، كأنما كان ينظر إلى هدف أزرق مضيء في الأعماق.

صرخ دينج يانج:

- حانت لحظة الحساب.. ستدفع دين ابنك!

أمسك بعجلة عند قاعدة الجسر وبدأ يديرها وهو يتمتم:

- هذا من أجل شبابي المسروق، من أجل موهبتي المُهدرة.

بدأ الجسر يميل إلى أحد جانبيه، فقبض هوا باي بقوة على الدرابزين الأعلى، محاولًا التمسك بكل قوته.

سلَّم دينج يانج العجلة إلى يتيم كارثة الاختراق المركزي، الذي أدارها بعنف وقال:

- هذا من أجل أمي وأبي، من أجل جسديهما الذائبين.

ازداد ميل الجسر.

تقدَّمت الفتاة التي قُتل والداها في كارثة المسمار الساقط وأمسكت بالعجلة. أدارتها بعينين حاقدتين وقالت:

- هذا من أجل تبخيركما لوالديَّ.

ثم جاء الرجل الذي حاول الانتحار بعد إفلاسه وأخذ مكان الفتاة عند العجلة:

- هذا من أجل أموالي.. من أجل الرولز رويس، واللينكولن، والفيلا على الشاطئ، والمسبح. هذا من أجل خراب حياتي، من أجل إذلال زوجتي وابني في طوابير المساعدات الباردة الطويلة.

انقلب الجسر تمامًا، مال إلى حدٍّ أنَّ هوا باي لم يبقَ له سوى التمسك بالدرابزين العلوي يحاول يائسًا تثبيت قدميه على الدرابزين السفلي. انضم الرجل الذي فقد عقله إلى من حاول الانتحار، وأدارا العجلة معًا.

كان واضحًا أنه لا يزال مضطربًا، ولم يقُل شيئًا، فقط حدَّق في البئر وضحك.. انقلب الجسر كليًا. وتدلَّى هوا باي من الحافة بكلتا يديه، معلقًا فوق الهاوية.

خفَّ شعوره بالخوف إلى حدٍّ ما. ينظر عبر بوابة الجحيم نحو هوَّة لا قرار لها وشريط حياته يمر أمام عينيه. طفولة وشباب رماديان، بلا فرح. نجح في دراسته وأبحاثه، وحتى بعد اختراعه تقنية «الطبقة السكّرية»، لم يشعر قط بالراحة في هذا العالم.

تبدو له العلاقات الشخصية دائمًا كشبكة عنكبوت، كلما كافح أكثر ازدادت خيوطها إحكامًا. لم يعرف الحب قط، وتزوَّج فقط بدافع الواجب، وحين قرَّر ألا ينجب جاءه طفل من حيث لا يدري.

رجل عاش في عالم من الخيال والأحلام، رجل من النوع الذي يزدريه معظم الناس. لم يجد له مكانًا بين البشر. حياته عزلة دائمة، صراع مستمر مع التيار. وضع كل أمله في المستقبل.

وها هو المستقبل قد جاء: أرمل، ابنه عدو البشرية، في مدينة ملوَّثة، بين أناس مسخهم الحقد.

اقترب اليأس من العصر الذي وجد نفسه فيه ومن حياته ذاتها، من ملء روحه. عزم ذات يوم على معرفة الحقيقة قبل موته، أمَّا الآن فلم يعُد ذلك مهمًا. مسافر أنهكه الطريق فحسب، لا يرغب في شيء سوى الراحة.

ارتفعت الهتافات حين أفلتت يده أخيرًا، وسقط نحو مصيره، إلى الحلقات الزرقاء المضيئة التي تنتظره في الأسفل. أغمض عينيه، واستسلم لانعدام الوزن. شعر كأنَّ جسده يتلاشى، ومعه ذلك العبء الساحق الذي اسمه الوجود.

وفي اللحظات الأخيرة من حياته طافت في ذهنه أغنية. علَّمها له أبوه، لحن سوفييتي قديم، نُسيَ تمامًا بحلول الوقت الذي دخل فيه إلى سُباته.

زار موسكو ذات مرَّة كباحث زائر، وبحث عن أحد يعرفها، فلم يجد، فأصبحت أغنيته الخاصة السرية.

لن يسعفه الوقت للدندنة سوى بنغمة أو اثنتين داخل رأسه قبل الارتطام بالقاع، لكنه يثق أنَّ روحه، حين تغادر جسده، ستدخل العالم الآخر وهي تُغنّي.

قبل إدراكه الأمر همس هوا باي بالفعل بنصف لحن الأغنية البطيء لنفسه. وفجأة استوعب كم من الوقت مضى. فتح عينيه فرأى نفسه يتجاوز حلقة تلو الأخرى من الضوء الأزرق.

لا يزال يسقط.

انطلق ضحك دينج يانج الجنوني عبر سماعات خوذته:

- ها ها.. ها ها! أنت على وشك الموت، يا له من شعور لا يُنسى!

نظر هوا باي إلى الأسفل نحو صف الحلقات متحدة المركز المتوهجة بالأزرق تحته. تمر خاطفة، واحدة تلو الأخرى، ومع كل مرة يعبر فيها دائرة أوسع تظهر أخرى جديدة في مركزها، صغيرة في البداية ثم تكبر بسرعة. ثم نظر إلى الأعلى، فرأى حلقات الضوء متحدة المركز تتسع في المسافة في تناظر تام مع المشهد أسفله. سأل:

- ما عمق هذه البئر؟

أجابه دينج يانج:

- لا تقلق، ستصل إلى القاع قريبًا. ثمَّة صفيحة فولاذية صلبة بالأسفل، وسترتطم بها مثل حشرة على زجاج سيارة! ها ها.. ها ها!

وأثناء حديثه لاحظ هوا باي أنَّ الشاشة الصغيرة في أعلى الزاوية اليمنى لخوذته عادت للعمل، وظهرت عليها حروف حمراء متوهجة تقول:

بلغت عمق خمسين ميلًا.

سرعتك الحالية: 0.86 ميل في الثانية.

تجاوزت فاصل موهوروفيتشيتش.

بعدما اجتزت القشرة الأرضية تدخل الآن الوشاح الأرضي.

أغمض هوا باي عينيه مرة أخرى دون موسيقى هذه المرَّة. استحال ذهنه لحاسوب، سريع، بارد، خالٍ من المشاعر. وبعد ثلاثين ثانية من التفكير فتح عينيه.

الآن فهم كل شيء. هذا هو مشروع «عتبة أنـــتـــاركـــتـــيكا». ليس ثمة صفيحة فولاذية في الأسفل. هذه بئر بلا قاع..

هذا نفق يخترق الأرض من طرف إلى آخر.

الفصل الخامس

النفق

تساءل هوا باي بصوت عالٍ وهو لا يزال يسقط:

- هل مسار النفق مماسّ أم يمرّ مباشرةً عبر نواة الكوكب؟

انفجر دينج يانج قائلًا:

- ذكي! اكتشفت الأمر!

وأضاف صوت آخر بدا أنه يتيم الاختراق المركزي:

- ذكي مثل ابنه تمامًا.

أجاب دينج يانج سؤاله:

- يمر عبر نواة الأرض، من موهي إلى أقصى شرق شبه جزيرة أنتاركتيكا.
- المدينة التي كنا فيها.. هي موهي؟!
- نعم، شهدت ازدهارًا بعد إنشاء النفق.
- على حدّ علمي فإنَّ نفقًا مستقيمًا من هناك عبر مركز الأرض سينتهي في جنوب الأرجنتين.
- هذا صحيح، لكنَّ هذا النفق مُنحنٍ قليلًا.
- ومع هذه الانحناءة ألا يمكن أن أرتطم بجدار النفق؟
- بل العكس.. لو اتجه النفق نحو الأرجنتين لاصطدمت بالجدار فعلًا. النفق المستقيم تمامًا لا يمكنه العمل إلا بين قطبي الأرض بطول محورها، أما النفق المائل على المحور فيجب

أن يأخذ في الحسبان دوران الأرض. انحناء هذا النفق ضروري لضمان سلاسة المرور خلاله.

قال هوا باي بانبهار صادق:

- هذا النفق إنجاز مذهل!

بلغت عمق 185 ميلًا.

سرعتك الحالية: 1.5 ميل في الثانية.

دخلت الغلاف الأسثينوسفيري[1] للأرض.

رأى هوا باي معدل مروره عبر الحلقات الضوئية يتسارع، وزادت كثافة الحلقات موحَّدة المركز من الضوء فوقه وتحته بشكل واضح.

قال دينج يانج:

- حفرُ نفق عبر الأرض ليس فكرة جديدة تمامًا. فكَّر فيها اثنان على الأقل في القرن الثامن عشر. أحدهما عالم الرياضيات بيير لوي موبرتويس[2]، والآخر لم يكن سوى فولتير. ثم أعاد طرح الفكرة لاحقًا الفلكي الفرنسي فلاماريون[3]، وكان أول من حسب لدوران الأرض.

---

(1) الغلاف الأسثينوسفيري: يقع تحديدًا في الجزء العلوي من وشاح الأرض (Mantle). كلمة «Asthenosphere» تأتي من اليونانية وتعني «طبقة ضعيفة» أو «طبقة غير قوية»، وهذا الوصف يعكس أهم خصائصه.

(2) بيير لوي موبرتويس: عالم فرنسي متعدد المواهب عاش في القرن الثامن عشر. عالم رياضيات، وفيزياء، وفيلسوف، وعالم فلك.

(3) فلاماريون: عالم فلك، ومؤلف شعبي ومروج للعلم، اشتهر بأسلوبه الأدبي الجذاب في الكتابة عن علم الفلك والكون. ولعب دورًا كبيرًا في نشر المعرفة الفلكية للجمهور العام في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين.

قاطعه هوا باي:

- لمَ تقول إنَّ الفكرة جاءت مني إذن؟

- لأنَّ أولئك كانوا يُجرون تجارب فكرية فحسب، بينما أثَّرت فكرتك في شخص ما، شخص موهوب وصاحب رؤية، جعل هذه الفكرة المجنونة واقعًا.

- لا أذكر أنني قلت شيئًا من هذا القبيل لشِن يوان.

- إذن ذاكرتك سيئة.. امتلكت رؤية غيَّرت مجرى التاريخ البشري، ونسيتها!

- بصراحة، لا أذكر.

- ألا تذكر رجلًا يُدعى ديلجادو، من الأرجنتين، والهدية التي قدَّمها لابنك في عيد ميلاده؟

بلغت عمق 930 ميلًا.

سرعتك الحالية: 3.2 ميل في الثانية.

لقد دخلت الغلاف الميزوسفيري للأرض.

تذكَّر هوا باي أخيرًا. في عيد ميلاد شن يوان السادس، دعا إلى منزله الفيزيائي الأرجنتيني الدكتور ديلجادو، الذي تصادف وجوده في بكين وقتها. كانت الأرجنتين إحدى دولتين من أمريكا الجنوبية برزتا كقوتين عظميين بعد الصراع على قارة أنتاركتيكا، ولها مطالبات إقليمية شاسعة في القارة، بعد هجرة أعداد كبيرة من المواطنين الأرجنتينيين إليها. كما بدأت في تسريع تطوير ترسانتها النووية، ما أثار قلقًا دوليًا كبيرًا.

وفي سياق نزع السلاح النووي عالميًا، انضمَّت الأرجنتين -بوصفها دولة نووية- إلى لجنة القضاء على الأسلحة النووية

التابعة للأمم المتحدة، وعمل كل من شن هوا باي وديلجادو معًا كخبيرين تقنيين في تلك اللجنة.

أهدى ديلجادو لشن يوان كرة أرضية مصنوعة من نوع جديد من الزجاج، من منتجات النهضة التقنية السريعة في الأرجنتين. مُعامل انكسار هذا الزجاج مساوٍ لمُعامل انكسار الهواء، فلا تراه تمامًا. بدت القارات على سطح الكرة كأنها طافية في الفضاء بين قطبي الأرض. أحب شن يوان هديته كثيرًا.

وأثناء الحديث بعد العشاء أخرج ديلجادو صحيفة صينية بارزة وأراها لهوا باي. احتوت على رسم كاريكاتيري سياسي، يصوِّر لاعب كرة قدم أرجنتينيًا شهيرًا يركل كوكب الأرض كما لو كان كرة قدم.

قال ديلجادو:

- لا أحب هذا الرسم.. الصين لا تعرف عن الأرجنتين سوى أننا نجيد لعب الكرة، وهذا الفهم المحدود يؤثر في السياسة الدولية. الصينيون يرون الأرجنتين دولة عدوانية.

قالت تشاو وينجيا، مبتسمة:

- حسنًا، دكتور، الأرجنتين أبعد دولة على وجه الأرض عن الصين. نحن على طرفي النقيض من الكوكب.

أمسكت بالكرة الأرضية الشفافة من يد شن يوان ورفعتها. تقاطعت الأرجنتين والصين من خلال الزجاج الشفاف تمامًا.

قال هوا باي وهو يأخذ الكرة منها:

- أعرف طريقة لتحسين التواصل بين بلدينا: علينا فقط حفر نفق عبر مركز الأرض.

قال ديلجادو:

- ذلك النفق سيكون طوله أكثر من 7500 ميل. وهذا لا يقل كثيرًا عن المسافة الجوية المباشرة.

أجاب هوا باي:

- لكن زمن الرحلة سيكون أقصر بكثير. تخيَّل فقط.. تحزم أمتعتك وتقفز إلى أحد طرفي النفق، ثم..

طرح هوا باي هذه الفكرة فقط لتحويل المحادثة بعيدًا عن السياسة، وقد نجح الأمر، إذ ردَّ ديلجادو باهتمام واضح:

- يا شن، طريقة تفكيرك فريدة فعلًا. لنرَ، بعد القفز في الحفرة ستتسارع سرعة سقوطه باستمرار. كلما هبطت أكثر هدأ التسارع[1]، لكنني سأظل أتسارع حتى أصل إلى مركز الأرض. عند المركز سأبلغ أقصى سرعة لي، وسيصبح التسارع صفرًا، ثم أبدأ في الصعود نحو الجهة المقابلة، وسأبدأ في التباطؤ، ويتزايد معدل التباطؤ كلما ارتفعت، وعندما أصل إلى سطح الأرض في الأرجنتين ستكون سرعتي صفرًا تمامًا.

وإذا أردت العودة إلى الصين فما عليَّ إلا القفز في الحفرة مجددًا. يمكنني تكرار هذه الرحلة إلى الأبد، في حركة توافقية بسيطة بين نصفي الكرة الأرضية. نعم، إنها فكرة رائعة، لكن زمن الرحلة.

قال هوا باي:

لنحسبها..

---

(1) التسارع: مدى سرعة تغيُّر سرعة الجسم (أو اتجاه حركته).

فتح حاسوبه. لم يستغرق الأمر إلا لحظة، بناءً على الكثافة المتوسطة للكوكب تابع:

- إذا قفزت في النفق من الصين، وقطعت 7917 ميلًا عبر الأرض، ستستغرق الرحلة اثنتين وأربعين دقيقة واثنتي عشرة ثانية.

قال ديلجادو وقد بدا عليه الرضا:

- هذا ما أسميه سفرًا سريعًا بحق!

بلغت عمق 1740 ميلًا.

سرعتك الحالية: 4 أميال في الثانية.

أنت تعبر فاصل جوتنبرج وتدخل نواة الأرض.

وأثناء استمرار هوا باي في السقوط قال دينج يانج:

- بالتأكيد لم تلحظ ذلك وقتها، لكنَّ الصغير الذكي شن يوان تشبَّث بكل كلمة قلتها تلك الليلة. ولن تعلم أبدًا أنه لم ينم لحظة واحدة فيها. ظلَّ يُحدِّق في الكرة الأرضية الشفافة بجانب سريره. تأثيرك في تفكيره كان هائلًا، زرعت بذورًا لا حصر لها في خياله. هذه البذرة تصادف أنها أثمرت.

جدار النفق على بُعد خمسة عشر قدمًا من هوا باي، يراه يندفع صاعدًا بسرعة، وحلقات الضوء تمر بجانبه بمثل هذه السرعة حتى بدت كأنها خط متصل على الجدار.

سأل هوا باي:

- هل الجدار مصنوع من مادة الحالة الصلبة الجديدة؟

- وأي شيء غيرها؟ هل ثمَّة مادة أخرى قوية بما يكفي لتشييد نفق كهذا؟

- لكن كيف أنتجتم مثل هذه الكمية الهائلة؟ وكيف يمكن نقل وتشغيل مادة كثافتها عالية لدرجة أنها تغوص في الأرض؟

أجاب دينج يانج:

- إليك جواب مختصر: مادة الحالة الصلبة الجديدة تُنتَج عبر سلسلة مستمرة من التفجيرات النووية الصغيرة، باستخدام تقنيتكم الشهيرة «الطبقة السكرية» بالطبع. عملية إنتاجها طويلة ومعقدة، ويمكننا إنتاج المادة بكثافات مختلفة. المادة ذات الكثافة المنخفضة لا تغوص في الأرض، لذا نستخدمها كأساسات ضخمة تحمل وزن المواد الأعلى كثافة دون أن تغوص عن طريق توزيع الضغط. ينطبق المبدأ نفسه على نقل المادة.

أمَّا تقنيات تشكيلها ومعالجتها فهي أكثر تعقيدًا مما يمكنك استيعابه الآن. يكفي أن تعرف أنَّ صناعة مادة الحالة الصلبة الجديدة صناعة ضخمة، تفوق الفولاذ من حيث الحجم. ومشروع عتبة أنتاركتيكا ليس سوى أحد تطبيقاتها.

سأل هوا باي:

- كيف بُني هذا النفق؟

أجاب دينج يانج:

- سأخبرك أولًا أنَّ الوحدة الأساسية في هيكل النفق هي أنبوب تبطين البئر. كل وحدة يبلغ طولها حوالي 320 قدمًا، ويتكوَّن النفق من حوالي 240.000 وحدة متصلة ببعضها، أما عن عملية البناء التفصيلية فأنت ذكي بما يكفي لتكتشفها بنفسك.

قال هوا باي:

- غرف غاطسة؟

أجاب دينج يانج:

-نعم، استخدمنا الغرفة الغاطسة. أولًا أنزلنا أنبوب التبطين وركَّبناه من مواقع في الصين والقارة القطبية الجنوبية في آن واحد، وعند ربط الوحدات معًا شكَّلت خطًا غير منقطع يخترق باطن الأرض.

الخطوة الثانية استخراج المواد من داخل الغلاف لتشكيل النفق. التلال المعدنية التي رأيتها عند مدخل النفق مصنوعة من المواد المُستخرَجة، سبائك الحديد والنيكل من نواة الأرض.

تولَّت «سفن جوفية» الربط الفعلي لأجزاء الغلاف، آلات مصنوعة من مادة الحالة الصلبة الجديدة، قادرة على الحركة بين الطبقات الجيولوجية للأرض. بعض النماذج يمكنها العمل في أعماق النواة. استخدمنا هذه الآلات لتوجيه أقسام الغلاف وغرسها في مواقعها بدقة.

- وفقًا لحسابي لا تحتاج العملية التي وصفتها لأكثر من 120.000 وحدة من الغلاف.
- المواد فائقة الكثافة تتحمَّل الضغوط ودرجات الحرارة العالية في باطن الأرض، لكن حركة المواد السائلة في باطن الأرض تطرح تحديًا أكبر، فثمَّة ماجما في الأعماق القريبة نسبيًا، لكنَّ الخطر الحقيقي يكمن في النواة، حيث تتسبَّب حركة الحديد والنيكل السائلين في قوى قص[1] هائلة تؤثر على النفق.

المادة الجديدة من الحالة الصلبة قوية بما يكفي لتحمُّل هذه

(1) قوى القص: قوة تعمل بشكل موازٍ لسطح المادة، وتُسبب انزلاق جزء منها بالنسبة للجزء الآخر.

القوى، لكن اللحامات ليست كذلك، لذا بُني النفق بطبقتين من الغلاف، واحدة تلتف بإحكام حول الأخرى، وعن طريق تعشيق الوصلات بين الطبقتين بطريقة متبادلة تمكنا من تحقيق مقاومة كافية لقوى القص.

لقد وصلت إلى عمق 3350 ميلًا.

سرعتك: 4.8 ميل في الثانية.

أنت تقترب من النواة الصلبة للأرض.

- أظن أنك ستبدأ الآن بسرد الكوارث التي تسبَّبت بها هذه الخطة.

الفصل السادس
الـــكارثـــــة

تابع دينج يانج:

- قبل خمسة وعشرين عامًا تعرَّض مشروع عتبة أنتاركتيكا لأول كارثة بالتزامن مع دخوله المرحلة النهائية من المسح والتصميم.

تطلَّبت هذه المرحلة حركة ملاحة جوفية واسعة. في إحدى الرحلات الاستكشافية تعرَّضت سفينة تُدعى صن ست 6 لعطل أثناء وجودها في وشاح الأرض فانزلقت إلى النواة. قُتل اثنان من ثلاث هم كل طاقمها، ونجت فقط ملاحة شابة. لا تزال هناك، محاصَرة داخل تلك السفينة الجوفية، محكومة بأن تقضي ما تبقَّى من حياتها في قلب الأرض.

جهاز الاتصال النيوتريني الموجود على متن السفينة لم يعد قادرًا على إرسال الرسائل، لكنها، ربما، لا تزال تستقبل إشاراتنا. آه، صحيح، اسمها شين جينج. حفيدتك.

توقف قلب هوا باي لوهلة.

بسرعة كتلك بدت الحلقات الضوئية على جدار النفق تتلاشى تقريبًا، وجعل الضوء الأزرق القاسي الجدار كله يبدو كأنه يتوهج. شعر هوا باي كأنه يسقط في نفق عبر الزمن، إلى ماضٍ قريب.. لا يعرفه.

لقد وصلت إلى عمق 3.600 ميل.
سرعتك: 4.8 ميل في الثانية.
دخلت النواة الصلبة وتقترب من مركز الأرض.

- في السنة السادسة من البناء وقعت كارثة الاختراق المركزي المأساوية. كما ذكرت، يتكوَّن جدار النفق من طبقتين متداخلتين من الغلاف.

قبل تركيب وحدة من الطبقة الداخلية كان من الضروري ربط الوحدات الملاصقة من الغلاف الخارجي، وإزالة كل المواد من داخلها، إذ إنَّ أي بقايا قد تُضعف الإغلاق المحكم بين الطبقتين.

كانت هذه مهمَّة حساسة من حيث الوقت، خاصة في النواة السائلة. بعد وصل وحدتين من الحلقة الخارجية، وقبل إدخال الوحدة الداخلية كان على الطبقة الخارجية أن تتحمَّل وحدها قوى تدفق الحديد والنيكل.

صُمِّمت البرشمة المستخدمة في الربط لتكون فائقة القوة، وتتحمَّل تدفق النواة لأجل غير محدَّد، نظريًا.

لكن على عمق 300 ميل داخل النواة تعرَّضت وحدتان موصَّلتان حديثًا إلى اندفاع غير متوقَّع في تدفق النيكل- حديد، بلغ خمسة أضعاف أي قوة سُجِّلت في المسوحات السابقة. أدَّى هذا الاندفاع إلى زحزحة الوحدات، وفي لحظة اندفعت مواد النواة عالية الحرارة والضغط عبر الثغرة إلى داخل غرفة الغطس، وصعودًا عبر النفق.

بمجرد اكتشاف الخرق أصدر شِن يوان، المدير العام للمشروع، أمرًا فوريًا بإغلاق بوابة جوتنبرج، وهي صمام أمان يقع

عند فاصل جوتنبرج. في ذلك الوقت كان أكثر من 2500 مهندس يعملون في النفق حتى امتداد خمسمائة ميل تحت البوابة.

أسرع هؤلاء إلى ركوب مصاعد الشحن عالية السرعة للإخلاء فور علمهم بالخرق. غادر آخر مصعد على بُعد نحو عشرين ميلًا فقط قبل قمة تدفق النيكل والحديد.

في النهاية عبر 61 مصعدًا فقط بوابة جوتنبرج قبل إغلاقها، أما الباقون فعلقوا في الجانب الخطأ، ابتلعهم تيار النواة المتفجِّر بحرارة تجاوزت السبعة آلاف درجة. قُتل 1527 شخصًا.

أحدثت الكارثة صدمة عالمية، واتفق الجميع على تحميل شِن يوان المسؤولية، لكنهم اختلفوا في تقييم قراره. قال فريق إنه كان بإمكانه الانتظار حتى تمر كل المصاعد قبل إغلاق البوابة، كان آخر مصعد عبَر يتقدم على التدفق بنحو عشرين ميلًا، صحيح مغامرة، لكنها في الإمكان.

وحتى لو تجاوز التدفق بوابة جوتنبرج قبل إغلاقها فإنَّ هناك بوابة أخرى -بوابة موهو- عند فاصل موهوروفيتشيتش. اتهمه أفراد من أسر الضحايا بالقتل، وكان رده العلني جملة واحدة: «كان عليَّ التصرف بسرعة». ولم يكن مخطئًا، فأي تردد ربما تسبَّب في كارثة عالمية.

ظهرت لاحقًا موجة من أفلام الكوارث تتناول المشروع، أشهرها «نافورة المعدن»، تصوُّر كابوسي لما قد يحدث لو أنَّ مواد النواة اخترقت سطح الأرض. تحكي قصته اندفاع عمود من

النيكل والحديد السائل من النفق إلى الاستراتوسفير[1]، وتفتحه مثل زهرة موت.

أضاء بريقه الأبيض القوي نصف الكرة الشمالي كله، وسقط مطر من المعدن المنصهر حوَّل قارة آسيا إلى فرن. انتهت البشرية كما انتهى الديناصور. لم تكن هذه مبالغة فنية، بل سيناريو محتمل.

ولهذا واجه شِن يوان اتهام آخر عكس الأول: توجَّب عليه الإغلاق فورًا دون انتظار 61 مصعدًا. كان هذا هو الرأي الأكثر شيوعًا، وصنَّف البعض فعله كـ«إهمال إجرامي بحق البشرية».

لم تكن هناك أرضية قانونية واضحة لأي من التهمتين، لكن شِن يوان استقال من منصبه القيادي، ورفض تولي أي منصب آخر، واستمر في عمله في النفق كمهندس عادي.

تحوَّل الضوء على جدار النفق فجأة من الأزرق إلى الأحمر.

وصلت إلى عمق 3900 ميل.

سرعتك: 5 أميال في الثانية.

أنت تعبر مركز الأرض.

عاد صوت دينج يانج عبر سماعات هوا باي:

- سرعتك الحالية تكفي للدخول في مدار حول الأرض، لكنَّ موقعك في مركز الكوكب يعني أنَّ العالم كله يدور من حولك.. القارات والمحيطات، المدن والبشر، كلها تدور حولك.

وسط الضوء الأحمر الكئيب، انبعثت في ذهن هوا باي مقطوعة موسيقية أخرى، سيمفونية عظيمة هذه المرَّة. مسافر

(1) الاستراتوسفير: الجزء الأعلى من غلاف الأرض الجوي.

بالسرعة الكونية الأولى[1]، عبر نفق يمر بمركز الأرض، نفق جعلته جدرانه المتوهجة باللون الأحمر يشعر كأنه يطفو في أحد عروق كوكب حي. خفق قلبه بشدة.

تابع دينج يانج:

- مادة الحالة الصلبة الجديدة عازل ممتاز، لكنَّ الهواء من حولك لا يزال فوق 2700 درجة. نظام التبريد في بذلتك يعمل بأقصى طاقته.

وبعد نحو عشر ثوانٍ استحال الضوء الأحمر إلى الأزرق الهادئ.

اجتزت مركز الأرض وبدأت الصعود والتباطؤ.

لقد صعدت 3 أميال.

سرعتك: 4.8 ميلفي الثانية.

أنت في نواة الأرض الصلبة.

هدَّأه الضوء الأزرق، وقد اعتاد الآن على انعدام الوزن، فاستدار ببطء ليجعل رأسه في المقدمة، مما جعله يشعر كأنه يصعد لا يسقط. سأل:

- ألم تقع كارثة ثالثة؟

- وقعت كارثة المسمار الساقط قبل خمس سنوات، بعد الانتهاء رسميًا من مشروع عتبة أنتاركتيكا وافتتاحه للاستخدام. عبرت قطارات النواة النفق بلا توقف.

---

(1) السرعة الكونية الأولى: مفهوم أساسي في علم الميكانيكا المدارية يُشير إلى الحد الأدنى للسرعة التي يحتاجها جسم ما ليتمكَّن من الدوران حول كوكب (مثل الأرض) في مدار دائري منخفض، دون أن يسقط مرة أخرى على السطح، ودون الهروب من جاذبية الكوكب.

عربات القطار عبارة عن أسطوانات بقُطر 27 قدمًا وطول 165 قدمًا؛ وتألَّف القطار الواحد مما يصل إلى مائتي عربة تنقل 22 ألف طن من البضائع ونحو عشرة آلاف راكب. تستغرق الرحلة في اتجاه واحد عبر مركز الأرض 42 دقيقة فقط، دون أي مصدر طاقة سوى الجاذبية.

في محطة موهو أسقط فني صيانة مسمارًا داخل النفق دون قصد. لم يكن قُطره يتجاوز خمس بوصات، لكنه مصنوع من مادة جديدة تمتص الموجات الكهرومغناطيسية، ما جعله غير مرئي لأنظمة الرادار.

سقط المسمار عبر الأرض حتى محطة أنتاركتيكا، ثم عاود السقوط من جديد. قُرب مركز الأرض اصطدم بقطار نواة كان يصعد باتجاه القارة الجنوبية.

سرعة المسمار النسبية اقتربت من 10 أميال في الثانية؛ طاقته الحركية جعلته كصاروخ.

اخترق أول عربتين، مُبخِّرًا كلَّ شيء في طريقه، وأدَّى الانفجار إلى انحراف القطار الذي اصطدم بجدار النفق بسرعة 5 أميال في الثانية، ومزَّقه بالكامل.

تأرجح الحطام داخل النفق جيئة وذهابًا. وصل بعضه إلى السطح، لكنَّ معظم الشظايا فقدت الزخم وبقيت قرب النواة. استغرق الأمر شهرًا لإزالة الحطام من النفق.

ولم نتمكَّن من استعادة جثث 3000 راكب كانوا على متن القطار، أحرقتهم حرارة النواة بالكامل.

صعدت 1.360 ميلًا من مركز الأرض.

سرعتك: 4.6 ميل في الثانية.

دخلت مجددًا النواة السائلة للأرض.

- لكنَّ الكارثة الأكبر كانت المشروع نفسه. مشروع عتبة أنتاركتيكا، إنجاز هندسي غير مسبوق، لكنه حماقة اقتصادية لا تُصدَّق. ولا أحد حتى الآن يفهم كيف يمكن لدراسة جدوى بهذه السذاجة أن تخرج عن الورق أصلًا.

لعب طموح شِن يوان المتهور دورًا لا ريب، لكنَّ الهوس الجماعي بالبقاع الجديدة وعبادة التكنولوجيا مثَّل السبب الحقيقي. فائدة المشروع الاقتصادية جفَّت يوم اكتماله.

صحيح مكَّن النفق من السفر بسرعة هائلة وبدون استهلاك موارد تقريبًا -اعتاد الناس القول: «ارمه في النفق» أو «اقفز في النفق»- لكن تكلفة البناء كانت هائلة، ورسوم النقل على قطارات النواة فلكية.

وعلى الرغم من السرعة فإنَّ الكلفة العالية جعلت المشروع غير قادر على المنافسة أمام وسائل النقل التقليدية.

حلم البشرية في القارة الجنوبية تحطَّم سريعًا. آخر أرض عذراء في العالم استهلكها زحف صناعي جارف ودمَّرها بالكامل، مثل أي مكان آخر في العالم تحولت إلى مكب نفايات.

دُمِّرت طبقة الأوزون فوقها، وتأثر العالم كله. حتى في النصف الشمالي بات التعرُّض للأشعة فوق البنفسجية يستوجب تغطية الجلد بالكامل. تسارع ذوبان الجليد هناك رفع مستويات البحار عالميًا.

وسط هذه الكوارث انتصرت العقلانية مجددًا: وقَّعت الدول الأعضاء في الأمم المتحدة معاهدة جديدة تقضي بانسحاب فوري وكامل من القارة القطبية الجنوبية.

عادت أرضًا برية، ونتوقع تعافي بيئتها تدريجيًا. أدَّى ذلك إلى انخفاض حاد في الطلب على الشحن إلى هناك، وبعد كارثة المسمار الضائع، توقفت كل عمليات قطارات النواة.

أُغلق النفق منذ ثماني سنوات، لكنَّ أثره على الاقتصاد لا يزال قائمًا. خسر آلاف المستثمرين كل ما لديهم بعد شراء أسهم شركة عتبة أنتاركتيكا، ما تسبَّب في اضطرابات اجتماعية حادة.

كان النفق ثقبًا أسود للمستثمرين، ودفع باقتصاد البلاد إلى شفا الانهيار. حتى اليوم ما نزال نُعاني من تبعاته. هذه هي قصة مشروع عتبة أنتاركتيكا.

مع تباطؤ سرعة هوا باي بدأت الهالة الزرقاء على جدار النفق تتلاشى، وراح يُميِّز كل حلقة تمر أمامه بوضوح.

في الاتجاهين ظهرت الحلقات مجددًا كمجموعة دوائر موحَّدة المركز، وهدف دقيق يدعوه إلى الأمام.

لقد بلغت ارتفاع 2.980 ميلًا فوق نواة الأرض.

سرعتك: 3.1 ميل في الثانية.

أنت تعبر الغلاف الأوسط للأرض.

الفصل السابع

موت شِن يوان

سأل هوا باي:

- ماذا حلَّ بابني؟

- بعد إغلاق النفق بقي شن يوان ضمن طاقم محدود في محطة موهي. هاتفته ذات مرَّة، فقال إنه «مع ابنته»، ثم أغلق الخط. لم أفهم مغزى هذه الكلمات الغامضة إلا بعد سنوات. من الصعب وصف الأمر بالكلمات. أمضى وقته كله مرتديًا بزة محكمة الإغلاق، يتأرجح صعودًا وهبوطًا عبر النفق. ينام داخله، ولا يعود إلى المحطة إلا للأكل وشحن بذلته. يعبر الأرض حوالي اثنتين وثلاثين مرَّة في اليوم. يومًا بعد يوم، وسنة بعد سنة، يسافر من موهي إلى شبه جزيرة أنتاركتيكا، ويعود، في موجة توافقية بسيطة[1] بدورة مقدارها أربع وثمانون دقيقة واتساع[2] قدره 7830 ميلاً.

لقد ارتفعت 3730 ميلًا من مركز الأرض.

سرعتك 1.5 ميل في الثانية.

---

(1) موجة توافقية بسيطة: أبسط أشكال الحركة الاهتزازية. تحدث عندما يتعرض جسم لقوة إعادة تتناسب طرديًا مع إزاحته عن موضع الاتزان.

(2) الاتساع: أقصى مسافة يبعدها الجسم عن نقطة الاتزان في أي من الاتجاهين.

أنت تمر عبر الغلاف الأستينوسفيري.

- لا أحد يعلم على وجه التحديد ما كان يفعله شِن يوان خلال سقوطه اللانهائي. وفقًا لزملائه في كل عبور له عبر مركز الأرض يستخدم جهاز تواصل نيوتريني ليتصل بابنته. أجرى، غالبًا، محادثات طويلة معها إبان سقوطه من طرف واحد بالطبع. لكنَّ شين جينج، المحاصرة في مركبة صن ست 6، وأثناء ما تنجرف في تيار النيكل والحديد في لُبِّ الأرض، ربما سمعته.

أخضع جسده لفترات طويلة من انعدام الوزن، لم تقطعها سوى دقائق قصيرة يوميًا يتعرَّض فيها لقوة الجاذبية الطبيعية للأرض عندما يعود إلى المحطة لتناول الطعام وإعادة شحن بدلته. كان رجلًا مُسنًا، والتغير الدائم في الجاذبية أضعف قلبه.

توقَّف قلبه عن العمل إبان سقوطه. ولم يلحظ أحد ذلك. استمر جسده في التنقل عبر النفق لمدة يومين حتى نفدت شحنة بذلته المحكمة. لقد صار النفق محرقة لجسده. أما عبوره الأخير لمركز الأرض فقد أحاله رمادًا. أعتقد أنَّ ابنك كان سيرضى بهذا المصير.

سأل هوا باي بهدوء:

- وهذا سيكون مصيري أيضًا، أليس كذلك؟

- ينبغي أن يُرضيك أنت أيضًا. رأيت كل ما أردته قبل موتك. خططنا في البداية لطرحك في النفق دون بزة، لكننا في النهاية قرَّرنا منحك نظرة شاملة على ما صنعه ابنك.

- نعم، أنا راضٍ. كانت هذه الحياة كافية. وأنا ممتن لكم جميعًا، بصدق.

لم يأتِ أي رد. إذ اختفى طنين السماعات في أذنيه فجأة. قطع منفذو حكم الإعدام، الواقفون على الجانب الآخر من العالم، الاتصال.

رفع هوا باي بصره. كانت الحلقات الضوئية متَّحدة المركز فوقه متباعدة جدًا الآن. استغرق عبوره كلَّ حلقة منها ثانيتين أو ثلاثًا، والفواصل الزمنية بينها تزداد طولًا. جاء صفير عبر سماعات رأسه، وظهرت كلمات على حاجب خوذته:

بلغت ارتفاعًا قدره 3850 ميلًا فوق مركز الأرض.

سرعتك 0.9 ميل في الثانية.

تجاوزت فاصل موهوروفيتشيك، وتدخل الآن القشرة الأرضية.

تحذير!

أنت تقترب من محطة أنتاركتيكا الطرفية.

في مركز الحلقات فوقه لم يكن هناك سوى فراغ يكبر مع اقترابه من حلقة الضوء الأزرق الأخيرة. وعبرها صعد ببطء نحو جسر يمتد فوق فوهة النفق، مطابق للجسر في الطرف الآخر. فوقه وقف عدة أشخاص يرتدون بزّات محكمة، وحين خرج من فم النفق مدُّوا أيديهم وأمسكوا به وسحبوه إلى أعلى الجسر.

الجزء الداخلي من محطة أنتاركتيكا مظلم كذلك، لا يضيئه سوى توهُّج الحلقات الزرقاء من الأسفل. رفع هوا باي رأسه فرأى جسمًا أسطوانيًا ضخمًا معلقًا فوقه، قُطره أصغر قليلًا من قطر

النفق. سار على الجسر نحو حافة الفوهة ونظر مجددًا إلى أعلى.

ثمَّة صف كامل من الأسطوانات المعلَّقة فوق فم النفق. عدَّ منها أربعًا، وخمَّن أنَّ الظلام يُخفي المزيد. كما عرف أنَّ هذا -ولا بد- قطار النواة الذي خرج من الخدمة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل الثامن

أنتـــاركـــتـــيكا

بعد نصف ساعة خرج هوا باي من محطة نفق أنتاركتيكا، ترافقه مجموعة من رجال الشرطة الذين أنقذوا حياته. وقف على سهل قطبي بلا ثلوج.

في البعد ظهرت مدينة مهجورة. الشمس معلَّقة قُرب الأفق، ترسل أشعتها الضعيفة على القارة الشاسعة المقفرة. الهواء أنقى من هواء الطرف الآخر من الأرض، ولم يكن بحاجة إلى قناع تنفس.

أخبره أحد رجال الشرطة أنهم جزء من وحدة صغيرة بقيت لحراسة المدينة الفارغة. هرعوا إلى المحطة فور تلقيهم تنبيهًا من الدكتور قو. ولمَّا وصلوا وجدوا فوهة النفق مغلقة، فاتصلوا على الفور بإدارة النفق وقدَّموا طلبًا عاجلًا لإزالة الغطاء.

اقترب هوا باي من فوَّهة النفق لحظة فتحها، فرأوه يصعد نحوهم وسط الضوء الأزرق كأنه يطفو من أعماق المحيط، لو تأخر الفتح بضع ثوانٍ فقط لهلك.

كانت سدَّادة النفق ستمنع صعوده ويبدأ في السقوط من جديد نحو نصف الكرة الشمالي، ووقود بذلته سينفد قبل بلوغ النواة، فتحرقه الحرارة إلى رماد، تمامًا كما حدث مع ابنه.

- اعتُقل دينج يانج والمتواطئون معه، وسيُحاكمون بتهمة الشروع

في القتل. لكن..

توقف الضابط وحدَّق في هوا باي بغضب:

أنا أتفهَّم دوافعهم.

لا يزال هوا باي يعاني من الدوار الناتج عن انعدام الوزن. نظر إلى الشمس المعلَّقة في حافة السماء وتنهَّد:

- كانت هذه الحياة كافية.

قال ضابط آخر:

- إذا كنت تشعر بذلك فسيكون من الأسهل عليك تقبُّل مصيرك.

استعاد هوا باي تركيزه واستدار نحو الضابط الثاني:

- مصيري؟

- لن تقدر على العيش في هذه الأزمنة، وإلا سيتكرر معك هذا النوع من الأمور. لكن لحسن حظك لدى الحكومة برنامج يسمى «الهجرة الزمنية» لتقليل الضغط السكاني على البيئة. بموجب هذا البرنامج يُلزم جزء من السكان بالدخول في سُبات تجميدي، ليُبعثوا في زمن لاحق. وقد تلقينا أوامرنا بالفعل، ستكون أحد المهاجرين الزمنيِّين. لا أعرف ستوقظ.

استغرق الأمر وقتًا طويلًا حتى فهم هوا باي تمامًا ما قيل له، وحين أدركه انحنى بعمق للضابط وقال:

- شكرًا لكم. كيف أكون محظوظًا دائمًا بهذا الشكل؟

سأل الضابط وقد بدت عليه الحيرة:

- محظوظ؟ المهاجرون الزمنيون من هذا العصر سيجدون صعوبة بالغة في التكيُّف مع مجتمع المستقبل. لا أمل لشخص من الماضي مثلك!

ظهرت ابتسامة خافتة على وجه هوا باي:

- لا يهم. المهم هو أنني سأحظى بفرصة لرؤية نفق الأرض يستعيد مجده!

قهقه رجال الشرطة ساخرين:

- لا تراهن على ذلك. لقد كان المشروع كارثة! سيظل إلى الأبد مجرد نُصب تذكاري لفشلك أنت وابنك.

ضحك هوا باي بصوت عالٍ: «ها ها.. ها!»، لا يزال ضعيفًا من أثر انعدام الوزن، بالكاد يقف، لكنَّ روحه تحلق عاليًا:

- سور الصين العظيم والأهرامات كانت مشاريع فاشلة أيضًا؛ المغول غزوا الصين من الشمال، ومومياء الفرعون لم تُبعث من جديد. لكن هل هذا هو ما تعنيه لنا هذه المشاريع الضخمة الآن؟ كلا، نحن نراها نُصُبًا تمجِّد الروح البشرية!

وأشار خلفه إلى الأسطوانة الضخمة لمحطة النفق:

- هذا النفق هو السور العظيم يخترق باطن الأرض نفسها، وأنتم تقفون عند حافته تبكون كما بكت السيدة منج جيانج[1]! ما أتعسكم! ها ها ها ها!

فتح هوا باي ذراعيه ليعانق ريح القطب الجنوبي الباردة.

وقال بسعادة:

- يوان، كانت حياتنا كافية.

---

(1) تحكي الأسطورة أنَّ منج جيانج بعدما تزوجت بوقت قصير، اقتيد زوجها للعمل في بناء سور الصين العظيم، ولمَّا راحت للبحث عنه أخبروها أنه مات من التعب ودُفن في السور. بكت بمرارة ويأس لدرجة أن دموعها الغزيرة لم تتوقف لمدة ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ. وكانت شدة حزنها وبكائها عظيمة جدًا لدرجة أن جزءًا من سور الصين العظيم انهار ليكشف عن رفات زوجها.

خاتمة

بعد مُضي نصف قرن استيقظ هوا باي مرَّة أخرى ليشهد تجربة شبه مطابقة للفائتة: أُخذ من قِبل مجموعة أشخاص إلى سيارة، أقَلته إلى محطة موهي الطرفية في النفق. أُلبس بزة محكمة الإغلاق أثقل بكثير، لسبب ما، من تلك التي ارتداها قبل خمسين عامًا، ثم أُلقي به مجددًا في النفق.

بعد خمسين عامًا، بدا النفق كما كان: هاوية بلا قاع، مضاءة بحلقات زرقاء لا نهاية لها تحيط بجدرانه، لكن هذه المرَّة قفز شخص آخر معه. شابة جميلة، قدَّمت نفسها كـمرشدته السياحية.

قال هوا باي بحماسة وهو يهوي:

- مرشدة سياحية؟ إذن صدق توقُّعي، أضحى النفق إحدى عجائب الدنيا، كسور الصين العظيم أو الأهرامات!

ردَّت وهي تمسك بيده ليحافظا على نفس سرعة السقوط:

- لا، ليس مثل تلك الأماكن. لقد أصبح النفق..

ثم تلاشى صوتها وهي تعدِّل قبضتها بعناية.

- ماذا أصبح؟

- مدفع العالم!

نظر هوا باي حوله مجددًا إلى جدران النفق المتسارعة، يحاول الفهم:

- ماذا؟

شرحت المرشدة:

- بعد دخولك في السبات ازداد تدهور البيئة. التلوث وتدمير طبقة الأوزون قضيا على ما تبقّى من غطاء نباتي على سطح الأرض. صار الهواء القابل للتنفس سلعة. حينها لم يكن أمامنا إلا خيار واحد لإنقاذ الأرض: إغلاق جميع الصناعات الثقيلة كثيفة الطاقة..

قاطعها هوا باي:

- ربما يُساعد ذلك البيئة، لكنه يعني نهاية الحضارة.

أجابت:

- قبِل كثير من الناس بذلك كأثر جانبي لا مفر منه نظرًا لحجم الكارثة، لكنَّ آخرين استمروا في البحث عن مخرج آخر، وكان البديل الأكثر واقعية هو نقل كل الصناعات إلى القمر والفضاء الخارجي.

- هل شيَّدتم مصعدًا فضائيًا؟

- لا، رغم أننا حاولنا. اتضح أنَّ ذلك أصعب من حفر نفق الأرض بكثير.

- هل ابتكرتم مركبات مضادة للجاذبية؟

- كلا، بل ثبت استحالة ذلك نظريًا.

- صواريخ تعمل بالطاقة النووية؟

- بلى، لدينا مثلها، لكنها ليست أرخص بكثير من الصواريخ التقليدية. استخدامُها لنقل كامل الصناعة إلى الفضاء سيشكِّل كارثة اقتصادية تضاهي كارثة هذا النفق.

- إذن لم تتمكنوا في النهاية من نقل شيء إلى الفضاء.

ابتسم «هوا باي» ابتسامة قاتمة:

- هل دخل العالم عصر ما بعد الإنسان؟

لم تُجِب المرشدة. سقطا معًا في صمت نحو الهاوية، فيما تزداد كثافة حلقات الضوء الزرقاء حتى اندمجت في سطح واحد مشع على جدران النفق.

وبعد عشر دقائق تحوَّلت الأضواء إلى الأحمر، ومرَّا بصمت عبر مركز الأرض بسرعة خمسة أميال في الثانية. سرعان ما عاد الجدار ليكتسي باللون الأزرق، واستدارت المرشدة بجسدها 180 درجة لتبدأ الصعود بوضعية الرأس للأعلى، فتبعها هوا باي بحركة خرقاء.

- أوه!

صرخ مندهشًا. تشير شاشة العرض في أعلى زاوية حاجب خوذته اليمنى إلى أنَّ سرعتهما بلغت 5.3 ميل في الثانية. مرَّا بمركز الأرض، لكنهما ما زالا يتسارعان.

وأمر آخر أثار قلق هوا باي: شعر بقوة الجاذبية، ومن المفترض أنَّ عملية السقوط عبر الأرض تحدث في حالة انعدام الوزن، لكنه شعر بوزنه بوضوح. وبحدس العالِم أدرك أنَّ ما يشعر به ليس جاذبية، بل دفع، قوة ما تدفعهما إلى الأمام وتسبِّب تسارعهما، على الرغم من أنَّ الجاذبية كان ينبغي أن تُبطئهما الآن.

سألت المرشدة فجأة:

- هل قرأت «من الأرض إلى القمر» لجول فيرن؟[1]

ردَّ هوا باي شاردًا:

- في شبابي. ربما أغبى كتاب قرأته.

جُل انتباهه على ما يدور حوله، محاولًا معرفة ماهية القوة الغريبة المؤثرة عليهم.

- ليس كذلك أبدًا. لتنفيذ نقل واسع وسريع إلى الفضاء يُعتبر المدفع وسيلة مثالية.

- إلا إذا سحقتك سرعة الإطلاق.

- هذا يحدث في حالة التسارع المفاجئ فحسب، ويحدث التسارع المفاجئ إن كانت ماسورة المدفع قصيرة جدًا، لكن مع ماسورة طويلة بما يكفي يمكن تسريع الحمولة بلطف كما يحدث معنا الآن.

- إذن نحن داخل مدفع فيرن؟

- كما قلت لك، يُسمى مدفع العالم.

نظر هوا باي إلى النفق الأزرق محاولًا تخيله كسبطانة مدفع. ومع هذه السرعة بدا الجدار كأنه سطح أزرق ثابت متَّصل. لذا شعر كأنهما ساكنان يحومان داخل أنبوب متوهج بالأزرق.

- في عام سُباتك الرابع طوَّرنا نوعًا جديدًا من المادة الصلبة الحديثة تحتفظ بخصائص المواد السابقة، لكنها أيضًا موصِّل ممتاز.

---

(1) من الأرض إلى القمر (From the Earth to the Moon) رواية خيال علمي كلاسيكية كتبها المؤلف الفرنسي الشهير جول فيرن (Jules Verne) ونُشرت عام 1865. تتناول فكرة رحلة البشر إلى القمر باستخدام مدفع عملاق بإطلاق قذيفة مأهولة.

لُفَّ سلكٌ سميك مصنوع منها حول نصف النفق الموجود في القارة القطبية الجنوبية ليعمل كملف كهرومغناطيسي بطول أربعة آلاف ميل.

- وما مصدر طاقته؟

- ثمَّة تيار كهربائي قوي في النواة يُنتج المجال المغناطيسي للأرض. استخدمنا سفن النواة لتركيب أكثر من مائة حلقة بطول ألف ميل من الأسلاك فائقة التوصيل داخل النواة. هذه الحلقات تجمع التيار وتنقله إلى الملف المحيط بالنفق، فيصبح ذا حقل كهرومغناطيسي قوي. في أكتاف وخصور بذلاتنا ثمَّة ملفَّان فائقا التوصيل يُنتجان مجالًا مغناطيسيًا معاكسًا، وهكذا نحصل على قوة الدفع.

واصل الاثنان تسارعهما حتى اقتربا من نهاية النفق، وعندما حدث ذلك عاد الجدار يتوهج بالأحمر من جديد.

- سرعتنا الآن 9.3 ميل في الثانية، أي أعلى من سرعة الإفلات[1].

نحن على وشك الانطلاق من مدفع العالم!

فُكِّكت محطة قطار النواة الشاهقة أعلاهما منذ مدة طويلة، ولم يبقَ سوى بوابة مُحكمة الإغلاق تغطي فوهة بسيطة تفتح على السماء مباشرة.

تردَّد صوت مسجل في خوذتيهما:

---

(1) تُعرف أيضًا بالسرعة الكونية الثانية (Second Cosmic Velocity)، هي الحد الأدنى للسرعة التي يجب أن يمتلكها جسم ما عند سطح كوكب معين (أو من أي نقطة في مجاله الجاذبي) لكي يتمكن من التغلب على جاذبية ذلك الكوكب والابتعاد عنه إلى الفضاء اللا نهائي.

انتباه الركاب: مدفع العالم على وشك بدء الإطلاق الثالث والأربعين لليوم. يُرجى ارتداء نظارات الحماية وسدَّادات الأذن. عدم القيام بذلك سيُسبِّب ضررًا دائمًا في البصر والسمع.

بعد عشر ثوانٍ انفتحت فوَّهة النفق البالغ عرضها ثلاثين قدمًا بصوت عالٍ. تدفَّقت الرياح إلى الفراغ داخل النفق. ثم، بضجيج كالرعد، خرج لسان طويل من اللهب عبر فوهة النفق، مضيئًا أكثر من شمس القارة القطبية الضعيفة الواطئة. أُغلقت البوابة على الفور، وبدأ ضجيج مضخات الهواء في العمل، لإخلاء الهواء المتدفق أثناء فتح الفوهة لثلاث ثوانٍ، وبعدها أصبح المدفع جاهزًا للإطلاق التالي.

رفع الناس أبصارهم لرؤية شهابين صاعدين مخلِّفين وراءهما ذيولًا نارية، حتى اختفيا في السماء الزرقاء العميقة للقارة القطبية الجنوبية.

نظر هوا باي خلفه، فرأى الأرض تتقلص تحت قدميه. تعرَّف على المدينة المجاورة لمحطة النفق، والتي لم تلبث أن بدت بحجم ملعب كرة سلة. تغيَّر لون السماء من الأزرق إلى الأسود، كشاشة تخفت إضاءتها.

لمَّا ألقى نظرة إلى الأسفل رأى القوس الطويل لشبه جزيرة أنتاركتيكا محاطًا بالمحيط، ولهيب طويل يتبعه من سطح بزته شديد السخونة، وتحيطه عباءة رقيقة من النار.

نظر إلى مرشدته البعيدة بثلاثين قدمًا تقريبًا. محاطة هي الأخرى باللهب، ككائن أسطوري. شعر بمقاومة الهواء كأنها يد عملاقة تضغط رأسه وكتفيه بلا رحمة. ومع ازدياد ظلمة السماء

تغلَّبت قوة أكبر على تلك اليد، وبدأ الضغط يتلاشى. ومن تحته رأى القارة القطبية الجنوبية، لا شيء يسعده قدر أنها عادت بيضاء.

وعند الأفق لاحظ انحناءة الأرض واضحة. بدت الشمس كأنها تصعد من حافة الكوكب، تبث ضوءها الباهر في الغلاف الجوي الرقيق. ثم رفع بصره، مرَّة أخرى، فرأى النجوم متلألئة في السماء، لم يرها تلمع بمثل هذا السطوع من قبل.

انطفأ اللهيب المحيط بجسده مع خروجهما من الغلاف الجوي، وطفا الاثنان في سكون الفضاء الشاسع.

شعر هوا باي بخفة كالريشة. بزته مُحكمة الإغلاق، أو بدلته الفضائية، أخف بكثير من ذي قبل، بعدما احترقت طبقتها الخارجية المُشتتة للحرارة أثناء اختراق الغلاف الجوي. الاتصالات التي انقطعت بسبب اضطرابات الغلاف الجوي، عادت الآن.

قالت المرشدة:

- أبطأتنا مقاومة الغلاف الجوي قليلًا، لكننا ما زلنا بسرعة الإفلات. نحن نغادر الأرض. انظر هناك..

وأشارت إلى شبه جزيرة القارة القطبية، التي بدت الآن كنقطة صغيرة. رأى هوا باي ومضة من الضوء عند موضع انطلاق النفق، ثم اندفع شهاب آخر صاعدًا إلى السماء، مخلفًا وراءه ذيلًا ناريًا. ومع خروجه من الغلاف الجوي خفت اللهب واختفى.

- تلك مركبة فضائية أُطلقت للتوِّ من مدفع العالم. ستأتي لالتقاطنا. في كل لحظة هناك خمس أو ست «حمولات» تسير في ماسورة المدفع، تُطلق بفاصل يتراوح بين 8 إلى 10 دقائق.

الصعود إلى الفضاء أصبح سهلًا وسريعًا كركوب المترو. أُطلقت بوتيرة أسرع من ذلك في ذروة الهجرة الصناعية العظمى قبل عشرين عامًا. غالبًا ما تجد أكثر من عشرين سفينة تتسارع عبر الماسورة في وقت واحد، مع فواصل زمنية تتراوح بين دقيقتين أو ثلاث دقائق بين الطلقات. كانت المركبات تنطلق نحو السماء كزخّات نيازك لا تنتهي. كانت مهمة ضخمة، لكنَّ مصير البشرية على المحك. لقد كان ذلك.. مهيبًا!

رأى هوا باي عددًا هائلًا من النجوم المتوهجة، يسهل تميزها على خلفية من نجوم ساكنة، وأدرك أنها أجسام تدور في مدار الأرض. حدَّق جيدًا فرأى أشكالها: بعضها حلقي، وبعضها دائري، وبعضها الآخر يبدو كمركَّبات غير منتظمة الشكل، أشبه بجواهر في سواد الفضاء العميق.

قالت المرشدة مشيرة إلى جسم حلقي متوهج:

- ذلك هو مجمع باوشان للحديد والصلب[1].

وأشارت إلى أجسام أخرى:

- تلك تابعة لسينوبك[2]، لكنها لم تعُد تعمل بالنفط، أما الأسطوانية فهي للاتحاد الأوروبي للمعادن. وهناك محطات الطاقة

(1) باوشان: واحد من أكبر وأهم شركات صناعة الصلب في الصين والعالم. يقع مجمعها الرئيسي في مدينة شنجهاي.

(2) سينوبك: واحدة من أكبر شركات النفط والغاز والبتروكيماويات في العالم، وغالبًا ما تحتل مراتب متقدمة جدًا في قائمة Fortune Global 500 لأكبر الشركات حول العالم من حيث الإيرادات. هي اختصار لـ China Petrochemical Corporation، أي المؤسسة الصينية للبتروكيماويات. مقرها بكين.

الشمسية تجمع الطاقة الشمسية وتبثها إلى الأرض باستخدام الموجات الميكروية. ما تراه يتوهج هو فقط مراكز التحكم؛ أما الألواح ومصفوفات النقل فلا تُرى من هنا.

انبهر هوا باي بالمشهد. نظر إلى الكوكب الأزرق الأخضر، فغرقت عيناه بالدموع. أحسَّ بحب عارم لكل من شارك، حيًا أو ميتًا، في مشروع عتبة أنتاركتيكا. تمنَّى لو أنَّ بإمكان الجميع رؤية هذا المشهد، وخصوصًا واحدة.. فتاة معينة، ستبقى شابة إلى الأبد في قلبه.

سأل بصوت متهدِّج:

- هل وجدوا حفيدتي؟

ردَّت بهدوء:

- لا.. لا نملك التقنية لإجراء مسح بعيد المدى في النواة. منطقة البحث شاسعة، ولا أحد يعلم أين حملها تيار الحديد والنيكل.

قال:

- هل يمكننا إرسال هذه الصورة إلى النواة عبر بث نيوتريني؟

أجابت:

- نفعل ذلك الآن. وأعتقد أنها ترى كل هذا.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الأرض التائهة

يجد قارئ الرواية نفسه في قلب ملحمة كونية، حيث تتحوّل الأرض، بكل ما تحمله من بشر وتاريخ وحضارة، إلى مركبة فضائية عملاقة تخرج من مدارها بحثًا عن النجاة. هذه الفرضية، التي تبدو للوهلة الأولى أقرب إلى المستحيل أو الخيال المفرط، سرعان ما تتحوّل على يد ليو تسي شين إلى بناء منطقي قائم على أسس علمية دقيقة، لكنه في الوقت نفسه مفعم بالبُعد الرمزي والإنساني.

المثير في «الأرض التائهة» أنها، على الرغم من طابعها الكوني، تظل رواية عميقة الجذور في الثقافة الصينية، فهي تحمل في طيّاتها ذلك الحس الجمعي الذي يميز الفكر الصيني، حيث يتقدم البقاء الجماعي على الرغبات الفردية. هذا البُعد يجعلها رواية ذات خصوصية، فهي لا تذوب في النموذج الغربي للخيال العلمي، بل تقدم بديلاً مختلفًا، فيه من الفلسفة الشرقية بقدر ما فيه من العلم الحديث.

هذه ليست رواية خلاص ساذج، بل رواية عن ثمن النجاة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

بيت الحكمة للثقافة
174 شارع التحرير - ميدان التحرير - القاهرة
ت: 20223936038+ 201030328888+
info@baytelhekma.com
www.baytelhekma.com